الأدب والنقد والحكمة العربية
في عصر ما قبل الإسلام
(العصر الجاهلي)

الأدب والنقد والحكمة العربية
في عصر ما قبل الإسلام
(العصر الجاهلي)

المجلد الثاني

المؤلف
حسين علي الهنداوي

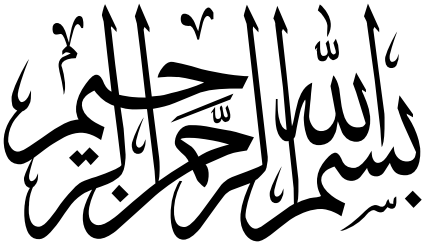

ترجمة صاحب الموسوعة

حسين علي الهنداوي

أ- أديب وشاعر وقاص ومسرحي وناقد وصحفي

ب- له العديد من الدراسات الأدبية والفكرية

ج- نشر في العديد من الصحف العربية

د- مدرس في جامعة دمشق - كلية التربية - فرع درعا

هـ- ولد الأديب في سوريا - درعا عام ١٩٥٥ م

و- تلقى تعليمه الابتدائي والإعدادي والثانوي في مدينة درعا

ح- انتقل إلى جامعة دمشق كلية الآداب - قسم اللغة العربية وتخرج فيها عام ١٩٨٣

ك- حائز على إجازة في اللغة العربية

ص- حائز على دبلوم تأهيل تربوي جامعة دمشق

ع- عمل محاضراً لمادة اللغة العربية في معهد إعداد المدرسين - قسم اللغة العربية في مدينة درعا

ف- انتقل إلى التدريس في المملكة العربية السعودية عام (١٩٩٤ / ٢٠٠٠) في مدينتي عنيزة وتبوك.

- عضو اتحاد الصحفيين العرب

- عضو اتحاد كتاب الانترنت العرب

- عضو تجمع القصة السورية

- عضو النادي الأدبي بتبوك

الصحف الورقية التي نشر فيها أعماله:

١- الكويت (الرأي العام - الهدف - الوطن)

٢- الإمارات العربية (الخليج)

٣- السعودية (الرياض - المدينة - البلاد - عكاظ)

٤- سوريا (تشرين - الثورة - البعث - الأسبوع الأدبي)

المجلات الورقية التي نشر فيها أعماله:

١- مجلة المنتدى الإماراتية

٢- مجلة الفيصل السعودية

٣- المجلة العربية السعودية

٤- مجلة المنهل السعودية

٥- مجلة الفرسان السعودية

٦- مجلة أفنان السعودية

٧- مجلة السفير المصرية

٨- مجلة إلى الأمام الفلسطينية

مؤلفاته:

أ- الشعر:

١- هنا كان صوتي وعيناك يلتقيان/ ١٩٩٠

٢- هل كان علينا أن تشرق شمس ثبير/ ١٩٩٤

٣- أغنيات على أطلال الزمن المقهور / ١٩٩٤

٤- سأغسل روحي بنفط الخليج / ١٩٩٦

٥- المنشّى يسلم مفاتيح ايلياء/ ١٩٩٦

٦- هذه الشام لا تقولي كفانا / مخطوط

ب- القصة القصيرة:

شجرة التوت / ١٩٩٥

ج - المسرح:

١- محاكمة طيار / ١٩٩٦

٢- درس في اللغة العربية / ١٩٩٧

٣- عودة المتنبي / مخطوط

٤- أمام المؤسسة الاستهلاكية / مخطوط

د - النقد الأدبي:

١- محاور الدراسة الأدبية ١٩٩٣

٢- النقد والأدب / ١٩٩٤

٣- مقدمتان لنظريتي النقد والشعر / مخطوط

٤- أسلمة النقد الأدب

هـ - الدراسات الدينية:

١- الإسلام منهج وخلاص - الجزء الأول

٢- الإسلام منهج وخلاص - الجزء الثاني

٣- الإسلام منهج وخلاص - الجزء الثالث

٤- فتاوى واجتهادات / جمع وتبويب

٥ - هل أنجز الله وعده؟

الصحف الالكترونية التي نشر بها:

١ - قناديل الفكر والأدب

٢ – أنهار الأدب

٣ – شروق

٤ – دنيا الوطن

٥ – ملتقى الواحة الثقافي

٦ – تجمع القصة السورية

٧ – روض القصيد

٨ – منابع الدهشة

٩ – أقلام

١٠ – نور الأدب

مقدمة

أدب ما قبل الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبع هداهم إلى يوم الدين، وبعد:

يمثل الأدب في عصر ما قبل الإسلام، أو ما يسمّى بالأدب الجاهلي نقطة البدء في مسيرة أدبنا العربي والإسلامي، الذي يعد الحاضنة التي تمترس فيها تراثنا القديم، فقد كشف لنا هذا الأدب ما خلفه العرب في هذه الفترة عن عبقرية متفردة تمثلت في نماذج الشعر الجاهلي، التي لم تشبع درساً وتحليلاً من خلال جاذبيتها السحرية في تطويع الكلمة لرسم صورة البيئة الجاهلية بمعطياتها الاجتماعية والثقافية، والتي جعلت من الشعر العربي الركية البارة في هذا العصر الذهبي للأدب العربي، والعصر الجاهلي بالرغم من كونه غير محدد المعالم الزمانية، والثقافية، والبيئية بين جاهلية أولى وثانية، إلا أنه بالصورة العامة بقي الإطار الحقيقي لحياة العرب إبّان ذلك العهد وتلك الفترة، وصورة لصراعاتهم القبلية حول حماية المراعي ومواطن الكلأ والماء، أو هجرانهم بسبب شحّ المطر وزحف الرمال وتصحر الأرض.

لقد كان الشاعر الجاهلي يمثل في قبيلته ذي الوزارتين؛ وزارة الإعلام ووزارة الخارجية، فهو المدافع عن قبيلته داخلياً وخارجياً، فكم من شاعر رفع من مكانة قبيلته بين القبائل، بسبب رفعه كلمته، فهو يدافع عن أعراض القبيلة بلسانه وشعره.

يـــدافع عـــن أعراضـــكم بلســـانه ويـــدفع عـــنكم بالحســـام المهنـــد

والمطّلع على السياسة الاجتماعية للإنسان الجاهلي فرداً وجماعة، يكتشف مدى قدرة العلاقات القبلية على مواكبة سياسة الصحراء، فالعربي في تلك الفترة عشق حياة الخيمة، وتمسّك بمعادلة الرمال، وحديث الخيل والجمال والطرد، فما زالت صخرة عنترة التي يجلس

عليها في منطقة (الجواء) قائمة، وقد عرفتها عند إقامتي في مدينة عنيزة في إحدى مدارسها عام ١٩٩٤– ١٩٩٥، إلى اليوم مثلما هي محاورته لحصانه في معلقته الشهيرة:

لـو كـان يـدري مـا المحـاورة اشـتكى ولكـان لـو عـرف الكـلام مكلمـي

كما أن ناقة طرفة بن العبد ما تزال هي الناقة المفضلة عند العرب بسماتها التي وسمها بها طرفة، وهي خالدة خلود معلقته.

والعجب العجاب أن سرَّ الجمال في هذه المعلقات ما زال مستتراً في منطق التحليل، يقرؤها كل جيل، فيعجب بها أيما إعجاب، وقد ترجمت إلى اللغات الأخرى فتلقت الترحيب، وأشير إليها بالبنان، وهذا زهير بن أبي سلمى (رسول السلام) يؤكد لنا كلمته التي قالها في الحرب معاني المحبة والسلام.

ومـا الحـرب إلا مـا علمـتم وذقـتم ومـا هـو عنهـا بالحـديث المـرجَّم

ولتبقى كلمته هذه بقاء معلقته الشهيرة.

إن الكثير من القراء للأدب العربي القديم، أدب ما قبل الإسلام الأدب الجاهلي يظن أن هذا الأدب لا يخرج عن مكونات المدح والهجاء، مع أنه صورة حقيقية للحياة الجاهلية بكل أبعادها النفسية، والاجتماعية، والإنسانية، ولقد وجدت من خلال معايشتي لهذا الأدب قراءة ودرساً وتدريساً أنه حقق، وبكل صدق وواقعية روح الحياة (فالبداوة حضارة تمثلها الشعر الجاهلي، كما هي بلحمها وعظمها وشحمها؛ ذلك أن صحراءنا أفرزت قيماً تتناسب وواقعية الحياة الجاهلية والإنسان الجاهلي، ولا أدل على ذلك من إعجاب الرسول عليه الصلاة والسلام بكثير من شعراء الجاهلية وبواقعيتهم، وحكمتهم التي ما تزال تبذّ إعجاب القارئين، وتنتزع حب الاطلاع عند المتشوقين لمعرفتها من خلال حكمة فطرية.

ومهـما تكـن عنـد امـرئ مـن خليقـة وإن خالهـا تخفـى عـلى النـاس تعلـم

إن أنفة العربي في العصر الجاهلي ومقته للخضوع لسلطان الآخرين جعل من هذا الشعر يمثل مجموعة كبيرة من القيم الإيجابية، التي قال في حقها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وإن كان هناك قيم سلبية فرضتها خشونة الصحراء

الصحراوية، وقسوة الرمال وقلة الأمطار، التي لم تترك لبعض الصحراويين مجالاً في الحصول على أرزاقهم وطعامهم من الطرق الفطرية السليمة.

وأكثر ما يلفت الانتباه في ذات البدوي هذا الالتصاق بينه وبين القبيلة، وهذا الولاء الأعمى لها:

وما أنا إلا من غزيّة أن غوت غويت وأن ترشد غزيّة أرشد

حتى حياة الصعاليك الجاهليين كانت أعجوبة الأعاجيب، فهم لغز أحاسيسهم الشعرية يألفون الطيور والوحوش أكثر من إلفهم لأخيهم الإنسان الذي صار من وجهة نظرهم هو الوحش في حياة تسيطر عليها شريعة الغاب أحياناً، ولله درُّ القائل:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذْ عوى وصوّت إنسانٌ فكدت أطير

نعم، ما أعجبها من حياة! نصادف فيها الذئاب أكثر مما نصادف الإنس، والأعجب من ذلك هذا البكاء المر على أطلال المحبوبات والتي قد يقف عليها الشاعر الجاهلي بعد عشرين سنة يمر بها، فيخاطب أهلها وكأنهم حاضرون فيها، على الرغم من أنها أقفرت من أهلها.

أمن أم أوفى دمنة لم تكلّمِ بحَوْمانة الدّراج فالمتثلم
وقفت بها من بعد عشرين حجة فلأياً عرفت الدّار بعد توهُّمِ
فلما عرفت الدار قلت لأهلها ألا انعمْ صباحاً أيها الربع واسلم

لا أريد أن أختزل أدب عصر بكامله بمقدمة بسيطة غايتها أن تكون مدخلاً لهذا الأدب تعرف به، وترسم معالمه بقدر ما أريد أن أتمم لوحة سحرية لشعر ما زال خالداً حتى يومنا هذا، وأن أعرّف بفنون الأدب الأخرى. ولقد عكس لنا هذا الأدب بشعره ونثره صورة اللوحة الصحراوية، وما ارتسم على رمالها من مبادلات، وعلاقات اجتماعية، وإنسانية فائقة؛ وإذا كان الشعر قد عكس صورة الحياة الجاهلية، فإن النثر سواء أكان خطابة، أم وصايا، أم منافرات، أم مناظرات، قد أطّر لهذه الحياة، واستكمل عناصر اللوحة الجاهلية التي مثلت تراث الأمة قبل نزول القرآن الكريم.

إن صورة الأدب الجاهلي بمفهومه البيئي قد أعطتنا وبدقة روح الإنسان المتشوق لبناء حياة إنسانية نسيجها القيم بلغة فخمة جزلة، وأسلوب مشرق واضح لا غموض فيه جعل الأديب الجاهلي أكبر معماري لفن الكتابة على مر العصور.

حسين علي الهنداوي
سوريا - درعا

الباب الأول

وشائجية المكان والإنسان واللغة

الباب الأول

الفصل الأول

العمق التاريخي للعرب

ليست هناك نصوص تتوغل في التاريخ، بحيث تشير إلى أكثر من قبيلة، جُرْهُم التي جاورتها السيدة هاجر وابنها إسماعيل عليه السلام في مكة، بحيث تكلمت اللغة العربية وتعلم إسماعيل عليه السلام هذه اللغة من هذه القبيلة. ويظهر أن المعنى الحقيقي للفظ "عرب" هو صحراء، وقد كان أهل التاريخ القديم يقصدون بالأعراب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب، وشرقي وادي النيل في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب؛ وينقسم العرب إلى قسمين عظيمين، أو طبقتين كبيرتين الطبقة الأولى، هي العرب البائدة، ويريدون بها القبائل التي هلكت، ودرست آثارها وانقطعت أخبارها، وهي عندهم تسع (عاد، وثمود، وطسم، وجديس، وأميم، وعبيل، وجرهم، وحاسم، وعمليق)، وأشهرها الأربعة الأول، ويسمونها العاربة؛ أما الطبقة الثانية، فهي العرب المتعربة أو المستعربة، وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم، ويذهب بعضهم إلى تقسيم العرب إلى عاربة وبائدة، وهم (عاد وطسم وثمود وجديس)، وتسمى قحطان عرباً متعربة، وعدنان عرباً مستعربة؛ وقد كان موطن شعب قحطان بلاد اليمن، وهو ينسب إلى قحطان بن عابر بن شالح، الذي يقال أنه أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج، وأطلق على نسل قحطان اليمنيين أو القحطانيين، بينما أطلق على نسل إسماعيل بن إبراهيم العدنانيين، أو النزاريين، وصار هذان اللفظان يرادفان عرب الجنوب وعرب الشمال. وخلف قحطان- جد أعراب الجنوب- ابنه يعرب الذي يقال أنه أول من اتخذ العربية لساناً، ولقبه الشعراء "رب الفصاحة"، قال بعضهم:

فما مثل قحطان السماحة والندى ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

ومن هنا أطلق على القحطانيين العرب المتعربة، أما العدنانيون، فيقال لهم العرب المستعربة، وهم جمهور العرب البدو، والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب، وبلاد

الحجاز إلى بادية الشام. وكان أهل الجنوب يعيشون عيشة قرار، أما أهل الشمال فغلبت عليهم البداوة والارتحال. ولقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال في إنشاء حضارة خاصة، بينما كان معظم الشماليين يعيشون في بيوتهم التقليدية المصنوعة من الشعر، ويتنقلون من مكان إلى آخر طلباً للعيش والحياة، ولم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمي إلا بظهور الإسلام الذي تعتبر أرضهم مهدَه الأول، وكان العداء مستحكماً بين العدنانيين والقحطانيين منذ القدم حتى أن كلاً منهم اتخذ لنفسه شعاراً في الحرب يخالف الآخر، فاتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر والرايات الصفر. ولاشك أن الحصول على وثائق حقيقية، وكاملة حول التاريخ القديم للأمم السابقة عسير جداً، ولكنا لو رحنا نستجلي مقاربات حول تاريخ هذه الأمم لوجدنا أن هناك حقائق يمكن الاستناد إليها في فهم شذرات من مسيرة هذه الشعوب والمستقرئ لصفحات التاريخ يرى أن الوثائق القديمة المكتوبة، والمنقوشة حول العرب قد أوردت أخباراً قليلة بما لا يتجاوز القرن التاسع قبل الميلاد في الحديث عن الحميريين، والسبئيين، والمعنيين، وقد تفرع عن هؤلاء شعوب سكنت بلاد الشمال والعراق وشمال إفريقيا كالآكاديين والبابليين والآراميين والفينيقيين والآشوريين والسومريين، وقد كانت هذه الشعوب تشترك بجذور المفردات والضمائر، والأسماء والأعداد، وأعضاء الجسم، وتسمى كل هؤلاء بالشعوب السامية. وأقدم نص آشوري تحدث عن كلمة عرب كان أيام الملك شلمنصر الثالث ويعني (العرب يساوي البداوة أو المشيخة). وفي الآثار البابلية وردت كلمة "ماتوا أدبي" وتساوي الأعراب أو البادية. وعند اليونان تحدث هيروديت عن العرب، وبلادهم التي تضم البادية وطور سيناء. وفي اللغة العربية المعتمدة على النصوص العربية، وردت كلمة أعرب بمعنى أعراب، فقد دلت كلمة عرب على المعاني التالية: عرب: ظهر وبان ووضح. الإعراب: الإفصاح والإبانة. العربي: شعير أبيض. العرب: النشاط والماء الكثير والصافي، سواء أكان من النهر أم من البئر. وفي القرآن الكريم: المرأة العروب: المتحببة إلى زوجها، ووردت كلمة عربي إحدى عشرة مرة نعتاً للغة القرآنية، وللرسول محمد عليه السلام، ولم تتعدَ هذه الكلمة نقطة التبدي.

الباب الأول

الفصل الثاني

القيم الإيجابية والسلبية للعرب الجاهليين

لا ينفك الإنسان منذ أن سكن الأرض وهو يبحث عن استقراره، المتعلق بوجود قيم خيِّرة سامية يحقق من خلالها وجوده الحق، ولكن مسيرة الإنسان المتعثرة جعلته بفضل مصالحه يتخذ القيم السلبية مطية له، وبذلك نشأ الصراع بين قيم الخير والشر، وما يزال هذا الصراع قائماً إلى يومنا هذا، والعرب كغيرهم من الأقوام عايشوا صراع القيم، وتناوبت حياتهم بين بحث عن قيم الخير، وجنوح إلى قيم الشر، فتقاسمتهم قيم الخير وقيم الشر تبعاً للحالة البيئية التي عاشوها، وبالرغم مما ظهر في شعر الجاهليين من قيم سلبية فرضتها ظروف الحياة والبيئة، فإن صورة الإنسان العربي تبقى متجلية فيها مشرقة تنزع إلى المثل السامية، وتتعلق بالحق والخير والحفاظ على العهود، والتضحية في سبيل الآخرين؛ ذلك أن القيمة مفهوم اجتماعي لما يعد مرغوباً فيه من الناس، من الأهداف ومعايير الحكم، ولاشك في أن مجموعة القيم التي يؤمن بها فرد من الأفراد، وجماعة من الجماعات تكوّن نظرة هذا الفرد، أو تلك الجماعة في الحياة، والقيم قد تكون صريحة حين ينصُّ عليها، أو يشار إليها بوضوح، وقد تكون ضمنية يستدل عليها من سلوك الأفراد أو الجماعات؛ فالقيم السلبية هي كل مفهوم غير مرغوب فيه من الناس، أو سلوك مرفوض من الشرائع السماوية، أو من الناحية الاجتماعية؛ ويتجلى في الشعر الجاهلي الصراع بين القيم الايجابية والسلبية... بين صوت العاطفة المندفعة ونداء العقل المتزن في الحرب والسلم، والثأر والتسامح، والثورة على الظلم والاستسلام للأقوياء، ومقاومة النفوذ الأجنبي، وغير ذلك.

وقد تمتّع هؤلاء العرب بمجموعة من القيم الإيجابية، كالمروءة، والوفاء، والعزة، والنبل، والكرم والشجاعة، والبطولة، كما سيطرت عليهم قيم سلبية تتمثل في التعصب القبلي، والاعتماد في الرزق على الإغارة، وحيازة ميراث المرأة مالاً ونفساً، والوأد والثأر، والخلف في

العهود، وشرب الخمرة، ولعب الميسر والقمار، والذبح على النصب، وعبادة الأوثان، وجميعها تنطلق من البيئة الصحراوية التي تفرض ما يتناسب مع واقعها. فقد كان عنترة مثلاً يجمع بين القيم الإيجابية والقيم السلبية في حياته ومعاملته، فهو يحترم جاراته ولا يتلصّص عليهنّ، ولا يختلس النظر إليهنّ، وهذه قيمة إيجابية بينما تجده في الجهة الأخرى لا يخجل من شرب الخمرة؛ إذ يعتبرها من مقتضيات الرجولة والشهامة:

أَثْنِي عَلَيَّ بِما عَلِمْتِ فَإِنَّني ... سَمْحٌ مُخَالَقَتي إِذا لَمْ أُظْلَمِ
وَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ ... مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ
ولَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المَدَامةِ بَعدمَا ... رَكَدَ الهواجِرُ بالمُشُوفِ المُعَلَمِ
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ في الشَّمالِ مُفَدَّمِ
فَإِذا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالي وعِرْضِي وافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وإِذا صَحَوْتُ فَما أُقَصِّر عن نَدًى ... وكما عَلِمْتِ شَمَائِلي وتَكَرُّمِي

وهذا طرفة بن العبد يعدّ الخمرة والتمتع بالمرأة من صفات الرجولة والفتوة، مع أن ذلك من القيم السلبية التي تحاربها القيم الإسلامية والحضارات المتمدنة، ويقرن مع هذه القيم السلبية قيمة إغاثة الصريخ، وهي قيمة إيجابية تدل على مدى ما بلغ العرب من التعاون الإنساني.

ولَولا ثَلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الْفَتى ... وَجِدِّكَ لم أَحفِلْ مَتى قامَ عُوّدي
فَمِنْهُنّ سَبْقِي الْعاذِلاتِ بِشَرَبَةٍ ... كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ
وَكَرِّي إِذَا نَادَى المُضافُ مُحَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضا نَبَّهْتَهُ المُتَوَرِّدِ
وَتقصيرُ يوم الدَّجنِ والدجنُ مُعجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِباءِ المعَمَّدِ

ولو رحنا نستعرض ما للجاهليين من قيم متنافرة لاحتجنا إلى بحث مستقل، ولكننا ستحط بنا طائرة القيم الإيجابية في مطار زهير بن أبي سلمى الشعري، الذي جعل من القيم الإيجابية ديدنه الحياتي، ومنهج دعوته للخير والصلح، والتآلف بين القبائل، وذلك لعلاقته الجذرية بالحنيفية السمحاء التي كان عليها أبونا إبراهيم الخليل عليه السلام:

سَـئِمْتُ تَكـالِيفَ الحَيَـاةِ وَمَـنْ يَعِـشْ ... ثَمانِـينَ حَـولاً لا أَبـا لَـكِ يَسـأمِ

وَأَعْلَـمُ مَـا فِي اليَـوْمِ وَالأَمْـسِ قَبْلَـهُ ... وَلكِنَّنـي عـن عِلْـمِ مَـا فِي غَـدٍ عَـمِ

رَأَيْـتُ المَنايَـا خَـبْطَ عَشْـوَاءَ مَـن تُصِـبْ ... تُمِتْـهُ وَمَـنْ تُخْطِـئْ يُعَمَّـرْ فَيَهْـرَمِ

وَمَـنْ لا يُصـانِعْ فِي أُمُـورٍ كَثِـيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَـابٍ وَيُوطَـأْ بِمَنْسِـمِ

وَمَـنْ يَجْعَـلِ المعْـروفَ مِـن دُونِ عِرْضِـهِ ... يَفِـرْهُ وَمَـنْ لا يَتَّـقِ الشَّـتْمَ يُشْـتَمِ

وَمَـنْ يَـكُ ذا فَضْـلٍ فَيَبْخَـلْ بفَضـلِهِ ... عـلى قَوْمِـهِ يُسْـتَغنَ عنْـهُ وَيُـذْمَمِ

وَمَـنْ يُـوفِ لا يُـذْمَمْ وَمَـن يُهـدَ قلبُـهُ ... إِلى مُطْمَـئِنِّ الـبِرِّ لا يَـتَجَمْجمِ

وَمَـنْ هَـابَ أَسْـبَابَ المَنَايَـا يَنَلْنَـهُ ... وَإِنْ يَـرْقَ أَسْـبَابَ السَّـمَاءِ بِسُـلَّمِ

وَمَـنْ يَجْعَـلِ المَعْـرُوفَ فِي غَـيْرِ أَهْلِـهِ ... يَكُـنْ حَمْـدُهُ ذَمّـاً عَلَيْـهِ وَيَنْـدَمِ

وَمَـن يَعْـصِ أَطْـرَافَ الزِّجـاجِ فإِنَّـهُ ... يُطيـعُ الْعَـوالِي رُكِّبَـتْ كـلَّ لُهْـذَمِ

وَ مَـنْ لَمْ يَـذُدْ عَـنْ حَوْضِـهِ بِسِـلاحِهِ ... يُهَـدَّمْ وَمَـنْ لا يَظلـمِ النّـاسَ يُظلَـمِ

وَمَـنْ يَغْـتَرِبْ يَحْسِـبْ عـدُوّاً صَـدِيقَهُ ... وَمَـنْ لَمْ يُكَـرِّمْ نَفْسَـهُ لم يكَـرَّمِ

وَمَهْـمَا تَكُـنْ عِنْـدَ امْـرِئٍ مِـنْ خَلِيقَـةٍ ... وَإِنْ خَالَهَـا تَخْفَـى عـلى النّـاسِ تُعْلَـمِ

وكـائنْ تَـرَى مـن صـامِتٍ لَـكَ مُعْجِـبٍ ... زِيَادَتُـهُ أَوْ نَقْصُـهُ فِي الـتَّكَلّمِ

لسـانُ الفَتَـى نِصْـفٌ وَنِصْـفٌ فـؤَادُهُ ... فلَـمْ يَبْـقَ إِلا صـورَةُ اللَّحْـمِ والـدَّمِ

وَإِنَّ سَـفَاهَ الشَّـيْخِ لا حِلْـمَ بَعْـدَهُ ... وَإِنَّ الفَتَـى بَعْـدَ السَّـفَاهَةِ يَحْلُـمِ

سـأَلْنا فَـأَعْطَيْتُمْ وَعُـدْنَا فَعُـدْتُمْ ... وَمَـنْ أَكْثَـرَ التّسـآَلَ يومـاً سَـيُحْرَمِ

الباب الأول

الفصل الثالث

صورة العرب في المصادر الدينية والتاريخية

أ – ورد ذكر العرب في القرآن الكريم من خلال وصف القرآن بأنه عربي، وبوصف قبائل الأعراب المنافقة: قال تعالى: (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون). جاءت في العربية آياتٌ محكماتٌ تذكر بالذات العربية، وتدلل عليها، ففي سورة الرعد: (وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم ما لك من الله من وليٍّ ولا واقٍ) (٣٧). وفي سورة يوسف: (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (٢). وفي سورة الزمر: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كلِّ مثلٍ لعلهم يتذكرون (٢٧) قرآناً عربياً غير ذي عوج لعلهم يتقون) (٢٨)". وفي سورة فصلت: (تنزيلٌ من الرحمن الرحيم (٢) كتابٌ فصلت آياته قرآناً عربياً لقومٍ يعلمون) (٣). ومن جديد في سورة فصلت: (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجميٌّ وعربيٌّ قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاء...) (٤٤). وفي سورة الشعراء: (نزل به الروح الأمين (١٩٣) على قلبك لتكون من المنذِرين (١٩٤) بلسانٍ عربيٍّ مبين) (١٩٥). وفي سورة الشورى: (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها...) (٧). وفي سورة الزخرف: (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (٣).

وفي سورة الأحقاف: (... وهذا كتابٌ مصدقٌ لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) (١٢). وفي سورة طه: (وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً) (١١٣). وفي سورة النحل: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشرٌ لسان الذين يلحدون إليه أعجميٌّ وهذا لسانٌ عربيٌّ مبين) (١٠٣). ولا أزعم الإحاطة بكل ما يرتبط بالعربية والعروبة أعلاه، ولكن الأمثلة السابقة تثبت أن: ١) الوحي نزل بالعربية، ٢) لأم القرى ومن حولها أولاً، أي لمكة والعرب حولها، ومن غيرهم لباقي العالمين، ٣) بلغة عربية فصيحة لا تشوبها شائبة، ٤) من أجل إنذار وهداية العرب بلغةٍ يفهمونها، لا بلغة

غريبة عنهم، أي أنه ارتبط منذ البداية باللسان العربي. فهذا تكريم كبير للعرب والعربية، ومسؤولية تهد الجبال، ولكن (إنما أنت منذرٌ ولكل قومٍ هاد) (الرعد، الآية ٧)، (وإنه لذكرٌ لك ولقومك)(الزخرف، الآية ٤٤)، بالإضافة لعدد من الآيات الأخرى التي تتوجه لقوم الرسول الأمين أو تتوجه للرسول، عليه الصلاة والسلام، لتحدثه عن قومه، فليس هناك أي شيء على الإطلاق في القرآن يرفض فكرة وجود قوميات وشعوب، كما هو معروف. ومن بين هذه القوميات العربية، حيث كان موقف الإسلام إيجابياً من العروبة، دون جاهلية، أو عصبية، أو عنصرية، ضد الأمم الأخرى، ولكنه ميز العروبة بالتخاطب بها، وبتبني لغتها وبتحميل الرسالة والأمانة لقومها، وبأن الإسلام جاء امتداداً طبيعياً لتراثها المتأصل في الحنيفية التي ينتسب إليها سيدنا إبراهيم، وما كان التأكيد على أن إبراهيم كان مسلماً حنيفاً؛ إلا للتأكيد على انتمائه الحضاري الأصيل، والحنيفية ملَّة أصيلة في الحجاز. ويتخذ بعضهم غرضاً ما جاء في الآية ٩٧ من سورة التوبة من أن (الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً وأجدرُ ألا يعلموا حدودَ ما أنزل الله...) ذريعة للتهجم على العرب زوراً باسم الإسلام، ولزرع إسفينٍ بين العروبة والإسلام، ولكن هذا المنطق الشعوبي يعاني من مشكلتين مترابطتين هما:

١ - الجهل باللغة العربية.

٢- الجهل بالقرآن فكلمة الأعراب تعني البدو، لا كل العرب، والمقصود في تلك الآية بالذات ليس كل البدو، بل بعض المنافقين منهم، والآيات اللاحقة فوراً لما سبق تتحدث عن البدو المؤمنين: (ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قرباتٍ عند الله...) (التوبة، الآية ٩٩)، ويتكرر الأمر مرتين بعدها في السورة نفسها بالحديث عن المنافقين من الأعراب، ثم الذين تابوا وآمنوا.

إذن، لا مبرر على الإطلاق لمعارضة الإسلام بالعروبة أو العروبة بالإسلام، إلا إذا كانت العروبة جاهلية، أو كان فهم الإسلام شعوبياً مشوّهاً، والفهم الشعوبي للإسلام يستخدم دوماً للسيطرة على العرب والمسلمين من الخارج، ولتخريب علاقتهم بعضهم ببعض.

ب – وورد ذكر العرب في الحديث النبوي الشريف، قال صلى الله عليه وسلم: "أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي".

ج – وورد ذكر العرب في الأدب الجاهلي من خلال كتب:

١ – الأصمعيات لعبد الملك بن قريب الأصمعي، وهي مختارات شعرية فيها شعراء من العصر الجاهلي.

٢ – المفضليات للمفضل الضبي، وهي مختارات شعرية فيها شعراء من العصر الجاهلي.

٣ – المعلقات، أو المذهبات، وهي سبع قصائد أو عشر كانت تعلق على أستار الكعبة المشرفة.

٤ – كتاب الحماسة للشجري.

٥ – كتاب الحماسة للبحتري.

٦ – كتاب الحماسة لأبي تمام.

٧ – دواوين الشعراء الجاهليين.

٨ – وورد ذكر العرب في:

أ – كتب اللغة والمعاجم.

ب – كتاب فقه اللغة للثعالبي.

ج – كتاب المخصص لابن سيده.

د – لسان العرب لابن منظور.

ه – والقاموس المحيط للفيروز أبادي.

د – وورد ذكر العرب في كتب التاريخ والأدب والجغرافيا:

أ – كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.

ب – كتاب الأغاني للأصفهاني.

وغير ذلك من الكتب التي تحدّثت عن أخبار العرب.

الباب الأول

الفصل الرابع

جغرافية شبه الجزيرة العربية وثرواتها

شبه الجزيرة العربية الموقع والحدود والثروات

هي أكبر شبه جزيرة في العالم تبلغ مساحتها أكثر من مليون ميل مربع بقليل تحيط بها المياه من ثلاث جهات تقع جنوب غرب آسيا يحدها من الشرق الخليج العربي، ومن الجنوب بحر العرب، ومن الغرب البحر الأحمر، ومن الشمال خليج العقبة حتى مصبّ شط العرب، وهي محاطة بالرمال والصحارى من كلّ جانب، وهي ملتقى قارات العالم؛ مما جعلها مهبطاً للأمم، ومركزاً لتبادل التجارة والثقافة، والديانة، والفنون، ومهداً للنبوات.

فهي أرض مرتفعة في الغرب تسيطر على السواحل الضيقة تكون سلاسل من المرتفعات تبدأ من اليمن حتى أطراف بادية الشام، وفي الشرق تنحدر الأرض تدريجياً وطويلاً، وفي الأقسام الجنوبية سلاسل من الجبال تسيطر على المنخفضات الساحلية تتصل بسلسلة جبال اليمن، ثم جبال الأخضر في عُمان، وفي وسط الجزيرة هضبة نجد فيها جبل شَمّر وأجأ وسلمى، مع وجود منابع عدة للحياة، وأغلب أرض الجزيرة بوادٍ وسهول صحراوية، أما القسم الغربي منها فاسمه الأحقاف منطقة رمال اقترن اسمها بقوم (عاد).

ولا يوجد في الجزيرة أنهار كبيرة، ويغلب الجفاف عليها لقلة سقوط الأمطار، ومن وديانها (وادي الرمة – وادي الحمض – وادي إضم – وادي السرحان).

وفيها عدد من البحيرات والعيون والآبار، وأهم الواحات فيها (بيشه)، وتقسم شبه الجزيرة العربية بحسب تضاريسها إلى:

١ – بلاد اليمن: وتضم حضرموت، وعمان، وصنعاء، وظفار، ومأرب.

٢ – الحجاز: وتضم مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والطائف.

٣ – تهامة: وتقع بين اليمن، والحجاز.

٤ – نجد: وتضم ما سمي بمنطقة القصيم.

٥ – اليمامة: صحراء بين نجد، والبحرين.

وتحتوي الجزيرة العربية على مجموعة هائلة من الثروات الباطنية هي:

البترول، الذهب، الفضة، الحديد، الرصاص، النحاس، الغاز.

ومجموعة من النباتات: النخيل، التين، الزيتون، الرمان، الحنظل، الآس، الدوم، الطرفاء، الأثل، الشيح، القيصوم، العنب، الطلح.

وعدد هائل من الحيوان: الجمل، الحصان، الحمار، البغل، الشاء، الكلب، القط، الظباء، الحُمُر الوحشية، الوعل، الأرنب، القنفذ، الضب، اليربوع، الجراد، الفهد، الضبع، الذئب، النسر، العقاب، الصقر، الحباري، الهدهد، الغراب، الحمام، اليمام، بالإضافة إلى الحشرات والحيات، والعقارب وسمك القرش.

وأهم المدن فيها مكة المكرمة، وهي مدينة قديمة ذات ثقل ديني منذ بدء الحياة الكونية، فقد بنى فيها آدم عليه السلام أبو البشر جميعاً الكعبة المشرفة، وكذلك إبراهيم عليه السلام أعاد بناءها وزارها الأنبياء جميعاً، والمدينة المنورة حرسها الله، والتي اتخذها النبي محمد صلى الله عليه وسلم عاصمة الدولة الإسلامية، والطائف، وهي مصيف أهل مكة المكرمة، وغيرها من المدن.

الباب الأول

الفصل الخامس

أقسام العرب بحسب سكناهم

يقسم العرب بحسب سكناهم إلى:

أ – العرب البائدة: (عاد، ثمود، طسم، جديس، كيسان).

ب – العرب الباقية: وهم (القحطانيون والعدنانيون). وقد وصفت العرب البائدة بالعرب الخلص، بينما وصفت العرب الباقية بالمستعربة.

وتقسم العرب الباقية إلى قسمين:

١– عرب الشمال: وقد كانوا أصفى أنساباً، وأقل اختلاطاً بالفرس والروم وحياتهم بدوية. وكان موطن عدنان مكة المكرمة، وما جاورها من أرض الحجاز وتهامة، وقد تشعبت بطون هذا الفرع من نزار بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام، ثم هاجرت بعض هذه البطون إلى مواطن الخصب والكلأ... فنزلت ربيعة شرقاً، وأقامت عبد القيس في البحرين، وحذيفة في اليمامة، وأقامت سائر بكر بن وائل ما بين البحرين واليمامة، وعبرت تغلب الفرات، فأقامت في أرض الجزيرة بين دجلة والفرات، وسكنت تميم في بادية البصرة؛ وأما فرع مضر بن معد بن عدنان، فقد نزلت منه سُليم بالقرب من المدينة وأقامت ثقيف في الطائف، واستوطنت سائر هوازن شرقي مكة المكرمة، وسكنت أسد شرقي تيماء إلى غربي الكوفة، وسكنت ذبيان بالقرب من تيماء إلى حوران، وبقيت معيشة هذه القبائل صحراوية بدوية، ولم تهيّئ لهم هذه الحياة الاستقرار إلا في بعض الواحات في الحجاز... ويظهر أن عرب الشمال لم ينجحوا في وحدة سياسية قبل الميلاد، فطبيعة بلادهم تدفعهم إلى التشتت والتفرق.

٢– عرب الجنوب: استوطن عرب الجنوب اليمن وما جاورها، وقد أكثروا من الاختلاط بالفرس والروم وبالأفارقة والهنود، وكانوا أبرع من عرب الشمال في الصناعة

والتجارة، وقـد هاجرت قبائلهم بعد انهيار مأرب عام (١٢٠ق. م) فـسكنت الأزد المدينة، وكان منها الأوس والخزرج، ومنهم من نزل على ماء غسان في الشام، وأسَّسوا إمارة الغساسنة الموالية للروم، أما لخم فقد سكنت الحيرة، واصطفتهم فارس إلى جوارها، وبقي في اليمن كثير من قبائل حِمْيَر، وكِنْدة، وغيرهم.

ويلاحظ أن قبائلهم المهاجرة اختارت غالباً جوار الأمم المتحضرة، ويذكر المؤرخون أن عرب الجنوب كانت لهم قدم راسخة في عمارة القصور والهياكل، وتشييد السدود، وكانوا يؤلِّهون الكواكب والنجوم، وهذه عادة جاهلية جاء الإسلام وحاربها، وقضى عليها.

وأثبتت الرحلات التي استقصت الجزيرة العربية أن خلف صحارى بلاد العرب الجنوبية توجد أراض زراعية، كانت في القديم وطناً لحضارة رفيعة، أكدت أن جودة مناخ اليمن وخصوبة تربته، وغناها، أغرت الإسكندر الأكبر بفتحه، غير أنه أرجأ هذا الفتح إلى ما بعد عودته من حملة الهند، ولكن المنية عاجلته في بابل، فلم يحقق عزمه، ولو أن فريقاً آخر من العلماء المحدثين يرى أن ما نسب إلى اليمن من غنى وفير وخصب قوي مبالغ فيه، وأن معظم الحاصلات التي كان يظن أن بلاد العرب مصدرها في العصور القديمة، إنما كان يجلبها العرب والمصريون، وكانوا يحتكرون التجارة في البحر الأحمر من الهند وسواحل إفريقية الشرقية، وأنهم كانوا يخفون هذا عن جيرانهم، حتى لا يزاحموهم في الحصول عليها من هذه الأنحاء، واصْطُلِح على تسمية سكان هذه المنطقة باسم القحطانيين، أو اليمنيين، أو السبئيين، أو الحميريين تغليباً، أو عرب الجنوب، ويُعنى بهم الذين ينتمون أصلاً إلى اليمن الواقع يمين مكة، وهو الإقليم الذي وجدت فيه الآثار القديمة التي تشير إلى الدول الأربع وشعوبها، وهم: المعنيون والقتبانيون، والحضرميون والسبئيون. ولو أن الأماكن التي وجدت فيها الآثار العربية الجنوبية تمتد إلى ما وراء الحدود الجغرافية لبلاد اليمن؛ فقد وجدت آثار جنوبية في أقصى الجهة الشمالية لبلاد العرب، أي في بلاد مدين القديمة، وأنه في الألف الثاني قبل الميلاد مهّدت بلاد اليمن (بسبب كثرة الأمطار، وخصب الأرض، وصلاحيتها للزراعة) السبيل لظهور مدنية، خلفت وراءها آثاراً ذات مبان ضخمة ونقوش عديدة، وأن قربها من البحر وموقعها الفذّ جعل منها محطاً مهماً لتبادل سلع كثيرة ذات قيمة عالية، ويبدو أن الدولة المعينية

كانت تضم في فترة من تاريخها عدداً من الأقطار العربية الجنوبية، ولو لفترة محدودة من الزمن، كحضرموت ودادان؛ لأن بعض ملوكها كانوا يحملون لقب ملوك معين وحضرموت، وسنجد هذه الدولة مضافة أحياناً إلى ملك السبئيين أو القتبانيين، وقتبان دولة جنوبية لاشك في قيامها، لكنها أكثر دول الجنوب غموضاً، لا يعرف أحد من ملوكها شيئاً، ولا متى قامت على التأكيد، ومن المؤرخين من يعتقد أن تاريخها كان معاصراً لمعين، أو سبأ، أو لهما معاً. أما السبئيون فكانوا أول عرب تخطَّوا عتبة الحضارة، فقد ورد لفظ سبأ في نقش معيني مراداً به قبيلة بدوية كانت تسطو على الطريق التجاري الممتد بين بلاد العرب الجنوبية، ومعان الواقعة في الشمال، وعلى القوافل المعينية المتجهة إلى مصر.

ويمتد العصر السبئي من ٩٥٠ إلى ١١٥ ق. م، وقد ورث السبئيون ممالك أقربائهم الأقدمين، وأقاموا أنفسهم سادة على بلاد العرب الجنوبية، واعتماداً على النقوش، فإن تاريخ سبأ ينقسم إلى مرحلتين، واحدة كان الحاكم فيها يجمع بين السلطتين الدينية والزمنية، ويسمَّى (مكرب)، والثانية اقتصر فيها على السلطة الزمنية، وكان يحمل لقب ملك. ومن بين ملوك سبأ الذين تكشّفت عنهم الوثائق اثنان يستحقان مزيداً من الاهتمام، وهما (سموهو عليا ينب وابنه يطعى أمر بين)، فهما اللذان بنيا سد مأرب، بين أعوام ٦٥٠ و٦٣٠ ق. م، ويرجح أن الأخير هو الذي قضى على دولة المعنيين، وهزم آخر ملوكها. والهمداني، ومن بعده المسعودي، وأبو الفرج الأصفهاني، وياقوت يعتبرون أن باني السد هو لقمان بن عاد، وهو شخصية نصف أسطورية ضائعة في ضباب التاريخ. وقد تهدم السد في ٤٤٩ – ٤٥٠ ق. م، ويُفهم من النقوش أنه أصيب بتلف مرتين، وربما أكثر، من جراء الفيضان، وكان يُعاد ترميمه في كل مرة، ولكن الانهيار النهائي حدث عام ١٢٠، أو ١١٥ ق. م، أي قبل الهجرة النبوية الشريفة بسبعة قرون ونصف تقريباً، وقد أشار الأعشى إلى سد مأرب في قوله:

وفي ذاك للمؤتسى أسوة ... ومأربُ عضَّ عليها العرِمْ

رخام بنته لهم حمير ... إذا جاء موّاره لمْ يرِمْ

فأروى الزروعَ وأعنابها ... على سعة ماؤها إذ قِسمْ

فصاروا أيادي ما يقدرو ... ن منه على طعم طفل فُطمْ

ويعزو المؤرخون القدامى، ويظاهرهم المحدثون، تدهور الدولة السبئية إلى انهيار السد، والواقع أن انهياره كان نتيجة التدهور وقته، ولم يكن سببه، وعلى أنقاض سبأ قامت دولة الحميريين، وعادت لها السيادة على الطرق التجارية، لازدياد النفوذ الروماني في مصر وضعف دولة البطالسة، وعمَّرت هذه الدولة نحواً من ٦٤٠ عاماً، يقسمها المؤرخون اعتماداً على ألقاب الملوك على قسمين: حمير الأولى، وامتد حكمها من ١١٥ ق. م، إلى ٣٠٠ م، وحمير الثانية وحكمت من ٣٠٠ م، إلى ٥٢٥ م. وكانت عاصمة كل من الدولتين مدينة ريدان، وقد شُهرتْ فيما بعد باسم ظفار، وتقع إلى الجنوب الغربي من صنعاء، وعُرفتْ دولة حمير الثانية عند العرب باسم دولة التبابعة.

في نهاية العصر الحميري الأول ابتدأت قوة عرب الجنوب تنزل من عليائها، ولكنها لم تلبث أن استجمعت قواها من عام ٣٠٠ م، وضمّت إليها القبائل المجاورة من بدو وحضر، فأخضعت حضرموت وكل بلاد اليمن، وبها بدأ عهد الدولة الحميرية الثانية، وأصبح لقب الملك الحميري "ملك سبأ وذو ريدان، وحضر موت ويمنات وعربهم في الجبال، وفي تهامة"، وتعرف عند العرب باسم دولة التبابعة، ويمتاز هذا العصر الحميري الثاني بدخول المسيحية واليهودية جنوب الجزيرة العربية، ومحاولتها زحزحة الديانة الوثنية فيها، والتي جاء الإسلام فاجتثّ وثنيتها.

وفي منتصف القرن الرابع الميلادي غزا الأحباش بلاد اليمن، بتشجيع من إمبراطور الروم قسطنديوس الثاني، لكنهم لم يلبثوا فيها غير فترة قصيرة من ٣٤٠ إلى ٣٧٨ م، ثم تمكنت حمير من طردهم، واستردت لقبها الطويل، واحتفظت به حتى عام ٥٢٥ م، حين عاد الأحباش إلى غزوها ثانية، وكان قائد الانتصار في هذه المرة "أبرهة"، وأخيراً كان دور الفرس فغزوا اليمن، وطردوا منها الحبش، ووضعوا على عرشها عربياً له تاريخ هو سيف بن ذي يزن، وقد قدمت عليه الوفود للتهنئة من شتّى أنحاء الجزيرة، ومن بينها وفد برياسة عبد المطلب (جد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم) زعيم مكة المكرمة، وقد أكرم سيف وفادته، وخصه بعشرة أمثال ما أعطى الآخرين من هدايا.

وأشرقت شمس الإسلام، وكان باذان والي الفرس على اليمن، فاعتنق الإسلام عام ٦٢٨ م، العام السادس للهجرة، وظل والياً عليه حتى ٦٣٢ م، حين أصبحت اليمن جزءاً من الدولة الإسلامية، وانتهى حكم فارس، وانتهت في الوقت نفسه أهمية اليمن في مجرى التاريخ العربي الوسيط؛ إذ احتل الحجاز مكانه حين رفع راية الإسلام الحنيف، واستحوذ وحده ولأمد طويل، على انتباه الرأي الدولي العام.

إن هجرة القبائل الجنوبية إلى الشمال من جراء جفاف الجوفين اليماني والحضرمي لا مجال للشك فيها، وتدهور هذه البلاد بعد بلوغها في الحضارة شأواً ليس حادثاً شاذاً، فقد كان عماد المنطقة الزراعة، وعماد الزراعة الري والصرف، فلما انهارت هذه تلاشت حضارتهم، وكان لابد لهم من البحث عن مساكن جديدة؛ ولا ينبغي أن نقف بالانهيار الحضاري عند المنطقة التي كانت تعتمد في إروائها على سد مأرب؛ لأن منطقة حضرموت شاركتها المصير نفسه فيما يبدو، حيث نشاهد الآن بقايا منشآت الريِّ القديمة، تحمل طابع الإهمال، ويبدو أنها تعرضت لما تعرّض له سد مأرب، وبالتالي كان نصيب المنطقة الجفاف، وهجرة السكان.

الباب الأول

الفصل السادس

أماكن سُكنى القبائل العربية

لاشك أن قبائل العرب في العصر الجاهلي قد توزعت سكنى مختلف أجزاء الجزيرة العربية، بحسب مستقر الحياة، وحسب السكنى، ووجود الماء والكلأ، وإن كان بعضها نزل الشام والعراق ومنطقة ما بين النهرين (دجلة والفرات).

فإلى الغرب من الجزيرة العربية تمتد سلسلة جبال السراة من الشمال إلى الجنوب، والمنطقة المنخفضة غربي هذه الجبال تعرف بـ(تهامة) ومن مدنها مكة المكرمة، وجدة، وإلى الشرق من جبال السراة بلاد (نجد)، وهي هضبة تمتد حتى أطراف العراق وبادية السماوة، أما جبال السراة وما أطاف بها فيعرف بـ(الحجاز) ومن مدنه (يثرب وخيبر وتبوك والطائف)، أما العروض فهي إلى الجنوب، وإلى الشرق من نجد، وتشمل بلاد اليمامة والبحرين، وما والاها، وأما اليمن فتشمل المناطق الجنوبية من بلاد العرب (عدن – حضر موت- الشجر – مهرة – عمان) ومن حواضرها (صنعاء – مأرب – عدن – نجران – ظفار – شبوه – شبام – مخا).

وقد نزلت الأزد البحرين، ونزل آل جفنة بن عمر بن عامر بلاد الشام بعد أن انتزعوا ملكها من (الضجاعمة)، وأسسوا دولة الغساسنة.

ونزل بنو ثعلبة بن عمرو (مزيقياء يثرب) وهم قبائل الأوس والخزرج، ثم نزل بنو عمران بن عمرو عمان، وكذلك نزلت (طيئ، ولخم، وجذام، وعاملة) في الشام والعراق، ومن لخم (آل نصر بن ربيعة) كان أمراء المناذرة في الحيرة؛ ونزل الحجاز (خثعم وبجيلة)، وكان لقبيلة قضاعة منازل في تهامة، وما بين الشام والحجاز. ونزلت قبائل (سعد وهزيم) ومنها قبيلة عذرة وادي القرى، ونزلت قبيلة (بلي) بين تيماء ويثرب وأيلة؛ ونزل بنو كلب وادي السماوة، ودومة الجندل، وكذلك استقر الأشعريون تهامة اليمن، وشمال زبيد، وأقامت همذان شرقي بلاد اليمن شمالي صنعاء،

ويقال: إن هجرات كثيرة حدثت في بلاد العرب أبرزها هجرة عدنانية، وأخرى قحطانية، ويقال: إن (بختنصر) هاجم بلاد العرب، وتصدى له عدنان على رأس جموع العرب، ولم ينج من العرب حين خرَّب بلادهم بختنصر إلا من اعتصم برؤوس الجبال، والذين نزلوا بعد ذلك (تهامة).

ويُروى أنه قد نزلت تهامة والحجاز من القبائل العدنانية (كنانة في تهامة)، و(قريش في مكة)، و(مزينة في جبال رضوى)، و(نزلت قديس أرض الحجاز)، و(نزلت عدوان وفهم سراة الحجاز) جاورتهم قبيلة هذيل، وقد كان بنو عامر يشتّون في نجد، ويصيّفون في الطائف، إلا أن قبيلة ثقيف أجْلتهم عنها، ونزلت هوازن ما بين غور تهامة، ووادي بيشه، وناحية السراة وحنين وأوطاس، ونزل الحجاز من القبائل القيسية (بنو هلال– بنو سليم) ونزل نجد من القبائل العدنانية (بنو كعب بن ربيعة وغطفان وأسد) ونزل (بنو ضبَة، وعكل، وتميم ما بين اليمامة وهجر). ونزل (اليمامة من العدنانيين بنو باهلة، وبنو نمير، وبنو تميم) ونزل (الحجر) بنو حنيفة؛ أما القبائل اليمنية فقد هاجرت إلى شمال بلاد العرب بسبب انهيار دولة سبأ.

بلاد العرب
ومواطن القبائل العربية
قبل الاسلام
.....
إحسان آل الغنى
بحر العرب
خليج عمان
بلاد العرب
بلاد فارس
بلاد الروم
بلاد نجد
الاحساء
عمان
مسقط
صنعاء
حضرموت
المهرة
الشحر
ظفار
عدن
مكة
المدينة
الطائف
جدة
ينبع
تبوك
تيماء
دومة الجندل
الحيرة
الانبار
الفرات
دجلة
البحرين
قطر
هجر
الدهناء
الربع الخالي
نجران
الربذة
ذات عرق
وادي القرى
خيبر
فدك
وادي الحمض
وادي الصفراء
بحر الروم

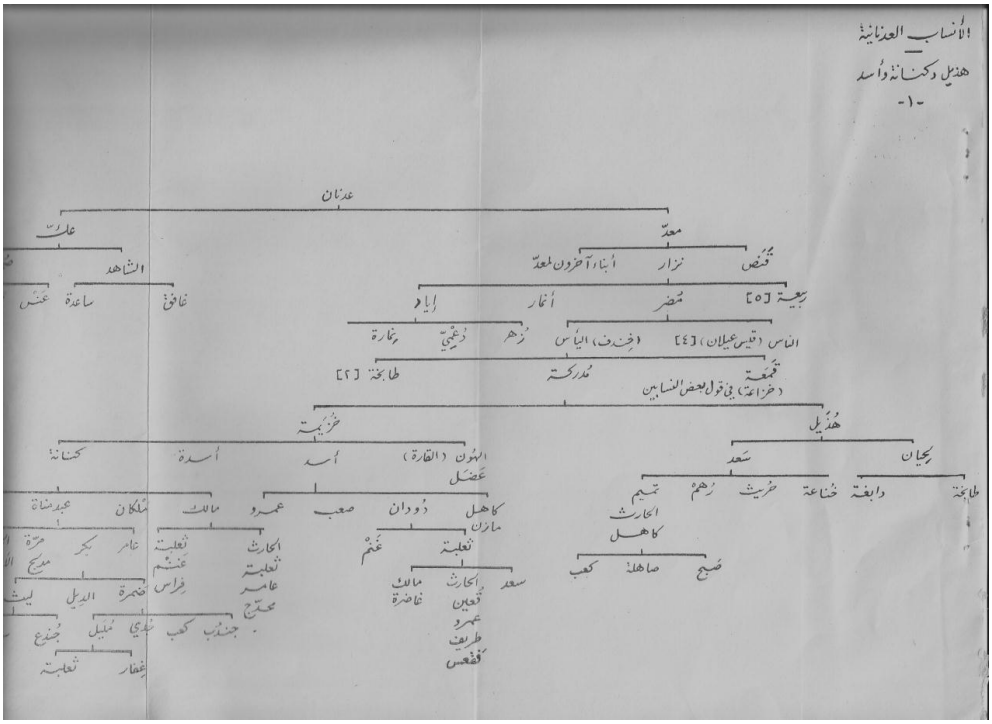
الأنساب العدنانية
هذيل وكنانة وأسد
-١-
عدنان
معدّ
نزار
أنمار
إياد
مُضر
ربيعة [٥]
نَبْت
قُنص
أبناء آخرون لمعدّ
الياس (قيس عيلان) [٤]
(خِندف) الياس
رُهم
دُعْمي
رِمارة
طابخة [٣]
مُدركة
قُمعة
(خزاعة) في قول بعض النسابين
هُذَيل
خُزيمة
ريحان
سعد
طابخة
دابغة
خُناعة
حُريث
رُهم
تميم
الحارث
كاهل
صَبح
صاهلة
كعب
الهون (القارة)
أسد
أسدة
كنانة
عَضَل
كاهل
مازن
دُودان
صعب
عمرو
مالك
الحارث
ثعلبة
عامر
محترّث
ثعلبة
غَنْم
سعد
الحارث
ثعلبة
عنم
فراس
مالك
فاضرة
ثعلبة
عمرو
طريف
قُفعس
عبد مناة
مُلكان
غامر
بكر
مرة
مدلج
ضمرة
الديل
جندب
كعب
هُذَيل
مُليل
جُشَم
غفار
ثعلبة

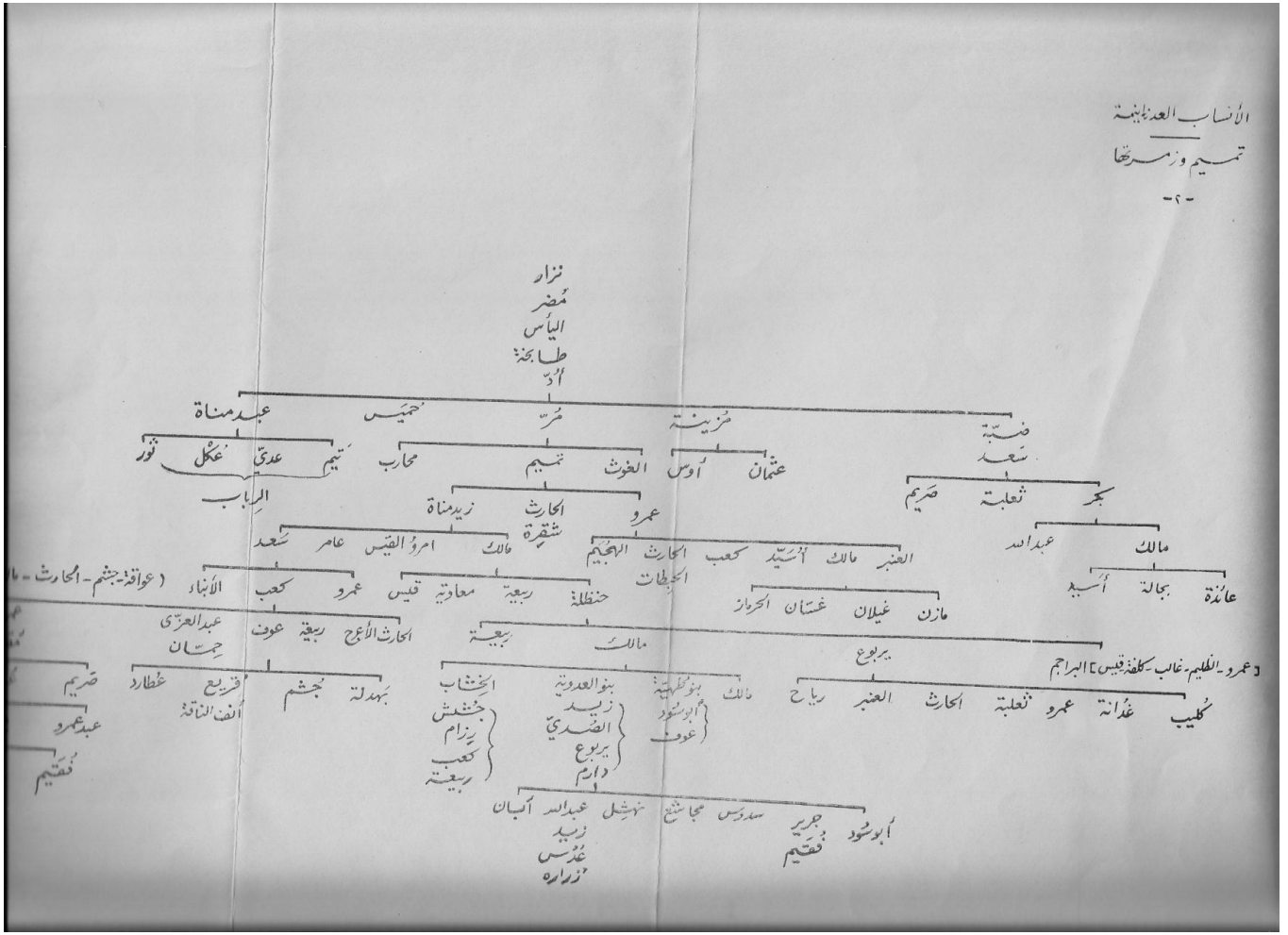
نزار
مُضر
إلياس
طابخة
أُدّ
مُرّ
مُزينة
ضبّة
سعد
بكر
ثعلبة
صريم
مالك
عبدالله
عائذة
بجالة
أُسيد
عبدمناة
حميس
تميم
محارب
عدي
عكل
ثور
الرباب
العوث
أوس
عثمان
عمرو
الحارث
زيدمناة
شقرة
مالك
امرؤ القيس
عامر
سعد
الأبناء
كعب
عمرو
قيس
معاوية
ربيعة
حنظلة
الخيطات
العنبر
مالك
أُسيّد
كعب
الحارث
الهجيم
مازن
غيلان
غسان
الحمراز
يربوع
مالك
رياح
العنبر
الحارث
ثعلبة
عمرو
غُدانة
كُليب
عمرو - الظليم - غالب - كلفة قيس] البراجم
(عواقة - جشم - الحارث - ما
عبدالعزى
الحارث الأعرج
ربيعة
عوف
حِمّان
بهدلة
جُشم
قُريع
ألف الناقة
عُطارد
صَريم
عبدعمرو
نُقيم
مالك
ربيعة
الخشاب
جُشيش
زِرام
كعب
ربيعة
بنو العدوية
زيد
الصَّدِيّ
يربوع
دارم
بنو ظُهيّة
أبو السُّود
عوف
أبو السُّود
جرير
نُقيم
سدوس
مجاشع
نهشل
عبدالله
أُبان
زيد
عُدُس
زُرارة

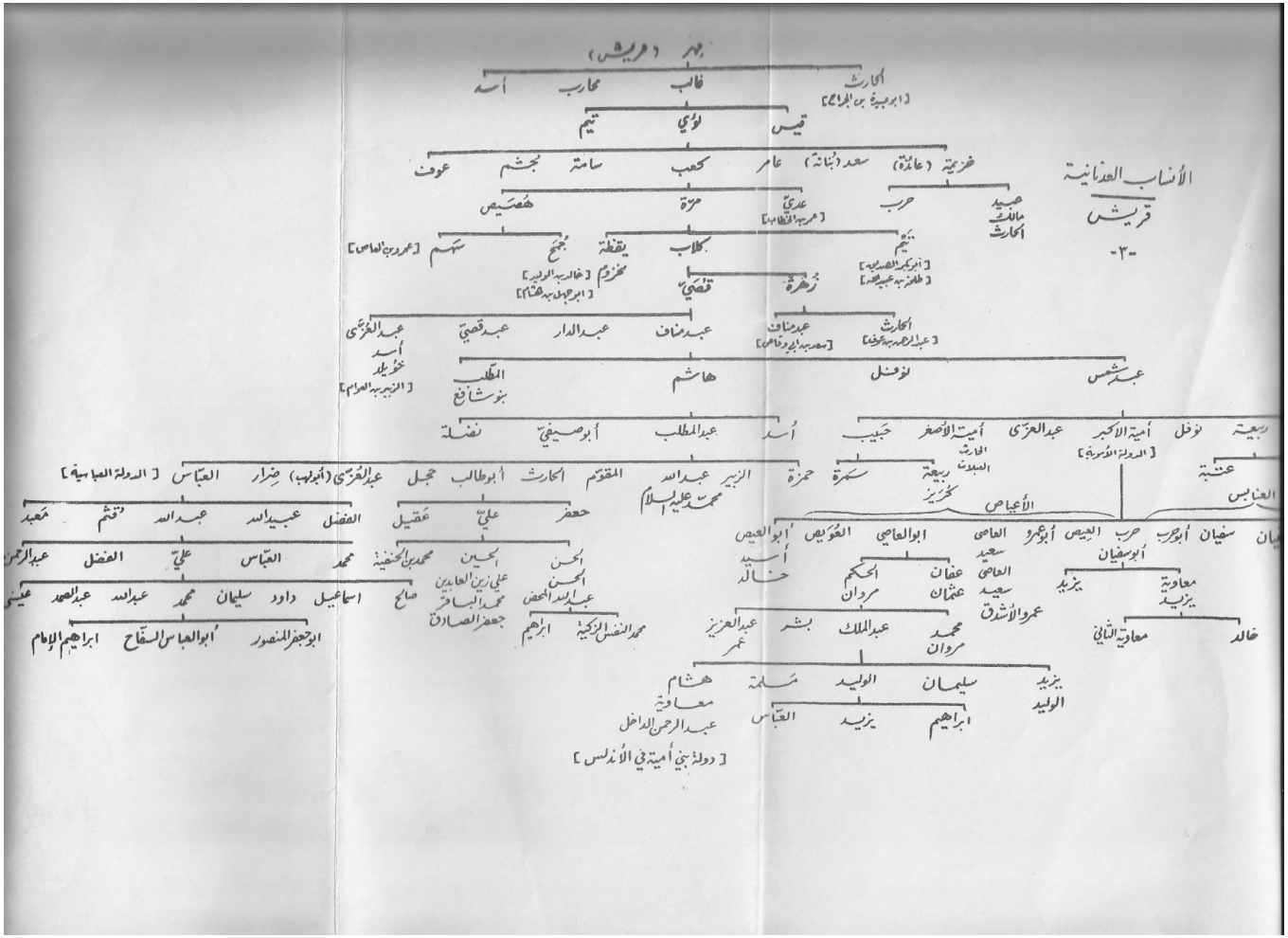
الأنساب العدنانية
قريش
-٣-
فهر (قريش)
الحارث
[ابو عبيدة بن الجراح]
غالب
محارب
أسد
قيس
لؤي
تيم
خزيمة (عائذة)
سعد (نبانة)
عامر
كعب
سامة
نجشم
عوف
حرب
عدي
[عمر بن الخطاب]
مرة
هصيص
عبيد
مالك
الحارث
يقظة
جمح
[خالد بن الوليد]
سهم
[عمرو بن العاص]
مخزوم
[ابو جهل بن هشام]
كلاب
قصي
زهرة
[ابو بكر الصديق]
[طلحة بن عبيد الله]
الحارث
[عبد الرحمن بن عوف]
عبد مناف
[محمد ابو رسول الله]
عبد شمس
نوفل
هاشم
المطلب
بنو شافع
[الزبير بن العوام]
عبد الدار
عبد قصي
عبد العزى
أسد
خويلد
ربيعة
نوفل
أمية الأكبر
[الدولة المروانية]
عبد العزى
أمية الأصغر
حبيب
عتبة
العباس
سفيان
أبو حرب
حرب
العيص
أبو عمرو
العاصي
العويص
أبو العيص
أسيد
خالد
أبو سفيان
سعيد العاصي
سعيد
عمرو الأشدق
عفان
عثمان
الحكم
مروان
معاوية
يزيد
خالد
معاوية الثاني
أبو العاص
الربيع
عبد الله
محمد عليه السلام
أبو طالب
جمل
عبد العزى (أبو لهب)
ضرار
العباس
[الدولة العباسية]
المقوم
الحارث
أسد
عبد المطلب
أبو صيفي
نضلة
حمزة
سمرة
ربيعة
كثير
الأعجاص
جعفر
علي
عقيل
الفضل
عبيد الله
عبد الله
قثم
معبد
الحسن
الحسين
محمد بن الحنفية
محمد
العباس
علي
الفضل
عبد الرحمن
الحسن
علي زين العابدين
محمد الباقر
جعفر الصادق
صالح
اسماعيل
داود
سليمان
محمد
عبد الله
عبد الصمد
عيسى
عبد الله المحض
ابراهيم
محمد النفس الزكية
ابو جعفر المنصور
أبو العباس السفاح
ابراهيم الإمام
محمد
مروان
عبد الملك
بشر
عبد العزيز
عمر
يزيد الوليد
سليمان
الوليد
مسلمة
هشام
معاوية
عبد الرحمن الداخل
ابراهيم
يزيد
العباس
[دولة بني أمية في الأندلس]

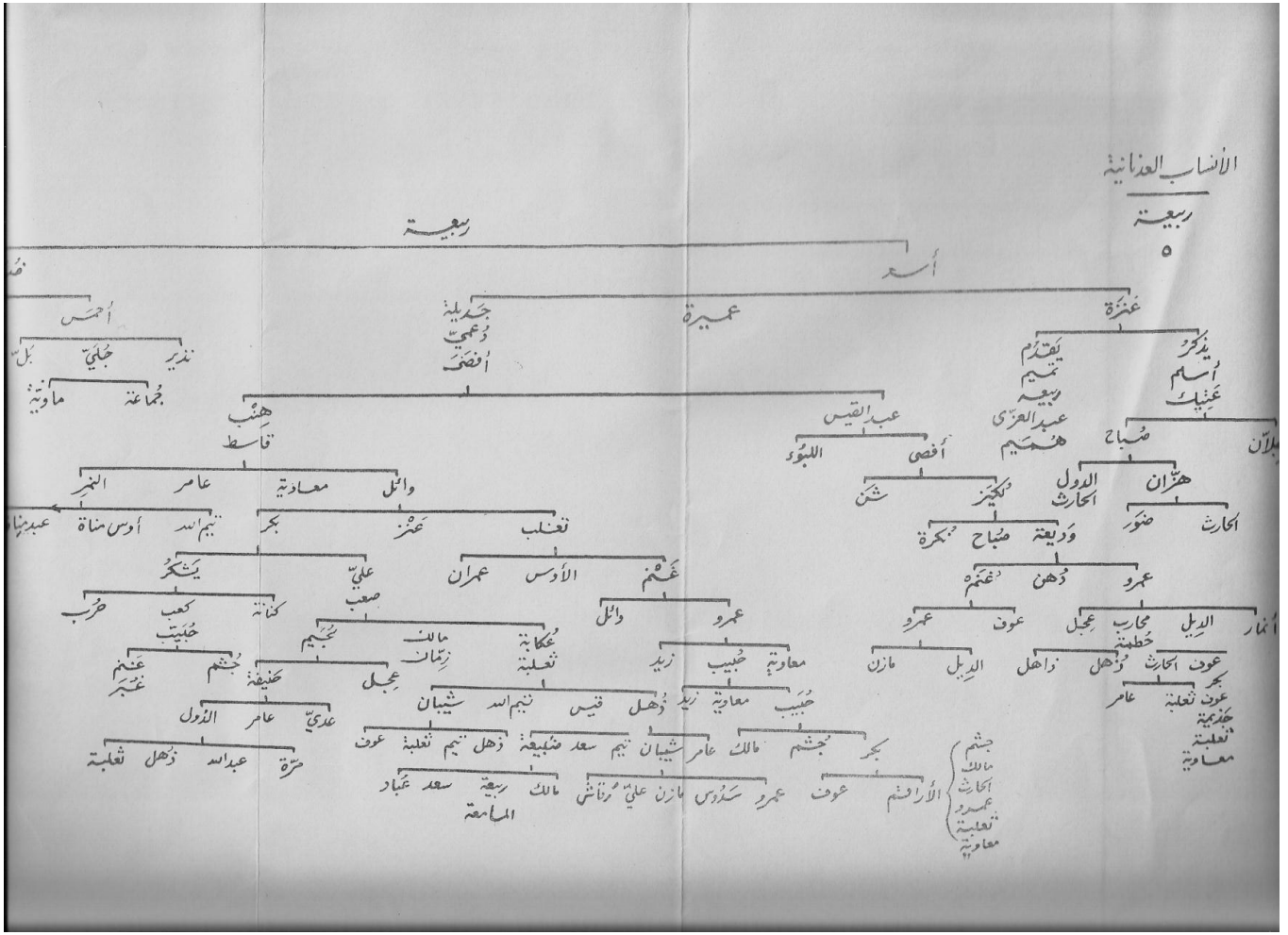
الأنساب العدنانية
ربيعة
٥
ربيعة
أسد
غنزة
عميرة
جديلة
دُعميّ
أفصَى
يذكُر
يَقدُم
أسلم
عُنيك
تميم
ربيعة
عبد العزّى
هُمَيم
صُباح
هزّان
الدول
الحارث
الحارث
ضَوَر
وَديعة
صُباح
نُكرة
عمرو
دُهن
غُنَيم
الدِيل
محارب
عِجل
عوف
عمرو
عمرو
خُطمة
عوف
الحارث
ذُهل
ذاهل
بكر
عوف
ثعلبة
عامر
حذيمة
ثعلبة
معاوية
عبد القيس
أفصى
اللبود
شَنَن
لُكَيز
الدِيل
مازن
عَنَم
الأوس
عمران
عمرو
وائل
معاوية
جُبَيب
زيد
جُبَيب
معاوية
زيد
ذُهل
قيس
نيم الله
شيبان
بكر
جُشم
مالك
عامر
شيبان
تيم
سعد
ضبيعة
ذهل
تيم
ثعلبة
عوف
الأراقم
عوف
عمرو
سَدُوس
مازن
عليّ
مُرّة
مالك
ربيعة
سعد
عَبّاد
المامعة
جشم
مالك
الحارث
عمرو
ثعلبة
معاوية
هَنْب
قاسط
وائل
معاوية
عامر
النمر
تغلب
عَنز
بكر
تيم الله
أوس مناة
عبد مناة
غُنم
وائل
عمرو
عُكابة
ثعلبة
مالك
زِمّان
عِجل
عليّ
صعب
يَشكُر
كُلفة
كعب
ضَرِب
حُبَيب
جُشم
غَنم
غُبَر
حَنيفة
عدي
عامر
الذول
مُرّة
عبد الله
ذُهل
ثعلبة
أحمس
نذير
جَليّ
بَجيلة
جُماعة
مازنية

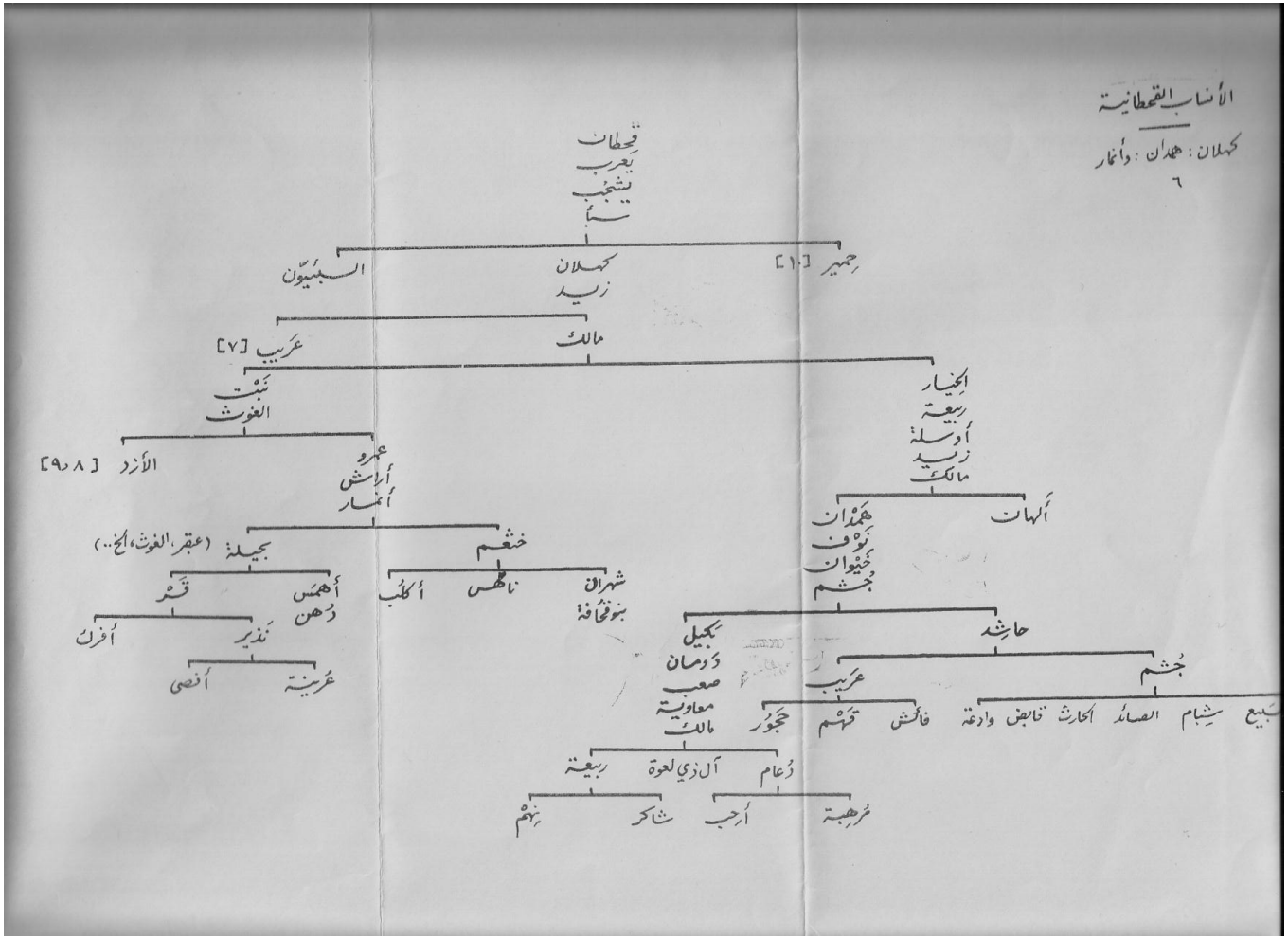
الأنساب القحطانية
كهلان : همدان : وأنمار
٦
قحطان
يعرب
يشجب
سبأ
حمير [١٠]
كهلان
زيد
السبئيون
مالك
عريب [٧]
الخيار
ربيعة
أوسلة
زيد
مالك
نبت
الغوث
الأزد [٨ و٩]
عمرو
أراش
أنمار
ألهان
همدان
نوف
خيوان
جشم
خثعم
بجيلة
(عقر، الغوث، الخ..)
شهران
بنو مخافة
ناهس
أكلب
أهمس
دهن
قسر
نذير
أفرن
عرينة
أنمى
حاشد
بكيل
دومان
صعب
معاوية
مالك
جشم
عريب
سبيع
شبام
الصائد
الحارث
قابض
وادعة
فائش
قهم
حجور
دعام
آل ذي لعوة
ربيعة
مرهبة
أرحب
شاكر
نهم

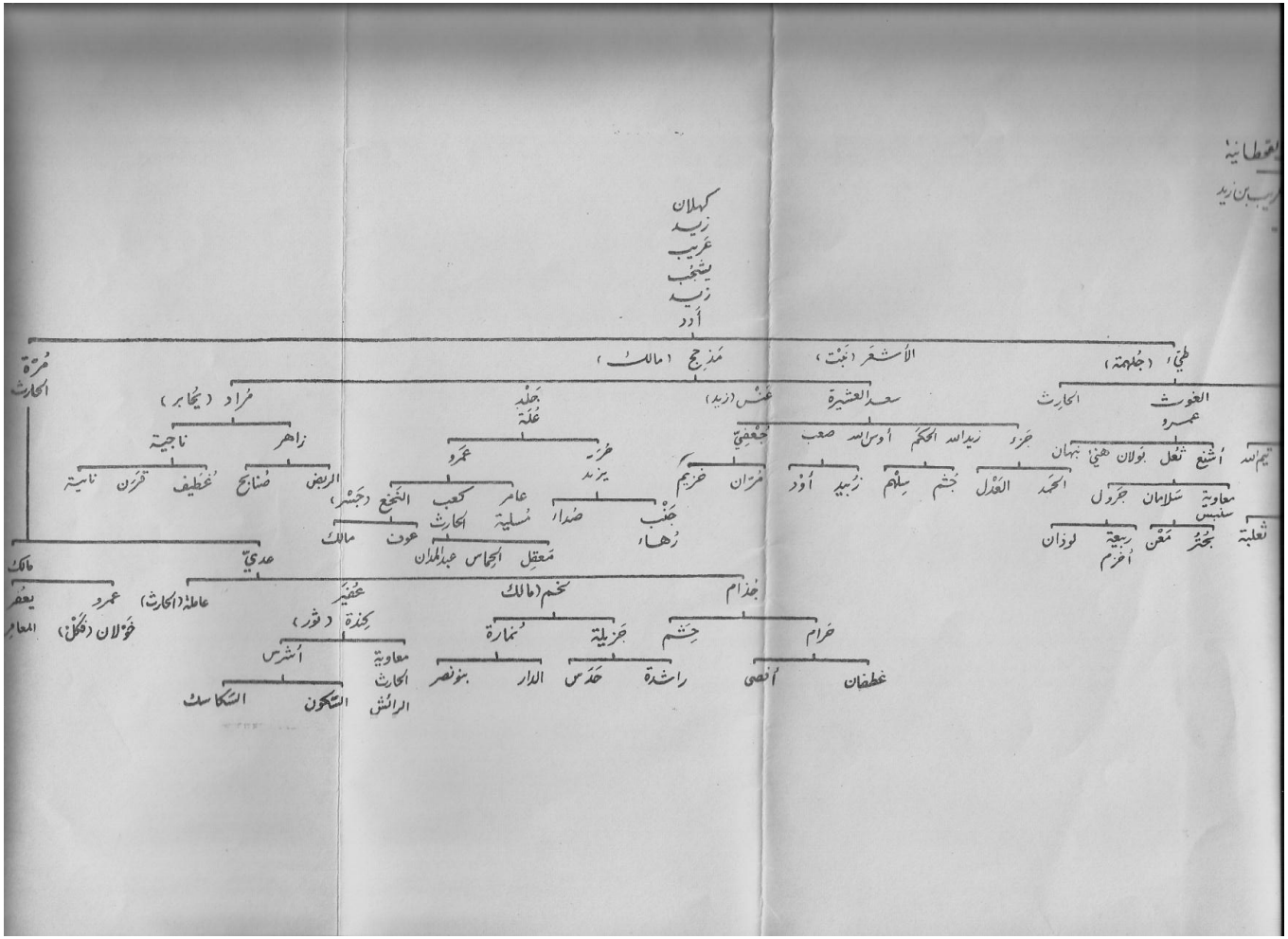
القحطانية
قريب بن زيد
كهلان
زيد
عريب
يشجب
زيد
أدد
طيئ (جلهمة)
الأشعر (نبت)
مذحج (مالك)
مرة
الحارث
مراد (يحابر)
جلد
عنس (زيد)
سعد العشيرة
الغوث
الحارث
عمرو
زاهر
ناجية
عذة
جعفي
جرد
زيد الله
الحكم
أوس الله
صعب
الريض
صنابح
عطيف
قرن
ناية
طرة
يزيد
عمرو
عامر
كعب
النخع (جسر)
الحارث
مالك
عوف
معقل
الحماس
عبد المدان
مرثان
حزيم
جنب
رهاء
صداء
سلمية
زبيد
أود
جشم
سلهم
العدل
الحمد
تيم الله
أشيع
ثعل
بولان
هني
نبهان
معاوية
سلامان
جرول
سلمى
ثعلبة
لوذان
ربيعة
الأغرم
معن
مجتر
مالك
عدي
جذام
لخم (مالك)
عفير
يعفر
المعار
عمرو
خولان (فكل)
عاملة (الحارث)
كندة (ثور)
حرام
حشم
جزيلة
نمارة
أشرس
السكاسك
السكون
معاوية
الحارث
الرائش
غطفان
أنمى
راشدة
حدس
الدار
بنو نصر

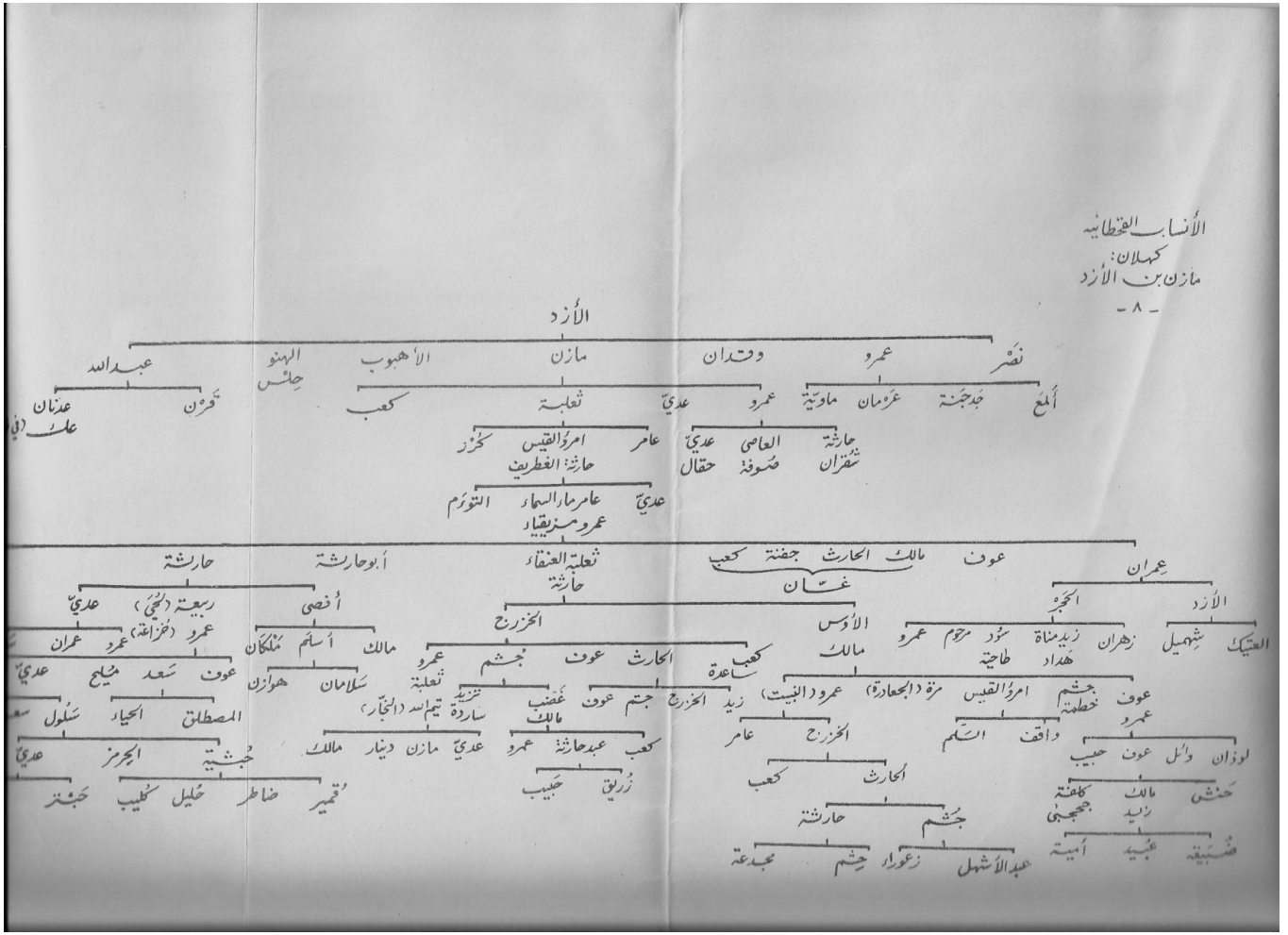
الأزد
نصر
عمرو
وقدان
مازن
الأهبوب
الهنو
عبدالله
أدد
جدجنة
عرمان
ماوية
حارثة
العاصي
عديّ
شقران
صوفة
حقال
حارثة الغطريف
عديّ
عامر مار السماء
التوأم
عمرو مزيقياء
عمران
عوف
مالك
الحارث
جفنة
كعب
غسان
ثعلبة العنقاء
حارثة
أبو حارثة
الأزد
الحجر
الخزرج
الأوس
أفصى
ربيعة (لخمي)
عديّ
عمرو (خزاعة)
عمران
عوف
سعد
مليح
المصطلق
الحياد
سلول
جشمية
الحرمز
عديّ
ضاطر
خليل
كليب
جفنة
العتيك
شهيل
زهران
زيد مناة
سود
مرحوم
عمرو
هداد
طاحية
جشم
امرؤ القيس
مزة (البعادة)
عمرو (النبيت)
عوف
خطمة
عمرو
واقف
السلم
لوذان
وائل
عوف
حبيب
حنش
مالك
كلفة
زيد
جمجمي
ضبيعة
عبيد
أمية
مالك
الحارث
عوف
نجشم
عمرو
ثعلبة
تزيد
ساردة
تيم الله (النجار)
كعب
عبد حارثة
عمرو
عديّ
مازن
دينار
مالك
زريق
حبيب
كعب
ساعدة
زيد
الخزرج
جشم
عوف
غضب
مالك
الخزرج
عامر
الحارث
كعب
جشم
حارثة
عبد الأشهل
زعوراء
جشم
مجدعة
أفصى
أسلم
ملكان
سلامان
هوازن
مالك

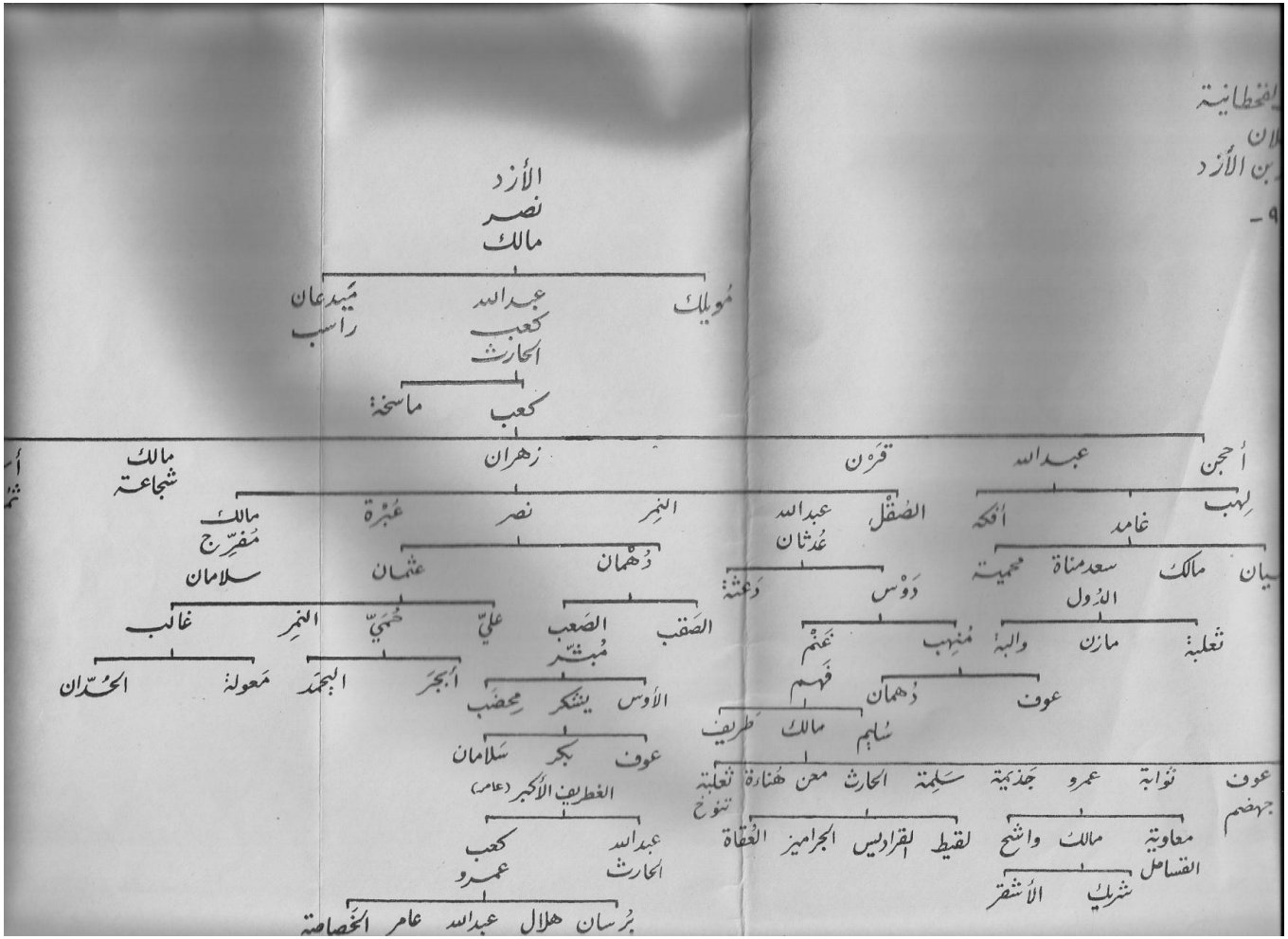
الأزد
نصر
مالك
مُويلك
عبدالله
كعب
الحارث
مَيدعان
راسب
كعب
ماسحة
زهران
أحجن
عبدالله
قَرَن
مالك
شجاعة
لهب
غامد
أكمه
الصقل
عبدالله
عُدثان
النمر
نصر
عُبرة
مالك
مُفرِّج
سلامان
سليمان
مالك
سعد مناة
مُحمية
الدُول
دَوْس
دَعثة
دُهمان
عثمان
ثعلبة
مازن
والبة
مُنبِّه
غَنْم
الصَعب
عليّ
حُميّ
النمر
غالب
عوف
دُهمان
فَهم
الصَقب
مُبتِّر
الأوس
يشكر
مِحضَب
أبجر
اليحمد
معولة
الحُدّان
سالم
مالك
طريف
عوف
ثوابة
عمرو
جَذيمة
سَلِمة
الحارث
معن
هُنادة
ثعلبة
تنوخ
جهضم
معاوية
مالك
واشح
لقيط
القراديس
الجراميز
العُقاة
القساطل
شريك
الأشتر
الغطريف الأكبر (عامر)
عبدالله
الحارث
كعب
عمرو
برسان
هلال
عبدالله
عامر
الخصاصة

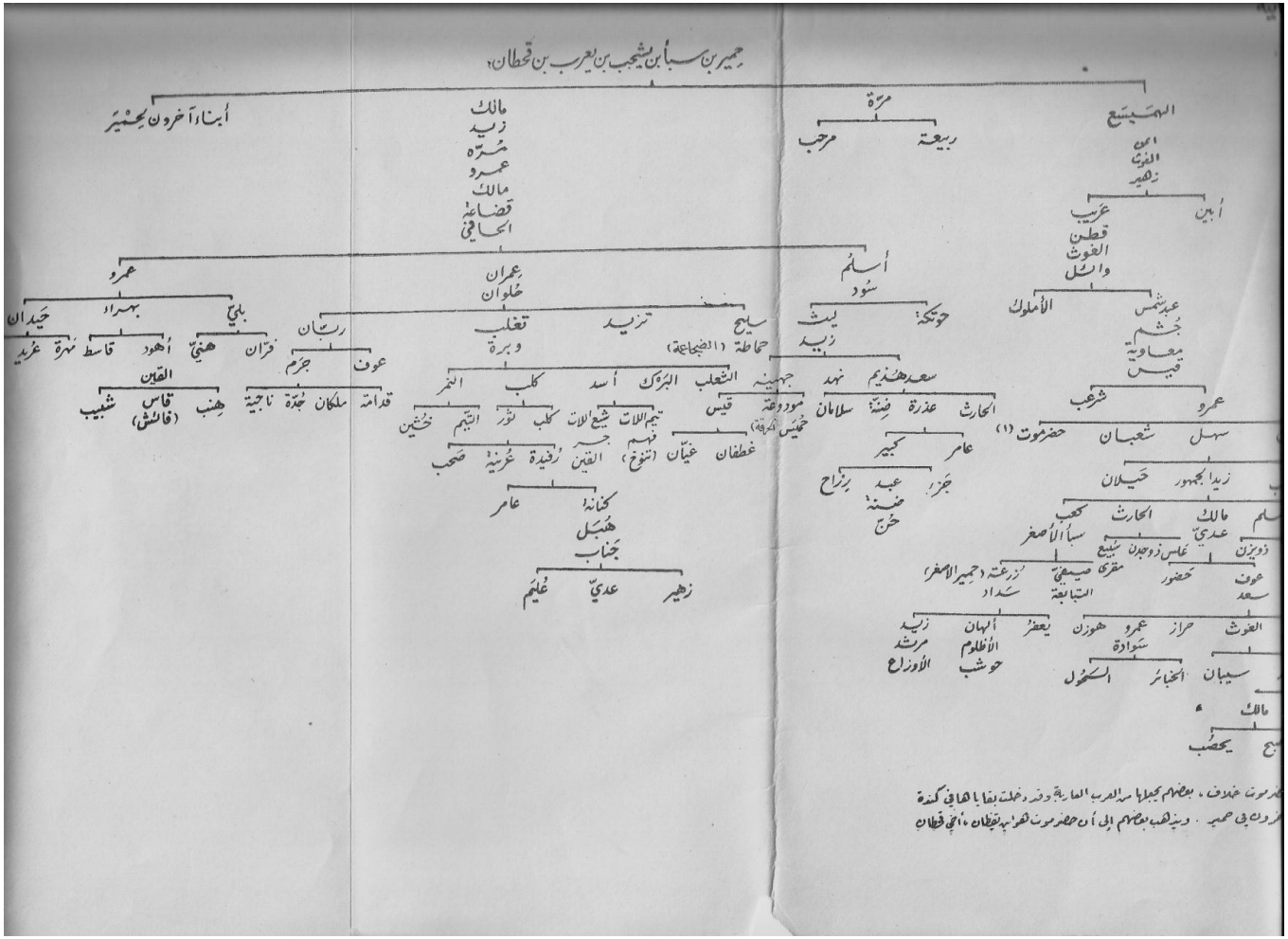
حِمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان
أبناء آخرون لحِمْيَر
مالك
زيد
مُرّة
عمرو
مالك
قضاعة
الحافي
مرّة
ربيعة
مرحب
الهَمَيسَع
امن
الفوث
زهير
أبين
عريب
قطن
الغوث
واسل
عبد شمس
الأملوك
جُشم
معاوية
قيس
عمرو
شرحب
سهل
شعبان
حضرموت (١)
زيد الجمهور
حَيلان
سالم
مالك
الحارث
كعب
عدي
سبأ الأصغر
ذويزن
عباس ذو جدن
سَميع
عوف
حضور
مقرى
سعد
صيفي
التبابعة
زرعة (حِمير الأصغر)
سَداد
الغوث
حراز
عمرو
هوزن
يعفر
ألهان
زيد
سَوادة
الأظلوم
مرثد
سيبان
أخبائر
السكون
حوشب
الأوزاع
مالك
يحصب
أسلم
سُود
حوشبة
ليث
زيد
سعد هذيم
نهد
جهينة
الشغب
البرك
أسد
كلب
النمر
سليح
تزيد
حماطة (الضجاعة)
مودوعة
قيس
تيم اللات
شيع اللات
كلب
ثور
التيم
خثعم
غطفان
غيّان
فهم (تنوخ)
جسر
القين
رُفيدة
عُرينة
صَحب
الحارث
عذرة
ضِنّة
سلامان
خُميس (مذحج)
عامر
كبير
جَزء
عبد
رِزاح
ضِنّة
حَنّ
عمران
حُلوان
تغلب
وبرة
كنانة
هُبَل
جَناب
عامر
زهير
عدي
عُليم
عمرو
بلي
بهراء
حَيدان
عُذرة
نهرة
قاسط
أهود
هنيّ
فزان
القين
قاس (فالشق)
شبيب
هِنب
ربّان
جرم
عوف
قدامة
سلكان
نجدة
ناجية

الباب الأول

الفصل السابع

اللغة العَربيّة بين الشمال والجنوب

لم يستطع علماء اللغة أن يحسموا الخلاف بينهم، حول كون اللغة عند الإنسان فطرية أو مكتسبة، كما أنهم لم يستطيعوا معرفة أن اللغات كانت لغة واحدة، تفرعت عنها لهجات تجاوبت مع البيئة والإنسان، أم أن الله تعالى قد خصَّ كل شعب من الشعوب بلغة خاصة به؟، وعلى كل حال فإنه لا يعرف حتى يومنا هذا أصول هذه اللغات، وفي حديثنا عن اللغة العربية فإن غالب القول أنها قد تفرعت عن اللغة السامية الأم، التي لا نعرف أصلها، ولا متى بدأ الإنسان التكلم بها، فاللغات التي تكلَّم بها العرب كانت الأكادية، والكنعانية، والآرامية، واليمنية القديمة، والعربية الشمالية، والحبشية السامية، وهناك لغات أخرى ضاعت في مجاهل التاريخ. ومن العسير الآن أن نتخيل ما كانت عليه اللغة السامية الأصلية، ومقدار كلماتها.

وعلى المدى البعيد تطورت السامية لتصبح في الجنوب لغة تنطوي على لهجات عدّة، ولتصبح في الشمال أخرى تتفرع عنها لهجات عديدة، دون أن ينفصم ما بين اللغتين في الجنوب والشمال من عرى وعلاقة، ولو تصورنا الجزيرة العربية قبل الإسلام- وحتى الآن- لوجدناها تموج بوحدات مستقلة تتمثل في قبائلها العديدة.

غير أنه من جانب آخر، كانت هناك عوامل لقاء، واحتكاك، مصدرها التجارة والتجاور، وتبادل المنافع والحج، والأسواق والحروب، والجدب، إلى جانب نوع من اليقظة السياسية كان يعتمل لاشعورياً في نفوس سكان شبه الجزيرة، فهيَّأ ذلك كله لواحدة من اللهجات تجمعت لها أسباب الغلبة لتتطور، فتصبح لغة الحضارة لهؤلاء القوم، وأن تذوب فيها اللهجات الأخرى، وهي لهجة قريش التي أراد الله تعالى لها أن تكون لغةَ قرآنه الكريم.

ومن الصعوبة بمكان أن نرسم حدوداً بين العربية الجنوبية والعربية الشمالية؛ لأننا لسنا أمام لغتين من أصلين مختلفين جمعت بينهما مصادفات التاريخ، بل إزاء لغات منبعثة من أصل واحد، فرقت بينها ظروف اجتماعية معينة.

وقد عثر في الشمال على ثقافتين: سامية جنوبية، وأخرى سامية شمالية، فهناك جنوبيون هاجروا إلى الشمال كما قلنا، واستقروا فيه تدريجياً، وتمثلوا ثقافتها حتى غلبت عليهم أخيراً، ويظهر ذلك واضحاً فيما خلفوه لنا من نقوش وآثار، ويمكن القول: إن نفوذ الشعراء الأدبي والسياسي الذي كان كبيراً وغير محدود هو الذي أعطى اللغة الأدبية، أو الفصحى في تعبيرنا الحديث طابعها النهائي، وجعل منها المثال المحتذى، والقصائد من الشعر الجاهلي ذات لغة واحدة رغم أن أصحابها يمثلون قبائل مختلفة ونواحيَ متعددة من شبه الجزيرة، والملامح القبلية في شعرهم نادرة؛ مما يؤكد أن الشعراء كانوا يتحدثون لهجة مكتسبة تخالف لغة المحادثة العادية.

ولقد كانت لهجات الشمال في القرون القريبة من الإسلام ذات سلطان واسع، فكانت تبتلع اللهجات الجنوبية ابتلاعاً، الواحدة تلو الأخرى، وكان أن شملت معظم شبه الجزيرة العربية، في حين أخذت اللهجات في بلاد اليمن حريتها واستقلالها السياسي؛ إذ كانت تئنُّ تحت حكم الأحباش طوراً، وتحت حكم الفرس طوراً آخر، بينما كان هذا هو عصر النهضة الشمالية في الشمال. واللغات تتبع الحضارة صعوداً وانحطاطاً، ولقد تقلص ظل اللهجات اليمنية وانفسح المجال أمام الشمالية، كما تقلصت اللغات السامية الأخرى في سورية، والعراق، وأطراف الشام أمام اللغة العربية الشمالية التي كانت تفيض حيوية وقوة.

ولقد تم ذلك على نحو أسرع وأشد بين القبائل الشمالية من الجنوب العربي، على حين أنها في داخل اليمن وأقصاه الجنوبي كانت تسير بخطى متواضعة، حتى جاء الإسلام بدعوته لوحدانية الله تعالى ونبذ عبادة غير الله، وبأفكاره، وثقافته، وكتابه، فأجهز على ما كان عالقاً بعد ببعض الألسنة من بقايا لغتهم الأولى، ولم يفلت من هذا المصير إلا ثلاث لهجات ساعد انعزالها وانزواؤها على حمياتها من اللغة العربية.

فاحتفظت بشكلها القديم حتى عصرنا الحاضر، وهي: (المهرية، وتتكلم الآن في منطقة مَهَرةَ، الواقعة شرقي حضر موت، ولهجة الشحر وتسمى حِكلى، وتتكلم بها القرى الضاربة في بلد مرياط من ناحية ظفار الحبوظى، واللهجة السقرطية، وتتكلمها جزيرة سقطرة، والجزر المجاورة لها)، وقد بعدت هذه اللهجات عن أصولها، بل وعن اللغات السامية جميعها؛ لتأثرها الشديد باللغات التي احتكت بها.

واتخاذ أهل الجنوب لغة الشمال الأدبية الراقية والزاحفة ليس أمراً عسيراً، ولا مستبعداً، ولا وحيداً، فقد كان في الجزيرة العربية يهوداً، وكان هؤلاء اليهود وافدين، جاؤوا إلى يثرب في القرن الأول، أو الثاني للميلاد، وتكلموا العربية، وشعروا بها في قصائد لا يرقى إليها الشك، ولا ينكرها منصف، ويمكن القول: إن لغة المحادثة الشمالية لم تكن عسيرة الفهم على غالب أهل اليمن، في أواخر القرن السادس الميلادي، ومطلع القرن السابع، فلم يرد في أي من كتب التاريخ التي عرضت لمقابلة الرسول عليه السلام، عام/ ٦٣١م/ للوفود القادمة من الجنوب أن اليمنيين استعملوا في الحديث العربية الجنوبية، وليس ثمة ما يشير إلى ذلك.

الباب الأول

الفصل الثامن

الجاهلية ماهية وأبعاد

أولاً: الجاهلية معنى ومدلول

"الجاهلية" مصطلح قرآني جاء على صيغة " الفاعلية "، ولم يرد في استعمال العرب قبل نزول القرآن الكريم، فقد استخدموا الفعل "جَهِلَ"، وتصريفاته المختلفة، واستخدموا المصدر "الجهل" و"الجهالة"، ولكنهم لم يستخدموا صيغة " الفاعلية " (جاهلية)، ولا هم وصفوا أنفسهم، ولا غيرهم بأنهم " جاهليون ". إنما جاء وصفهم بهذه الصفة في القرآن الكريم، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

و"الجاهلية" - كسائر المصطلحات القرآنية- لها معناها المحدّد، الذي يدخل بطبيعة الحال في إطار المعنى اللغوي العام، ولكنه يتّخذ دلالته المحدّدة من استخدام القرآن له، وتحديده لمعناه؛ إذْ إن الجاهلية هي الحال التي كانت العرب عليها قبل الإسلام، من الجهل بالله، ورسله، وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر، وغير ذلك نسبة إلى الجهل، الذي هو النزق والطيش وعدم العلم، فالناس قبل بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانوا في جاهلية، وفي ذلك يقول الشاعر عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلـــنْ أحـــدٌ علينـــا فنجهـــلَ فـــوق جهـــل الجاهلينـــا

فهو يستخدم الجهل بمعنى: الطيش والتغافل عن الحق، وعكسه الحِلْم. وفي ذلك يقول الشاعر الصّمّة القشيري مودعاً نجداً:

بكـــت عينـــي اليسرـــى فلـــما زجرتهـــا عـــن الجهـــل بعـــد الحِلـــم أسـبلتا معـــاً

فهو كذلك يستخدم الجهل بمعنى السلوك غير المنضبط بالضوابط اللائقة بمثله، من صبر وكتمان، وعدم إظهار للوعة والأسى وفرط الحزن.

أما في القرآن الكريم فاللفظ يرد في معنى خاص، أو في الحقيقة في معنيين محدّدين: إما الجهل بحقيقة الألوهية وخصائصها، وإما السلوك غير المنضبط بالضوابط الربانية، أي بعبارة أخرى: عدم اتباع ما أنزل الله تعالى في كتبه على لسان رسله.

وحين يقول سبحانه وتعالى: (وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ)[سورة آل عمران، الآية: ١٥٤]. فالذي يعنيه الله على هذه الطائفة هو تصور معين أن هناك من يمكن أن يُشارك الله سبحانه وتعالى في تدبير الأمر: (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ) [سورة الفتح، الآية ٢٦]. فالمقصود سلوك غير منضبط بالضوابط الربانية، التي تلزم الإنسان ألا يُقاتل إلا في سبيل الله، وتطلب منه ألا يُقاتل حَمِيَّةً، ولا عَصبيّة، ولا لأمر يُغضب الله سبحانه وتعالى، وحين يقول سبحانه وتعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [سورة المائدة، الآية ٥٠]. فالأمر متعلق مباشرة باتباع غير ما أنزل الله من التشريع، الذي قال الله فيه: (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) [سورة المائدة، الآية ٤٤] ذلك هو المعنى "الاصطلاحي" للجاهلية، الذي جاء في كتاب الله الكريم، والذي خلاصته الجهل بحقيقة الألوهية، والجهل بما يجب لله سبحانه وتعالى من إخلاص العبادة له وحده دون شريك.

ثانياً: مفهوم الجاهلية في الشعر الجاهلي:

قد يتبادر إلى الذهن أن العصر الجاهلي يشمل كل ما سبق الإسلام من حقب، ولكن البحوث العلمية والتاريخية تظهر أن العصر الجاهلي، الذي يتعلق بالأدب الجاهلي يعود إلى قرن ونصف قبل البعثة النبوية الشريفة، والشعر العربي ربما يكون حديث الميلاد صغير السن... وعلى العموم فإن الفترة الجاهلية التي تعنينا هي فترة ما قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام، وهي لا تمتد أكثر من مئتي عام؛ لأن ما وراء ذلك من الزمن يشوبه الغموض، ولم يصل إلينا من الشعر الجاهلي قبل تلك الفترة شيء نطمئن إليه... وفترة ما قبل الإسلام مباشرة هي الفترة التي ورثنا عنها الشعر الجاهلي... وهذا العصر هو الذي بزغت فيه شمس الإسلام، والذي يظهر لنا أن الجاهلية كانت تعني الجهل لمعنى تجاوز الحق وعدم معرفته، وتعني أيضاً الحمية حمية الجاهلية بما فيها من ثأر، وطيش، وحمق وسفه وكبر.

وأصبحت تطلق على العصر السابق للإسلام مباشرة، وكل ما فيه من وثنية وأخلاق قوامها الحمية، واقتراف ما حرم الدين الحنيف من موبقات، وهي بناء على ذلك تعني مفهوم الضلالات، والسفه، والطيش، وتحكيم العادات والتقاليد، بعيداً عن منهج الله.

ثالثاً: أقسام الجاهلية:

قسم المؤرخون الجاهلية إلى قسمين:

١. **الجاهلية الأولى:** وهي الجاهلية القديمة الضاربة في أعماق التاريخ، والتي عرف من أصحابها العرب البائدة، أو العرب الهالكة، من عاد وثمود، وطسم وجديس، والعمالقة، ومدين وعبد ضخم، وأميم، وجرهم الأولى، والتي ورد ذكرها في القرآن الكريم دون تحديد زمني، والتي لا نعرف عن شعرائها شيئاً.

٢- **الجاهلية الثانية:** وهي الجاهلية القريبة من بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والتي سبقت ظهور الإسلام مباشرة، فامتدت إلى ما يقرب من أربعة، أو خمسة قرون، والتي ينسب إليها، وإلى ما قبلها بقليل العرب المستعربة، سواء أكانوا من القحطانيين سكان اليمن، وجنوب شبه الجزيرة العربية كمعين وسبأ، أم كانوا من عرب العدنانية، أو عرب الشمال بتهامة والحجاز ونجد، وما كان على مشارف بلاد فارس والعراق والشام، هؤلاء العرب الذين عنهم أخذنا اللغة العربية شعراً ونثراً، والذين فيهم تنزَّل القرآن الكريم، ومن بين ظهرانيهم خرج الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم.

الباب الثاني

الحياة العامة لدى الجاهليين

الباب الثاني

الفصل الأول

الحياة السياسية لدى الجاهليين
(الممالك العربية)
التي ظهرت قبل الإسلام

- أ -

الأنباط
(١٥٠ ق. م-١٠٦ م)

يعد الأنباط من القبائل العربية التي استقرت جنوبي بلاد الشام، وقد عملوا بالزراعة والتجارة، وازدهرت دولتهم بسبب تحكمهم بطرق التجارة بين بلاد الشام ومصر وشبه الجزيرة العربية.

أقام الأنباط عاصمتهم في منطقة جبلية يصعب الوصول إليها، وأطلق عليها العرب اسم البتراء، أو الرقيم، وأطلق اليونانيون عليها اسم بيترا (بمعنى الصخر) حيث نحتوا بيوتهم وأمكنة عملهم ومجالسهم ومعابدهم في الصخر، مما أكسبهم خبرة في فن البناء والنحت. ومن أشهر مبانيهم المنحوتة: هيكل الخزنة، والعديد من المعابد لآلهتهم التي جاء الإسلام حرباً عليها. أنشأ الأنباط القلاع لحماية مزروعاتهم وطرقهم التجارية، كما اشتهروا بصناعة الزجاج والفخار والأدوات النحاسية وتوسعت دولتهم، وزاد نفوذها في زمن ملكها الحارث الثالث، فامتدت إلى دمشق وشرقي الأردن، وشمالي شبه الجزيرة العربية. وخاض الأنباط عدة معارك ضد الرومان وانتصروا عليهم، وبات الرومان ينظرون إلى نمو دولة الأنباط نظرة قلق وخوف شديد، فعمدوا إلى تحويل طريق التجارة عن البتراء، وجعلوها تمر بالبحر الأحمر؛ مما قلل من أهمية البتراء، وفي عام / ١٠٦م / حاصرها الرومان، واستولوا عليها، حتى حرَّرها العرب المسلمون.

- ب -
دولة تدمر
(٩ ق. م – ٢٧٣ م)

نشأت تدمر وسط بادية الشام في موقع عسكري مميز بين الدولتين: الدولة الفارسية والدولة الرومانية. وشكَّل أهلها دولة كبرى، امتدت من النيل إلى الفرات. من أشهر ملوكهم أذينة الثاني الذي لقي مصرعه على يد الرومان الذين تخوفوا من طموحاته في بناء دولة عربية مستقلة، فخلفته في الحكم زوجته زنوبيا التي حاربت الرومان، وانتصرت عليهم في عدة معارك. استفاد التدمريون من موقع مدينتهم التجاري، وأصبح لهم مراكز تجارية في الخليج العربي، والأناضول، وسواحل بلاد الشام، حيث كانوا يتاجرون باللؤلؤ والحرير، والألبسة، والأواني الزجاجية، وفرضوا الرسوم على مرور القوافل التجارية ضمن أراضيهم. وانعكس هذا الغنى على التدمريين، حيث قاموا بسكِّ النقود الخاصة بهم في عهد زنوبيا، واهتموا ببناء مدينتهم، وزينوها بالأعمدة ذات التيجان المزخرفة والتماثيل. ومن آثارهم: هيكل الشمس – الرواق الكبير – المدرج – بعض المدافن.

حاصر الرومان مدينة تدمر، ودخلوها بالقوة عام ٢٧٣ م، وساقوا ملكتها زنوبيا أسيرة إلى روما، حيث قضت هناك بقية عمرها.

- ج -
مملكة الحضر (عربايا)
(٨٥ – ٢٤١ م)

مدينة الحضر(عربايا) أقامتها قبائل عربية آشورية سنة (٨٥ م) بين نهري دجلة والفرات، غربي مدينة آشور، وازدهرت مملكة الحضر اقتصادياً؛ لموقعها الجغرافي بين دولتي الفرس والروم، وسيطرتها على القوافل التجارية، التي كانت تحمل الحرير والتوابل من الهند والصين، وتعود محمّلة بالأخشاب والعطور والزيوت من بلاد الشام.

عبد سكان مملكة الحضر الشمس، واعتبروها رمزاً للحياة والنور، معتقدين بأنها تبعد عنهم الظلام والشرور، حتى أطلقوا على مدينتهم اسم مدينة الشمس.

سميت دولتهم عربايا؛ لأن حكامها أطلقوا على أنفسهم لقب ملوك العرب.

من ملوكها: رَوْد – نصر.

تركت مملكة الحضر آثاراً فنية رائعة في البناء والنحت، منها: المعبد الكبير وتمثال السيدة آبْو. وقد حاولـــت الإمبراطورية الرومانية الاستيلاء على مملكة الحضر؛ للسيطرة على طرق القوافل التجارية، لكنها فشلت بسبب متانة أسوارها ومقاومة فرسانها.

سقطت مملكة الحضر على يد الفرس سنة (٢٤١ م).

ـ د ـ

الغساسنة

(٢٠٠ م – ٦١٢ م)

بعد انهيار سد مأرب في اليمن اضطرت القبائل العربية إلى الهجرة إلى أماكن جديدة، تتوفر فيها شروط الحياة، واستقر بعضهم في منطقة حوران، وسموا بالغساسنة نسبة إلى عين غسان.

أسَّس الغساسنة إمارة لهم بزعامة أميرهم جفنة بن عمرو، واتخذوا من مدينة الجابية عاصمة سياسية، ومن بصرى عاصمة دينية.

أقـــام الغساسنة علاقات وطيدة مع الإمبراطورية البيزنطية، وخاضوا عدة معارك ضد المناذرة حلفاء الفرس، وامتد نفوذهم إلى بادية الشام.

اهتم الغساسنة بالزراعة (حيث أقاموا الأقنية للري) وبالتجارة (مستفيدين من موقعهم التجاري) وشيدوا القصور والأديرة والقلاع منها: قصر المشتى، دير قصر الحِير الغربي، قلعة الزرقاء. وبرعوا في الأدب والشعر، ومن أشهر الشعراء الذين مدحوهم حسان بن ثابت والنابغة الذبياني.

تخوفت بيزنطة من خطر الغساسنة، وطموحاتهم الواسعة، فعمدوا إلى نشر الخلافات بين أمرائهم؛ مما أفقدهم الكثير من الأهمية، وظلُّوا على هذه الحال حتى التحرير العربي الإسلامي.

ـ هـ ـ

المناذرة

(٣٩٠ م – ٦٣٣ م)

تأسيس الدولة: هاجرت قبيلة "لخم" العربية التي ينتسب إليها المناذرة من شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الرافدين بعد انهيار سد مأرب، وأسَّست إمارة لها مركزها مدينة "الحيرة ". سميت "دولة المناذرة "؛ لأن عدداً كبيراً من ملوكها حمل اسم المنذر.

وقد عدَّ الفرس دولة المناذرة ولاية من ولايتهم، ومنحوها سلطات واسعة، واستعانوا بها في صد غارات الغساسنة وحلفائهم الروم البيزنطيين.

وعندما حاول النعمان بن المنذر ملك الحيرة توحيدَ القبائل العربية؛ تمهيداً لاستقلالها عن دولة الفرس، قام كسرى الفرس بحبسه حتى مات. فتضامنت القبائل العربية، وتصدت لجيش الفرس في معركة ذي قار عام ٦١٠ م، وانتهت بانتصار العرب. وقد وصف الرسول العربي (صلى الله عليه وسلم) هذا النصر بقوله: "هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم".

ظلت السيطرة الفارسية قائمة في الحيرة إلى أن حررها العرب المسلمون.

ومن أبرز مظاهر حضارتهم الأدب والشعر والكتابة واهتمامهم بالطب.

اهتم المناذرة بالتجارة مما زاد في مواردهم المالية، وبرعوا في صناعة الحرير والكتان، والصوف والمنسوجات المطرزة بالذهب. كذلك اهتموا بالعمران، فبنوا العديد من القصور، مثل: الخَوَرنَق، والسدير.

ـ و ـ

دولة معين

(١٢٠٠ ق. م – ٦٥٠ م)

قامت دولة معين في المنطقة الواقعة بين حضر موت ونجران، عاصمتها مدينة قرناو. استولى المعينيون على معظم القسم الجنوبي من شبه جزيرة العرب، وأصبحت حضرموت تحت سلطتهم، كما مدُّوا نفوذهم نحو الشمال، فوصلوا إلى معان. اشتغل المعينيون بالزراعة

والتجارة، واتسعت تجارتهم مع البلاد المجاورة، ووصلوا إلى الخليج العربي والبحر المتوسط، واتصلوا بمصر. وأقاموا على طرق التجارة محطات تجارية وحربية. وقد وُجدت نقوش معنية في جنوبي فلسطين، وعلى طول شط العرب، وظهر من دراسة كتاباتهم الأثرية ما كانت عليه دولتهم من حضارة وتنظيم. كما شاد ملوكهم قصوراً فخمة. تألَّف المجتمع المعيني من طبقتين هما: النبلاء والعبيد، وكانت لغة المعينين هي اللهجة العربية الجنوبية.

سقطت دولتهم على يد دولة سبأ.

- ز -
مملكة سبأ
(٩٥٠ ق. م - ١١٥ ق. م)

تقع مملكة سبأ في الزاوية الجنوبية الغربية من شبه الجزيرة العربية (اليمن حالياً)، عاصمتها مأرب.

حكمها عدد من الملوك والملكات، من أشهرهم الملكة بلقيس؛ مما يدل على المكانة العالية للمرأة العربية فيها.

امتد نفوذ مملكة سبأ التجاري إلى مناطق واسعة من شبه الجزيرة العربية، وبلاد الشام.

أدَّت الفتن والحروب الداخلية إلى سوء الأحوال الاقتصادية، وانتقال التجارة البحرية إلى أيدي الرومان واليونان، وفقدان السيطرة على البحر الأحمر والسواحل الإفريقية التي كانت سوقاً لتجارتها.

كما أن الخلافات بين أفراد البيت الحاكم من أجل الاستيلاء على الحكم فتحت الطريق لتدخل الأحباش في شؤون المملكة، حتى استطاعوا فيما بعد السيطرة على اليمن كلها.

اهتم السبئيون بالزراعة، فشقوا الأقنية، وبنوا السدود، وكان سد مأرب من أعاجيب العالم القديم، كذلك اهتموا ببناء الأسوار حول مدنهم والمعابد لآلهتهم.

تكلم السبئيون لغة عربية متميزة، وكانوا يكتبون بالخط المسند الذي شاع استعماله في شبه الجزيرة العربية.

- ح -
دولة حمير
(١١٥ ق. م – ٥٢٥ م)

سكن الحِمْيَريّون بلاد اليمن، واتخذوا مدينة ظِفار عاصمة لهم كانت تدعى ريدان. أشهر ملوكهم يوسف ذو نواس، الذي برز في عهده الصراع بين دولة فارس ودولة الروم (بيزنطة) من أجل السيطرة على الطرق التجارية البرية والبحرية.

استطاع الروم (البيزنطيون) عن طريق حلفائهم الأحباش احتلال اليمن والتحكم بتجارتها، إلا أن اليمنيين قاوموا الأحباش بقيادة أحد أمرائهم المدعو سيف بن ذي يزن الذي استعان بالفرس، فأمدوه بجيش ساعد اليمنيين في طرد الأحباش من البلاد، وثبتوا نفوذهم في البلاد، حتى جاء الإسلام الحنيف فحرر اليمن وخلصها من النفوذ الفارسي.

كانت دولة حِمْير دولة محاربة؛ إذ اهتم ملوكها بالناحية العسكرية، فبنوا القلاع، وشكلوا الجيوش النظامية.

اهتموا بالثقافة إلى جانب اهتمامهم بالتجارة كأسلافهم؛ إذ تكلموا اللغة العربية وكتبوا بالخط المسند.

اعتنى الحِمْيريون بالناحية العمرانية، ومن أشهر آثارهم قصر غمدان (المؤلف من عشرين طابقاً، وواجهاته مزدانة بأحجار ملونة).

سكَّ ملوك حِمْير نقوداً من الذهب والفضة.

- ط -
مملكة كندة
(٢٥٠ – ٤٥٠ م)

من القبائل التي كانت تسكن اليمن قبيلة كندة، التي هاجرت شمالاً، وانتشرت في بلاد نجد، بسبب انهيار سد مأرب، وتحول طرق التجارة عن اليمن.

أسست قبيلة كندة مملكة واسعة وسط شبه الجزيرة العربية، واتخذت من مدينة الفاو عاصمة لها، وبذلك أصبحت مركزاً تجارياً واقتصادياً مهماً بين بلاد اليمن وبلاد الشام وبلاد الرافدين. من أشهر ملوكها: الحارث بن عمرو.

تعدُّ مملكة كندة ذات أهمية كبرى في تاريخ العرب، حيث كانت أول دولة عربية حاولت توحيد العرب في دولة واحدة تجمعهم وتنظم أمورهم.

اهتم ملوكها بالشعر والأدب، ومن أشهر شعرائهم: امرؤ القيس. لم يبق بعد امرئ القيس من ملوك كندة إلا أمراء ضعاف، واستمر الأمر كذلك، حتى ظهور الإسلام الحنيف، وإخضاع شبه الجزيرة العربية للدِّين الجديد.

الباب الثاني

الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية لدى الجاهليين

كان العرب قبيل الإسلام يخضعون لنظام القبيلة التي يرتبط أفرادها برابطة القرابة (إذ إن أبناء القبيلة يعدّون أنفسهم منحدرين من جد واحد) وأصبحت القبيلة أصل المجتمع العربي بشكل عام، وكان أفراد القبيلة متساوين في الحقوق وأداء الواجبات، ولا تمايز بينهم إلا بما يملكه كل فرد من أفراد القبيلة من الصفات الحميدة: كالشجاعة والكرم والوفاء ورجاحة العقل.

مكوّنات القبيلة قبيل الإسلام:

كانت القبيلة تتألف من:

١- أبناء القبيلة من العرب: وهم الأكثرية.

٢- الموالي: الغرباء الضعاف الذين التجؤوا إلى القبيلة لحمايتهم، فأخلصوا للقبيلة، وأصبحوا من مواليها.

٣- الأرقاء: وهم العبيد الذين حصلت عليهم القبيلة عن طريق الأسر في الحروب أو الشراء. أدت ممارسة العرب للأعمال الاقتصادية إلى ظهور مستويات مختلفة في المأكل والملبس والمسكن، وذلك بحسب ما يملكه الفرد من أموال، وظهر بالتالي في المجتمع العربي طبقتان:

الأولى- طبقة غنية: تملك القوة وتنعم بالمال الوفير.

والثانية- طبقة فقيرة: تملك جهدها العضلي كوسيلة لكسب رزقها، والحفاظ على حياتها، وحرص العربي منذ القديم على معرفة نسبه والتفاخر به، وبما فعله أجداده، وما قدَّموه من الشجاعة والكرم والوفاء. فعملت القبيلة على زيادة عدد أفرادها للدفاع عنها، عن طريق الزواج المبكر وتعدد الزوجات، وقد كان الفتى يختار زوجة كريمة لنفسه، وكذلك الزوجة

تختار فتى كريماً فارساً شجاعاً. وحرصت المرأة على حسن تربية أطفالها، وتهيئة بناتها ليصبحن ربات بيوت صالحات؛ أما الرجل فقد كان يتمتع بسلطة واسعة على أفراد أسرته، يدرب أولاده الذكور على ركوب الخيل والقتال؛ لأن حماية القبيلة ستقع على كاهلهم في المستقبل، وهذا ما جعل العرب يفضلون الذكور على الإناث، وكان المجتمع في الجاهلية ينقسم إلى ثلاث طبقات اجتماعية:

(أ) - **طبقة القبيـــل**، أو جمهور أبناء القبيلة الصرحاء، وهم الذين يرتبطون فيما بينهم برابطة الدم، وهم جمهور القبيلة ودعامتها، وكانوا يهبُّون لتلبية نداء القبيلة والتضامن معها ظالمة كانت أم مظلومة، والقبيلة نظير ذلك تسبغ عليهم حمايتها، وتمنحهم حق التصرف كالإجارة، ولكنها لا تبيح لهم الخروج على العرف والتقاليد، فإذا سلك الفرد سلوكاً شائناً يسيء إلى سمعة القبيلة، ويجلب عليها العار؛ نبذته القبيلة وأخرجته منها، ويلجأ إلى الصحراء، ويعيش على قائم سيفه وحدِّ نصله، ويصبح صعلوكاً من صعاليك العرب، أو مغامراً، ليتخلص من شقاء الفقر وذل الفاقة؛ إذ كان أبيّ النفس ذا أنفة.

(ب) - **طبقة الموالي**، ويدخل فيها الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم وفصلتهم عنها، وتبرأت منهم لجرائم ارتكبوها، ثم دخلوا في قبيلة أخرى على أساس الموالاة بالجوار، وكان الخلع يتم في الأسواق والمحافل، كما يدخل فيها الصعاليك المغامرون، ومن بين الصعاليك المشهورين (تأبط شراً، والسليك بن السلكة، والشنفرى، عروة بن الورد) كما يدخل في طبقة الموالي أيضاً العتقاء، وكانوا في الأصل عبيداً، ثم أعتقوا، وكان لهؤلاء الموالي- سواء كانوا حلفاء أو عتقاء- حقوق القبيلة نفسها، التي يوالونها، وعليهم الواجبات نفسها، ولكن رابطة الجوار كانت موقوتة، فهي تبقى ببقاء الجار في كنف مُجيره، وتحلُّ بخروجه، وفي هذه الحالة يعلن المجير أنه في حلٍّ من حمايته. ولكن رابطة الحِلف تبقى، فهي رابطة قوية غير موقوتة، وكانت هناك أحلاف فردية، وأحلاف جماعية كأن تتحالف قبيلة مع قبيلة أخرى، والحلف في هذه الحالة أشبه بمعاهدة. ويتم الحلف عن طريق المواثيق والعهود، ومن أحلاف العرب (حلف المطيبين، وحلف الفضول، وحلف الرباب، وحلف الحُمس، وحلف قريش، والأحابيش) أما العُتقاء فهم موالٍ أيضاً، ويرتبط المعتق بسيده برابطة الولاء.

(ج) ـ **طبقة الرقيـق**، وكانت تؤلف طبقة كبيرة في المجتمع القبلي في الجاهلية. والرقيق إما أبيض أو أسود، ومعظمهم يشترى في الأسواق، وبعضهم يجلب من أسرى الحروب. وكان العدد الأعظم من الرقيق عبيداً سوداً يعرفون بالأحابيش، يستقدمون من الحبشة أو السودان، ولكن بعضهم كان من بين الأسرى في الحروب، روماً كانوا أم فرساً، وقد كان لنبينا العربي محمد صلى الله عليه وسلم مولى روميٌّ، هو " صهيب الرومي "، ومولیان حبشیان هما " بلال بن رباح " و" وأنجشة " ومولى فارسيٌّ هو " سلمان الفارسي "، ومولى نوبيٌّ هو " يسار أو بشار ". وكان أبناء الإماء البيض من آباء العرب يعرفون بالهجناء، أما أبناء الإماء السود، فيطلقون عليهم أسم أغربة العرب، ومن هؤلاء " عنترة بن شداد، وكانت طبقة العبيد في المجتمع الجاهلي طبقة محرومة من الامتيازات، بل على العكس من ذلك كانت طبقة مثقلة بالواجبات نحو سادتها، وكان يوكل إليهم بالأعمال التي يأنف العرب من القيام بها، مثل الحدادة، والحجامة، والتجارة. وكان في إمكان العبد أن يعتق إذا قام بعمل خارق، أو أدى خدمة عظيمة لسيده تبرر عتقه وتحريره، كما فعل عنترة عندما حمى قومه سعياً للتحرر.

الباب الثاني

الفصل الثالث

الحياة الإدارية والسياسية

- ١ -

عند البدو

قام المجتمع العربي في شبه الجزيرة العربية على أساس النظام القبلي، حيث يتم اختيار شيخ القبيلة من أبنائها لمن توافرت فيه الصفات المطلوبة؛ من شجاعة وكرم وحلم وعدل وحكمة، ورضي مجلس القبيلة به.

يرأس القبيلة رئيس أو شيخ مسؤول عن حل مشكلات القبيلة، وتنظيم علاقاتها مع القبائل الأخرى في الحرب والسلم، تبعاً للأعراف والتقاليد المتبعة، وبمشاورة مجلس القبيلة المؤلف من حكماء القبيلة.

قامت الصلات بين القبائل العربية على أساس القربى والتحالف، أشهر هذه الأحلاف حلف الفضول.

وقد أدت العصبية القبلية إلى حروب طويلة بين العرب، سميت بأيام العرب أشهرها يوم: يوم داحس والغبراء، يوم البسوس.

- ٢ -

عند الحضر

عرف العرب في شبه الجزيرة العربية عدداً من الأنظمة السياسية قبيل الإسلام، فقد ظهر على أطراف شبه جزيرتهم الشمالية والجنوبية عدد من الدول ذات النظام الملكي الوراثي (مثل: الأنباط – حضر – حِمْير).

قسِّمت المملكة فيه إلى ولايات، يدير كلاً منها والٍ يعيَّن من قبل الملك، وهو مسؤول عن ولايته، يساعد الملك في إدارة شؤون مملكته مجلس استشاري يتألف من كبار القوم، وقد لعبت كل من دولتي الفرس والروم دوراً كبيراً في بث روح التفرقة بين الممالك العربية، مستفيدة من الخلافات القائمة بينها (مثل الغساسنة والمناذرة) وذلك خوفاً من قيام دولة عربية واحدة قوية مجاورة لها.

ومن أهم المدن العربية التي سكنها العرب قبل الإسلام (مكة – يثرب – الطائف).

فأما مكة فهي موطن قبيلة قريش التي تزعمت القبائل العربية فيها، وتأتي أهميتها من وجودها قرب الكعبة، وموقعها المهمّ على الطريق التجارية بين بلاد اليمن وبلاد الشام؛ حيث كان العرب يقصدونها في موسم الحج للعبادة والتجارة، وقد أوجد قصي بن كلاب جد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم تنظيماً سياسياً وإدارياً في مكة، تجلى في وجود:

دار الندوة: وهي بمثابة مجلس الشورى.

واللواء: عقد لواء الحرب.

والحجابة: خدمة الكعبة المشرفة.

والسقاية: إسقاء الحجيج الماء المحلَّى بالتمر.

والرفادة: إطعام الحجاج.

وأما المدينة المنورة التي كنت تسمى يثرب، فتأتي بعد مكة في الأهمية، وهي مدينة كثيرة العيون والآبار معتدلة الجو، تعتمد على الزراعة، سكنتها قبيلتان هما الأوس والخزرج.

وكان لكل منهما رئيس يدير أمور قبيلته، ويرعى مصالحها، مع وجود ثلاث قبائل يهودية صغيرة، كانت تلجأ إلى الدسائس لإشعال نار الفتنة بين القبيلتين العربيتين (ولم تخمد هذه الفتنة إلا بعد دخولهم الإسلام)؛ ثم الطائف، وكانت بلداً زراعياً خصباً، وجوّها لطيف.

اتخذها أهل مكة المكرمة مَصِيفاً لهم.

اتصف أهلها بالقوة والشجاعة والشدة في المعارك، وفي طليعتهم قبيلة ثقيف، التي عرفت في تاريخ العرب بالشجاعة.

الباب الثاني

الفصل الرابع

الحياة الدينية لدى الجاهليين

لقد قام الدين بدور مهمّ في حياة البشر منذ أقدم العصور، فقد عبد الناس مظاهر الطبيعة، وقدسوها كالشمس والسماء والقمر وبعض الحيوانات المفيدة والمؤذية، ثم اتجهوا إلى عبادة البشر الأجداد أو الملوك، وذلك بسبب الجهل بقوانين الطبيعة، وعدم القدرة على تفسيرها والتحكم بها كصوت الرعد، وفيضان الماء، وحركة الشمس والقمر، والخوف منها، والعمل على استرضائها واتقاء شرها، وقد أضفى العرب القدماء على الآلهة التي كانوا يعبدونها طبائع البشر (زواج- محبة- حزن- صراع) والشمس عندهم ربة الدفء ورمز للعدل، معتقدين بالبعث والحساب، وجزاء العمل الصالح والعمل السيئ، وبفكرة الخلود.

وقد احتضنت بلاد العرب بدايات مظاهر التوحيد، وعبادة الإله الواحد (اليهودية- المسيحية- الإسلامية) وانتقلت مظاهر عبادة الطبيعة إلى شبه الجزيرة العربية بتأثير من بلاد الشام وما بين النهرين، فقد كان عمرو بن لحي الخزاعي سيد مكة أول من نقل عبادة الأصنام إلى مكة المكرمة، كهبل المصنوع من العقيق على صورة إنسان، و(ود) إله القمر و(مناة) إلهة الموت، و(العزّى) المسماة عشتار (واللات) ورغم وثنيتهم فإن معظمهم كان يؤمن بوجود الله، ولكنهم يشركون الأصنام بعبادته؛ بدليل قوله تعالى: (وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى).

وكانت مكة المركز الديني للعرب، حيث وضعوا الأصنام حول الكعبة؛ ليزورها في الأشهر الحرم (ذي القعدة – ذو الحجة – المحرّم – رجب)، وقد تسربت إلى بعض أنحاء شبه الجزيرة العربية، لاسيما اليمن الديانتان السماويتان: اليهودية كما في خيبر ويثرب، ثم المسيحية كما في قبيلة غسان التي عاشت في منطقة حوران.

وقد اتجه بعض عقلاء العرب إلى اعتناق المبادئ الدينية، التي نادى بها النبي إبراهيم الخليل عليه السلام، والتي تسمى (الحنيفية) وهي تدعو لعبادة إله واحد.

وأخيراً: جاء الرسول العربي محمد صلى الله عليه وسلم بدين الإسلام الذي أنهى عبادة الأصنام، وأحل الرابطة الإسلامية بدلاً من العصبية القبلية.

الباب الثاني

الفصل الخامس

الحياة الفكرية لدى العرب الجاهليين

اعتمد العرب على السماع وتناقل الأخبار والروايات في حفظ لغتهم وآدابها، وعرف العرب بقوة بيانهم ومثَّل الشعر أهم جوانب حياتهم، وخلدوا فيه أيامهم، وأنسابهم، وأخلاقهم، وفلسفتهم، حتى قيل: الشعر ديوان العرب، وقد كانت المجموعة الجنوبية من اللغات التي من أهمها اللغة العربية والمؤابية والجعزية نسبة إلى قبيلة جعز العربية، وتعد اللغة العربية من أطول لغات العالم عمراً، وأغزرها مادة وأدباً، وتتصل بجميع اللغات السامية، وتطور الخط العربي عن الخط الآرامي الذي أثر على عرب الأنباط في البتراء، ومن هنا اشتق الخط العربي في الحجاز، وانتشر إلى الحيرة وباقي مناطق الجزيرة العربية، وقد كانت الحروف تكتب دون نقاط، وبعد نزل القرآن الكريم، وفي العهد الأموي وضع العرب النقط للحروف.

وقد تمكنت قبيلة قريش من تقريب لهجات القبائل العربية وتوحيدها، ساعدهم في ذلك تجمعهم حول الكعبة للعبادة، وانتشرت اللغة العربية الفصحى مع ظهور الإسلام انتشاراً واسعاً.

ولعبت أسواق العرب دوراً مهماً بانتشار الخطابة والشعر، وكانوا يجتمعون في سوق عكاظ، وغيره من الأسواق التي كانت تقام للتجارة، والتحكيم في الخصومات، وإلقاء القصائد والخطب، ومما امتازت الخطابة به قصر العبارة واحتوائها على الحكمة والموعظة، واستخدمت الخطابة للدفاع عن القبيلة أو للإصلاح بين قبيلتين. ومن خطبائهم قس بن ساعدة، وأكثم بن صيفي.

صوَّر الشعر حياة العرب، وتاريخهم، وعاداتهم، وحروبهم، وكان الشاعر يبدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال وذكر الأحبة، ثم يمدح أو يهجو أو يفتخر. كتبوا أجود قصائدهم بماء

الذهب، وعلقوها على أستار الكعبة، وأطلقوا عليها اسم المعلقات (من أصحاب المعلقات: امرؤ القيس، زهير بن أبي سلمى، عنترة بن شداد...).

وتكونت لدى العرب معارف متنوعة نتيجة الحاجة والتجربة، وطبيعة البلاد الجغرافية، فكانت لهم معرفة بهندسة البناء وعمارة المدن، وأساليب الزراعة والري والصناعة، وكل ما يتعلق بالتجارة من حساب ومكاييل ومقاييس، وبرعوا في علم الأنساب لمعرفة قبائلهم وأصولهم وصلات القربى فيما بينهم، واهتموا بالقيافة لتتبع آثار أعدائهم، أو من ضلَّ منهم في الصحراء. ولحاجاتهم للمطر عرفوا أوقات هطولها، وأنواع السحب والرياح التي تسوقها، وهذا ما سُمِّي بعلم الأنواء، وتتبعوا مواقع النجوم وأعطوها أسماءها، واهتدوا بها في لياليهم وأسفارهم (كنجم القطب والثُّريا).

وكان لهم إلمام في الطب، فعرفوا تضميد الجراح، وإجراء العمليات الجراحية البسيطة، والكي بالنار، والتداوي بالأعشاب. وبرع منهم الحارث بن كَلَدة وابنه النضر، وزينب طبيبة بني أزد. ومن أهم معارفهم الطبية البيطرة؛ إذ كان لهم خبرة واسعة بأمراض الخيل والإبل وطرائق معالجتها، وقاوموا العدوى بعزل الحيوانات المريضة عن السليمة.

الباب الثاني

الفصل السادس

الحياة الاجتماعية عند العرب الجاهليين

عدَّ أبناء القبيلة الأرض التي يحلّون فيها ملكاً لهم؛ لذلك كانوا يأخذون أجوراً من القوافل التجارية التي تمر بأراضيهم مقابل حمايتها.

أما الحضر، فقد سكنوا في القرى والمدن، ومن أهمها: مكة – يثرب – حائل – الطائف، وأقاموا في بيوت مصنوعة من الحجارة والطين أو اللَّبِن، وعملوا في الزراعة والصناعة والتجارة، وكانت الزراعة تقتصر على المناطق الصالحة لها، والتي تتوافر فيها المياه والمُناخ الملائم (نظراً لما تعانيه الزراعة من صعوبات داخل شبه الجزيرة العربية). ومن أهم المحاصيل الزراعية لديهم: نخيل التمر في الواحات (واحات الهفوف والقطيف) كما اهتم سكان المناطق الأكثر اعتدالاً في المناخ بزراعة الحبوب وإنشاء البساتين، وتعدُّ مدينة الطائف من أهم المدن التي اشتهرت ببساتينها وزراعاتها المتنوعة.

وكانت الأسرة العربية تقوم على أساس الزواج بعقد ومهر معين يدفعه الزوج إلى ولي الفتاة، ولا بد من وجود التكافؤ بين الزوجين في النسب أو الثروة، وكان هناك أنواع من أنواع الزواج الشاذة، والتي نهى عنها الإسلام كزواج الشِّغار، الذي يتم باتفاق شخصين يتزوج كل منهما قريبة الآخر- أخت بنت- وزواج المقت الزواج بزوجة الأب من قبل الابن بعد موت الأب، والزواج بالأختين دون التقيد بعدد الزوجات، وأفضل الزوجات عند العرب الجاهليين الولود الودود، والطلاق حق للرجل والمرأة التي قد تكون العصمة بيدها، ومن حق المرأة في الجاهلية أن تستثمر أموالها، والإشراف على تربية أولادها وخاصة البنات، وقد كان الإرث محصوراً بالذكور دون الإناث.

الباب الثاني

الفصل السابع

الحياة الاقتصادية لدى الجاهليين

الرعي: نظراً لكون الصحراء هي المساحة الشاملة، والكبيرة في بلاد العرب، فقد اعتمدت معظم قبائل العرب على رعي المواشي، واتخاذ حياة البداوة والتنقل أساساً لماشيتهم، فقاموا بتربية الجمال والأغنام والماعز والخيول، والكسب من خيراتها، فهي السبيل الأكبر نصيباً في معاشهم، حتى إنه إذا ذكر العربي ذكر الجمل معه.

الزراعة: اهتم العرب بالزراعة بعد الرعي لكون معظم بلادهم تتميز بأنها صحراء قاحلة لا تصلح أرضها للزراعة إلا ما ندر، فقد ورث العرب الزراعة عن أجدادهم في الرافدين وبلاد الشام، وقد اعتنى اليمنيون بالزراعة عناية فائقة، فزرعوا السهول وتعدوها إلى الجبال، وشيدوا السدود كسد مأرب لخزن المياه، وزرعوا الحبوب والأشجار المثمرة والفواكه.

التجارة: كانت التجارة العمل الرئيسي لسكان الحضر داخل الجزيرة العربية.

وهي نوعان:

١ ـ **تجارة داخلية:** تقوم على التبادل التجاري ضمن المدينة، أو الدولة.

٢ ـ **تجارة خارجية:** تقوم على التبادل التجاري مع الدول الأخرى.

ومقوِّمات التجارة جعلها تحتاج إلى طرق للمواصلات تنتقل عليها القوافل المحملة بالبضائع المختلفة،

وقد كان اليمنيون بسبب توسط بلادهم العالم القديم أهم وسطاء نشطين في نقل متاجر الهند، وجزر الهند الشرقية والصين، وسواحل إفريقية الشرقية إلى مختلف البلاد، وخاصة بلاد الشام، وقد جلبوا من الهند المعادن الثمينة والأقمشة الحريرية الفاخرة، والتوابل من خلال

طرقهم التجارية طريق عمان أو حضرموت إلى الخليج العربي، فنجد فالبتراء فبلاد الشام فمصر، أو طريق مسقط حضرموت فخواطر اليمن فخليج العقبة فبلاد الشام ومصر.

وقد أقام السكان داخل شبه الجزيرة العربية علاقات تجارية مع سواحل الخليج العربي واليمن وبلاد الشام، وقد أشار القرآن الكريم إلى النشاط التجاري لقبيلة قريش في مكة المكرمة، التي كانت تقوم برحلتين إحداهما في الشتاء إلى اليمن، والأخرى في الصيف إلى بلاد الشام. ومواد التجارة عندهم: البخور، العطور، الأنسجة، الأسلحة، الأواني المصنوعة.

تجارة داخلية: كانت تقوم بين المدن والقرى وداخل المدن نفسها حيث تحمل المواد التي يحتاجها الناس للبيع في أماكن مختلفة.

الصناعة: وأما الصناعة فلا تتعدى الأسلحة الحربية، كالسيوف والرماح وآلات الفلاحة.

لوحة فنية

الحياة العامة في العصر الجاهلي

سكن العربُ الجزيرةَ العربية منذ عهودٍ مُغرقةٍ في القدم، ولكنّ تاريخهم القديم مجهولٌ غير معروف، وأقدمُ ما نعرفه عن أخبارهم المؤكّدةِ ما أفادته النقوشُ المكشوفة حديثاً، التي يرتقي أقدمها إلى القرن التاسع قبل الميلاد، فتُقدِّم لنا معلوماتٍ عن نشوء حضارة عريقةٍ في اليمن، وعن قيام خمسِ ممالك، أشهرها: مملكتا معين وسبأ، وهي حضارة عربية صافية لم تأتِ العرب من الخارج، بل نمت وتطورت في الداخل؛ إذ كان لهم قوانينهم وأنظمتهم ودساتيرهم، وكانت لهم قدم راسخة في عمارة القصور والهياكل وتشييد السدود.

فلم يطلق على هذه الفترة اسم الجاهلية لتخلف في العلوم والمعارف، بل سمّيت جاهلية لانتشار العصبية القبلية، وما يترتب عليها من صراع وثأر وانقسام.

والمؤرخون يسمّون عرب اليمن بالعرب الجنوبيين أو القحطانيين، تمييزاً لهم من عرب الشمال، أو العدنانيين الذين كانوا يسكنون الحجاز، وتمتد عشائرهم وقبائلهم إلى باديتي الشام والعراق. وعلى الرّغم من أن أغلب القبائل الشمالية بقيت تعيش حياة صحراوية بدوية لم يتهيأ لها الاستقرار بصورة دائمة، في ممالك ثمود والأنباط وتدمر، تخرج عن هذا التعميم؛ لتقدم لنا أمثلة على استقرار بعض المناطق حين تهيأ لها ذلك. على أن هذه المعلومات تتّصل كلّها بالعهود التي سبقت العصر الجاهلي. أما في هذا العصر، فقد كان العرب قسمين: أهل الحضر والبدو، فأهل الحضر هم الذين كانوا يعيشون حياة مستقرة، ويشتغلون بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة كسكّان اليمن، وإمارتي المناذرة والغساسنة، وبعضِ مدن الحجاز كمكّة والطائفِ ويثرب. والبدو هم الذين يسكنون البادية، وهم أكثر سكّان الجزيرة، يعيشون حياة المطر، والرحلة إلى أماكنها مع حيواناتهم، وعليها اعتمادهم في مأكلهم وملبسهم وتنقّلهم المستمر، وكثيراً ما كانت أماكن الرعي، وآبار المياه والواحات أسباباً للقتال والغزو بين قبائل العرب المختلفة. إذا انتقلنا إلى حياتهم الاجتماعيّة نجد أنَّ القبيلةَ هي النواة الاجتماعية التي يتألف منها

المجتمع في العصر الجاهلي، وغالباً ما تسمّى القبيلة باسم الأب كمُضر وربيعة – ونادراً ما تنتسب إلى الأم كحنيفة وبجيلة، وقد تعرف القبيلة بحادث معين كغسان (وهو اسم للماء الذي نزلت به هذه القبيلة في أول مرة). ونظراً لتحمس البدوي العربي للعصبية، التي يرى فيها فلسفته في الحياة، فقد برزت بعض المظاهر الاجتماعية السلبية من أمثال الثأر والتناحر والتعصّب، سواء أصابت القبيلة أم أخطأت.

وقد صوّر دُريدُ بن الصمَّة ذلك في قوله:

وما أنا إلا من غُزَيَّةَ إنْ غَوَتْ غويْتُ، وإن تَرْشُدْ غُزَيَّةُ أرشُدِ

إلا أنّ ذلك لم يمنع من ظهور مجموعة القيم والمثل الأخلاقية بسبب ظروفهم المعاشية.

فالحياة الحربية جعلتهم شجعاناً ينجدون من يستغيث بهم، والجدب في البادية دفعهم إلى أن يكونوا في الجود والكرم المثل الأعلى، وكثرة التنقل جعلت العربي محبّاً للحرية، أبياً للضيم، مُعتزاً بنفسه.

أما المرأة فقد كان لها شأنها عظيماً في القبيلة، حتى إن الشَّنفرى يسمي أمّه ابنة الأحرار، اعتزازاً وافتخاراً بأمومتها. وكثيراً ما كان للمرأة دور فعال في الحروب، وعقد المعاهدات ومحاولات الصلح والسلام بين القبائل المتنازعة، وكانت تستشار في الرأي، وفي أمر زواجها.

أما الحياة السياسيّة في العصر الجاهلي، فتتجلّى في ثلاثة مظاهر:

الحكومة القبيلة، ويعد شيخ القبيلة رأس الحكومة القبليّة، ويحكمها بالشورى، ويلجأ إلى التحكيم لفضّ المنازعات والخلافات التي تحدث بين القبائل، وقد يؤدي عدم الالتزام بالحكم أو العهود والمواثيق إلى تأزّم الوضع بين القبائل، ونشوب الحروب والمنازعات. والمظهر السياسي الثاني هو حكم المدن التجارية، حيث تتركز سلطة الحكم بيد طبقة واحدة من التجار، أصحاب النفوذ المادي والمعنوي، ومن أمثلته حكم قريش الذي يتجلّى فيه كل من النفوذ التجاري، والاجتماعي، والديني.

والمظهر الثالث هو وجود النفوذ الأجنبي: فقد كان الصراع السياسي حول الزعامة شديداً بين الإمبراطوريتين القديمتين: البيزنطيّة في الشام، والساسانيّة في العراق، وقد أدّى ذلك إلى

وجود إمارات عربية متاخمة، لكل من هاتين الإمبراطوريتين، مثل إمارة المناذرة في الحيرة قرب الكوفة، الموالية للفرس، وإمارة الغساسنة في الشام، التي كانت عوناً للروم على أعدائهم، وقد استطاع ذلك النزاع أن يزوّد العرب- وخصوصاً في الحيرة والشام- بثقافة حربية سياسية أكسبتهم تجارب كثيرة.

وإذا اطّلعنا على حياتهم العقلية، ونعني بها مجموعة المعارف التي اكتسبوها نتيجة طبيعتهم الجغرافية وطرق حياتهم، وانتقالهم من مكان إلى آخر، والظروف المعاشية التي كانت تحيط بهم وجدنا أنّ بعض القبائل العربية كالتبابعة (جمع تُبّع لقب ملوك اليمن) والمناذرة في الحيرة، والغساسنة في الشام كانوا على حظّ من المعرفة والثقافة، يدلّنا على ذلك ما وصلوا إليه من مهارة في بناء السدود، وحفر المجاري المائية، وتخطيط المدن وتنظيم الجيوش.

وأبرز معارفهم الأنواءُ، فقد كان لهم إلمام بمهبِّ الرياح، وسقوط المطر، وحركة النّجوم، وذلك نابع عن واقع حياتهم البدوية.

ولعرب السواحل معرفة بالملاحة البحرية، ولا ننسى المعارف الأخرى، التي عرفها العرب بطريق التجربة والاتصال بالأمم المجاورة لهم، كعلم الطب الذي اقتصر على الطرق البدوية البسيطة، واستعمال العقاقير النباتية المتوافرة لديهم، والكيِّ بالنار.

ويُرى أن الحارث بن كلدة طبيب العرب في الجاهلية قد تعلم الطبَّ في بلاد الفرس، ومن أطباء العرب المشهورين ابن حذيم، وعنه تُروى الحكمة المشهورة: "البطنة بيتُ الداء، والحمية رأسُ الدواء".

وفي اللغة العربية أسماءٌ لكثير من العلل والأمراض والأدوية النباتيّة، ووصف لبعض الأعضاء في الإنسان والحيوان، تدل ولا ريب على مدى معرفة العرب بالطب وعلم الحياة. وتميّز العرب بالتاريخ والأخبار والأنساب إلى جانب الكهانة والعرافة بنتيجة بصرهم الثاقب وبصيرتهم المتفتّحة.

ونتناول أخيراً الحياة الدينية عند العرب، فقد دانت أكثريتهم بالوثنية، وعبادة الأصنام والأوثان، مع اعتقاد الكثير منهم بوجود إله واحد، وبأنَّ هذه الأصنام إنما وجدت لتقرِّبهم إلى الله زُلفى.

وكان فيهم من عبد الشمس والقمر، وبعضهم قال بإلهين: أحدهما للنُّور وهو مصدر الخير، والآخر للظلام وهو مصدر الشر، ومنهم من عاش لا يعرف إلهاً ولا ديناً.

على أن العرب قد تعرّفوا الديانتين السماويتين: اليهودية والنصرانية، فانتشرت الأولى في اليمن وفي يثرب، والثانية في ربيعة وغسان وبين أهل الحيرة.

أما الكتابة، فكان شأنها ضئيلاً عند العرب، لذلك كانت الرواية الشفهية هي المصدر المعين لحفظ التراث الفكري والعقلي للعرب، حتى بعد الإسلام: وإلى زمن التدوين والكتابة الذي بدأ يتطوّر بسرعة حتى شاعت الكتابة في أواخر العصر الأموي، وأوائل العصر العباسيّ، لكن هذا الحكم ليس مطلقاً، فقد وردت إشارات كثيرة في الشعر تشير إلى الكتابة والكتاب، والقلم والصُّحف، والدواة، وغير ذلك من وسائل الكتابة المعروفة.

الباب الثالث

الأنساب والعصبية القبلية
لدى الجاهليين

الباب الثالث

الفصل الأول

الأنساب والعصبية القبلية

ـ ١ ـ

مفهوم الأنساب عند العرب

عاشت أمتنا العربية في جزيرتها العربية في العصر الجاهلي على شكل قبائل لا تنظمها وحدة سياسية دفعت هذه القبائل أبناءها إلى عصبية قبلية ذات أثر فعال في السياسة القبلية، والمجتمع القبلي فكراً وأدباً جلب الفتن والاضطرابات، التي أسهمت في اختلال بناء المجتمع وتقطيع الوشائج التي تربط بينه وزرع الفتن والحزازات، ومشاعر الكره بين القبائل وتأجيج شرعة الثأر.

ومن البديهي أن تؤثر هذه النزعة القبلية على الشعر والشعراء؛ لأن الأدب انعكاس للحياة السياسية والاجتماعية والفكرية للأمة، وقد اتسم الشعراء بغلوِّهم وعصبيتهم لعشائرهم؛ مما جعل آثار هذه النزعة تسيطر على شعرهم، وإنك لا تكاد تجد أمة من الأمم تعنى بأنسابها مثل أمتنا العربية، بل تجاوزت ذلك إلى أنساب الخيل وسلالاتها، ولذلك نجد العرب يعنون بهذا النسب منذ انحدارهم من صلب آبائهم.

ويعدُّ كتاب جمهرة الأنساب لهشام بن محمد بن السائب الكلبي من أهم المصادر التي اعتمد عليها الباحثون، وقد عرف عن العرب أنهم جميعاً انحدروا من سلالة سام بن نوح، حيث انقسم هؤلاء العرب إلى عاربة- متعربة- مستعربة، وقد تبيَّن لنا أن جميع قبائل العرب ترجع إلى قحطان أو عرب الجنوب، وعدنان أو عرب الشمال، وتعتمد الأنساب العربية على رابطة الأبوة، حيث تنحدر كل قبيلة من أب واحد على أن القبيلة هي جماعة تنتمي إلى أب واحد، وتأخذ اسمها من هذا الأب (تميم- كليب- الأوس- الخزرج- قيس) وهي أسماء رجال، وقد تسمى القبيلة باسم الأم كـ(بجيلة- خندف)، وقد تنسب القبيلة للحاضنة (باهلة- عكل) وقد انتشرت هذه القبائل بفعل الهجرة في شمال الجزيرة وجنوبها، ومع أن

الباحثين شكّكوا ببعض الأنساب العربية، إلا أن معظمها بقي على ما هو عليه، بالرغم من أنهم استندوا فيما نقلوه عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا بلغ نسبه إلى عدنان أو أدد: "ومن هنا كذب النسابون"، ومهما يكن فإن القبائل العربية كانت تهتم برابطة الدم لا برابطة الأبوة؛ لأن صلات القربى عند الأمم جميعها كان قانون النزاع الدموي، ويعتقد المستشرق سميث في كتابه (رابطة القربى)- الزواج في بلاد العرب القديمة- بوجود الطوطمية عند قبائل العرب، والتي تستمد حياتها من حيوان أو نبات أو شيء آخر؛ ذلك أن حيوان الطوطم مقدس يعطي القبيلة اسمها الذي يصبح مقدساً، واعتقد سميث أن هناك صلة بين الطوطمية والزواج الخارجي؛ لأن الزواج محرم بين أفراد الجماعة المنتمية إلى طوطم واحد؛ مما يجعل رجال القبيلة يلجؤون إلى اختطاف زوجاتهم من قبيلة أخرى، وقد سميت كثير من القبائل العربية باسم الحيوانات (أنمار- ضباب- كلب- أسد) وقد نجم عن ذلك زواج المشاركة والزواج المؤقت.

وإذا كان النسّابون يقسمون العرب إلى عدنان وقحطان، فإنهم جعلوا عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بينما اختلفوا في نسب قحطان الذي أطلق على أبنائه العرب المتعربة؛ لأنهم سكنوا ديار العرب العاربة.

فيما عرف أبناء إسماعيل بالعرب المستعربة؛ لأنهم ليسوا عرباً خلصاً، فقد أخذوا اللغة العربية عن قبيلة جرهم؛ إذ إن إسماعيل أصهر إلى قبيلة جرهم، وشبَّ بين ظهرانيهم، فنسي لغة أبيه وتعلم لغتهم، وهكذا انقسمت القبائل العربية إلى (معدية- عدنانية) وقد وضع حسان بن ثابت رضي الله عنه (قحطان بإزاء معد) في إحدى قصائده قائلاً:

فلو سُئلت عنه معدٌّ بأسرها وقحطان أو باقي بقية جرهم

وكثيراً ما كان حسان يقول:

لنا في كل يوم من معدٍّ سباب أو قتال أو هجاء

وقد فصل النسابون في الأنساب العدنانية، وتعداد أبناء عدنان (معد – عك – نزار – مضر – ربيعة) وأما تعداد الأنساب القحطانية، وتعداد أبنائها فهي: (حمير- كهلان- الأزد- بجيلة- قثعم – مذحج – طيئ – عاملة – لخم – جذام – كندة).

الباب الثالث

الفصل الثاني

الأنساب والعصبية القبلية

-٢-

مظاهر العصبية القبلية

عرفت العصبية القبلية بدعوة الرجل إلى نصرته على من يعاديهم ظالمين أو مظلومين، والعصبية القبلية لا تكون إلا لقرابة الرجل وذوي رحمه الأقربين وحدهم، وإنما تكون للقبيلة بأسرها؛ إذ يشعر كل رجل في القبيلة أنه مسؤول عن جميع أفرادها، وهذه العصبية القبلية هي أخطر الظواهر الاجتماعية التي عرفتها البشرية، فهي تنافي الشعور الديني، والإنساني، والشعور القومي، وهي مبنية على وحدة الدم، وعلى لحمة النسب، تُملي على أبناء القبيلة واجبات مشتركة، وتكلفهم تبعات لا يمكن لهم التنصل منها ينصرون أي رجل ينتمي إلى هذه القبيلة:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا

وقد دلَّت الحكمة على ذلك حين قالت: في الجزيرة تشترك العشيرة، وحتى لو اصطدمت العصبية القبلية بالعاطفة الزوجية تكون الغلبة لهذه العصبية لا للزوجة، فقد طلق حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه زوجته عمرة الأوسية حين فخرت عليه بقومها، وعلى الرغم من تأكيد الباحثين على تركيز البدويِّ على منفعته الخاصة وفرديته المميزة، إلا أن ذلك يذوب في خضم العصبية القبلية.

وإن مظاهر العصبية القبلية في تماسك أبنائها الوثيق، وتعاونهم على تيار مصلحتها، وفي ذلك يقول دريد بن الصمَّة.

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

أما المقنع الكندي فيطوي كشحاً عن الضغائن التي تقوم بينه وبين بني عمه قائلاً:

فـــإن أكلـــوا لحمـــي وفـــرت لحـــومهم وإن هـــدموا مجـــدي بنيـــتُ لهـــم مجـــدا

وكذلك تتجلى مظاهر هذه العصبية في طاعة أفراد القبيلة لسيدهم، وحرص القبيلة على نسبها والاعتزاز به وباستقلالها، وكراهيتها الخضوع لقبيلة أخرى.

ومن مظاهر هذه العصبية الوقائع الدامية، والغارات المتصلة بين القبائل، ونشوء أخطر ظاهرة على وجه الأرض وهي ظاهرة (الثأر).

يقول الشاعر دريد بن الصمَّة:

يُغـــــار علينـــــا واتـــــرين فيشـــــتفي بنـــــا إن أجبنـــــا أو نغـــــير عـــــلى وتـــــر

فالعصبية القبلية ضيقة الحدود، ولا ترى في غيرها سوى أعداء يريدون السيطرة عليها، ونهب ممتلكاتها، وسبي نسائها، وهذا ما يفسر نشوب الحروب حتى بين بطون القبيلة الواحدة، ونشوء تحالفات قبلية مع جماعات أخرى غريبة عنها.

وأبرز ظواهر العصبية القبلية:

١- حرص القبيلة على سيادتها وكرامتها.

٢- الأحلاف القبلية.

٣- الأيام الجاهلية.

٤- المناحرات القبلية.

الباب الثالث

الفصل الثالث

عصبية العرب
(المعطى والشمول)

تعدُّ العصبية القبلية من المظاهر المهمة عند العرب؛ إذ هي تستولي على عقولهم ومشاعرهم وعواطفهم، وبالتالي تسيِّر معظم حياتهم؛ لأنها الدافع لتصرفاتهم في الجاهلية، والعصبية عند العرب نوعان:

١- **عصبية الدم:** وهي أساس القرابة في البيت الواحد، ومصدر الترابط الوثيق بين أفراد القبيلة، والقبيلة في البادية دولة صغيرة، تنطبق عليها مقومات الدولة، باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها. فمن المعروف أن أهل الوبر لم تكن لهم أوطان ثابتة؛ بسبب تنقلهم الدائم وراء مصدر الماء والعشب، وكان ضيق أسباب الحياة في الصحراء حافزاً لهذه القبائل المتبدية على التنقل والتحرك، كما كان سبباً في اعتزازهم بالعصبية التي أملتها الظروف الصعبة المحيطة بهم. وبفضل العصبية أمكن لهذه القبائل أن تدافع عن كيانها، والتغلب على غيرها، لتضمن لنفسها مورداً لحياتها، ولذلك كانت حياة القبائل المتبدية صراعاً دائماً، والصراع هجوم ودفاع، فالهجوم يتم بقصد الحصول على مزيد من الرزق، والدفاع يقومون به للحفاظ على وجود القبيلة؛ والدفاع والهجوم يتطلبان التكتل والدخول في أحلاف مع القبائل الأخرى. ولهذا اعتبر قانون القبيلة قانون الغاب، وقوامه " الحق في جانب القوة "، فمن كان سيفه أمضى وأقوى كانت له الكلمة والغلبة، وكان الحق في جانبه.

٢- **عصبية الانتماء:** وهي الانتماء إلى أب بعيد أو جد مشترك من نسله تكونت القبيلة أو القبائل المنتمية إليه، وهي عصبية تجمع أفراد القبيلة مهما بعد بينهم الدم، وتجعلهم يدافعون عن أفراد القبيلة، ولو لم يرتبطوا بدمائهم، وتعتبر القبيلة الوحدة السياسية عند العرب في الجاهلية؛ ذلك لأن القبيلة هي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك، تجمعهم

وحدة الجماعة، وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، ورابطة العصبية هي شعور التماسك والتضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم، وهي على هذا النحو مصدر القوة السياسية والدفاعية التي تربط بين أفراد القبيلة؛ لأن العصبية تدعو إلى نصرة الفرد لأفراد قبيلته، ظالمين كانوا أم مظلومين، وتقوم العصبية على النسب، وقد نشأ النظام القبلي كضرورة اجتماعية، وحيوية، حتى يتنقل أبناؤه في جماعات وعشائر توفر لأفرادها الحماية والأمن... ولم يقتصر وجودها على البادية، بل تعداها إلى الحواضر على قلتها وتناثرها في الصحراء المترامية.

ولقد كانت هيمنة القبيلة هي الأساس في البادية والحاضرة؛ حيث إن هذه القبائل لم تفقد صورتها القبلية، فقد ظل لكل منها منازلها الخاصة ومعاقلها الصغيرة، وسيادتها وشؤونها الخاصة، ومرد ذلك إلى أن رابطة القبيلة كانت أقوى من رابطة المدينة، حتى أنه قد تؤدي الثارات بين قبيلة وقبيلة إلى انقسام المدينة على وحدة القبيلة، التي كانت أمراً مقدساً ترتب عليه طائفة من التقاليد يحدد علاقة الأفراد مع بعضهم... وعلاقة الأفراد بقبائلهم؛ لأن القبيلة هي الوحدة الاجتماعية التي عرفها المجتمع الجاهلي في البادية والمدن، وكان أفراد القبيلة يؤلفون أسرة واحدة قائمة بذاتها لا اختلاط فيها، متجانسة لا تباين بين أفرادها... يعمل الجميع في سبيل هدف واحد وهو المحافظة عليها، وقد آمنت القبيلة بوحدتها، وجعلت ذلك أمراً مقدساً، ترتب عليه طائفة من التقاليد الاجتماعية، تحدد واجبات الأفراد وحقوقهم، وأساس هذه التقاليد هو العصبية، التي تقضي أن يُنصر الفرد من قبل أفراد قبيلته ظالماً أو مظلوماً، ولو رجعنا إلى الشعر الجاهلي لوجدنا الكثير منه يصور لنا هذه العصبية دون الاحتكام إلى عقل مستنير، ولا هدى، أو بصيرة؛ لأن التعصب لقبيلته يفوق كل اعتبار.

يقول دريد بن الصمَّة:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى ... فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

فالشاعر يرى رأي قبيلته غـزيـة، بل يـتـنازل عن رأيه من أجل رأيها، ولو كان خطأً، فغيه وضلاله، وكذلك رشده مرتبط كله بعشيرته، فإن ضلت ضل معها، وأمعن في ضلاله، وإن اهتدت اهتدى معها وأمعن في هداه.

و يعبر النابغة الذبياني عن المعنى نفسه بقوله:

حـــدبت عـــليَّ بطـــونُ ضـــبّةَ كلُّهـــا إنْ ظالـمـــــاً فـــــيهم وإنْ مظلومـــــا

وعلى الـفـرد أن يحـتـرم رأي قبيلته، فلا يخرج عليه، ولا يكون سبباً في تمزيق وحدتها، أو الإساءة إلى سمعتها بين القبائل أو تحميلها ما لا تطيق، ولذلك اتخذت القبيلة حق الخلع، أي الطرد لبعض أفـرادهـــا إذا تمردوا على تقاليدها، من قتل بعض أفرادها، أو تعدد جرائره عليها، أو سوء سلوكه من الناحية الخلقية حسب مفاهيمها للأخلاق آنذاك، ويعتبر الخلع أشد عقوبة توجه للفرد في المجتمع البدوي، فجناية كل فرد من أفراد القبيلة جناية المجموع، يعصبونها برأس سيد العشيرة، ولهم عليه أن يتحمل تبعاتها، وله عليهم أن يطيعوه فيما يأمرهم به، وشيخ القبيلة يكون عادة شيخاً مجرباً هو سيدها له حـكـمـة وســداد رأي، وسـعـة في الثروة... وهو الذي يقودها في حروبها ويقسم غنائمها، ويستقبل وفود القبائل الأخرى، ويـعـقـد الصـلـح والمحـالـفـات ويقيم الضيافات، وسيادته رمزية، وإذا بغى كان جزاؤه جزاء كليب التغلبي عندما بـغـى وطـغى على أحلافه من قبيلة بكر فقتلوه؛ مما كان سبباً في نشوب حرب البسوس المشهورة.

ولابد من توفر صفات في شيخ العشيرة وقائدها، كالشجاعة والحسب والكرم والـنـجدة وحفظ الجوار وإعانة المعوز، ولابد أن يتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة، وما تدفـعـه من ديات، وغالباً يرث الشيخ سيادته عن آبائه، وإلى ذلك يشير معاوية بن مالك سيد بني كلاب، وهو الملقب (بمعوِّد الحكماء) حيث يقول:

إني امـــرؤ مـــن عـــصبة مشـــهورة حشـــد، لهـــم مجـــد أشـــم تليـــد
ألـــفوا أبـــاهم ســـيداً وأعـــانهم رم وأعـــــمام لهـــــم وجـــــدود
نعطـــي العشـــيرة حقـــها وحقيقهـــا فيهـــا، وتغفـــر ذنبهـــا وتســـود

وإذا تحملنا العشيرة ثقلها قمنا به، وإذا تعود نعود

ويقول عبد الله بن عنمة، وكان حليفاً لبني شيبان يرثي بسطام بن قيس سيد بني شيبان، ويذكر أعلام رياسته وقيادته:

لك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

والمرباع هو ربع الغنيمة كان الرئيس يأخذه في الجاهلية، والصفايا جمع صفية، وهي ما كان يصطفيه الرئيس لنفسه من خيار الغنيمة، والنشيطة ما أصابه الجيش في طريقه قبل الغارة من فرس أو ناقة، والفضول ما فضل فلم ينقسم، نحو الإداوة والسكين، والنوعان الأخيران قد سقطا في الإسلام

والاعتزاز بالأنساب والقوة جزء مهم من العصبية القبلية عند الجاهليين، ولقد آمنت القبيلة بوحدة جنسها- أي وحدة الدم- فهم جنس ممتاز لا تفضلهم قبيلة أخرى، وهم يفضلون كل القبائل، آباؤهم أشرف آباء وأمهاتهم أكرم أمهات، وهم أجدر الناس أن يكونوا خير الناس، ولعل هذا ما يفسر لنا تلك المنافرات التي امتلأت بها أخبار العصر الجاهلي، وذلك الفخر الذي تدوي أصداؤه في قصائد شعرائه، ولعل معلقة عمرو بن كلثوم خير ما يمثل الاعتزاز بالنسب، والفخر بالآباء، والأجداد حيث يقول:

ورثت مهلهلاً والخير منه زهيراً نعم ذخر الذاخرينا

وعتّاباً وكلثوماً جميعاً بهم نلنا تراث الأكرمينا

ومنا قبله الساعي كليب فأي المجد إلا قد ولينا

ثم يعتز بقوة قبيلته وعزتها وجبروتها فيقول:

ونحن الحاكمون إذا أطعنا ونحن العازمون إذا عُصينا

ونحن التاركون لما سخطنا ونحن الآخذون لما رضينا

وأنا المنعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا أتينا

وأنا الشاربون الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطينا

وإلى أن ينسى الشاعر نفسه، ويتصور أنهم ملوك الدنيا المتصرفون الباطشون بلا رادع، حيث يقول:

لنا الدنيا ومن أضحى عليها ... ونبطش حيث نبطش قادرينا

إذا ما الملك سام الناس خسفاً ... أبينا أن نقرَّ الخسف فينا

والمعلقة كلها ضجيج وصياح وهياج، وإزباد يتجاوز حدود العقل إلا أنها الجاهلية المتغطرسة، انظر إليه حيث يقول:

إذا بلغ الفطام لنا صبي ... تخر له الجبابر ساجدينا

ملأنا البر حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤه سفينا

ألا لا يجهلن أحد علينا ... فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فالشاعر يفتخر بكثرة عدد عشيرته، حتى ملأ أفرادها وجه الأرض وضاق البحر بسفنهم؟ وطفلهم إذا بلغ الفطام انحنى له الجبابرة سجوداً ومذلة.

أما المرقش الأكبر فيفتخر بكثرة عدد قومه من بني بكر بن وائل؛ إذ يقول:

هلا سألت بنا فوارس وائل ... فلنحن أسرعها إلى أعدائها

ولنحن أكثرها إذا عد الحصى ... ولنا فواضلها ومجدُ لوائها

ثم يفتخر بقوة قومه في الحروب، فهم شعث الرؤوس، ونادبهم خير ناد وأشرفه فيقول:

شعث مقادمنا نهبى مراجلنا ... نأسو بأموالنا آثار أيدينا

المطعمون إذا هبت شآمية ... وخير ناد رآه الناس نادينا

فهم أصحاب حروب وقِرى.

وهذا طرفة بن العبد يفتخر بقبيلته بكر، ويتحدث عن كرمها وقوتها وحسبها؛ إذ يقول:

ولقد تعلم بكر أننا ... آفة الجزر مساميح يُسُر

ولقد تعلم بكر أننا ... فاضلو الرأي وفي الروع وُقر

ولـقـــد تـعـلـــم بـكـــر أنـــنـا صـــادقو البـــأس وفي المحفـــل غـــر

والشاعر لبيد بن ربيعة يفخر بأحساب قومه وشرفهم في معلقته، فالمجد فيهم قد سنَّه آباؤهم وعلموهم إياه فتبعه صغارهم بعد كبارهم إذ يقول:

مـــن معشرـــ ســـنت لهـــم آبـــاؤهم ولكـــل قـــوم سُـــنَّة وإمامهـــا

فبنـــوا لنـــا بيتـــاً رفيعـــاً ســـمكه فســـما إليـــه كهلهـــا وغلامهـــا

وكانت كل قبيلة تؤلف وحدة مناوئة لكل القبائل الأخرى؛ لذلك يحزن الشاعر ذو الإصبع العدواني على تفرق قومه بني عدوان، واختلافهم بعد ائتلافهم واتحادهم فيقول:

عـذير الحي من عدوا ن كانوا حيـــة الأرض

بـغـــــى بـعـــــضهم بعضـــــاً فلـــــم يُـرعُـــــوا عـــــلى بعـــــض

ومـــــــنهم كانـــــــت الســـــــادا ت والمـوفـــــــون بـالـقـــــــرض

وعدوان من قيس عيلان بن مضر بن نزار، كانوا من أعز العرب وأكثرهم عدداً، ثم وقع بأسهم بينهم فتفانوا.

إن الأنساب مهمة وأساسية في حياة العربي آمن بها إيماناً شديداً، وصارت علماً عندهم إذا رأوا فيه ما يراه الناس في الوطن الآن، والقبائل جميعها المتبدية منها والمتحضرة كانت تتحد في نظمها السياسية، وهي نظم قبلية تشترك في تقاليد وأعراف وتتمسك بهما تمسكاً شديداً، الرابط الوحيد بين أفرادها هو العصبية، فيها يجد الفرد الأمن والسلامة في مجتمع لا يؤمن إلا بالقوة، حيث لا دولة تحميه، ولا سلطة يتحاكم إليها، وكانت القبائل تعقد الأحلاف مع قبائل أخرى من أجل حروبهم، ويضع أفراد القبيلة أنفسهم في خدمتها وخدمة حقوقها، وعلى رأسها حق الأخذ بالثأر، وكثيراً ما تتكرر الحروب والغارات، وهي ما تسمى بأيام العرب... فكل قبيلة مستعدة دائماً للحرب والإغارة، ولذلك كانت الشجاعة والفروسية مثلهم الأعلى.

الباب الثالث

الفصل الرابع

النظام القبلي والبناء القبلي

تعد القبيلة في العصور القديمة المرحلة الأولى من مراحل التنظيم السياسي والاجتماعي الذي لاءَم الطبيعة العربية في سكناها في الصحراء والبادية، نظراً للجفاف الذي يسيطر عليها مع أن نمط المعيشة العربي لم يكن واحداً في جميع القبائل؛ ثمة قبائل تعيش في القرى والمدن حياة مستقرة أدنى إلى التحضر بالقياس إلى القبائل المتبدية كـ(قريش في مكة) و(الأوس والخزرج في المدينة) و(الغساسنة في الشام) و(آل نصر في الحيرة) و(بني حنيفة في الحجر واليمامة)؛ وثمة قبائل أخرى تعيش على البداوة، وتنزل حيث تجد (الماء والكلأ)، وقد كانت القبيلة في العصر الجاهلي وحده سياسة مستقلة قائمة بذاتها مع تمثيلها لوحدة اجتماعية لها نظمها وأعرافها وتقاليدها، ومع عدم تكيف القبائل العربية مع بعضها في العيش، فقد كانت تعيش تحت إمرة إمارة واحدة، ولعل النسّابين قسموا المجتمع إلى نظام هرمي تمثله (الشعب – القبيلة – العمارة – البطن – العشيرة – الفصيلة) وهذا ما قصده القرآن الكريم في قوله في سورة الحجرات الآية (١٣): (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد قسمت القبيلة إلى طبقات (طبقة ممتازة (الصرحاء) ولها الصدارة والامتيازات، وطبقة (الموالي) وهم موالي النسب والجوار والدار، وطبقة (العبيد المسترقيّن) ومصدرها (الحروب)، ويتزعم القبيلة شيخها الذي يشرف على مجلس قبلي يضم شيوخ البطون مع تولي سيد القبيلة تصريف شؤونها وأمورها، وهذه المشيخة تنقل بالوراثة إلى الأبناء، وفي ذلك يقول بشامة بن الغدير:

وجـــدت أبي فـــيهم وجـــدي كلـــيهما يطـــاع ويـــؤتى أمـــره وهـــو محتبـــي
فلـــم أتعمـــل للســـيادة فيهـــم ولكـــن أتتنـــي طائعـــاً غـــير متعـــب

واختيار سيد القبيلة يكون بشروط وصفات لخصها لنا عامر بن الطفيل قائلاً:

إني وإن كنـــت ابـــن ســـيد عـــامر وفارســها المنــدوب في كــل موكــب
فـــما ســـوّدتني عـــامر عـــن وراثـــة أبـــى الله أن أســـمو بـــأم ولا أب
ولكننـــي أحمـــي حماهـــا وأتقـــي أذاهـــا وأرمـــي مَـــنْ رماهـــا بمنكـــب

ومن أهم هذه الصفات (سداد الرأي ورجاحة العقل، والحلم، ووفرة المال). وقد أوصى قيس بن عاصم بنيه بالحرص على استصلاح المال منبهة للكريم، وليس لفضله بنفسه.

إذا المرء أثرى ثم قال لقومـه أنا السيد المفضى إليه المعمم

ولم يعطهـم خـيراً أبـوا أن يسـودهم وهـان علـيهم رغمـه وهـو ظـالم

وقد جمع حسان طائفة من صفات السيادة:

وإنـا لقـوم مـا نسـود غـادرا ولا نـاكلاً عنـد الحمالـة زمـلا
ولا مانعـاً للـمال فـيما ينوبـه ولا عـاجزاً في الحـرب جبـاً مغفـلا
نسـوّد منـا كـل أشـيب بـارع أغـر تـراه بـالحلال مكلـلا

وقد كان الأحنف بن قيس إذا غضب غضب له من قومه مئة ألف سيف لا يسألونه فيما غضب؛ أما صلة القبائل بعضها ببعض فقد كانت تقوم أول ما تقوم على العداوة والغزو والنزاع المتصل، هذا الغزو الذي يعد ضرورة حيوية ألجأتهم إليها قسوة طبيعتهم، وقلة الخيرات وقلة أسباب الرزق، وهي صورة من صور تنازع البقاء في تجمع فقير مجزأ تتنافس وحداته، كذلك كانت كل قبيلة تعد الغزو من مفاخرها، وفي ذلك يقول القطامي:

وكـنّ إذا أغـرْنَ عـلى قبيـلٍ فـأعوزَهُنّ نهـبٌ حيـثُ كانـا
أغـرْنَ مـن الضـباب عـلى حـلالٍ وضـبَّة إنـه مـن حـان حانـا
وأحيانـاً عـلى بكـرٍ أخينـا إذا مـا لم نجـد إلا أخـانا

وقد وصف قريط بن أنيف قبيلتة بالضعف لعدم قدرتها على رد حقه إليه حين قال:

لـو كنـت مـن مـازن لم تسـتبح إبـلي بنـو اللقيطـة مـن ذهـل بـن شـيبانا
قـوم إذا الشرّ أبـدى ناجذيـه لهـم طـاروا إليـه زرافـاتٍ ووحـدانا

لكـــن قـــومي وإن كـــانوا ذوي عـــدد ليســـوا مـــن الشر ـــ في شيء وإن هانـــا

وأما الصلات السلمية بين القبائل فقد كانت تتمثل بالمصاهرة والنسب، وإيواء المسافرين ليلاً في القرى وإجارة الرجل في قبيلة أخرى لجناية جناها في قبيلة، إضافة إلى حماية الجار المفخرة التي تعد عند الجاهليين من أعظم المفاخر مع عقد الأحلاف مع القبائل الأخرى، خاصة إن كانت القبيلة صغيرة قليلة العدد، وهناك أحلاف دائمة وأحلاف مؤقتة بين القبائل، ومن أحلاف الدم المشهورة عند العرب (حلف لعقة الدم في قريش، حلف الفضول، حلف البراجم، حلف الحمس وهو حلف ذو طابع ديني، حلف الحلة، حلف الطلس).

الباب الثالث

الفصل الخامس

الأشهر الحرم وتقديس الجاهليين لها

لم تكن حياة الإنسان على الأرض سوى معركة مستورة مع أخيه الإنسان تتمحور حول أنانيته أحياناً، ومصالحه الخاصة أحياناً أخرى، وهو بطبيعة الحال، أي: الإنسان بحاجة دائمة للقتال الذي تتخلله الراحة، والعرب كغيرهم لم يشذّوا عن هذه القاعدة، فقد كانت حياتهم صراعاً مستمراً تتخلله راحة بسيطة، ولذلك ألجأت ضرورات الحياة المشتركة قبائل العرب في العصر الجاهلي بعد إدراكها لمعنى استمرار القتال إلى إقرار ضرب من الموادعة يأذن لها أن تصيب حظاً من الأمن والدعة، ويتيح لها أن تنصرف إلى أداء مناسك الحج، وإقامة الشعائر الوثنية المتصلة به، وإلى ابتياع ما تفتقر إليه من مأكل وملبس وغيرهما، وإلى افتداء الأسرى وأداء ديات القتلى، فكان من ذلك هذه الأشهر الحرم التي لا يحل فيها قتال ولا عدوان، وقد أرجعت بعض المصادر إسباغ صفة القداسة على الأشهر الحرم وتحريم القتال فيها إلى دين إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، الذي كان عليه العرب قديماً، وعدة هذه الأشهر أربعة هي (ذو العقدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب) وقد ذكروا أن العرب كانت تسمى رجباً (الأصم)؛ لأنهم كانوا لا يسمعون فيه قعقعة سلاح ولا صوت مستغيث ، ويسمونه متصل الأسنة؛ لأن العرب كانوا ينصلون فيه أسنتهم، ويكفون عن القتال، وقد جاء في بعض المصادر أن ثمة أناساً من طيئ وقضاعة، وغيرهما كانوا لا يقيمون لهذه الأشهر حرمة؛ وعلى أي حال كان تحريم القتال في هذه الأشهر من ضرورات الحياة المشتركة في المجتمع القبلي، فإذا كان الشهر الحرام وضع الناس سلاحهم، وقصدوا مكة لأداء شعائر الحج والطواف بالكعبة ، وفي الأشهر الحرم أيضاً تتصل القبائل بعضها ببعض سواء في المواسم والأسواق، أو خارج نطاقها ، لافتداء أسراها ودفع ديات القتلى ، والتماساً للمصاهرة، ولاستثابة مَنْ مُنَّ عليهم بالإطلاق من الأسر ، ولنحو ذلك من دواعي اتصال القبائل بعضها ببعض. جاء في بعض

الأخبار أن عروة بن مرة ، أخا أبي خراش الهذلي ، أسره قوم، فلما دخلت الأشهر الحرم مضى أبو خرا ش إليهم، ودفع إليهم فكاك أخيه فاستنقذه من الأسر، وأن قيس ابن المنتفق العامري أسر في بعض المواقع، فأتاه آسره في الشهر الحرام يستثيبه فأعطاه إبلاً كثيرة، وأن عتيبة بن الحارث بن شهاب أسر، فاحتال في فك قيده، وهرب في الشهر الحرام فأفلت من القوم بغير فداء. وقد ظلت لهذه الأشهر حرمتها بعد ظهور الدعوة الإسلامية، وحين عدا عبد الله بن جحش وأصحابه على عير لقريش في الشهر الحرام، وقتلوا ابن الحضرمي غضب الرسول صلى الله عليه السلام وأبى أن يأخذ مما غنموا شيئاً، وكان انتهاك حرمة الشهر الحرام مما أخذته قريش على المسلمين، حتى نزلت الآية: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير... " فسري عن المسلمين وقبض الرسول حصته من الغنيمة. وإلى ذلك أضيفت حرمة وقداسة على بقعة معينة من بلاد العرب، كانت القبائل تجتمع فيها لقضاء مناسك الحج في مكة، وما أطاف بها، وكل من ضمه هذا الحرم كان آمناً أن يقتل، أو يؤخذ ماله أو يُعتدى عليه ، سواء أكان ذلك في الأشهر الحرم أم في غيرها. وكانت قريش إذا أرادت قتل أسراها أخرجتهم إلى مكان يعرف بالتنعيم، خارج حدود الحرم، فقتلتهم هناك. وكانت منزلة الحرم في نفوس العرب تفوق منزلة الأشهر الحرم. وقد أمنت قبيلة قريش على نفسها ومالها وتجارتها، وكان لها من المنزلة في نفوس العرب ما ليس لغيرها بسبب نزولها الحرم، وقيامها على أمور الكعبة. ولما جاء الإسلام أقرَّ لمكة المكرمة حرمتها ، إلا أن الرسول أدخل المدينة المنورة أيضاً في نطاق التحريم، فأصبحت لا يحمل بها سلاح، ولا يقطع شجر. وكان من قبائل العرب من لم يعرف للأشهر الحرم، ولا للحرم هذه الحرمة التي تحدثنا عنها كطيئ، وبعض قضاعة وخثعم ، وقد عرف هؤلاء بالمحلين، وكانت قريش تضطر في سبيل رعاية مصالحها التجارية ، إلى اصطناع طائفة من رؤساء القبائل المحلة هذه بالمال ، وأن تجعل لهم نصيباً من الربح كي لا يتعرضوا لقوافلها التجارية بسوء ، وهذا ما عرف بالإيلاف. وكانت قريش تضطر كذلك إلى رد عادية ذؤبان العرب وصعاليكها وخلعائها، الذين كانوا يخرجون على الأعراف السائدة في المجتمع القبلي، ولا يرعون حرمة الحرم ولا الأشهر الحرم ، وقد عرف هؤلاء أيضاً بالمحلين ، وكان من العرب من تطوع لقتالهم ودفع أذاهم، على أن القبائل المحرمة

نفسها لم تستطع الحيلولة دون وقوع الشر فيما بينها خلال الأشهر الحرم، ولاسيما عند اجتماعها، واحتكاك بعضها ببعض في الأسواق ، وفي سوق عكاظ خاصة ، فكان من ذلك هذه الحروب التي قامت بين كنانة وقريش من جانب، وقيس عيلان من جانب آخر ، والتي عرفت بحروب الفجار لوقوعها في الأشهر الحرم ، وقد شهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو بعد غلام ، بعض هذه الحروب.

وكان العرب ربما ضاقوا بأن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يغـزون فيها، ولا يغير بعضهم على بعض، ولاسيما في السنين المجدبة، فكانوا يكتفون بتحريم شهري ذي القعدة وذي الحجة، ويحلون القتال في المحرم ، ويحرمون مكانه صفراً، وهذا ما عرف بالنسيء. وقد ذكروا أن أول من نسأ الشهور على العرب القلمس الكناني ، ثم أصبح هذا الأمر في يد قبيلة بني كنانة بعده لا يتولاه سواها، ولا ندري لم أفردت قبيلة كنانة بهذه الميزة ، وربما كان ذلك مهمة الإشراف على شعائر الحج، وغيرها من الأمور المتصلة بعقيدتهم ، فيكون لبعضها الإفاضة ولأخرى السقاية، وهلم جراً. وكان شعراء كنانة لا يزالون يفاخرون القبائل الأخرى بهذه الميزة التي انفردت بها عشيرتهم، وحين جاء الإسلام كان النسيء من الأمور التي حرمها على الناس: (إن النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله).

الباب الثالث

الفصل السادس

الأسـواق والمواسم الجاهلية

كان للعرب أسواق تجارية موسمية لبيع منتجاتهم وشراء حاجاتهم، تقام خلال أيام محددة في السنة وكانت هذه الأسواق فرصة لعرض النتاجات الفكرية للأدباء والخطباء، ووسيلة للتعارف فيما بينهم، وتوحيد لهجاتهم المتعددة، وفي ظل هذه الحرمة التي كانت للأشهر الحرم في نفوس العرب كانت تقوم في مواضع من بلاد العرب أسواق يختلف إليها الناس للامتيار، وشراء ما يفتقرون إليه من مأكل وملبس، وغيرهما، ومن الأسواق ما كان يقوم في غير الأشهر الحرم، فيحتاج الناس عند غشيانها إلى أحد يحميهم من عدوان القبائل التي يجوزون بديارها، وذكر أنها كانت تقام في أوقات متتابعة تأذن للعرب أن يختلفوا إليها إذا شاؤوا، وهذه الأسواق كان يختلف بعضها عن بعض سواء في صورة المبايعة فيها، أو في أنواع العروض والسلع التي تباع فيها. والأسواق التي تقع في منطقة تتبع إحدى الدول، أو إحدى القبائل كانت تفرض عليها المكوس، ومن أشهر هذه الأسواق (دومة الجندل، وصحار، ودبا، والمشقر، وحجز، وذو المجاز، ومجنة، وعكاظ)، وكانت سوق عكاظ أشهر هذه الأسواق، وأعظمها شأناً في بلاد العرب، وموعد قيامها مستهل ذي القعدة، أو من منتصفه حتى مستهل ذي الحجة، وموضعها بين نخلة والطائف، وأرضها صحراء مستوية لا عَلَم بها، ولا جبل وارتباط هذه السوق بمواسم الحج يشعر بأن لها طابعاً دينياً إلى جانب صفتها التجارية. وكانت القبائل التي تفِد إليها تؤدي فيها بعض الشعائر الوثنية، وقد ذكر بعض من وصف موضع هذه السوق من المؤرخين أنه كان فيها عبيلات بيض تطيف بها العرب في جاهليتهم، وينحرون عندها ووجد فيها بعضهم أنصاباً وآثاراً من دماء البدن كالأرحال العظام، ويظهر أن كل سوق كانت لطائفة من القبائل، فسوق دومة الجندل لقبيلة كلب، وسوق المشقر لتميم وعبد القيس، وسوق عكاظ كانت تنزلها قبائل قريش وهوازن، وغطفان وخزاعة، والأحابيش وعضل، وطوائف من أفناء العرب، وموضع عكاظ لا يدخل في نطاق الحرم، ومرد تحريم القتال فيها إلى أنها تقام في الأشهر الحرم، ولهذا لم يكد يحتاج روادها إلى خفارة، وكان لهذه

السوق مكانة تجارية خاصة؛ إذ إن ملوك الحيرة واليمن كانوا يبعثون إليها سلعهم لتباع فيها. ولم تكن فيها مكوس كبعض الأسواق الأخرى، ولكن الملوك كانوا يجعلون لأشراف العرب نصيباً من أرباح تجارتهم فيها، ومما جعل لهذه السوق منزلة ليست لغيرها من الأسواق أنها لم تكن سوقاً تجارية فحسب، وإنما أصبحت لها إغراض أخرى لا علاقة لها بالتجارة. فقد أدى اجتماع هذا العدد الضخم من قبائل العرب فيها في مواسم الحج إلى انتهاز العرب فرصة التقائها في مكان واحد على أمن وسلام لفضّ ما يكون بينها من ضرب لنزاع، ولأداء ديات القتلى، وافتداء الأسرى، وأداء الإتاوات، وإقرار الموادعات، ونحو ذلك من الأغراض، وكانت الحكومة في المنازعات وغيرها بعكاظ وقفاً على حكام من بني تميم، وكان آخرهم حين جاء الإسلام الأقرع بن حابس، وتولي بني تيم أمر الحكومة بعكاظ. وفي سوق عكاظ أيضاً كانت القبائل تشهّر بمن يرتكبون خيانة، أو يخرجون على الأعراف القبلية، فكانت ترفع لهؤلاء راية غدر ليعرفهم الناس فينبذونهم، أما من قام بمأثرة حميدة جديرة بالثناء فكانوا يرفعون له راية وفاء.

وكذلك كان التقاء قبائل العرب على صعيد واحد مدعاة لوقوع التفاخر بينها في الأحساب والأنساب والمآثر، ولسان كل قبيلة شعراؤها وخطباؤها. وكذلك كانت مناسبة لتباري الشعراء في قريضهم، وإظهار براعتهم في النظم، وكان ثمة حكام يلجأ إليهم الشعراء ليحكموا بينهم. وقد ذكروا أن النابغة الذبياني كانت تضرب له قبة من أدم بعكاظ، فيأتيه الشعراء فيعرضون عليه أشعارهم ويفاضل بينهم، ومن هنا أخذت هذه السوق طابعها الأدبي الذي كاد يغلب عليها.

على أن اجتماع قبائل العرب في سوق عكاظ كان يتيح المجال لإدراك بعض الموتورين ثأرهم؛ إذ يتربصون بغريمهم حتى إذا انقضت السوق تبعوه وقتلوه، ولهذا كان فرسان القبائل الذين تطلبهم بعض القبائل بوتر، إذا أموا سوق عكاظ تقنعوا؛ لئلا يعرفوا فيتربص بهم غرماؤهم. وحين اجترأ طريف العنبري على تحدي غرمائه فسفر عن وجهة حين قدم عكاظ، لحق به خصومه حتى أدركوه وقتلوه، وحين جاء الإسلام ومصرت الأمصار اضمحل شأن أكثر أسواق العرب القديمة، وظهرت أسواق جديدة في الأمصار، والمدن الإسلامية أشهرها سوق المربد بالبصرة.

الباب الثالث

الفصل السابع

أثر العصبية القبلية في الشعر الجاهلي

عرفت العصبية القبلية بأن يدعو الرجل إلى نصرته عصبته على مَن يعاديهم ظالمين، أو مظلومين، ولا تكون إلا لقرابة الرجل وذوي رحمه، وللقبيلة بأسرها؛ إذ يشعر الرجل في القبيلة أنه مسؤول عن كل أفرادها؛ لأنها مبنية على وحدة الدم:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... في النائبات على ما قال برهانا

(ففي الجريرة تشترك العشيرة) ولو اصطدمت العصبية القبلية بالعاطفة الزوجية تكون الغلبة للعصبية القبلية، فقد طلق حسان بن ثابت في الجاهلية زوجته عمرة الأوسية حين فخرت عليه بقومها، وتتجلى مظاهر هذه العصبية في تماسك أبنائها الوثيق، وتعاونهم على إيثار مصلحتها:

وما أنا إلا من غزية إن غوت ... غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقد يطوي البدوي كشحاً على الضغائن بينه وبين بني عمومته بسبب هذه العصبية، يقول المقنع الكندي:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا

وعن هذه العصبية نشأت ظاهرة الثأر يقول دريد بن الصمة:

يُغار علينا واترين فتشتفى ... بنا إن أصبنا أو نغير على وتر

ومن هنا تبدو العصبية القبلية ضيقة الحدود؛ لأنها لا ترى في غيرها سوى أعداء يسلبون خيراتها، ويسبون نساءها، ويريدون السيطرة عليها.

ولذلك لا يمكن للمرء أن يغفل موقف الشعراء الجاهليين من العصبية القبلية؛ لأنها عاشت بدمائهم حياة تامة، فقد تحمسوا لهذه العصبية وناضلوا من أجلها، فهم لسان قبائلهم ووزراء إعلامها يدافعون عنها ويذودون عن حماها، ومن هنا كانت منزلة الشعر عند العرب أعلى من منزلة الخطابة. فقد غلب على الشعر الجاهلي الطابع القبلي؛ إذ نجد الشعراء الجاهليين يتغنون بمفاخر قبائلهم، وهذا واجب على الشعراء تجاه القبيلة، ولم نجد شاعراً جاهلياً واحداً يقف من قبيلته موقف المتفرج، فما إن ينتقص أحد ما من أحد أفراد قبيلته، حتى يبري الشاعر لسانه دفاعاً عنه، وتشهد مواسم الأسواق حضور الشعراء والخطباء للمنافحة عن شرف القبيلة، والتغني بإخماد هذه القبيلة، وكذلك تلتقي في مجالس الملوك، وقد ردّ كثير من الشعراء عن أقوامهم عادية هؤلاء الملوك أو يشفعون لأسرى أقوامهم، كما حصل في صنيع النابغة عند ملوك الغساسنة. ولما أسر الحارث الغساني شأس بن عبده ورجالاً من تميم أتاه علقة بين عبده أخو شأس مستشفعاً، وأنشده قصيدته المشهورة:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

فأعجب به الحارث وأطلق سراح الأسرى، وكذلك رد عمرو بن حجر الغساني حين هدَّده النعمان بإبادة قومه؛ لأنهم لم يحسنوا لقاءه؛ أما النابغة فقد تهدَّد عمرو بن هند حين بلغه أنه يتأهب لغزو قومه بني ذبيان مستعيناً بتغلب، وفي ذلك يقول:

من مبلغ عمرو بن هند آية ومن النصيحة كثرة الإنذار

لا أعرفنَّك عارضاً لرماحنا في جف تغلب واردي الأمدار

ومعظم الشعراء الجاهليين يؤثرون الدفاع عن قبائلهم، والعدوان على غيرهم على المسالمة، ويغلبون الحرب على المهادنة والثأر على الدية، فهم أبواق عدوان ودعاة شر، ولم يعلم منهم إلا القليل ممن كان يدعو للصلح والسلم (كزهير بن أبي سلمى) أكبر داعية سلام في العصر الجاهلي، ومن هنا كان التهاجي بين الشعراء يؤدي إلى وقائع دامية، وكانت قريش تنكر على الشعراء التهاجي، وتعاقبهم على ذلك، فقد همت بقطع لسان (ابن الزبعرى) لهجائه بني قصي.

الباب الرابع

الأدب في العصر الجاهلي

(الشعر)

الباب الرابع

الفصل الأول

كينونة الشعر الجاهلي

يُعَدُّ الأدبُ أهمُ ما خلَّف أجدادُنا العربُ في العصر الذي سبق الإسلام؛ لأن ظروف الحياة العربيّة قبل الإسلام لم تتح لعرب الجزيرة – ما خلا اليمن حيث ازدهرت حضارة رائعة – أن يخلفوا لنا فنوناً أخرى تضاهي ما أعطت الأمم القديمة.

والأدب الجاهلي الذي وصل إلينا شعراً ونثراً هو الذي صور الحياة هناك، والشعر أقدم القسمين وأفضلهما. ذلك أن آداب الأمم جميعها إنما تبدأ بالشعر؛ لأنه لغة العاطفة والوجدان، ولأنه يسهل حفظه ونقله بطريق الرواية الشفهية. أما النثر فهو لغة العقل والمنطق، ولذلك يتطلب مستوىً من الحضارة، كما رأينا.

إن ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي قليل، ولكنّ هذا القليل يحتلّ مرتبة عالية في نضجه الفني، ويقدّم لنا صورة صادقة عن الحياة العربية في ذلك العصر.

لذلك كان قولهم: ((الشعر ديوانُ العرب، وخزانةُ حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها))، صحيحٌ كلَّ الصحة، دقيقٌ كلَّ الدقة؛ لأنه الوثيقة المهمة النادرة التي نتعرّف فيها حياة أجدادنا وآلامهم وآمالهم، ومكارمهم وحكمهم وأمثالهم. يضافُ إلى هذا أن هذا الشعر يمثلُ مرحلة متطوّرة من الناحية الفنية، وإذا بحثنا عن مصادر الشعر الجاهلي فإننا نجدُها متعدّدة ومتنوعةً، فمنها دواوينُ الشّعراء التي وصلت إلينا بعد أن قامت طائفة من العلماء الرّواة من أمثال أبي عمرو بن العلاء، وحماد الراوية، ثم المفضل وخلف الأحمر، وهم الطبقة الأولى من العلماء الذين عرفتهم العربية في تاريخها الحافل. فتلقّوا تُراث الجاهلية، شعرها وأخبارَها وأنسابها، وصل إليهم بعضه مدوناً في دواوين كاملة، ضمّت تراث القبيلة كلّه، أو شعرَ شاعرٍ فردٍ من شعرائها، ووصل إليهم بعضُه مكتوباً في صحف متفرّقة، ثم وصل إليهم بعضُه عن طريق الرواية الشفهية التي كان يتناقلها الخلف عن السلف. فحملوا الأمانة، ومضوا يجمعون ما تفرّق من هذا التراث مدقِّقين ممحِّصين، حتى استقام لكلٍّ منهم ما يتيقّن من صحته، فمضى

يذيعه على تلامذته في حلقات دروسه، ثم جاءت الطبقة الثالثة من العلماء الرواة، وهكذا وصلت إلينا دواوين الشعراء بعد أن بُذل في جمعها وتصنيفها جهود علمية كثيرة.

ومن مصادر الشعر الجاهلي أيضاً المختارات، ولعلَّ أقدمَ ما وصلَ إلينا منها المفضليات للمفضل بن محمد الضبّي، وتحتوي على مئة وست وعشرين قصيدةً، لسبعة وستين شاعراً، منهم سبعة وأربعون شاعراً جاهلياً.

وتأتي الأصمعيات لعبد الملك بن قُريب الأصمعي، وتحتوي على اثنتين وتسعين قصيدة لواحدٍ وسبعين شاعراً، منهم أربعة وأربعون جاهليّون.

وهناك نوع آخر من المختارات، يختلف عن المفضليات والأصمعيات، وهذا النوع مجموعتان: حماسةُ أبي تمام وجمهرةُ أشعار العرب، وفيهما من الشعر الجاهلي وغيره. أما الحماسة فقد أخذها أبو تمام من الكتب، وانتقاها من الدواوين والمجاميع، وبنى اختيار ما فيها من الشعر على أبواب، أولها شعر الحماسة.

وأما الجمهرة لمحمد بن أبي الخطاب فقد قسمها مؤلفها إلى سبعة أقسام، تضمَّنَ كلُّ قسم سبعة شعراء سمّاهم بأسمائهم في كل قسم، وقدّم للكتاب بمقدّمة مستفيضةٍ تناولت بعضَ الأخبار والأحكام. وحرص أن يقدّم المعلقاتِ كلَّها في أوّل أبواب الشعر. والمعلّقات من أجود ما وصل إلينا من الشعر الجاهلي، وتسمى حيناً بالمسمطات والمقلدات والمذهبات. وللعلماء في تفسير كلمة (مُعلقات) آراء مختلفة: منها أنها سُميت كذلك؛ لأن العرب أعجبوا بها ((فكتبوها بماء الذهب على القباطي، وعلقوها على أستار الكعبة)). وينكر بعض العلماء القدماء والمحدثين هذا الرأي، ولا يقبلون به، ويرون أنها إنّما سمّيت بالمعلّقات لنفاستها أخذاً من كلمة (العلق) بمعنى النّفيس. ويظنّ أنّ أول من رواها مجموعةً في ديوان خاص حمّادُ الراوية، وهي عنده سبع، وأصحابها: امرؤُ القيس، وزُهير، وطرفة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلّزة، وعنترةُ. أما المفضّل فالمعلقات عنده سبع أيضاً، إلا أنه روى اثنتين للأعشى والنابغة، وأسقط قصيدتي الحارث وعنترة. وعدها التبريزي (المتوفَّى في أوائل القرن السادس) عشراً؛ لأنه جمع بين روايتي حماد والمفضَّل، وأضاف قصيدة لعبيد الأبرص. ونظراً لأهمية هذه القصائد من النواحي اللغوية والنحوية والفنية، عُني بها العلماء والنقاد، فجمعت وشرحت مراراً، وأشهرها في العصر الحديث (شرح المعلقات السَّبع للزوزني المتوفَّى سنة ٤٨٦هـ) وشرح القصائد العشر للتبريزي المتوفَّى سنة ٥٠٢هـ).

الباب الرابع

الفصل الثاني

نشـأة الشعـر الجاهلي

إذا كان الأدب يمثـل التعبير عــن الحياة والكـون والنفس، بلغـة فنية تعتمد البيـان والتصوير والإيحاء، فإنّـه يقسم إلى قسمين: (الشعر- النثر)، ولسنا في صدد التفريق بين الجنسين الأدبيين بقدر ما نريد أن نتبيَّن الطفولة الأولى للشـعر الجاهلـي الـذي وصل إلينا بصورة مكتملـة؛ إذ إنّ القـارئ لقصـائد الشـعر الجاهلـي يرى صروحاً عظيمـة مكتملــة البنــاء. فالقصيدة الجاهلية بناء متماسك، ونهج قويم يكشف عن عبقرية أدبية، لم يستطع أحد إلى يومنا هــذا أن يصـل إلـى موازاتها. وفـي بحثنا عن أوليات الشعر الجاهلي نجد أنّ أقدم نص وصل إلينا لا يتجاوز مئة وخمسـين عــاماً، أو مئتي عــام قبل مبعث النبــي صلــى الله عليـه وسلّم، وإنّ أقدم هــذه النصوص كان لامرئ القيس والمهلهـل بن ربيعـة، وإن كانت عادة الوقـوف علـى الأطـلال أخذت مـن شـاعـر سـماه الشـعراء الجاهليـون باسـم " ابن حـزام " ولكننا لا نجـد بيتاً واحداً لهـذا الشاعر، وقد أشـار إلــى ميلاد الشعر (الجاهلي) الجاحــظ، واعتبره ميلاداً حديثاً، وما يزال النقاد يستغربون كون حـرب البسـوس هي البداية للشعر الجاهلي. ويعلل النقاد السـبب المباشر المؤثر في عدم اكتشاف طفـولـة الشعر الجاهلي هــو الرواية الشفوية للأدب الجاهلــي، حيث تعرّض قسم كبير مـن هـذا الشــعر للنسيان والإهمـال، كما أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم قـد نهـى عـن رواية نوعين من الشعر:

١- الشعر الذي يحمل صفات الإقذاع.

٢- الشعر الذي يحمل الفحش والإساءة الخلقية للمرأة.

كما أنّـه لا يمكن أن ننسى النكبات التي حدثت في الجزيرة المتمثلة بزحف الرمال، وتفجـر البراكين التي رافقهـا تقهقـر اقتصادي تراجعت خلالـه حركة الشعر، وقد زعم بعض النقاد أنّ قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي التـي مطلعها:

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

هـي قصيدة مضطربة الوزن، وأنّها مـن أوليات الشعر؛ إذ إنّ الشاعر بناها على وزن (مخلّع البسيط) (مستفعل/ فاعلن/ فعـول). ولكن الرد على ذلك أنّ الشاعر له من القصائد ما يدلّ علـى براعته في ربط الوزن بالأبيات الشعرية، وزعم نقاد آخرون أنّ بدايات الشـعر العربـي هـي " الأراجيز " المتناغمة مع سير الإبل: (مستفعـلن/ مستفعلن/ مستفعلن). وهو وزن شعبيّ سماه الشعراء (حمار الشعراء)، وزعم نقاد آخرون أنّ بدايات الشعر الجاهلـي هي الأدعية الدينية والابتهالات للآلهة، التي كان يعبدها العرب، ولكن ذلك ليس دقيقاً، كما زعم قـوم أنّ بداية الشـعر الجاهلي حديثة، وليس لدينا مـن الوثائق ما يدلّ علـى ذلك، وما نعرفه أنّ العرب نسبوا الشعر إلى الشـياطين، وأنّ بعضهم يفخر بأنّ شيطانه ذكر، وليس أنثى:

إني وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى وشيطاني ذكر

وقد زعم قوم أنّ بعض أوزان الشعر العربي كوزن (الرمل، والمتقارب، والخفيف) قـد أخذ من الأوزان الفارسية، وهو زعم غير صحيح، ومع ذلك بقي سر طفولـة الشعر الجاهلي أو العربي مكتوماً. وقد علَّل النقاد عوامل ازدهار الشعر العربي في مئتي العام قبل الإسلام بما يلي:

١- الحروب التي دارت بين عرب الشمال وعرب الجنوب:(حرب البسوس- حرب داحس والغبراء- وقائع تغلب والمناذرة – ذي قار- حروب الأوس والخزرج).

٢- هجرة عرب الجنوب واختلاطهم بعرب الشمال.

٣- وجود الأسواق التجارية والأدبية، مثل:(عكاظ- ذي المجاز- ذي المجنّة) حيث كان الشعراء يتفاخرون بقبائلهم في تلك الأسواق.

٤- تنافس القبائل في تقريب الشعراء والإغداق عليهم بالعطايا، كما صنع الغساسنة مـع حسان بن ثابت، والمناذرة مع النابغة الذبياني.

٥- سوء توزيع الثروة الاقتصادية، واحتكار سادة القبائل لها؛ مما جعل بعض الشعراء يتكسبون بمدح هؤلاء الزعماء.

وفي الشعر الجاهلي قصائد منحولة نسبت إلى شعراء لم يقولوها من باب التنافس القبلي، وزاد بعض الرواة أبياتاً ضمن قصائد هي لشعراء غيرهم، وقد أثار الدكتور "طه حسين" في كتابه "الأدب الجاهلي" الشك حول نسبة الكثير من الشـــعر الجاهلـي إلى شعراء بعينهم، وقد تصدَّى له بعض الباحثين يردون أخطاءه التاريخية، كما صنع "ناصر الدين الأسدي" في كتابه "مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية.

الباب الرابع
الفصل الثالث
مصادر الشعر الجاهلي

من مصادر الشعر الجاهلي:

١- **الأصمعيات:** نسبة إلى الأصمعي راويها، وقد بلغ عدد قصائدها ومقطوعاتها اثنتين وتسعين، وهي موزعة على ٧١ شاعراً، منهم نحو ٤٠ جاهلياً، على رأسهم امرؤ القيس، والحارث بن عباد، ودريد بن الصِّمَّة، وأبو دؤاد الإيادي، وذو الإصبع العُدواني، وسلامة بن جندل، وطرفة، وعروة بن الورد، وقيس بن الحطيم، وبينهم يهوديان هما سعية بن الغريض، والسموءل.

٢- **المفضليات:** وهذه المجموعة كسابقتها في الثقة بها، وعلو درجتها، فلم يتعلق بها الشراح.

٣- **جمهرة أشعار العرب:** لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، ولا نجد اسمه بين الرواة المشهورين؛ والجمهرة تضم تسعاً وأربعين قصيدة طويلة موزعة على سبعة أقسام، في كل قسم سبع قصائد، والقسم الأول خاص بالمعلقات، وقد أخذ فيها برواية الضبي، فأسقط منها معلقتي الحارث وعنترة، ووضع مكانهما معلقتي الأعشى والنابغة. ويلي هذا القسم المجمهرات، وهي لعبيد بن الأبرص، وعدي بن زيد، وبشر بن أبي خازم، وأمية بن أبي الصلت، وخداش بن زهير، والنمر بن تولب، وعنترة.

٤- **المنتقيات** أي المختارات.

٥- **المذهبات:** وجميعها لشعراء من الأنصار جاهليين أو مخضرمين، وربما قُصد باسمها أنها تستحق أن تكتب بالذهب، ثم عيون المراثي.

٦- **المشوبات:** وهي لمخضرمين شابهم الكفر والإسلام.

٧- **الملحمات:** وجميعها لإسلاميين. وهي مجموعة غنية بالقصائد الطويلة، ولكنها غير موثقة الرواية؛ فلا بد في الاعتماد عليها من مقابلتها على روايات صحيحة. وطُبعت الجمهرة مراراً في بيروت والقاهرة.

٨- **مختارات ابن الشجري:** المتوفّى سنة ٥٤٢ للهجرة، وهي مختارات من شعر جاهلي وإسلامي، موزعة على ثلاثة أقسام، وأهم من في القسم الأول الشنفرى، وطرفة، ولقيط الإيادي، والمتلمس، أما القسم الثاني فمختارات من دواوين زهير، وبشر بن أبي خازم، وعبيد بن الأبرص، وأما القسم الثالث فمختارات من ديوان الحطيئة.

٩- **دواوين الحماسة:** وقيمتها أدبية أكثر منها تاريخية؛ إذ لا يعرفنا أصحابها بمصادرهم وأشهرها:

أ- ديوان الحماسة لأبي تمام: وحماسته موزعة على عشرة أبواب أكبرها باب الحماسة، وبه سماها، وهي مقطوعات لجاهليين وإسلاميين وعباسيين، وقلما رَوى فيها قصائد كاملة. وتلي هذه الحماسة في الأهمية.

ب- حماسة البحتري: المتوفّى سنة ٢٨٤هـ، وهي مقطوعات قصيرة موزعة على مئة وأربعة وسبعين باباً، وأكثر أبوابها في نزعات خلقية.

ت- حماسة ابن الشجري: وأغلب منتخباتها من الشعر الجاهلي.

ث- حماسة الخالديين: أو الأشباه والنظائر للأخوين سعيد الخالدي المتوفَّى سنة ٣٥٠هـ، ومحمد المتوفَّى سنة ٣٨٠هـ.

ج- الحماسة البصرية: لعلي بن أبي الفرج البصري المتوفَّى في القرن السابع.

١٠- **دواوين الشعراء الستة الجاهليين:** امرئ القيس، والنابغة، وزهير، وطرفة، وعنترة، وعلقمة.

١١- **شرح النقائض:** لأبي عبيدة؛ فقد أنشد فيه كثيراً من الشعر الذي قيل في أيام العرب.

١٢- الكامل للمبرد.

١٣- العقد الفريد لابن عبد ربه.

١٤- طبقات الشعراء لابن سلام، وقد أودع فيه دراسة دقيقة للشعر الجاهلي صحيحه، ومصنوعه.

١٥- كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة.

١٦-البيان والتبيين والحيوان للجاحظ.

١٧- الكامل للمبرد.

١٨- أمالي اليزيدي.

١٩- مجالس ثعلب.

٢٠- عيون الأخبار لابن قتيبة.

٢١- أمالي أبي علي القالي.

٢٢- المؤتلف والمختلف للآمدي.

٢٣- معجم الشعراء للمرزباني، وكتابه الموشَّح.

٢٤- وهناك أشعار جاهلية كثيرة في كتب النقد، مثل نقد الشعر لقدامة، والصناعتين لأبي هلال العسكري، والوساطة بين المتنبي وخصومه للجرجاني، والعمدة لابن رشيق.

٢٥- أبو الفرج الأصبهاني في كتابه الأغاني، الذي ترجم فيه للشعراء من القرن السادس إلى القرن التاسع للميلاد ترجمات غنية، سجل فيها كثيراً من المادة التي فقدت، وكان له ذوق عالم ناقد بصير؛ فساق من الكتب التي سبقته أطرف ما فيها من أخبار وأشعار، والحق أنه أكبر مصدر لتاريخ الشعر الجاهلي وأصحابه.

٢٦- ديوان هذيل، وما صح من الدواوين المفردة كنا أمام مادة خصبة للبحث والدراسة في الجاهليين وأشعارهم وأخبارهم.

٢٧- خزانة الأدب للبغدادي المتوفَّى سنة ١٠٩٣ للهجرة، وفيه تراجم دقيقة لبعض الجاهليين.

٢٨- شرح السيوطي على شواهد المغني لابن هشام.

الباب الرابع

الفصل الرابع

الانتحال في الشعر الجاهلي

أثار مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي:

١- ابن سلام الجمحي في كتابه: "طبقات فحول الشعراء"، وقد ردّها إلى عاملين:

أ- عامل القبائل التي كانت تتزيّد في شعرها لتتزيد في مناقبها.

ب- وعامل الرواة الوضّاعين.

٢- مصطفى صادق الرافعي عرض قضية الانتحال في الشعر الجاهلي عرضاً مفصّلاً في كتابه: "تاريخ آداب العرب" الذي نشره في سنة ١٩١١م، ولكنه لا يتجاوز في عرضه- غالباً سرد ما لاحظه القدماء.

٣- طه حسين الذي درس قضيّة الانتحال في الشعر الجاهلي دراسة مستفيضة في كتابه: "الشعر الجاهلي"، الذي أحدث به رجّة عنيفة أثارت كثيرين الباحثين، فتصدوا للردّ عليه. ولم يلبث أنْ ألّف مصنفه: "في الأدب الجاهلي"، الذي نشره في سنة ١٩٢٧م، وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً.

ومضى طه حسين يبسط الأسباب التي تدفع الباحث إلى الشك في الأدب الجاهلي واتهامه، وردّها إلى أنّه:

أ- لا يصور حياة الجاهليين الدينيّة، والعقلية، والسياسيّة، والاقتصادية.

ب- لا يصوّر لغتهم، وما كان فيها من اختلاف اللهجات، وتباينها بلهجاتها من اللغة الحميرية. وقد أحدث كتاب طه حسين رجّة عنيفة في الساحة الثقافية والفكرية العربية أثارت الكثير من العلماء والباحثين والكتاب، فتصدوا للرد عليه...، ومن ضمن الكتب التي نشرت في هذا الموضوع: كتاب "نقد كتاب في الشعر الجاهلي" للأستاذ محمد فريد وجدي، وكتاب

"محاضرات في بيان الأخطاء العلمية والتاريخية التي اشتمل عليها كتاب في الشعر الجاهلي" للأستاذ الشيخ محمد الخضري، وكتاب الأستاذ محمد العمراوي "النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي"، وكتاب "تحت راية القرآن" للأستاذ مصطفى صادق الرافعي.

ج- شوقي ضيف الذي قال: إنّ الشعر الجاهلي فيه موضوع كثير، غير أنّ ذلك لم يكن غائباً عن القدماء، فقد عرضوه على نقد شديد، تناولوا به رواته من جهة، وصيغه وألفاظه من جهة ثانية. فكان ينبغي أن لا يبالغ المحدثون من أمثال مرجليوث، وطه حسين في الشك فيه مبالغة تنتهي إلى رفضه، أما فيما يخص قضية الانتحال في الشعر التي أثارها (ابن سلام في كتابه "طبقات فحول الشعراء" فقد حاول البعض تضخيم هذه المسألة، والبناء عليها لإبطال الشعر الجاهلي كله، كما فعل "مرجليوث" وغيره إلا أن ابن سلام فصل في هذه المسألة بقوله: ليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة لا ما وضعوا ولا ما وضع المولدون.

يقول طه حسين: "أفاجئك أني شككت في قيمة الشعر الجاهلي، وألححتُ في الشك حتى انتهى بي هذا كله إلى شيء، إلاّ يكون يقيناً فهو قريب من اليقين؛ ذلك أن الكثرة المطلقة مما نسميه شعراً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء، وإنما هي منتحلة مختلقة بعد ظهور الإسلام، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم، وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين. إن ما تقرؤه على أنه شعر امرئ القيس، أو طرفة، أو ابن كلثوم، أو عنترة ليس من هؤلاء الناس في شيء، وإنما هو انتحال الرواة، أو اختلاق الأعراب، أو صنعة النحاة، أو تكلف القصاص، أو اختراع المفسرين والمحدِّثين والمتكلمين. إن هذا الشعر الذي ينسب إلى امرئ القيس، أو إلى الأعشى، أو إلى غيرهما من الشعراء الجاهليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن. إذا أردتُ أن أدرس الحياة الجاهلية، فلست أسلك إليها طريق امرئ القيس والنابغة والأعشى وزهير؛ لأني لا أثق بما ينسب إليهم، وإنما أسلك إليها طريقاً أخرى، وأدرسها في نص لا سبيل إلى الشك في صحته، أدرسها في القرآن، فالقرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي. ونص القرآن ثابت لا سبيل إلى الشك فيه". ويورد طه حسين خمسة أسباب تثبت وجهة نظره في صنع أكثر الشعر الجاهلي بعد الإسلام. وهي:

السبب الأول: العصبية القبلية. فبسبب الصراع القبلي أرادت قبائل كثيرة في الجاهلية، وفي عصر الإسلام أن تجعل لنفسها مجداً قديماً، فلجأت إلى وضع أشعار نسبتها إلى الشعراء الجاهليين.

السبب الثاني: الدين.

السبب الثالث: أن بعض الشعراء أو الرواة في العصور اللاحقة لعصر الإسلام وضع شعراً يمجد الماضي الفارسي، ونسب هذا الشعر إلى شعراء جاهليين؛ للتقرب من بعض الوزراء الفرس كالبرامكة في عصر العباسيين.

السبب الرابع: القُصاص الذين وضعوا شعراً يمجد الأمجاد القديمة لبعض القبائل، وأحياناً لقبائل كانت بائدة.

السبب الخامس: فساد الرواة، ذلك أن جزءاً كبيراً من الشعر نقل شفاهة. وخص طه حسين من الرواة (حماد الراوية) من الكوفة، و(خلف الأحمر) من البصرة بكثير من الشك والاتهام في الوضع والانتحال، لجعل هؤلاء الرواة نقل الشعر وسيلة للكسب المادي. ومن هنا يمكن القول أن الشك بالشعر الجاهلي ازداد؛ لأن الراوي كان ينقل الشعر شفاهة وليس كتابة، ولأن أغلب الشعر الجاهلي آنذاك كان يُنقلُ شفاهة عن طريق الرواة.

كما نبه ابن سلام الجمحي في القرن الثالث الهجري في كتابه "طبقات فحول الشعراء" إلى فساد بعض الرواة، وانتهى إلى الحكم أن الشعر الجاهلي ثلاثة أقسام:

- شعر صحيح النسبة.
- وشعر موضوع مصنوع.
- وشعر يُشك في نسبته.

مع العلم أن طه حسين رجع إلى أحضان الأدب العربي القديم، واعترف بأغلبية الشعر الجاهلي في الطبعة الثانية من كتابه، "في الأدب الجاهلي" بما فيه شعر زهير بن أبي سلمى من مضر، وتراجع عن شكه بإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

الباب الرابع

الفصل الخامس

أغراض الشعر الجاهلي

بقي الشعر الجاهلي أسير نزعات ورغبات وأهواء الإنسان في العصر الجاهلي، يمثل نفسية هذا الإنسان، وما يخالجها من عواطف وأحاسيس، ولذلك أطلق عليه مصطلح (الغنائية والوجدانية)؛ لأنّه رافق المغنّين والمنشدين، ولم يستقل عن الغناء إلا مع بداية الإسلام، يقول حسان بن ثابت:

تغن بالشعر إما أنت قائله ... إنّ الغناء لهذا الشعر مضمار

وقد أطلق على الشعر الجاهلي ديوان العرب؛ لأنّه يمثل حياتهم ويصوّر مآثرهم أدق تصوير، فكان الشعر بمثابة الصحافة اليوم، حيث كان الشاعر الجاهلي صحفيّ قومه، أو وزير إعلام لقبيلته ينقل إلى الآخرين كل ما يتعلّق بمفاخر القوم، وقد كتب الشعراء الجاهليون في الأغراض التالية:

١- الشعر الحماسي:

وهو الشعر المتحدث عن تشجيع أفراد القبيلة لقتال العدو، ويمثل حقيقة الصراع القبلي على أرض الجزيرة، وما يحدث من وقائع بين تلك القبائل، حيث يتطرق الشاعر إلى المثل العليا المتمثلة بالشجاعة، البطولة، وخوض معامع الموت واستهانة الإنسان الجاهلي بأعدائه. والمتصفح لقصائد الجاهليين يجد أنّ معظم قصائدهم تتطرق إلى غرض الحماسة، كما عند الشاعر عبدالشارق عبد العزى في وصف معركة جرت بين قبيلتي جهينة وبهثة:

ردينة لو رأيتِ غداةَ جئنا ... على أضماتنا وقد اجتوينا

فأرسلنا أبا عمرو ربيئاً ... فقال: ألا انعَموا بالقوم عينا

فنادوا يا لبهثة إذ رأونا ... فقلنا: أحسني ضرباً جهينا

فـــآبوا بالرمـــاح مكسّـــراتٍ وأبنـــا بالســـيوف قـــد انحنينـــا
فبـــاتوا بالصّـــعيد لهـــم أحـــاحٌ ولـــو خفّـــت لنـــا الكلمـــى سَرَينـــا

ومن سمات الحماسة في الشعر الجاهلية:

١- الحديث عن البطولة ـ

٢- وصف ضخامة العدو ـ

٣- الحديث عن الشجاعة ـ

٤- الاستهانة بالموت ـ

٥- الدفاع عن حُرم القبيلة.

٢- الفخـر:

وهو ذكر محاسن الإنسان والاعتزاز بهذه المحاسن، وهو نوعان:

أ- الفخر الذاتي: ويتمحور حول المفتخر بنفسه مع المبالغة فيه أحياناً كأن يصور الشاعر نفسه بأنّه بطل شجاع قوي، يتسم بالقيم الحسنة، يغيث الملهوف، ويعين صاحب الحاجة ويحمي المرأة.

يقول طرفة بن العبد في معلقته:

إذا القـوم قـالوا مـن فتـىً خلـتُ أنـني عنيـت فلـم أكسـل ولـم أتبلّـدِ
أنـا الرجـل الضرـب الـذي تعرفونـه خشـاش كـرأس الحيـة المتوقـدِ

ب- الفخر القبلي: وهو افتخار الشـاعر بصنائع قبيلته البطولية مع تعصبه لقبيلته، كما صنع الأعشى في الإشادة بأبطال قبيلته بكر عندما وقفوا في وجه كسرى في معركة ذي قار:

وجنـد كسرـى غـداة الحِنـو صـبَحهم منّـا كتائـب تزجـي المـوت فانصرـفوا
وخيـل بكـر فـما تنفـكّ تطحنهـم حتـى تولّـوا وكـاد اليـوم ينتصـف

وبين الحماسة والفخر وشائج قربى؛ لأنّ كلا الغرضين يبرز قيم الجاهلية، وقد عبّر الصعاليك الجاهليون عن رفضهم للفقر وافتخروا بصبرهم على الجوع كما قال الشنفرى:

وأســتفُّ تُــرْبَ الأرض كــي لا يــرى لــه عــليّ مــن الطَّــوْل امــرؤٌ متطــوّل

٣- الهجاء:

وغرضه التقليل مـن قيمة المهجو ومحاولة نزع القيم الايجابيـة عنـه، ويعتمد على الصفات السلبية كالبخل والجبن والغدر والتقاعس عـن طلب الثأر والخيانة والفرار مـن الحرب، وكان الشاعر الجاهلي الهجّاء يحصل على ما يريد اتقاء لشره، يقول زهير بن أبي سلمى في هجاء قوم من الأقوام:

ومــا أدري وســوف إخــال أدري أقــوم آل حصــن أم نســاء

ويقول حسّان بن ثابت مثل ذلك:

لا بــأس بــالقوم مــن طــولٍ وعــرض جســم البغــال وأحــلام العصــافير

ولم يكن الشعر الجاهلي المعتمد على الهجاء فاحشاً، كما فعل المتنبي مع فاتك الأسدي، حيث قال:

ما أنصف القوم ضبهْ وأمّه الطرطبهْ

أو كما قال شعراء النقائض:

قــوم إذا اســتنبح الأضــياف كلــبهم قــالوا لأمهــم بــولي عــلى النــار

وقد أنكر النابغة الإفحاش في السباب والهجاء:

فــإن يــك عــامر قــد قــال جهــلاً فــإنّ مظنــة الجهــل السِّبــاب

فــلا يــذهبْ بلبِّــكَ طائشــات مــن الخــيلاء لــيس لهــنّ بــاب

وقد يصل الهجاء بالشاعر أن يهجو نفسه، أو والديه كما فعل الحطيئة.

٤- المدح:

يعتبر الإنسان المـدح كظاهرة نفسية جزءاً مهماً من حياته، وهــو بطبعه مفطور علـى ذلك، يحب مـن امتدحه، ويبغض من هجاه، وظاهرة المدح عند الشعراء الجاهليين بدأت مكافأة ومحبة، وانتهت تكسـباً وبحثاً عـن العطايا، وإذا كان العربي نزّاعاً للأخلاق الحميدة،

والشمائل السامية، فإنّه أعجب كشاعر بممدوحه لوجود صفات الشجاعة، والرأي السديد، والكرم والعفة، وغير ذلك من الصفات المتناسبة مع البيئة الجاهلية، وقد يتداخل المدح بالفخر حينما يثني الشاعر على فرسان القبيلة وأبطالها، وربما تداخل بالغزل حينما يريد الشاعر أن يصف أخلاق امرأة ما، ولّما صارت ظاهرة المدح ظاهرة تكسب، قَدِم الشعراء على الملوك الذين قدّموا لهم الأعطيات، وجعلوا مكانتهم مكانة سامية، كما صنع الغساسنة والمناذرة مع النابغة وحسان والشعراء الآخرين، وقد وصف مدح زهير بالصدق؛ إذ لم يكن يمدح الرجل إلا بما فيه، كما كان يقول عنه الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

يقول زهير في مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان اللذين تحمَّلا ديات القتلى بين عبس وذبيان في حربهم التي استمرت ما يقارب أربعين(٤٠) عاماً:

يمينـاً لـنعم السـيدان وجـدتما ... عـلى كـلّ حـال مـن سـحيل ومـبرم

تـداركتما عبسـاً وذبيـان بعـدما ... تفـانوا ودقـوا بيـنهم عطـر منشـم

وقد كان مدح الأعشى مختلفاً؛ إذ إنّه كان متكسباً بشعره على حد اعترافاته، كما قال لممدوحه قيس بن معد يكرب:

فجئتـك ترتـاد مـا خـبروا ... ولـولا الـذي خـبّروا لم تـرنْ

فـلا تحرمنـي بـذاك الجزيـلَ ... فـإني امـرؤ قـبلكم لم أهـنْ

أما حسان بن ثابت في جاهليته، فقد كان يأتي من المدينة المنورة إلى منطقة الخمان في حوران لمدح الغساسنة، وقد أبرز صفاتهم العربية أيما إبراز، وذلك في قوله:

لله درُّ عصابـة نادمتهـم ... يومـاً بجلّـق فـي الزمـان الأولِ

بـيض الوجـوه كريمـة أحسـابهم ... شـمّ الأنـوف مـن الطـراز الأول

٥- الاعتذار:

وقد نشأ هذا الفن تحت ظلال المديح وتفرع عنه، واتخذ من صفات الممدوح مطية له، ويعد النابغة الذبياني المؤسس الأول لهذا الفن بعد خلافه مع النعمان بن المنذر، وقد روي في

ذلك أنّ النابغة قد اطلع على عورة الملك النعمان، ونظم بذلك قصيدة يعرّض فيها بصفات زوجة النعمان، ومطلعها:

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته، واتّقتنا باليد

مما جعل النعمان ينقم على الشاعر ويهدر دمه، فيفرّ النابغة بإرسال القصائد معتذراً إليه.

وقد تميز الاعتذار بما يلي:

١- تداخل عاطفة الخوف والشكر والرجاء.

٢- التلطف والتذلل والاسترحام.

٣- إظهار الحرص على المودة.

يقول النابغة معتذراً:

فبت كأني ساورتني ضئيلة من الرّقش في أنيابها السمّ ناقع

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع

وقد كان الشاعر بشر بن أبي حازم قد اعتذر من أوس بن حارثة الطائي بعد أن هجاه الأول وأهدر دمه، فاعتذر الشاعر عندما وقع في يده أسيراً:

وإني لراج منك يا أوس نعمة وإني لأخرى منك يا أوس راهب

فهل ينفعني اليوم إن قلت إنني سأشكر إن أنعمت والشكر واجب

٦- الرثاء:

وهو فن لا يختلف من المديح إلا بكون الممدوح ميتاً اللهم إلا أن ذكر صفات المرثي الحميدة تقترن بالحزن والأسى واللوعة على افتقاده، ولو رحنا نستعرض المراثي الجاهلية لوجدنا أن الشعراء قد رثوا أشخاصاً يتميزون بالسيادة أو بالقرى، فالخنساء قد رثت أخاها صخراً حيث قالت:

وإنّ صخراً لتأتم الهداة به كأنه علمٌ في رأسه نار

كما أنا نجد أبا ذؤيب الهذلي يرثي أولاده الذين فقدهم، فيقول:

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع والـــدهر لـــيس بمعتـــب مـــن يجـــزعُ

كما أن المهلهل قد رثى أخاه كليباً الذي قتله جساس المري في حرب البسوس، حيث يقول:

دعـــوتك يـــا كليـــب فلـــم تجبنـــي وكيـــف يجيبنـــي البلـــد القفـــارُ

ســـقاك الغيـــث إنـــك كنـــت غيثـــاً ويسرـــاً حـــين يلـــتمس اليســـارُ

ويتسم الرثاء عند الجاهليين بما يلي:

١- التفجع على فقدان المرثي.

٢- اتصاف المرثي بالبطولة، كما في قول الخنساء: "حمّال ألوية، هبّاط أودية ".

٣- اتصافه بالقيادة، كما في قول الخنساء: " للجيش جرّار".

٤- اتصافه بالسيادة وقت الأمن، كما في قول الخنساء: " وإن صخراً لوالينا وسيدنا ".

٥- اتصافه بالكرم في أيام الشتاء، كما في قول الخنساء: "وإن صخراً إذا نشتو لنحار".

يقول دريد بن الصمة راثياً أخاه:

لـــئن يـــك عبـــد الله خـــلا مكانـــه فـــما كـــان وقافـــاً ولا طـــائش اليـــد

أما رثاء الشعراء الصعاليك فقد اتسم بالغضب والثورة وطلب الثأر، كما صنع الشاعر الصعلوك تأبط شراً:

إن بالشـــــعب الـــــذي دون ســـــلع لقتيـــــلاً دمـــــه مـــــا يطـــــلّ

خلّـــف العـــبء عـــليّ ثـــم ولّـــى أنـــــا بالعـــــبء لـــــه مســـــتقل

ووراء الثـــأر منـــي ابـــن أخـــت مصـــقع عقـــدته مـــا تحـــل

٧- الحكمة:

استقلت الحكمة كغرض من أغراض الشعر الجاهلي، وكانت نتيجة للتجربة والبيئة المحيطة، ولم تكن صادرة عن فلسفة مستقلة؛ إذ إنّ الموت والاعتبار به قد أفرز ظاهرة الحكمة عند الشعراء، ولذلك نجد أن الشاعر زهير بن جناب الكلبي يوصي أولاده

بعد أن طال عمره وصايا أبرزها: " الموت مع شيء من العزة والقوة أفضل من الحياة مع الضعف ".

والمـــــوت خـــــير للفتـــــــى فليـــــــهلكنْ وبـــــه بقيـــــة
مـــــن أن يـــــرى الشـــيخ وقـــد تهـــــــــادى بالعشـــــــــية

يقول علقمة بن عَبَدَه:

والحمـــد لا يشـــترى إلا لـــه ثمـــن ممـــا يضـــنُّ بـــه الأقـــوام معلـــومُ
والجـــود نافيـــة للـــمال مهلكـــة والبخـــل بـــاقٍ لأهليـــه ومـــذموم

ويقول طرفة بن العبد في وصف الموت:

لعمـــرك إن المـــوت مـــا أخطـــأ الفتـــى لكـــالطول المرخـــى وثنيـــاه باليـــد

ويقول زهير:

رأيـت المنايـا خـبط عشـواء مـن تصـب تمتـــه ومـــن تخطـــئ يعمّـــر فيهـــرم

وقد بلغت الحكمة في معلقته مبلغاً عظيماً فقد كانت فطرية بيئية متناسبة مع الحياة الجاهلية، ولكنها مستقاة من الحنيفية السمحاء، دين إبراهيم الخليل عليه السلام:

وأعلـــم علـــم اليـــوم والأمـــس قبلـــه ولكننـــي عـــن علـــم مـــا في غـــدٍ عـــمِ

٨- الغزل والنسيب:

وهو الغرض الذي أكثر الشعراء من الحديث عنه نظراً لتعلقه بالمرأة وما تتصف به من محاسن، والإنسان بطبعه يميل إلى المرأة أو العكس.

وقد اتسم الغزل والنسيب بما يلي:

أ- وصف المفاتن الجسدية للمرأة.

ب- وصف الخصال المعنوية.

ج- التودد إليها.

د- بث العواطف نحوها.

هـ- الشكوى من هجرانها.

وقد اتخذ هذا الغزل عند الجاهليين صوراً متعددة:

أ- البكاء على الديار وذكر المرأة من خلال تلك "المطالع للمعلقات" كقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكر حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

ب- صورة وصف الرحيل المتمثل بالنساء الراحلات، يقول المثقب العبدي:

وهن على الرجائز واكنات قواتل كل أشجع مستكين

أرين محاسناً وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون

جـ- صورة وصف مفاتن المرأة الجسدية، يقول الأعشى:

غراء فرعاء مصقولٌ عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة، لا ريث ولا عجلُ

د- وصف الصفات النفسية كالعفة والحياء، يقول الأعشى:

ليست كمن يكره الجيران طلعتها ولا تراها بسر الجار تختتل

والغزل الجاهلي مادي أحياناً، وعفيف أحياناً أخرى، وهما مدرستان انبثق عنهما الغزل العمري والغزل العذري، يقول عنترة واصفاً شدة حبه لعبلة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددتُ تقبيل السيوف لأنّها لمعت كبارق ثغرك المُتبَسِّم

٩- الوصف:

توزع غرض الوصف في الشعر الجاهلي في ثنايا قصائد الشعراء، فكان وصفاً لما وقعت عليه عيون الشاعر، وقد وصف هذا الشعر الجاهلي الناقة والفرس، والأسد والليل، وغير ذلك.

يقول عنترة يصف ناقته:

فوقفـــت فيهـــا نـــاقتي وكأنهـــا فـــدنٌ لأقضيـــ حاجـــة المتلـــوم

ويقول امرؤ القيس في وصف الفرس:

مكـــرّ مفـــرّ مقبـــل مدبـــرٍ معـــاً كجلمـود صـخرٍ حطـه السـيل مـن عـلِ

كما أن الجاهليين وصفوا المرأة، ووصفوا الطبيعة، ووصفوا الحمر الوحشية، يقول الأعشى:

تســمع للحــلي وسواســاً إذا انصرــفت كــما اســتعان بــريح عشرــقٌ زجــلُ

الباب الرابع

الفصل السادس

الشعر الجاهلي نسيج وجداني

لا نأتي بجديد حين نزعم أن شعرنا العربي نشأ نشأة غنائية كغيره من أنواع الشعر الأخرى، فمن المعروف أن الموسيقا كانت ترتبط بالشعر منذ نشأته، فقد كان الشعراء يغنون أشعارهم. والأدلة على ذلك كثيرة، فالمهلهل أقدم شعراء العرب، وأول من قصّد القصائد. كان يغني شعره، وكان علقمة بن عبدة الفحل يغني ملوك الغساسنة أشعار، فالشعراء ما يزالون يترنمون بأشعارهم، وكأنهم لم يتركوا – في رأي عنترة – موضعاً للترنم والغناء إلا وترنموا به وغنوا فيه. ومهما يكن فإن الشعر ارتبط بالغناء في العصر الجاهلي، ولعلهم من أجل ذلك كانوا يعبرون عن نظمه وإلقائه بالإنشاد، بل إنا لنراهم يعبرون عنه بالتغني.

يقول حسان بن ثابت:

تغنَّ بالشعر إما كنتَ قائلهُ إن الغناء لهذا الشعر مضمارُ

ونحن لا نتقدم إلى أواخر العصر الجاهلي؛ حتى نجد شاعراً مشهوراً يكثر من غناء شعره، وهو الأعشى الشاعر المعروف، وقد سمّي بصنّاجة العرب، وأكبر الظن أنه كان يوقع غناءه على الآلة الموسيقية المعروفة باسم الصّنج.

وأكثر الشاعر الجاهلي من ذكر الغناء والقيان والأدوات الموسيقية المختلفة؛ مما يدل على ارتباط ذلك كله بشعره.

كان الشعر الجاهلي يرتبط بالغناء، وكان الشاعر يغني أشعاره، ويظهر أن الغناء القديم لم يقف عند هذه الظاهرة البسيطة، فقد أخذ يتعقد وأخذت تظهر فيه الجوقات، ولعل مما يثبت ذلك من بعض الوجوه ما يرويه الطبري والأغاني من أن هنداً بنت عُتبة وجماعة من نساء قريش كنَّ يضربن على الدفوف في غزوة أحد، وكانت هند تغني في أثناء هذا العزف:

إن تُقبلـــــــــوا نُعانـــــــــقْ ونفـــــــــرش النّمـــــــــارقْ

أو تـــــــــدبروا نفـــــــــارقْ فـــــــــراقَ غـــــــــيرِ وامـــــــــقْ

وقد ذهب أبو العلاء إلى التعميم أكثر مما ينبغي، فإن الأوزان القصار عُرفت في العصر الجاهلي، لا عند سكان المدر فقط، بل عند سكان الوبر أيضاً، وبخاصة في أبواب الرثاء والغزل والحماسة والحُداء، أما الرثاء فقد شاع عند العرب القدماء؛ إذ روى صاحب الأغاني أحاديث كثيرة عن الخنساء ونُواحها على أخيها صخر، وأنها كانت تخرج إلى عُكاظ تندبه، وذكر أن هنداً بنت عتبة كانت تحتذي على مثالها وتنوح أباها، واقترن هذا النواح بضرب من الشعر القصير، لعل خير ما يمثله قطعة أم السُّليك:

طـــــــاف يبغـــــــي نجـــــــوةً مـــــــن هـــــــلاكٍ فهلـــــــكْ

ليـــــــت شـــــــعري ضـــــــلّةً أيّ شيء قتلـــــــــــــــــكْ

أمـــــــــــريضٌ لم تعـــــــــد أم عـــــــــدوّ ختلـــــــــكْ

وأما الغزل فلعله أقرب موضوعات الشعر الجاهلي إلى الغناء، وخير ما يمثله قطعة المنخَّل اليشكري:

ولقـــــد دخلـــــت عـــــلى الفتـــــا ة الخـــــدر في اليـــــوم المطيـــــرِ

الكاعـــــبِ الحســـــناء تـــــر فـــــلُ في الـــــدّمقس وفي الحـــــريرِ

واقترن هذا الغناء بضرب من الأشعار في الحرب ويوم الخصام، واقترن هذا الغناء بضرب من الأشعار القصيرة كقطعة الفند الزّمّاني في حرب البسوس إن صحّ أنها له، وهي من الهزج؛ إذ يقول فيها:

صـــــفحنا عـــــن بنـــــي ذُهـــــلٍ وقلنـــــا القـــــوم إخـــــوانُ

عســـــى الأيـــــامُ أن يرجعـــــ نَ قومـــــاً كالـــــذي كـــــانوا

وأما الحُداء فيظهر أنه كان غناء شعبياً عاماً للعرب في العصر الجاهلي يغنون به إبلهم في مسيرهم ورحيلهم، واقترن به وزن خاص معروف هو وزن الرجز، ونحن نلاحظ أن هذا الوزن لم يكن خاصاً بالحداء، بل كان يستخدم أيضاً في السّقي من الآبار، كما كان يستخدم في

الحماسة والحروب. وأما المنهوك فهو الذي ذهب منه أربعة أجزاء، ومن أمثلته قول دريد بن الصّمّة يوم هوازن:

يـــــا ليتنـــــي فيهـــــا جـــــذعُ أخُـــــبُّ فيهـــــا وأضـــــعْ

وليس من شك في أنه شعر، وغاية ما في الأمر أنه كان يقترن بضروب كثيرة من الغناء في الحماسة والحروب والسّقي من الآبار، كما كان يقترن بالحُداء، فكثر الحذف فيه، وكثرت التجزئة والاضطراب. ومهما يكن فإن الشعر الجاهلي نشأ في ظروف غنائية، وتركتْ هذه الظروف آثاراً مختلفة فيه، بعضها نراه في قوافيه وتقطيعاته نراه في تلك الأوزان القصار، التي أثرت عن العصر الجاهلي، والتي ليس من شك في أنها ظهرت تحت تأثير الغناء.

الباب الرابع

الفصل السابع

ظاهرة الوقوف على الأطلال

للحياة في العصر الجاهلي مظاهر خاصة، ومميزة له وهي مظاهر تفرضها طبيعة الحياة وعوامل البيئة، خاصة وأن الصحراء العربية في الجزيرة مترامية الأطراف، ولقد عاش العرب حياتهم هناك تبعاً لتغير المظاهر الفاعلة في حياتهم.

فعلى المستوى العام المتعلق بالمظاهر الكونية وتغيرات البيئة؛ من براكين وزلازل، وزحف للرمال وشح للأمطار، وهدم للسدود وجفاف للوديان يجعل القبائل العربية تهاجر هجرة كاملة من مكان كما حصل مع هجرة بعض العرب من الجنوب إلى الشمال باتجاه الحجاز والشام، وقد كان الغساسنة الذين سكنوا بصرى الشام ومنطقة الخمان إلى الشمال والغرب من محافظة درعا الحالية.

وعلى المستوى الخاص فقد كانت الكثير من القبائل تنتقل بين منطقة وأخرى تبعاً للكلأ والماء، فقد تهجر القبيلة منطقة رعيها إلى منطقة أخرى يهطل فيها المطر وينبت فيها الكلأ، وهذا ما كانت يحصل مع معظم الشعراء، فقد عاد زهير بن أبي سلمى إلى ديار محبوبته، بل زوجته بعد عشرين سنة هجرها، فوجدها دياراً بالية، وفي ذلك يقول:

أَمِـــنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَـــةٌ لَمْ تَكَلَّـــمِ ... بِحَوْمَانَـــةِ الـــدَّرَّاجِ فَـــالمتَثَلّمِ

وَدَارٌ لهـــا بـــالرَّقْمتَيْنِ كأَنَّهَـــا ... مَرَاجِيـــعُ وَشْـــمٍ فِي نَـــوَاشِرِ مِعْصَـــمِ

بِهَـــا الْعِـــيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِـــينَ خِلْفَـــةً ... وَأَطْلاَؤُهَـــا يَنْهَضْـــنَ مِـــنْ كُـــلِّ مَجْـــثَمِ

وَقَفْـــتُ بِهَـــا مـــن بعْـــد عِشْرِيـــنَ حِجَّـــةً ... فَلأْيـــاً عَرَفْـــتُ الـــدَّارَ بَعْـــدَ تَـــوَهُّمِ

أَثَـــافِيّ سُـــفْعاً فِي مُعَـــرَّسِ مِرْجَـــلٍ ... وَنُؤْيـــاً كَجِـــذْمِ الْحَـــوْضِ لم يتَـــثَلَّمِ

فَلَـــمَّا عَرَفْـــتُ الـــدَّارَ قُلْـــتُ لِرَبْعِهَـــا ... أَلا أَنْعِـــمْ صَـــبَاحاً أَيُّهَـــا الرَّبْـــعُ وَاسْـــلَمِ

وقد بكى امرؤ القيس منزل أحبته في سقط اللوى والدخول وحومل، وفي ذلك يقول:

قَفَـا نَبْـكِ مِـنْ ذِكْـرَى حَبِيـبٍ وَمَنْـزِلِ بِسِـقْطِ اللِّـوَى بَـيْنَ الـدَّخُولِ فَحَـوْ مَـلِ
فَتُوضِـحَ فَـالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْـفُ رَسْـمُهَا لِمَـا نَسَـجَتْهَا مِـنْ جَنُـوبٍ وَشَـمْأَلِ
تَـرَى بَعَـرَ الآرْآمِ فِي عَرَصَـاتِها وقِيعانِهَـا كَأَنَّـهُ حَـبُّ فُلْفُـلِ
كَـأَنِّي غَـدَاةَ الْبَـيْنِ يَـوْمَ تَحَمَّلُـوا لَـدَى سَـمُراتِ الْحَـيِّ نَـاقِف حَنْظَـلِ
وُقُوفـاً بِهَـا صَـحْبِي عَـلَيَّ مَطِـيَّهُمْ يقُولُـونَ: لا تَهلِـكْ أَسَـىً وَتَجَمَّـلِ
وإِنَّ شِـفَائِي عَـبْرَةٌ مُهْراقَـةٌ فَهَـلْ عِنْـدَ رَسْـمٍ دَارِسٍ مِـنْ مُعَـوَّلِ

وكذلك وقف طرفة بن العبد وغيره من الشعراء على ديار أحبتهم المهدمة:

لخولـة أَطْـلالٌ بِبَرْقَـةِ ثَهْمَـدِ تَلُـوحُ كَبَـاقي الْوَشْـمِ فِي ظَـاهِرِ الْيَـدِ
وُقُوفـاً بِهَـا صَـحْبِي عَـلَيَّ مطِـيَّهُمْ يَقُولُـونَ لا تَهْلِـكْ أَسَـىً وَتَجَلَّـدِ

ويعزو بعض الباحثين ظاهرة الوقوف على الأطلال إلى الانهدام الحضاري، الذي حلَّ بالجزيرة العربية، وتشكل هذه الظاهرة انعكاس الحزن الذي رسمه هذا الانهدام الحضاري في نفوس الآخرين، ولو رحنا نبحث عن الدوافع النفسية وراء ظاهرة الوقوف على الأطلال، لعثرنا على الكثير من القضايا النفسية التي خلفتها هذه الظاهرة.

الباب الرابع

الفصل الثامن

بدايات الشعر الجاهلي

يعد البحث في بدايات الشعر الجاهلي من القضايا الشائكة، التي لا يمكن الوصول من خلالها إلى نقطة انطلاق لهذا الشعر؛ بسبب عدم وجود وثائق تثبت ذلك مهما كان نوعها. ولكننا سنحاول أن نجد بعض علامات فارقة تشير إلى أن هذا الشعر لم تعرض له بداية تتجاوز عام / ٣٠٠/ بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام، ولو أنا تجاوزنا عن تحديد المدة الزمنية الدقيقة لبدايات هذا الشعر نجد أن الشعر العربي قد وصل إلينا كامل النمو، ومنذ زمن سحيق، وإن كان الجاحظ قد حدد لنا عمر هذا الشعر، واعتبر أنه يرجع إلى أواسط القرن الرابع الميلادي، وتعد قبيلة (هذيل) أشعر الناس حياً، كما يقول حسان بن ثابت رضي الله تعالى عنه، فقد وجد فيها أكثر من مئة وسبعين شاعراً / ١٧٠/ كما أن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه ساكَنَ هذه القبيلة سبعة عشر عاماً يتعلم بين أبنائها اللغة العربية، ولعله لا يفوتنا أن نشير إلى أن هناك ديواناً مجموعة فيه شعراء قبيلة (هذيل) يصل عدد شعرائه إلى ثلاثين شاعراً، وإذا كانت الروايات الشفوية قد أخفقت في نقل الكثير من شعر شعراء العرب فإن قسماً كبيراً من هذا الشعر قد تناقلته الأجيال، وأن بين أيدي الدارسين شعر ترقى صحته إلى ما قبل ظهور الإسلام بأربعمئة عام تقريباً، فقد وجدت نصوص شعرية لشعراء جاهليين وجدوا في القرن الرابع الميلادي من أمثال (جذيمة الأبرش) وابن أخته (عمرو بن عدي) و(عمر بن عبد الجن التنوخي) وإذا كان القرن الثالث الميلادي الذي يتخذ منطلقاً لظهور الشعر الجاهلي المتكمِّل لفنيته هو القرن الذي شهد تأسيس دولة المناذرة في الحيرة، فإننا يجب أن نتذكر أن عاصمة هذه الدولة (الحيرة) شكلت وسطاً ثقافياً بارزاً جذب إليه أهل العلم والثقافة، ومن بينهم الشعراء فقد وفد إليها كل من (المرقش الأكبر) وأخوه (حرملة) وكذلك (المرقش الأصغر و(عمرو بن قميئة) و(المتلمس) و(طرفة بن العبد) و(عبيد الله بن الأبرص)

و(المثقب العبيدي) و(النابغة الذبياني) و(المنخل اليشكري) و(حنظلة الطائي) و(لبيد بن ربيعة) و(الربيع بن زياد العبسي) و(حسان بن ثابت) و(سلامة بن جندل) ومع التذكير بأن الحيرة كانت تضم مجموعة كبيرة من المعاهد والمدارس العلمية والفكرية والأدبية، فإنه من اللافت للانتباه أن اختراع الخط العربي كان موطنه الحيرة، وهذا يعني أن مجموعة كبيرة من الشعراء ظهرت في هذا العصر، وشكلت لنا هذا الرصيد الغني من الشعر.

الباب الرابع

الفصل التاسع

مدرسة عبيد الشعر

لا يمكن للمرء أن يتجاوز اهتمام العرب بالشعر على مر العصور، على اعتبار أنه الفن الذي مثل حياتهم منذ الجاهلية وحتى يومنا هذا، ولقد كان الشعر في العصر الجاهلي ديوان العرب لما يحمله من وصف دقيق لحياتهم الإنسانية، والاجتماعية، والحياتية، فهو فخر القبائل العربية وسلاحها في التمايز، وهذا ما دفع شعراء كل قبيلة إلى تحسين صفة الشعر والخروج به بثوب جذاب وجميل لا يقدر أحد على مجاراته أو تحديه.

ولقد كان هناك مجموعة من الشعراء يحاولون في كل لحظة تحسين أدائهم الشعري وزخرفة هذا الثوب حين ظهوره أمام الناس، وهذا ما جعل ديدن حياتهم العودة للقصيدة بعد ظهورها مرة، ومرتين، وثلاثة، حتى يتمكنوا من إبرازها عروساً في أجمل حُلَّة من ثيابها، ومن هنا وقفوا حياتهم كلها على خدمة شعرهم وتحسينه، وسموا بـ(عبيد الشعر) وفعلاً نجحوا في جعل شعرهم لوحات تعلق على أستار الكعبة المشرفة يفخر بها العرب. ومن الشعراء الذين حككوا الشعر(بشامة بن الغدير، أوس بن حجر، زهير بن أبي سلمى، كعب بن زهير، الحطيئة، جميل بن معمر).

وإنك حين تراجع قصائدهم تجد هذه الميزة الفنية البارعة، وقد كتب هؤلاء الشعراء قصائدهم الحولية التي كانوا يمضون سنة كاملة في بنائها، غايتهم من ذلك إنتاج قصائد ذات مستوى متميز من الشعر يذكره العرب في مجالسهم، ويعدونه من أفخم ما جاء به أبناؤهم، ويعد زهير بن أبي سلمى من أهم شعراء هذه الظاهرة، فقد كان زهير يكتب بعض قصائده، ويمضي عليها الحول حتى يكتمل بناؤها الشعري، ومن هنا جاءت هذه القصائد غاية في المبنى والمعنى.

وقد أطلق على أصحاب هذه الطريقة (المدرسة الأوسية) وهي مدرسة شعرية أستاذها الأول الشاعر الجاهلي أوس بن حجر، وتلاميذها بشامة بن الغدير، وزهير بن أبي سلمى، وأولاده كعب، وبجير، وسلمى، والشاعر الحطيئة، وجميل بن معمر، وهي مدرسة اعتمدت تأكيد الصياغة والشكل في بناء القصيدة العربية الجاهلية تحت أجنحة عمود الشعر العربي، فكان شعراء هذه المدرسة يحكِّكون شعرهم؛ ولذلك سُموا بالشعراء المحكِّكين الذين يراجعون قصائدهم مرة بعد مرة، حتى يزيلوا عنها كل ما يعلق بها من منفرات الذوق العربي الشعري، ويؤكدون على إضافة كل ما يجعل هذه القصائد جميلة، ويحسن قبولها لدى المتلقي، وقد بقي شعراء هذه المدرسة موضع تقليد من قبل شعراء كثيرين جاؤوا من بعدهم، وما يزال تأثير أسلوب هذه المدرسة يؤخذ به حتى يومنا هذا في طريقة أداء الشعراء لنهجهم الشعري.

وإذا كان الشعر قد استعبد عدداً من الشعراء، فخدموه بطاعة ومحبة من خلال تمكنهم من الشعر أو من أدواته وفنونه ومبانيه وقواعده، ومن خلال استحضار ما يحبه أبناء القبائل من أنواع الشعر، وما يكرهونه، وذلك من خلال:

١- تهذيب الألفاظ الشعرية.

٢- تنقيح المعاني.

٣- تصحيح ما كان معتلاً منه مبنى ومعنى.

٤- تجويد الشعر.

وقد كان زهير، والحطيئة، وطفيل الفنوي، وأوس بن حجر، والنابغة، والأعشى، وامرؤ القيس من أهم أصحاب هذه المدرسة لتنقيصهم الشعر، وعدم الذهاب به مذهب الطبع.

يقول عدي بن الرقاع:

وقصيدة قد بت أجمع بينها ... حتى أقوم بينها وسنادها

نظر المثقف في كعوب قناته ... حتى يقيم ثقافة منآدها

ويقول سويد بن كراع العكلي:

أبيـــت بـــأبواب القـــوافي كـــأنما أصـادي بهـا سربـاً مـن الـوحش فزعـا

ويقول الحطيئة:

الشـــعر صـــعب وطويـــل ســـلَّمه إذا ارتقـــى فيـــه الـــذي لا يعلمـــه

زلَّـــت بـــه إلى الحضـــيض قدمـــه يريـــد أن يعربـــه فيعجمـــه

وقد استبعد هؤلاء واستفرغ مجهودهم وأدخلهم باب التكلف والصنعة؛ لأنهم التمسوا قهر الكلام واغتصاب الألفاظ، ولم يتركوا المعاني تأتيهم سهواً، ورهواً، أو تنثال عليهم الألفاظ انثيالاً، ومن نسجهم استواء الشعر في الجودة والتوقف عند كل بيت قبل إخراجه للناس، وإعادة النظر فيه مرة بعد مرة، وإشغال جميع حواس الشاعر في هذا الشعر، واغتصاب مواقع الألفاظ التي يوجهها علمهم بالشعر يقوِّمون شعرهم، ويثقفونه وينقحونه بطول التفتيش، وإعادة النظر فيه بتهذيب أشعاره من الوحشي والغريب والمعاضلة، وعدم مدح الرجل إلا بما يكون للرجال.

والشاعر المتكلف يتميز بأنه:

١- يهذب شعره وينقحه.

٢- يغلب على شعره الجودة والحسن.

٣- يعمل عقله وعلمه بصناعة شعره.

٤- يحرك كل حواسه في شعره.

٥- ينتظر قوافيه انتظار الموعود بلقاء أحبته.

٦- يقوم شعره بالثقاف.

٧- يقف على كل بيت على حدة؛ ليخرجه إخراجاً جميلاً.

٨- تستوي قصيدته جميعها بالجودة.

أما الشاعر المطبوع فيتميز بأنه:

١- يدع شعره دون تهذيب أو تنقيح.

٢- يتفاوت شعره بين الجيد والرديء.

٣- لا يعمل عقله وعلمه بصناعة الشعر في شعره.

٤- لا يحرك حواسه في شعره.

٥- المعاني تأتيه سهواً ورهواً، فينظمها كما هي.

٦- لا يقوّم شعره.

٧- لا يطيل الوقوف عند شعره.

٨- تتفاوت قصيدته بين الجودة والرداءة والتوسط.

الباب الرابع

الفصل العاشر

الرحلة الجاهلية أدباً متميزاً

تمثِّل الرحلة الجاهلية في شعرنا العربي لوحات فنية صارخة، فهي ترسم إمكانية الشاعر العربي الجاهلي في تطويع الكلمة، ونقل صورة أخّاذة لمكانة الراحلة في حياة العربي في العصر الجاهلي، ففي شعرنا العربّي الجاهلي مجموعة كبيرةً من القصائد تتعدّدُ فيها الأغراضُ، ويسلك فيها الشّعراء سبيلاً معروفة، تبدأ كلُّ قصيدة من هذه القصائد بمقدّمةٍ قد تكون بكاءً في الديار ووقوفاً عليها، أو غزلاً بالمرأة وشوقاً إليها، أو وصفاً لخيالها، أو تحسراً على الشباب، وفزعاً من الشَّيب، أو حواراً يرسمُ فيه الشاعرُ لنفسه صورةَ الفتى العربيّ الذي يدفعُ بصدره المحن، وقد تكون وصفاً للظعائن هذه الظعائن التي تحمّلت، يتخلّص الشاعر منها إلى ناقتهِ، فيرحلُها ضارباً في المفاوز معتسفاً الفلوات والقفار، ويصفُها وصفاً معنوياً وحسّياً، ثم يمضي فيشبّهها بالثَّور الوحشي، أو بحمار الوحش، أو بالظَّليم، فإذا فرغ من قصّته وخرجَ من حِضْنِ الصحْراء العاري صار إلى غرضٍ آخر هو المديحُ أو الهجاء أو الفخر. وربما تخلّص الشاعر من مقدّمته، وانصرف إلى الظعائن يرقبها بطرفه وقلبه فينحدر معها حيث ينجد حين تنجُدُ، ويغور حيث تغور، ويبامِنُ ما تُيامِنُ من رمالٍ وجبال وآبار، ويياسرُ ما تياسره. ويصف لنا شكلها، والطير التي تتبعُها، والأرضين التي تقطعها، وقد يلحق بها على ناقته، فيقف على مقربة من الهوادج ينعت صواحبها ويجاذبهنّ أطراف الحديث، كما في قول زهير بن أبي سلمى:

تَبَصَّرْ خَلِيلي هَلْ تَرَى مِن ظَعائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بالعَلْيَاءِ مِن فَوْقِ جُرْثُمِ

جَعَلْنَ الْقنانَ عَنْ يَمينٍ وَحَزْنَهُ ... وكَمْ بِالقنانِ مِن مُحِلٍّ وَمُحْرِمِ

عَلَوْنَ بِأَنْماطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ ... ورَادٍ حَوَاشِيهَا مُشَاكهةَ الدَّمِ

وَوَرَّكْنَ فِي الْسُّوبانِ يَعْلُونَ مَتْنَهُ ... عَلَيْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ المتَنَعِّمِ

بَكَـــرْنَ بُكُـــوراً وَاسْـــتَحَرْنَ بِسُـــحْرةٍ ... فَهُـــنَّ وَوَادِي الـــرَّسِّ كاليَـــدِ لِلْفَـــمِ

وَفـــيهِنَّ مَلْهَـــىً للَّطِيـــفِ وَمَنْظَـــرٌ ... أَنِيـــقٌ لِعَـــيْنِ النَّـــاظِرِ المتَرَسِّـــمِ

كَـــأَنَّ فتَـــاتَ العِهْـــنِ في كـــلِّ مَنْـــزِلٍ ... نَـــزَلْنَ بـــهِ حَـــبُّ الْفَنَـــا لم يحَطـــمِ

فَلَـــمَّا وَرَدْنَ المـــاءَ زُرْقـــاً جِمَامُـــهُ ... وَضَـــعْنَ عِصِيّـــ الحَـــاضِرِ المتَخَـــيِّمِ

ظَهَـــرْنَ مِـــنَ السُّـــوبانِ ثُـــمَّ جَزَعْنَـــهُ ... عـــلى كـــلِّ قَيْنـــيٍّ قَشِـــيبٍ وَمُفْـــأَمِ

وكما في قول طرفه بن العبد:

وَإِني لأُمْضِي الهـــمَّ عِنْـــدَ احْتِضَـــارِهِ ... بِعَوْجَـــاءَ مِرْقَـــالٍ تَـــرُوحُ وَتَغْتَـــدِي

أَمـــونٍ كـــأَلْوَاحِ الإِرانِ نَصَـــأْتُها ... عـــلى لاحِـــبٍ كأَنَّـــهُ ظَهْـــرُ بُرْجُـــدِ

جَمَالِيَّـــةٍ وَجْنَـــاءَ تَـــرْدي كَأَنَّهَـــا ... سَـــفَنجَةٌ تَـــبْري لأَزْعَـــرَ أَرْبَـــدِ

تُبَـــارِي عِتَاقـــاً ناجِيـــاتٍ وَأَتْبَعَـــتْ ... وَظِيفـــاً وَظِيفـــاً فَـــوْقَ مَـــوْرٍ مُعَـــبَّرِ

تَرَبَّعَـــتِ القُفَّـــيْنِ فِي الشَّـــوْلِ تَرْتَعِـــي ... حَـــدَائِقَ مَـــوْلِيَّ الأَسِرَّةِ أَغْيَـــدِ

تَرِيـــعُ إِلَى صَـــوْتِ المهِيـــبِ وَتَتَّقِـــي ... بِـــذي خُصَـــلٍ رَوْعَـــاتِ أَكلَـــفَ مُلْبِـــدِ

كَـــأَنَّ جنَـــاحَيْ مضْرَـــ حـــيٍّ تَكَنَّفَـــا ... حِفافيـــهِ شُـــكّاً في العَسِـــيبِ بِمسْرَـــدِ

فَطَـــوْراً بـــهِ خَلْـــفَ الزّميـــلِ وَتَـــارَةً ... عـــلى حَشَـــفٍ كالشَّـــنّ ذاوٍ مُجَـــدَّدِ

لهـــا فَخِـــذَانِ أُكمِـــلَ الـــنَّحْضُ فـــيهما ... كـــأَنّهما بابـــا مُنيـــفٍ مُمَـــرَّدِ

وَطَـــيٌّ مُحَـــالٍ كـــالحنيّ خُلُوفُـــهُ ... وَأَجْرِنَـــةٌ لُـــزَّتْ بـــدَأْيٍ مُنَضَّـــدِ

كـــأنّ كِنـــاسَيْ ضَـــالَةٍ يُكْنِفانِهـــا ... وَأَطْـــرَ قِسِيٍّـــ تَحْـــتَ صُـــلْبٍ مُؤَبَّـــدِ

لهـــا مِرْفَقَـــانِ أَفْـــتَلانِ كأنّهـــا ... تَمُـــرُّ بِسَـــلْمَيْ دالِـــجٍ مُتَشَـــدِّدِ

كقَنْطَـــرَةِ الرُّومِـــيّ أَقْسَـــمَ ربّهـــا ... لَتُكْتَـــنَفَنْ حتـــى تُشـــادَ بِقَرْمَـــدِ

صُـــهابِيّةُ الْعُثْنُـــونِ مُوجَـــدَةُ القَـــرَا ... بعيـــدةُ وَخْـــدِ الرّجْـــلِ مَـــوّارَةُ اليَـــدِ

أُمِـــرَّتْ يَـــدَاها فَتْـــلَ شَـــزْرٍ وأُجْنِحَـــتْ ... لهـــا عَضُـــداها في سَـــقيفٍ مُسَـــنَّدِ

جَنُـوحٌ دِفَـاقٌ عَنْـدَلٌ ثـمَّ أُفْرِعَـتْ لهـا كتِفَاهـا فِي مُعـالِي مُصَـعَّدِ
كـأَنَّ عُلُـوبَ النَّسْـعِ فِي دَأَيَاتِهـا مَـوَارِدُ مـن خَلْقَـاءَ فِي ظهـرِ قَـرْدَدِ
تَلاقَـى وَأَحْيانـاً تَبِـينُ كأنّهـا بَنـائِقُ غـرٍّ فِي قَمـيصٍ مُقَـدَّدِ
وَأَتْلَـغُ نَهَّـاضٌ صَـعَّدَتْ بِـهِ كسُـكّانِ بُـوصِيٍّ بِدجلَـةَ مُصْـعِدِ
وَجُمْجُمَـةٌ مِثْـلُ العَـلاةِ كـأنّما وَعـى المُلْتقـى منهـا إلى حـرْفِ مِـبْرَدِ
وَخَـد كقِرْطـاسِ الشّـآمي ومِشْـفَرٌ كسـبْتِ الـيَماني قَـدُّهُ لم يُجَـرَّدِ
وَعَيْنَـانِ كالمـاوِيّتَيْنِ اسْـتَكَنّتا بكهفَـي حجَـاجَي صَـخْرَةٍ قلّـتِ مَـوْرِدِ
طَحـورانِ عُـوّارَ الْقَـذَى فَتَراهُمـا كمِكْحَلَتَـيْ مـذعورَةٍ أُمِّ فَرْقَـدِ
وَصَـادفَتَا سَـمْعِ التَّـوَجُّسِ للسُّـرى لِهَجْـسٍ خَفِـيٍّ أَوْ لِصَـوْتٍ مُنَـدِّدِ
مُوَلّلتـانِ تَعْـرِف العِتْـقَ فـيهِما كسـامِعَتَيْ شـاةٍ بحَوْمَـلَ مُفْـرَدِ
وَأَرْوَعُ نَبَّـاضٌ أَحـدُّ مُلَمْلَـمٌ كمِـرْداةِ صَـخْرٍ فِي صَـفِيحٍ مُصَـمَّدِ
وَأَعْلَـمُ مَخْـرُوتٌ مـن الأَنـفِ مـارِنٌ عَتيـقٌ متـى تَـرْجُمْ بـه الأَرْضَ تَـزْدِدِ
وَإِنْ شـئتُ لم تُرْقِـلْ وَإِنْ شـئتُ أَرْقَلَـتْ مَخَافَـةَ مَلْـوِيٍّ مِـنَ القَـدِّ مُحْصَـدِ
وَإِنْ شئتُ سـلمى وَاسـطَ الكـورِ رَأسـهَا وَعامَـتْ بضَـبْعَيها نجـاءَ الخَفَيْـدَدِ
عـلى مِثْلِهَـا أَمْضِي إِذَا قـالَ صـاحبي أَلا لَيْتَنـي أَفـديكَ منهـا وَأَفْتَـدي
وَجاشَـتْ إِلَيْـهِ الـنَّفْسُ خَوفـاً وَخالَـه مُصَـاباً وَلَـوْ أَمْسَـى عـلى غـيرِ مَرْصَـدِ

وهذا يعني أنّ الرحلة في القصيدة الجاهلية ضربان هما: رحلةُ الشاعر على ناقته، ورحلةُ الظعائن. وقد تكون الرحلة على حصان يشكل في حياة الشاعر صداقة حميمة، كما هو عند عنترة العبسي والشاعر امرئ القيس.

يقول عنترة العبسي واصفاً رحلته الحربية على حصانه المميز:

لّـمـا رَأَيْـتُ القـوْمَ أَقْبَـلَ جَمْعُهـمْ يَتَـذامَرُونَ كَـرَرْتُ غـيرَ مُـذَّمِمِ
يَـدْعونَ عَنْـتَرَ وَالرِّمـاحُ كأنّهـا أَشْـطانُ بئْـرٍ فِي لَبَـانِ الأَدْهَـمِ

مـــا زِلْـــتُ أَرْمِـــيهِمْ بِثُغْـــرَةِ نَحْـــرِهِ وَلَبَانِـــهِ حتـــى تَسَرْبَـــلَ بالـــدَّمِ
فـــازْوَرَّ مِـــنْ وَقْـــعِ القنَـــا بلَبَانِـــهِ وشَـــكا إِلَيَّ بِعَـــبْرَةٍ وَتَحَمْحُـــمِ
لَـوْ كـانَ يَـدْرِي مَـا الْمُحـاوَرَةُ اشْـتَكَى وَلَكَـانَ لَـوْ عَلِـمَ الكَـلامَ مُكَلِّمِـي
ولَقَـدْ شَـفَى نَفْسِي وَأَذْهَـبَ سُـقْمَهَا قِيـلُ الفَـوارِسِ وَيـكَ عَنـتَرَ أَقْـدِمِ
وَالخَيْـلُ تَقْـتَحِمُ الخُبَـارَ عَوَابِسـاً مِـن بـينِ شَـيْظَمَةٍ وَآخـرَ شَـيْظَمِ
ذُلُـلٌ رِكـابِي حَيْـثُ شِـئْتُ مُشـايِعِي لُبِّـي وَأَحْفِـزُهُ بـأَمْرٍ مُـبْرَمِ
وَلَقَـدْ خَشِـيتُ بـأَنْ أَمُـوتَ وَلَمْ تَـدُرْ لِلْحَـرْبِ دَائِـرَةٌ عـلى ابْنَـي ضَمْضَـمِ
الشَّـاتِمَيْ عِـرضِي وَلَمْ أَشْـتِمْهُما وَالنَّـاذِرَيْنِ إِذا لَمَ أَلْقَهُـما دَمِـي
إِنْ يَفْعَـلا فَلَقَـدْ تَرَكْـتُ أَبَاهُمَـا جَـزَرَ السِّـبَاعِ وَكُـلِّ نَسْرٍ قَشْـعَمِ

وحيث يجعل امرؤ القيس من حصانه طائرة (أباتشي) تتحرك يميناً وشمالاً أعلى وأسفل، وقدام وخلف، وقد تقف وتطلق قذائفها:

وَقَـدْ أَغْتَـدي والطَّـيرُ في وُكُناتِهـا بُمنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوابِـدِ هيْكَـلِ
مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدْبِرٍ مَعـاً كجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حطَّـهُ السَّـيْل مـن عَـلِ
كُمَيْـتٍ يَـزِل اللّبْـدُ عـن حـالِ مَتْنِـهِ كَـما زَلَّـتِ الصَّـفْواءُ بـالمُتَنَزِّلِ
عـلى الـذَّبْلِ جَيَّـاشٍ كَـأَنَّ اهتزامَـهُ إِذا جـاشَ فيـهِ حمِيُّـهُ غَـلِيُ مِرْجَـلِ
مِسَـحٍّ إِذا مـا السَّـابحاتُ عـلى الـوَنَى أَثَـرْنَ الْغُبـارَ بالكَديـدِ المرَكَّـلِ
يَـزِلّ الغُـلامَ الخِـفُّ عَـنْ صَـهَواتِهِ وَيُلْـوي بـأَثْوابِ العَنيـفِ المُثَقَّـلِ
دَريـرٍ كَخُـذْروفِ الوَليـدِ أَمَـرَّهُ تَتـابُعُ كفّيْـهِ بخـيْطٍ مُوَصَّـلِ
لَـهُ أَيْطَـلا ظَبْـيٍ وسَـاقا نَعامَـةٍ وَإِرْخـاءُ سِرحـانٍ وَتَقْرِيـبُ تَتْفُـلِ
ضَـليعٍ إِذا اسـتَدْبَرْتَهُ سَـدَّ فَرْجَـهُ بضـاف فُوَيْـقَ الأَرْض لـيس بـأَعزَلِ
كـأَنَّ عـلى المتْنَـينِ منـهُ إِذا انْتَحَـى مَـدَاكَ عَـروسٍ أَوْ صَـلايَةَ حنظَـلِ

كـــأنَّ دِمـــاءَ الهادِيـــاتِ بِنَحْـــرِهِ عُصـــارَةُ حِنَّـــاءٍ بشَـــيْبٍ مُرَجَّـــلِ

ويمكن للمرء أن يعلّل انتشار ظاهرة الرحلة بلونيها في أدبنا العربيّ القديم، فطبيعة المجتمع البدوي القائمة على النُّقلة والرّعي، وحماية مواطن الغيث، وما يتصل بذلك من حروب تقطعُ وشائج الدم والحلف والحبّ، جعلت من الجاهليّ إنساناً عالقاً بالأرض في شؤون حياته، فكانت شؤونه الاجتماعية والاقتصادية مرهونة بالأرض، وبوحي منهما ربما رحل وانتجعَ، حالف أو خرج من الحلف، وغزا فصبّح الآخرين بالغارة الشّعواء، أو غُزي فصبّحتهُ الأحياءُ والقبائل، ونهبتْ ماله وأوجعته فتكاً، وربّما طردته من أرض أو طردها منها، فارتحل، وربّما جادت السّماءُ فأخرف الناسُ، وربعوا في طُمأنينة وهدوءٍ، أو ما يشبه الأسباب، واشتجرت بينهم المودّة، فإذا نشّتِ الغدران وصوَّح المرعى، دعا بالناس داعي الرحيل، كما صاح فيهم من قبلُ صائحُ الفُرقة، زمّوا عيرهم، وتحملوا يطوون النّجود، وقد خلفوا حيث كانوا بضعاً من قلوبهم، وأبعاضاً غالية من نفوسهم وأعمارهم، ورُبما ضاقت الحال بالجاهلي، أو عليه، وعزّت يدُ العون والمساعفة، أو هاجَه الشوق وأثقله الحنين وشطّ مزارُ الحبيبِ، فرحل ناقتَه إلى حيثُ يصيبُ حاجته، أو يرجو أن يصيبَ حاجته، لا يثنيه البعدُ ولا يغولُه التّعب.

كانت حياة الناس إذاً، مرتبطةً بالأرض، وكان هذا الارتباط يوجهها إلى حدّ بعيد، ويصبغها بلونه الخاص من اللقاء والاجتماع، إلى الفُرقة والقطيعة، وكان الأدب يصوغ هذه الوقائع بدقة وأمانة، فيرسم أشكالها ويعين ملامحها، ويحدد طبيعتها، ثم يلوّنها ويغنيها بلمسة الفنّ الساحرة.

الباب الرابع

الفصل الحادي عشر

التوق إلى الوحدة والتحرير في الشعر الجاهلي

إذا كان الإنسان بطبعه تواقاً للحرية متشوفاً للعيش في ظلالها باذلاً الغالي والنفيس من أجلها منذ أقدم العصور، وحتى يومنا هذا، فإن الإنسان العربي لم يأل جهداً في العيش في هذه الحرية، ولقد ضحَّى من أجلها تضحيات لا مثيل لها، والمستقرئ لحياة العرب الجاهليين يكتشف صحة هذه الحقيقة، وقد عبَّر الشعراء الجاهليون عن ذلك تعبيراً صريحاً.

ولقد كانت شبهُ الجزيرة العربية قوةً من القوى الكبرى في العالم القديم شاركت في بناء الحضارة الإنسانية، يقول فليبي: ((إن مشاركة عرب الجنوب في بناء الحضارة الإنسانية أمرٌ لا يمكن وصفه بالمغالاة، ولا مجال لإنكاره أيضاً، ويحسن بنا أن نذكر أنّ بلاد العربِ لبثت على أقل تقدير طوال ألفي عام سبقت ظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قوةً من القوى العظمى على الأرض، لها أعمالها التجارية والفكرية الهائلة، ثم غدت بعد ذلك من جديد قطب الرَّحى من إمبراطورية عالمية عُظمى، تم لها ذلك بوحي الإسلام وبباعثه، فحملت شعلة المعرفة حيّة، متوقدة، في عهود كان يغمر فيها الظلام أوروبا)).

ولفتة فليبي إلى عرب الجنوب يجب ألا تجعلنا نغفل عما قام به عربُ الشّمال من أعمال، إذ كان لهم ملكٌ عظيمٌ وحضارة عريقةٌ منذ فجر التاريخ، فحضارة العرب في الشّمال، في تدمر وثمود وبطرة ((البتراء))، ونزول إبراهيمَ عليه السلام في مكّة المكرمة واتخاذها دار هجرة له، ودار مقام لابنه، كلّ هذه كانت مظاهر من هذه الحضارة العربية.

وفي غمار العصور التاريخية القديمة، ظلت شبهُ الجزيرة العربية تعاصر آشور وبابل ومصر القديمة ثم استمرت قوة عظمى بعد انحلال هذه الممالك، وكانت تتحطّم عليها موجات الأمم المجاورة، ثم ترتدّ عنها كليلةً عاجزةً.

ولذلك اشتهر العربُ بين الأمم القديمة بأنّهم الأمةُ التي لم تُدنّس أرضها قدم غاز من الغزاة، حتى ليقول ديودور الصقلّي: (ولما كان العربُ القاطنون في هذه البلاد لا ينالون في حرب، فقد ظلّوا أحراراً أبداً، لا يستبعدهم مستبدٌ، وأكثر من ذلك أنهم لا يقبلون قطّ رجلاً أجنبياً عنهم سيّداً، فلم يقدر على استعبادهم آشورُ الزمان القديم ولا ملوك ميديا وفارس، ومقدونيا، ومع أنّ هذه الأمم قد جرّدت عليهم جيوشاً جرّارة فإنها جميعاً عجزت عن إخضاعهم). وهكذا فقد كانت الجزيرة العربية تقف سداً منيعاً أمام كل الغزاة.

وكان أول صِدام بين العرب وخلفاء الإسكندر شمال البتراء، فأخفق بطليموس في حملته عليها، ولم يكن حظُّ ابنه أفضل من حظّه فلما يئس الروم من التغلّب على الأنباط، فكّروا في حربهم اقتصادياً فعملوا على فتح طريق البحر الأحمر لسفنهم لإضعاف تجارة الأنباط وطريقها الصّحراوي، لكنّ سفن التجار الرومان كانت تتعرّض لتهديد متواصلٍ يكفي لبقاء الطريق التجاري البّري ويسمح باستمرار الحياة في شبه الجزيرة العربية.

ومع بدء ضعف البتراء ظهرت مدينة تدمر النبطية، وتصدت لمواجهة الفرس والروم وانتصرت عليهما أكثر من مرة، بقيادة أُذينةَ وزوجته زنوبيا، غير أنّ روما نجحت أخيراً في القضاء عليها، وتحوّلت الزعامة العربية إلى بني نصر في أرض الفراتين، وعلى تخوم الصحراء ينافسون ملوك اليمن الجنوبيين فيضعف الطرفان بهذا التنافس، ويتيح للأحباش احتلال اليمن أول مرة.

ولقد سمح الفتحُ الحبشيُّ الأوّل لليمن بقيام حُكمٍ أجنبي، ووجدَ أبناءُ الأمة أنفسهم أمام ظاهرة جديدة في تاريخهم، فكانت الثوراتُ على الحكم الأجنبيّ، والمتعاونين معه من العربِ، وأسفر هذا الصراع عن سقوط مملكة كندة ومقتل مليكها: حُجْر بن الحارث الكِندي والد الشاعر امرئ القيس المعروف.

وتزعمت هذه الثورة ربيعةُ بقيادة كليب، فكانت انتصاراً لعرب الشمال، وتوحيداً للقبائل، إلا أن حُكم كُليب تحوّل إلى استبداد بمن يحكمهم كثيراً فكرههُ العربُ كُرهاً عنيفاً، ورأت بكرٌ أن تغلب تذهب بالمجد كله، فحالفت ملوك الحيرةَ. وكانت ثورة جسّاس البكري ومصرعُ كُليب وسقوطُ المملكة التغلبية الشابّة.

ومنذ ذلك اليوم غرقت جزيرة العرب في سيول من دماء أبنائها، واتجه ملوك الحيرة إلى تأريث الخلاف بين عرب الجزيرة لكي لا تنهض مرة ثانية تلك الوحدة التي هدّدتهم.

في خلال هذه المصيبة العظيمة ندب شعراءُ الجاهلية الوحدة، وحاربوا الخلاف والانقسام وتفرّق الكلمة، ولم توجّه عداوة هؤلاء الشعراء إلى حُكمٍ بقدرِ ما واجهت إلى دولة الحيرة العربيّة، فاليقظة في جزيرة العرب كانت على صوتِ طبولٍ الأحباش، وقد ذهب كثير من هؤلاء الشعراء ضحايا لهذه، فقُتلَ طُرفةُ بن العبد، وعبيد بن الأبرص، والمنخّل اليشكُري وعاش المتلمّسُ طريداً في سبيل هذه الوحدة. وشُغل العربُ بأنفسهم في داخل شبه الجزيرة وقد مزّقتهم الخلافاتُ القبلية والمذهبية وانحلّت دولهم فيها، ولكنا نجد النعمانُ الأخير ملك الحيرة يعطفُ على الوحدة التي عمل آباؤه على تفكيكها، ويمضي شاعرُ كالنابغة يطوف في الأرض يبغي جمع الكلمة ولم الشّعث، ويحاول أن يوفق بين الخصمين التقليديين وهم الغساسنة والمناذرة. ويشعر الفرس بخطر مطامح النّعمان، فيعملون على قتله، وهنا يشعر العرب جميعاً بما لم يشعروا به من قبل، وتجتمع كلمتهم في معركة ذي قار انتقاماً للنعمان، والتي انتصف فيها العرب من الفرس.

الباب الرابع

الفصل الثاني عشر

الصعلكة مفهوم اقتصادي جاهلي

تشكل الصعلكة في العصر الجاهلي ظاهرة شعرية لها شعراؤها وموضوعاتهم المميزة، فقد كانت البيئة الجاهلية التي نزلت فيها القبائل العربية غير متساوية في الخصب والجدب؛ وكذلك كانت الثروة غير موزعة توزيعاً عادلاً بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة؛ مما أفضى إلى وجود طبقتين متنافرتين:

١ – طبقة الأغنياء: وهي الطبقة التي استحوذت على الثروة المالية والثروة الحيوانية، فكانت في موقع السيادة.

٢– وطبقة الفقراء المعدمين: ولعل هذا التناقض الصارخ جعل الفقراء يحترفون الغزو لاستخلاص أقواتهم ومعيشتهم، وخضوعاً لتلك الظروف الاقتصادية كون الصعاليك في الجاهلية ثلاث طبقات (طبقة الفقراء كعروة بن الورد، وبعض القبائل الفقيرة مثل هذيل) و(طبقة الخلعاء مثل حاجز الأسدي وقيس بن الحدادية) و(وطبقة الأغربة السود مثل تأبط شراً، والشنفرى، والسليك بن السلكة) وقد جمع بينهم الجوع والضياع والتشرد والتمرد والثورة على المجتمع الجاهلي، وهكذا فقد كان من أسباب انتشار حركاتِ الصّعاليك في منطقةِ السرَّاةِ المحيطةِ بمكّة، وفي قبيلة هُذيل وقوعَها على الطريق التجاري الذي يصل بين اليمن والشام؛ مما جعلها ممراً للقوافلِ التجاريّة، وقُربها من مكّةَ المكرمة حيثُ تقامُ ثلاثة أسواقٍ مشهورةٍ: هي عُكاظُ، ومجنّةُ، وذو المجاز، مما أتاح الفرصةَ المؤاتيةَ للغارة والغزو والسّلب، ولهذا السبب اضطرَّ التّجَار في مناطق هذه الأسواق إلى أن يتخفّرو بالقبائل القويّة التي تنزلُها. وكان لهذه الأسواقِ من ناحيةٍ أخرى أثرٌ في حياةِ الصّعاليك، ففيها أو في بعضِها على الأقلّ، كانت تجري تجارةٌ رائجةٌ، هي تجارةُ الرقيق، وكانت هذه التجارةُ سبباً في نشأةِ طبقةِ الأغربةِ في المجتمع الجاهلي التي أمدَّتْ حركة الصّعلكة بمجموعة كبيرةٍ من صعاليك

العرب. وقد عرفتْ تلكَ الأسواقُ لوناً من النّشاط الاجتماعيّ كان له أثرٌ في حركة الصّعلكة، وهي ظاهرةُ الخلعِ، أي (تبرّؤ القبيلةِ من أحدِ أفرادها)، وكان الخلعُ يتّخذُ صورةَ إعلانٍ رسميّ يُذاعُ على الناسِ في المواسمِ والأسواقِ، وهؤلاء الخُلعاءُ كانوا يمدّون حركةَ الصّعلكة أيضاً بمجموعةٍ كبيرةٍ من صعاليك العرب. ويشيرُ المؤرّخون إلى أهميّة مكة في النشاط التجاري آنذاك، فقد أصبح عربُ الحجازِ أصحابَ التّجارة بعدَ ضعفِ المماليك الحميريّة في اليمن، وأصبحتْ مكّةُ المكرمة قبلَ القرنِ الخامسِ الميلاديّ محطةً للقوافلِ تمرُّ بها وهي راجعةٌ من جنوب الجزيرةِ تحملُ بضائعَ الهند واليمن إلى سورية وفلسطين ومصر، وقد سيطر على أهل مكّة المكرمة روحُ تجاريّ نشط، فاشتعلت في نفسِ كلٍّ منهم حُمّى تدفعه للعملِ والمالِ والمضاربات التّجارية، وقد أحدث هذا النشاطُ التجاريُّ نوعاً من الخلل في التوازن الاقتصاديّ، نشأت عنه طبقة من الصعاليك المعوزين ممن تخلّفوا عن القافلة، ونحّاهم التيارُ التجاريّ الجارفُ جانباً، وكان عددُ أفرادِ هذه الطبقة في مكّة المكرمة كبيراً جداً إذا قيس بعددِ أصحابِ الثروةِ فيها، وكان حقُّ التشريع محصوراً في أيدي الأغنياء، فكانوا يسنُّون من الشرائع ما كان يوافقُ مصلحتهم، ويستغلّون الفقراء الذين كانوا يعيشونَ في بيوتِ ومضارب حقيرةٍ في شِعابِ البلدة وأطرافها البعيدة. ويستدينون من أصحابِ المال برباً فاحشٍ، ولولا ذلك ما حمل القرآن الكريمُ على الرِّبا والمُرابين الذين كانوا يتلاعبون بالدُّيون بأن يؤخروا آجالها، ويقدّموها أو يضيفوا إليها. وكانت مكّةُ المكرمة في الجاهلية حرماً مقدّساً ((لا ظُلمَ ولا بغي فيها)) نظراً لوجودِ الكعبة فيها، فهي مدينةٌ لها نظامُها الاجتماعيّ، ولا تصلحُ أن تكون ميداناً لحركات الصعاليك المتمرّدين، ومن هنا لم يجدوا مفرّاً من الخروج منها إلى البادية الواسعةِ حيث فوضى الحياة، وحيثُ طوائفُ المتشرّدين وقطّاعُ الطُّرق وذؤبانُ الصّحراء، فإذا ما ضاقت بهم الحياةُ، فإنّ طريق العودة إلى مكة المكرمة مُيسَّر، وأبوابُ البلدِ الحرام مفتوحةٌ لكلِّ لاجيءٍ أو خائفٍ أو طريدٍ (من دخلهُ كان آمناً ومن أحدث في غيره من البُلدان حدثاً، ثم لجأ إليه فهو آمن إذا دخله). ومن هنا نستطيع أن نفهم السرَّ في كثرةِ الخلعاءِ، من شتّى القبائل فيها، واتخاذهم منها مركزاً يلتقون فيه آمنين على حياتهم من الطّلب. وإذا تركنا المدن التجارية ومضينا إلى البادية، وما يدور فيها من صراعٍ لنتبين موقف أهلها من هذا النشاط التجاري،

فإننا نجدُ موقفهم قد اختلف تبعاً لمواقعِ قبائلهم من حيثُ قربها من مراكز النّشاط التجاري وطرق القوافل أو بعدها عنها. فمن الطبيعي أن تشارك القبائل التي كانت تنزل على طول الطرق التجارية أو قريباً منها في هذا النشاط التجاري، فكان بعض أفراد هذه القبائل يعملون أدلاء لها نظيرَ أجرٍ يتقاضونه، وإلى جانب هؤلاء الأدلاء كانت القوافل التجاريةُ تحتاج إلى خفراء أو حُماةٍ يؤمنون سبيلها، ويذودون عنها وحوش الصّحراء ويدفعون عنها ذؤبان العربِ وصعاليكَ الأحياء وأصحابَ الغارات؛ ذلك لأنّ طرق القوافل كانت معرّضة لغزو القبائل، وسطو شذّاذ الطرق وقطاعها، وبخاصةٍ تلك المناطق التي لم تكن أرض مملكةٍ، وكان من غزّ فيها برزّ، تدين بشريعة القوة، ويسيطر عليها مذهب الحقّ للقوة. فإذا ما تركنا القبائل التي كانت تنزل على الطريق التجارية وتوغّلنا في البادية العربية بعيداً عن النشاط التجاري، فإننا نجد ثمة صراعاً بين الفقر والغنى، والمجتمع البدوي يتكوّن من طبقتين اقتصاديتين أساسيتين:

طبقة أصحاب الإبل.

وطبقة الصعاليك.

وكانت ثروة الأفراد في المجتمع البدوي تقاس بمقدار ما يملكون من الإبل، وإلى جانب هذه الطبقة من أصحاب الإبل التي كانت نعمهُم تملأ الأرض وجدت طبقة من الصعاليك لا تكاد تملك شيئاً، أو كما يقول بعض شعرائها: (تجرّ حبلاً ليس فيه بعير)، وكان حياتهم بائسة حتى ليُضطر بعضهم إلى قتل أولادهم خشية إملاق، كما ذكر القرآن الكريم حين نهى الجاهليين عن قتل أولادهم خوفاً من الفقر(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم). ومن هُنا لم يكن أمام هؤلاء البدو الفقراء إلا أن يعملوا للأغنياء في الرّعي وخدمة الإبل، أو يعينون نساءَ الحيّ على حد تعبير عُروة بن الورد، فإذا رفضتْ نفوسُهم ممارسة هذه الأعمال وقعوا تحت الحيف.

الباب الرابع

الفصل الثالث عشر

الصعاليك

أ- مفهوم ومعنى:

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، وقد أخذت هذه اللفظة تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق.

ب- مجموعات الصعاليك:

الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم، مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطحان القيني.

أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم آباؤهم، ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليك بن السلكة وتأبط شرّاً والشَّنْفَرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم، فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب.

مجموعة احترفت الصعلكة احترافاً:

أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي.

قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم، اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.

ج- توجهاتهم:

تتردد في أشعار الصعاليك جميعاً

١- صيحات الفقر والجوع.

٢- تموج أنفسهم بثورة عارمة على الأغنياء الأشحاء.

٣- ويمتازون بالشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو؛ حتى ليسمون بالعدّائين، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو؛ فيقال: "أعدى من السليك" و"أعدى من الشنفرى"، وتُروى عنهم أقاصيص كثيرة في هذا الجانب؛ من ذلك ما يقال عن تأبط شرّاً من أنه "كان أعدى ذي رجلين وذي ساقين وذي عينين، وكان إذا جاع لم تقم له قائمة؛ فكان ينظر إلى الظباء، فينتقي على نظره أسمنها، ثم يجري خلفه، فلا يفوته، حتى يأخذه فيذبحه بسيفه، ثم يشويه فيأكله". وكما كانوا يحسنون العدو، كان كثير منهم يحسن ركوب الخيل والإغارة عليها، وكانت أكثر المناطق التي يُغيرون عليها مناطق الخصب، وكانوا يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة إلى مكة، ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية.

٤- نحس عندهم غير قليل من الترفع والشعور بالكرامة في الحياة، ويصور لنا ذلك أبو خراش الهذلي فيقول:

وَإِنّي لَأُثوي الجوعَ حَتّى يَمَلَّني فَيَذهَبَ لَم يَدنَس ثِيابي وَلا جِرمي
وَأَغتَبِق الماءَ القَراحَ فَأَنتَهي إِذا الزادَ أَمسى لِلمُزَلَّجِ ذا طَعمِ

أَرُدُّ شُجاعَ البَطنِ قَد تَعلَمينَهُ وَأوثِرُ غَيري مِن عِيالِكِ بِالطُّعمِ
مَخافَةَ أَن أَحيا بِرَغمٍ وَذِلَّةٍ وَلَلمَوتُ خَيرٌ مِن حَياةٍ عَلى رَغمِ

٥- التعبير عن مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنترة وعروة بن الورد.

٦- تحول الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، تقوم على السلب والنهب؛ ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيداً كريماً، واقرأ في صعاليك هذيل من مثل أبي كبير والأعلم وفي السليك وتأبط شرّاً وغيرهم؛ فستجد للصعلوك مثاليته في الحياة أو على الأقل ستجد من بينهم من يصورون مستوى خلقيّاً رفيعاً من البِر، وإن كان ذلك لا يمنع من أن فريقاً منهم عاش سفاحاً لا يرعى عهداً ولا ذمة. ونقف قليلاً عند أكثرهم دوراناً على الألسنة، وهم: تأبط شرّاً، والشنفرى، وعروة بن الورد.

أما تأبط شرّاً: فمن قبيلة فهم، واسمه ثابت بن جابر بن سفيان ويعد في أغربة العرب؛ إذ كان ابن أمة حبشية سوداء، فورث عنها سوادها، وقيل: بل أمه حرة من فهم تسمى أميمة.

أما الشنفرى: فكان من عشيرة الإواس بن الحجر الأزدية اليمنية، فهو قحطاني النسب، ويدل اسمه–ومعناه الغليظ الشفاه– أن دماء حبشية كانت تجري فيه من قبل أمه؛ فهي أمة حبشية، وقد ورث عنها سوادها؛ ولذلك عُد في أغربة العرب. ولا نراه ينشأ في قبيلة الأزد، إنما ينشأ في قبيلة فَهْم، ويضطرب الرواة في سبب نزوله مع أمه وأخ له بها، وربما كان أقرب ما يروونه من ذلك أن قبيلته قتلت أباه، فتحولت أمه عنها إلى بني فهم، ومما يرجح ذلك أننا نجده يخص بغزوات ابن سلامان الأزديين معلناً في أشعاره أنه يقتص لنفسه منهم.

ويقال: إن الذي روّضه على الصعلكة وقطع الطرق تأبط شرّاً؛ فكان يغير معه، حتى صار لا يُقام لسبيله.

وأما عروة بن الورد العبسي: وكان أبوه من شجعان قبيلته وأشرافهم، ومن ثم كان له دور بارز في حرب داحس والغبراء، أما أمه فكانت من نهد من قضاعة، وهي عشيرة وضيعة لم تعرف بشرف ولا خطر، فآذى ذلك نفسه؛ إذ أحس في أعماقه من قبلها بعار لا يمحى يقول:

وما بِيَ مِن عارٍ إخالُ عَلِمتُهُ سِوى أَنَّ أَخوالي إِذا نُسِبوا نَهدُ

فهي عاره، الذي حلت البلية عليه منه، والذي دفعه دفعاً إلى الثورة على الأغنياء، وهي ثورة كانت مهذبة؛ إذ لم يتحول إلى سافك دماء ولا إلى متشرد يرود مجاهل الصحراء؛ فقبيلته لم تخلعه، بل ظل ينزل فيها مرموق الجانب لسيرة كانت تروع معاصريه ومن جاؤوا بعدهم، إذ اتخذ من صعلتكه باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي بينه وبين فقراء قبيلته وضعفائها، ومن أجل ذلك لقب عروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم وضاقت بهم الدنيا. وفي الأغاني "كان عروة بن الورد؛ إذا أصابت الناس سنة– أزمة جدب– شديدة وتركوا في دارهم المريض والكبير والضعيف، يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته في الشدة، ثم يحفر لهم الأسراب، ويكنف عليهم الكنف – الحظائر– ويكسبهم. ومن قوي منهم – إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته– خرج به معه فأغار، وجعل لأصحابه الباقين في ذلك نصيباً. حتى إذا أخصب الناس وأَلْبَنُوا وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله، وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها؛ فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى؛ فلذلك سمي عروة الصعاليك". عروة بذلك كله يعبِّر عن نفس كبيرة، فهو لا يغزو للغزو والنهب والسلب كالشنفرى وتأبط شرّاً، وإنما يغزو ليعين الهُلَّاك والفقراء والمرضى

والمستضعفين من قبيلته، والطريف أنه لم يغرْ على كريم يبذل ماله للناس، بل كان يتخير لغارته من عُرفوا بالشح والبخل ومن لا يمدون يد العون للمحتاج في قبائلهم، فلا يرعون ضعفاً ولا قرابة ولا حقّاً من حقوق أقوامهم؛ وبذلك كله تصبح الصعلكة عنده ضرباً من ضروب النبل الخلقي، وكأنها أصبحت صنواً للفروسية؛ بل لعلها تتقدمها في هذه الناحية من التضامن الاجتماعي بين الصعلوك والمعوزين في قبيلته. وبلغ عروة من ذلك أنه كان لا يؤثر نفسه بشيء على من يرعاهم من صعاليكه؛ فلهم مثل حظه غزوا معه أو قعد بهم المرض والضعف. وهو يضرب بذلك مثلاً رفيعاً في الرحمة والشفقة والبذل والإيثار.

وكان معاوية يقول: "لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم"، أما عبد الملك بن مروان فكان يقول: "من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد" وكان يقول أيضاً: "ما يسرُّني أن أحداً من العرب ولدني ممن لم يلدني إلا عروة بن الورد لقوله:

إِنّي امـــرُؤٌ عـــافي إِنـــائِيَ شِركَـــةٌ وَأَنـــتَ امـــرُؤٌ عـــافي إِنائِـــكَ واحِـــدُ
أَتَهـــزَأُ مِنّـــي أَن سَـــمِنتَ وَأَن تَـــرى بِـــوَجهي شُـــحوبَ الحَـــقِّ وَالحَـــقُّ جاهِـــدُ
أُفَـــرِّقُ جِســـمي في جُســـومٍ كَثـــيرَةٍ وَأَحســـو قَـــراحَ المـــاءِ وَالمـــاءُ بـــارِدُ

وعروة يعبِّر عن معنى إنساني رفيع؛ إذ تعرض له بعض أصحابه يعيبه بأنه مُضنى هزيل شاحب اللون، فقال له: إنني يشركني كثيرون من العفاة والسائلين ذوي الحاجة في إنائي أو طعامي، أما أنت فلا يشركك أحد؛ ولذلك سمنت، أما أنا فأصبحت ضامراً نحيلاً، وما شحوب وجهي إلا أثر من آثار نهوضي بحقوق هؤلاء المحتاجين والمعوزين؛ فلست أنا الخليق بالهزء والسخرية، إنما الخليق بذلك السمين البطين. وما لبث أن قال: إنه يقسم طعامه بينه وبين الفقراء أو بعبارة أدق يقسم جسمه في جسومهم، بل كثيراً ما يؤثرهم على نفسه بكل طعامه مع جوعه ومسغبته مكتفياً بشرب الماء البارد، على حين يعصف الشتاء بزمهريره. والذي لا ريب فيه أنه طمح إلى مثل نبيل في البر والإيثار ودفع غوائل البؤس والشقاء عن البؤساء والضعفاء. ونحن نقف عند قصيدة أنشدها له الأصمعي في أصمعياته، وهي بذلك من أوثق شعره وأصدقه. وهو يستهلها بتوجيه الخطاب إلى امرأته سلمى التي تلومه على كثرة مخاطراته ومغامراته في الغزوات والغارات، وقد رد عليها بأنه يبغي حسن الأحدوثة وبقاءها،

وأنه إنما يرمي بنفسه في المهالك من أجلها، حتى يغنيها، وحتى لا تشعر بالحاجة من بعده أو بالذل والهوان، وهي تماريه شفقة عليه:

تَقـولُ لَـكَ الـوَيلاتُ هَـل أَنـتَ تـارِكٌ ضُـبُوّاً بِرَجـلٍ تـارَةً وَبِمِنسَرِ

فهي تقول له: إنك لن تنتهي عن غاراتك بالصعاليك من الراجلين تارة ومن الفرسان تارة ثانية، وحري بك أن تكف عن ذلك؛ حتى لا تلقى حتفك. ويرد عليها:

أَبـى الخَفـضَ مَـن يَغشـاكِ مِـن ذي قَرابَـةٍ وَمِـن كُـلِّ سَـوداءِ المَعاصِـمِ تَعـتَري

وَمُسـتَهنِئٍ زَيـدٌ أَبـوهُ فَـلا أَرى لَـهُ مـدافعاً فَـاقني حَيـاءَكِ وَاِصـبِري

فهو لا يستطيع القعود عن الغزو كما تريد زوجه؛ لما عليه من واجبات وحقوق لأقربائه المحتاجين من قبيلته، ونسائها المعوزات، والعُفاة، طلاب العطاء من الضعفاء؛ فهو إنما يغزو من أجل الوفاء بحقوق هؤلاء جميعاً. ويعرض عليها صورتين للصعلوك، صورة رديئة، وصورة جيدة، أما الصورة الأولى ففيها يتراءى الصعلوك خاملاً، حسبه أن ينال أكلة من فتات مائدة، لا يهمه أهله، ولا عياله، ولا قومهم، يقول:

لَحَـى اللهُ صُـعلوكاً إِذا جَـنَّ لَيلُـهُ مضى ـ في المُشـاشِ آلِفـاً كُـلَّ مَجـزَرِ

يَعُـدُّ الغِنـى مِـن نَفسِـهِ كُـلَّ لَيلَـةٍ أَصـابَ قِراهـا مِـن صَـديقٍ مُيَسَّرِ ـ

يَنـامُ عِشـاءً ثُـمَّ يُصـبِحُ قاعِـداً يَحُـتُّ الحَصى ـ عَـن جَنبِـهِ المُتَعَفِّـرِ

يُعـينُ نِسـاءَ الحَـيِّ مـا يَسـتَعِنَّهُ وَيُمسي ـ طَليحـاً كَـالبَعيرِ المُحَسَّرِ ـ

أما الصعلوك الآخر الشريف فهو جدير بكل ثناء وتشجيع من الزوجة وغير الزوجة، يقول في وصفه:

وَلله صُـعلوكٌ صَـحيفةُ وَجهِـهِ كَضَـوءِ شِـهابِ القـابِسِ المُتَنَـوِّرِ

مُطِـلًّا عَـلى أَعدائِـهِ يَزجُرونَـهُ بِسـاحَتِهِم زَجـرَ المَنـيحِ المُشَـهَّرِ

وإن بَعُـدوا لا يَـأمَنونَ اقتِرابَـهُ تَشَـوُّفَ أَهـلَ الغائِـبِ المُتَنَظَّـرِ

فَـذلِكَ إِن يَلـقَ المَنِيَّـةَ يَلقَهـا حَميـداً وَإِن يَسـتَغنِ يَومـاً فَأَجـدِرِ

فيحدثنا عن غزواته وغاياتها؛ يقول:

أَيَهلِكُ مُعتَمٌّ وَزَيدٌ وَلَم أَقُم ... عَلى نُدَبٍ يَوماً وَلي نَفسُ مُخطِرِ
سَتُفزِعُ بَعدَ اليَأسِ مَن لا يَخافُنا ... كَواسِعُ في أُخرى السَوامَ المُنَفَّرِ
نُطاعِنُ عَنها أَوَّلَ القَومِ بِالقَنا ... وَبيضٍ خِفافٍ ذاتِ لَونٍ مُشَهَّرِ
وَيَوماً عَلى غاراتِ نَجدٍ وأَهلِه ... وَيَوماً بِأَرضٍ ذاتِ شَثٍّ وَعَرعَرِ
يُريحُ عَلَيَّ الليلُ أَضيافَ ماجِدٍ ... كَريمٍ وَمالي سارِحاً مالُ مُقتَرِ

والحق أن عروة كان صعلوكاً شريفاً، وأنه استطاع أن يرفع الصعلكة، وأن يجعلها ضرباً من ضروب السيادة والمروءة؛ إذ كان يستشعر في قوة فكرة التضامن الاجتماعي وما يطوى فيها من إيثار وبر بالفقراء، فهو لا يسعى لنفسه فحسب، وإنما يسعى قبل كل شيء للمعوزين من عشيرته حتى يدفع عنهم كل ما يجدون من بؤس وشقاء. وقد برزت عند الشعراء الصعاليك ظاهرة النقد السياسي، ومن استقراء شعرهم في العصر الجاهلي نجد أنهم أخذوا على عاتقهم:

الخروج على صوت قبيلته.

٢- لم يعش الشاعر الصعلوك وحيداً، فقد اتخذ له أهلاً ونسباً، ولكن على أساس المذهب والمعتقد لا على أساس الدم.

٣- ثار الشعراء الصعاليك على التقسيم الطبقي للمجتمع القبلي ورأوا فيه حكماً ظالماً.

٤- اتخذت حركة الصعلكة في العصر الجاهلي شكل الثورة، حيث بذلوا أرواحهم في سبيل مبادئهم.

٥- الفخر والمدح والذم عند الشعراء الصعاليك هو مذهبي حزبي يقوم على أساس العصبية المذهبية لا على أساس العصبية القبلية.

٦- كفر الشعراء الصعاليك ببعض المسلمات والعادات والتقاليد والخرافات التي كانت سائدة في مجتمعاتهم، وهم بذلك حملوا لواء التغيير والتجديد على أساس العقل والعلم.

٧- وصف الشعراء الصعاليك منافيهم، بمتاهاتها وجدبها ووحشها، وصفاً دقيقاً تعجز عنه أمهر عدسات المصورين الحديثة.

الباب الرابع

الفصل الرابع عشر

علاقة الشاعر الجاهلي بالطبيعة

المتصفح لحياة الصحراء العربية يكتشف مدى جاذبية هذه الصحراء للروح والنفس بحيث أن الشعراء تعلقوا بها تعلقاً شديد جعلهم إذا خرجوا من هذه الصحراء تحل بهم حالة السمك حين نخرجه من الماء، فهم يبكون حسرة وندامة على فقدان رمالها وكثبانها حيث تظهر رياحها المثيرة للغبار أحب إليهم من الرياح التي تهز الأشجار في المدن.

فهذه تماضر امرأة صبية من صحراء نجد نقلت إلى منطقة حضرية حيث برك الماء والرياحين والأزهار، وتسأل أيهما أفضل فتطرق وتتحسر على حياة الصحراء، وتقول في ذلك شعراً.

وهذا شاعر يتمنى لقاء الصحراء ويندب عيشه في غيرها فيقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بصحراء ما بين الجَثُومِ إلى شعر

وهذا آخر يتعجب من رؤيته طيور المكاكي في مناطق الحضر فيدعوه إلى الصحراء، كأنما يعبر عما في نفسه قائلاً:

ألا أيها المكاء مالك هاهنا ألاء ولا أرطى فأين تبيض

فاصعد إلى أرض المكاكي واجتنب قرى المصر لا تصبح وأنت مريض

وهذا شاعر يصف حياة المدن كرهاً لها قائلاً:

قوم إذا اخضرت نعالهم يتناهقون تناهق الحمر

وهم يتعلقون بالصحراء وما عليها من خيل وإبل ووحوش، ويكنونها كما يكنى الإنسان، فيقولون للأسد أبو الحارث وللثعلب أبو الحصين، وللفرس أبو المضاء، وللنعامة أم رئام، ولحبهم لحيواناتهم يتركونها عندما تكون بحيرة أو سائبة، أو حام أو وصيلة) وهذا سحر

الصحراء وسرها الغامض وأكثر ما يعجبك في تعلق العربي بصحرائه عشيات الحمى التي نفثها الصمة القشيري عندما وقف مودعاً بلاد نجد وصحراءها قائلاً:

قفا ودّعا نجد وعن حل بالحمى وقلّ لنجد عندنا أن يودعا

بكت عيني اليسرى فلمّا زجرتها عن الجهلِ بعدَ الحِلْم أسبلتا معا

والمراجع لديوان الشعر الجاهلي ووصفه للخيل والنوق والأطلال والرمال يكشف مدى علاقة الشاعر العربي بصحرائه، ويدرك معنى كثرة الشعر العربي الجاهلية بطبيعة الصحراء.

الباب الرابع

الفصل الخامس عشر

وصف الطبيعة في الشعر الجاهلي

تعد الطبيعة من الموضوعات المهمة التي كتب فيها الأدباء على مر العصور؛ ذلك أن معظم أشعار الشعراء ومقالات البلغاء تهتم بالوصف كثيراً، والشعراء في العصر الجاهلي كتبوا في الطبيعة، وأسهبوا في وصفها إسهاباً أيما إسهاب، سواء أكانت الطبيعة هي البيئة الصحراوية أم كانت الليل أم المطر أم الحيوانات والطيور أم كانت المرأة؟ والشاعر الجاهلي عادة ما يصف كل ما يراه في أثناء رحلته الصحراوية من أودية، أو مطر، أو رياح، أو نهر، ذلك أن الشعر إلا أقله راجع إلى الوصف، وفي الشعر الجاهلي وصف دقيق للمرأة، ولحياة حيوان الصحراء كالغزلان والخيول والجمال والنعام والبقر الوحشي، وقد برع امرؤ القيس في الوصف بشكل عام، وفي وصف الليل بشكل خاص، وفي ذلك يقول:

وَليـلٍ كمَـوْجِ الْبَحْـرِ أَرْخَـى سُـدولَهُ ... عـلَيَّ بـأَنْواعِ الهمُـومِ ليبْـتَلي

فَقلْـتُ لَـهُ لَمَّـا تَمَطَّـى بصُـلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَـازاً وَنـاءَ بكَلْكَـلِ

أَلا أَيُّهـا اللَّيْـلُ الطَّويـلُ أَلا انْجَـلي ... بصُـبْحٍ ومـا الإِصْـباحُ مِنـكَ بأَمْثَـل

فيـا لـكَ مِـن لَيْـلٍ كـأَنَّ نُجومَـهُ ... بـأَمْراسِ كتَّـانٍ إِلى صُـمٍّ جنـدَلِ

كما برع الشاعر زهير بن أبي سلمى في وصف الأطلال التي تمثل ذكريات الشاعر مع أم أوفى زوجته التي طلقها لعدم إنجابها الأولاد:

أَمِـنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَـةٌ لَمْ تَكَلَّـمِ ... بِحَوْمَانَـةِ الـدَّرَّاجِ فَـالمتَثَلّمِ

وَدَارٌ لهـا بـالرَّقْمتَيْنِ كأَنَّهَـا ... مَرَاجِيـعُ وَشْـمٍ فِي نَـوَاشِرِ مِعْصَـمِ

بِهَـا العِـيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِـينَ خِلْفَـةً ... وَأَطْلاَؤُهَـا يَنْهَضْـنَ مِـنْ كُـلِّ مَجْـثَمِ

وَقَفْتُ بِهَا من بعْدَ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلأْياً عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
أَثَافِي سُفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلٍ وَنُؤْياً كَجِذْمِ الْحَوْضِ لم يتَثَلَّمِ
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِهَا أَلا أَنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

أما وصف الحصان فقد كان مختلفاً ما بين امرئ القيس وعنترة بن شداد؛ لأن الحصان هو عدة الشاعر الجاهلي في رحلته يقول عنترة:

لّما رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهمْ يَتَذامَرُونَ كَرَرْتُ غيرَ مُذمَّمِ
يَدُعونَ عَنْتَرَ وَالرِّماحُ كأنّها أَشْطانُ بئْرٍ في لَبَانٍ الأدْهَمِ
ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بثُغْرَةِ نَحْرِهِ وَلَبَانِهِ حتى تَسَرْبَل بالدَّمِ
فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقنَا بلَبَانِهِ وشَكا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لَوْ كانَ يَدْرِي مَا الْمحاوَرَةُ اشْتَكَى وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلامَ مُكَلِّمِي

ويقول امرؤ القيس في صف حصانه قائلاً:

وَقَدْ أَغْتَدي والطَّيْرُ في وُكُناتِها بُمنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابِدِ هيْكَلِ
مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كجُلْمُودِ صَخْرٍ حطَّهُ السَّيْل من عَلِ
كُمَيْتٍ يَزِل اللّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفْواءُ بالمتَنَزِّلِ
على الذَّبْلِ جَيَّاشٍ كَأَنَّ اهتزامَهُ إِذا جاشَ فيهِ حميُهُ غَلْيُ مِرْجَلِ
مِسَحٍّ إِذا ما السَّابحاتُ على الوَنَى أَثَرْنَ الْغُبارَ بالكَديدِ المرَكَّلِ
يَزِلّ الْغُلامَ الخِفُّ عَنْ صَهَواتِهِ وَيُلْوي بأَثْوابِ الْعَنيفِ المثَقَّلِ
دَريرٍ كَخُذْروفِ الْوَليدِ أمَرَّهُ تَتابُعُ كفّيْهِ بخَيْطٍ مُوَصَّلِ
لَهُ أَيْطَلا ظَبْيٍ وسَاقا نَعامةٍ وَإِرْخاءُ سِرحانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ
ضليعٍ إِذا استَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ بضافٍ فُوَيْقَ الأَرْض ليس بأَعْزَلِ

كـــأنَّ عـــلى المتْنَـــينِ منـــهُ إذا انْتَحَـــى مَـــدَاكَ عَـــروسٍ أَوْ صَـــلايَةَ حنظـــلِ

كـــأنَّ دِمـــاءَ الهادِيـــاتِ بِنَحْـــرِهِ عُصـــارَةُ حِنَّـــاءٍ بشَـــيْبٍ مُرَجَّـــلِ

ولم يكن الشاعر الجاهلي في هذا الوصف يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء التي يصفها، بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أميناً يُبقي فيه على صورتها الحقيقية دون أن يدخل عليها تعديلاً يمس جوهرها. ولذلك كان الشاعر الجاهلي يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي الأطراف حوله، فإذا وصف الشاعر الجاهلي شيئاً تمسك بالحسية في الوصف، حيث يضيف للمعاني الحسية الحركة والحيوية، ويدقق النظر في أجزائه، ويفصل فيها الحديث تفصيلاً دقيقاً، وقد كان وصف طرفة لناقته في الصحراء التي تشبه السفينة في البحر وصفاً متميزاً، حيث يقول:

وَإِني لا مْضِيـــ الهـــمَّ عِنْـــدَ احْتِضَـــارِهِ بِعَوْجَـــاءَ مِرْقَـــالٍ تَـــرُوحُ وَتَغْتَـــدِي

أَمـــونٍ كـــأَلْوَاحِ الإِرانِ نَصَـــأْتُها عـــلى لاحِـــبٍ كأَنَّـــهُ ظَهْـــرُ بُرْجُـــدِ

جَمَالِيَّـــةٍ وَجْنَـــاءَ تَـــرْدي كَأَنَّهـــا سَـــفَنجَةٌ تَـــبْري لأَزْعَـــرَ أَرْبَـــدِ

تُبـــارِي عِتَاقـــاً ناجِيـــاتٍ وَأَتْبَعَـــتْ وَظيفـــاً وَظيفـــاً فَـــوْقَ مَـــوْرٍ مُعَـــبَّرِ

تَرَبَّعَـــتِ الْقُفّـــيْنِ فِي الشَّـــوْلِ تَرْتَعِـــي حَـــدَائِقَ مَـــوْلِيَّ الاسِرَّةِ أَغْيَـــدِ

تَرِيـــعُ إِلى صَـــوْتِ المهِيـــبِ وَتَتَّقـــي بـــذي خُصَـــلٍ رَوْعَـــاتِ أَكلَـــفَ مُلْبِـــدِ

كَـــأَنَّ جنَـــاحَيْ مَضْرَـــحيٍّ تَكَنَّفَـــا حِفافيـــهِ شُـــكّا فِي العَسِـــيبِ بِمسْرَـــدِ

فَطَـــوْراً بـــهِ خَلْـــفَ الزّميـــلِ وَتَـــارَةً عـــلى حَشَـــفٍ كالشَّـــنّ ذاوٍ مُجَـــدَّدِ

لهـــا فَخِـــذَانِ أُكمِـــلَ الـــنَّحْضُ فـــيهما كـــأنّهما بابـــا مُنيـــفٍ مُمَـــرَّدِ

وَطَـــيٌّ مُحَـــالٍ كـــالحنيّ خُلُوفُـــهُ وَأَجْرِنَـــةٌ لُـــزَّتْ بـــدَأْيٍ مُنَضَّـــدِ

كـــأنّ كِنـــاسَيْ ضَـــالَةٍ يُكْنِفانِهـــا وَأَطْـــرَ قِسِيٍّـــ تَحْـــتَ صُـــلْبٍ مُؤَبَّـــدِ

لهـــا مِرْفَقَـــانِ أَفْـــتَلانِ كأنّهـــا تَمُـــرُّ بِسَـــلْمَيْ دالِـــجٍ مُتَشَـــدِّدِ
كقَنْطَـــرَةِ الرُّومِـــيّ أَقْسَـــمَ ربّهـــا لَتُكْتَـــنَفَنْ حتـــى تُشـــادَ بِقَرْمَـــدِ
صُـــهابِيّةُ الْعُثْنُـــونِ مُوجَـــدَةُ الْقَـــرَا بعيـــدةُ وَخْـــدِ الرّجْـــلِ مَـــوّارَةُ اليَـــدِ
أُمِـــرَّتْ يَـــدَاها فَتْـــلَ شَـــزْرٍ وأُجْنِحَـــتْ لهـــا عَضُـــداها في سَـــقيفٍ مُسَـــنَّدِ
جَنُـــوحٌ دِفَـــاقٌ عَنْـــدَلٌ ثـــمَّ أُفْرِعَـــتْ لهـــا كتِفَاهـــا في مُعـــالي مُصَـــعَّدِ
كـــأَنَّ عُلـــوبَ النَّسْـــعِ في دَأَيَاتِهـــا مَـــوَارِدُ مـــن خَلْقـــاءَ في ظهـــرِ قَـــرْدَدِ
تَلاقَـــى وَأَحْيانـــاً تَبـــينُ كأنّهـــا بَنـــائِقُ غَـــرٍّ في قَمـــيصٍ مُقَـــدَّدِ

الباب الرابع

الفصل السادس عشر

صورة المرأة في الشعر الجاهلي

تعد المرأة في العصر الجاهلي أحد الركائز الأساسية التي يقوم عليها المجتمع الجاهلي، وإن كان بعض من المؤرخين سابقاً، وعلى مرّ العصور وحتى يومنا هذا، ينظر إليها على أنها كانت مهانة ذليلة، ليس لها قيمة عند الجاهليين مع العلم أن منزلتها كانت من منزلة أهلها وقومها، فللمرأة مكانتها في القبيلة والمجتمع، ويُنظرُ إليها بحسب قبيلتها، وصورتها في البيئة الجاهلية صورة حسنة ودورُها في السلم والحرب دور مهم، وأثرها قوي وهي ذات مكانٍ مرموق؟.

والكثير عندما يذكر المرأة في العصر الجاهلي يتبادَرُ إلى ذهنهِ الوأد، مع أنه كان الكثير من ذوي الشّرف والحسب والنّسب، يُنْسَبون إلى أُمّهاتِهم. وهذا تكريمٌ للأُمِّ المنجبة، وتمجيداً لها، والإعلاء من قدرها.

ونلاحِظُ أنَّ المناذرة يُنسبون إلى أُمِّهم – ماء السّماء – وهي ماوية بنت عوف بن جَشَم، وانتسب الحارثُ الأعرج إلى أُمّه مارية، وانتسبَ إليها الغساسنة.

يقول حسان بن ثابت في مدحِ جبلة بن الأيهم:

أولادُ جَفنـــةَ حـــول قـــبر أبـــيهم قـــبر ابـــن ماريـــة الكـــريم المفضـــل

كما نعلمُ أن المُصاهرةَ تكونُ بسبب المرأة، فقد احترمَ العرب نُسباءهم وأصهرتهم، احتراماً لها. ولنسمعَ قول النابغة يُهدِّدُ عمرو بن هند:

نَجْزيـــكَ إنـــذاراً بـــما أنـــذرتنا وذكـــرتَ عطـــف الـــودِّ والإصـــهار

ولا ضيرَ أن بعضهم كان يكرهُ بعض الصفات في المرأة، وهذا لا يسري على جميع النِّساء، فمن ذلك وصيّة أكثم بن صيفي التي يقول فيها: (تَحاموا المرأة الحمقاء؛ لأنها تَلِدُ الحَمْقى، وولدها إلى ضياع).

وكان واحِدُهم يَحُسُّ أنَّ الخسّة قد تأتي من الأم أو الخالة. فيقولُ أحدُهم:

فأدركنـــــهُ خالاتُـــــه فَخَذَلْنَـــــهُ ألا إنّ عِـــرْقَ الســـوء لابـــدَّ مُـــدرِك

وقد يصيب المرأة الحيف والظُّلم، حتى وإن أكرهت على العار، فهذا الحارث بن عمرو، يُقَطِّعُ أوصال زوجتِهِ؛ لأنَها أُسِرَتْ وواقَعها آسِرُها عَنوةً. فيقول:

كُـــلُّ أنثـــى وإن بـــدا لـــك منهـــا آيـــة الـــودِّ حُبّهـــا خيتعـــور

إنَّ مَـــنْ غَـــرَّهُ النِّســـاء بـــودٍّ بعـــد هـــذا لجاهـــلٌ مغـــرور

على أنَّ للمرأة دوراً عظيماً في الحرب، كما لها الدور العظيم في السلم. فهذا قيس بن الخطيم يقول:

أطاعـــت بنـــو عـــوف أمـــيراً نهاهـــم عـــن الســـلم حتـــى كـــان أول راجـــب

أَوَيْـــتُ لعـــوف أن تقـــول نساؤهـــم ويـــرمين دفعـــاً ليتنـــا لم نُحـــارب

لعمـــر أبيـــك والأنبـــاء تَـنْمـــي لـــنعم أخـــت بنـــي عـــوارا

عَنَيْـــتُ بهـــا فكيهـــة حـــين قامـــت لِنَصْـــلِ الســـيف وانتزعـــوا الخـــمارا

مـــن الخفـــرات لم تفضـــح أخـاهـــا ولـــم ترفـــع لوالدهـــا شنـــارا

وإذا أردنا أن نتعرف إلى نظرة الشعراء إلى المرأة نجدهم عايشوها قيمة عظيمة تتمثل في الحب والهيام، بل تحولت المرأة عندهم إلى هاجس يومي يعيشه الشاعر في كل لحظة، ويتبين لنا هذا الحب للمرأة من خلال شعر امرئ القيس، وزهير بن أبي سلمى، وعنترة وغيرهم.

فهذا زهير يتذكر زوجته أم أوفى بعد عشرين سنة من طلاقها؛ لأنها لم تنجب له الأطفال:

أمـــن أم أوفى دمنـــة لم تكلـــم بحومانـــة الـــدرّاج فـــالمتثلم؟

على أن المرأة بقيت تواكب الفرسان في ساح الوغى، تعمر نفوسهم بنشوة الجمال والحب وتثير نخوتهم إلى القراع والغلاب، يقول عمرو بن كلثوم:

عـــلى آثارنـــا بـــيض حســـان نحـــاذر أن تقســـم أو تهونـــا

وإذا أصغينا إلى الشاعر الجاهلي حاتم الطائي وهو يخاطب زوجته ماوية، نجده يفخر بجوده ونجدته وشهامته وعفته، التي تهواها المرأة وتعتد باتصالها بمثله. ولنسمعه وهو يطالبها بأن تكف عن ملامته، وتعذر هجره إياها، فهو ما هجرها حقاً، ولكن سعى إلى المكرمات:

أمـاويَّ! قـد طـالَ التجنـبُ والهجـرُ وقـد عـذرتني، مـن طلابكـم العـذر
أمـاويَّ! إن المـالَ غـادٍ ورائـحٌ ويبقـى، مـن المـال، الأحاديـث والـذكر

ولعل عنترة بن شداد العبسي، أوضح دليل على أن المرأة هي الحب الذي يتذكره حتى في ساحات المعارك وبين قراع السيوف:

ولقـد ذكرتـك والرمـاح نواهـل منـي وبـيض الهنـد تقطـر مـن دمـي
فـوددت تقبيـل السـيوف لأنهـا لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

وهذا المنخل اليشكري يتغنى بفروسيته وبمكارمه وقدرته على الحب والوصال:

ياهـند مـن لمتـيم ياهنـد، للعـاني الأسيـر!

ولقد كانت المرأة في الجاهلية لا يظهر منها إلا وجهها وأجزاء قليلة من جسمها، كما كانت مختبئة دائماً داخل خدرها، لا تخالط الرجال الغرباء. ويستدل على ذلك بقول امرئ القيس:

وبيضـة خـدر لا يـرام خباؤهـا .....

وقول الأعشى:

لم تمـش مـيلاً ولم تركـب عـلى جمـل ولا تـرى الشـمس إلا دونهـا الكلـل

(والكلل ستر ينصب على الهودج).

ويقول عنترة:

رفعـوا القبـاب عـلى وجـوه أشرقـت فيهـا فغيبهـا السّـهى في الفرقـد

(القبة: غرفة مستورة- السّهى: نجم ضئيل النور جداً- الفرقد: نجم القطب الشمالي ظاهر النور جداً)، ومع أن ذكر المرأة بصورة عامة في الغزل كان كثيراً، إلا أنهم يكرهون تسميتها

على الحقيقة، أما ما يذكره الشعراء من أسماء للنساء فلم يكن إلا تمويهاً، ويمكننا أن نستخلص أوصاف المرأة المحببة لقلوب الرجال في هذا العصر من خلال ما سطره الشعراء الجاهليون، فلقد أحبّ شعراء الجاهلية في المرأة القامة المعتدلة المائلة إلى الطول، كقول عمرو بن كلثوم في معلقته:

(سمنت وطالت..... تنوء بما ولينا)

والبدانة حيث أفرط الجاهليّون في مدح هذه البدانة، وأحبوا المرأة العظيمة الجسم. قال المراد بن المنقذ العدويّ:

قطـــف المشيـــ قريبـــات الخطـــى بـــــدّناً مثـــل الغـــمام المزمخـــر

(القطوف: البطيء أو البطيئة في السير- البادنة: السمينة- المزمخر: الكثير الصوت(الرعد ويكون عادة كثيفاً ثقيلاً بطيئاً)).

وكذلك أحب العرب في المرأة الشعر الطويل حالك السواد، فطول شعر الأنثى وشدّة اسوداده من عناصر الجمال في المرأة الجاهليّة.

يقول امرؤ القيس:

غـــدائرها مستشـــزرات إلى العـــلا تضّـــل العقـــاص في مثنـــى ومرســـل

(الغديرة: الخصلة من الشعر- مستشزرة: مفتولة- العقصة(بالكسر): العقدة في الشعر- المثنّى: الشعر المطوي بعضه على بعض- المرسل: الشعر المنسدل).

وكقوله:

وفـــرع يـــزيّن المـــتن أســـود فـــاحم أثيـــث كقـــنو النخلـــة المتعثكـــل

(الفرع: الشعر- المتن: الظهر- أثيث: كثيف- القنو: العذق الجاف الذي جرّد من تمره- المتعثكل: الذي يبرز منه أشياء كأنّها تتحرّك في الهواء).

وأحب الجاهليون في المرأة الوجه الأبيض النقي الصافي المائل إلى السمرة أو الحمرة.

وعبّروا عن ذلك كلّه بكلمة "أدماء" والأدمة تعني السمرة.

قال زهير:

فأمّـــا مـــا فويـــق العقـــد منهـــا فمـــن أدمـــاء مرتعهـــا الكـــلاء

وأمّـــا المقلتـــان فمـــن مهـــاة وللـــدرّ الملاحـــة والصـــفاء

(المها: بقر الوحش – الدرّ: اللؤلؤ).

كما أن العرب أحبّوا اللون الذي يخالط بياضه شيء من الصفرة فيخرج لونه كلون القمر أو الدرّ، ويسمى اللون "الأزهر".

وقد مدح امرؤ القيس هذا اللون في معلقته:

كبكـــر المقانـــاة البيـــاض بصـــفرة غـــذاها نمـــير المـــاء غـــير المحلّـــل

(البكر: الفذّ الذي لم يسبق بمثله- المقاناة: الخلط- النمير: الصافي- المحلل: الماء الذي ينزل بقربه أقوام كثيرون فيصبح عكراً).

وفضل الشعراء في المرأة أيضاً الخدّ الأملس الطويل: وقد أكثر الشعراء من وصف هذا الخدّ في شعرهم، أما العيون الواسعة الحوراء فهي أهم ميزة تمثل جمال المرأة عند العرب، ولذلك فقد كانت العيون توصف بالسعة والنجل، وتستعار من بقر الوحش كقول امرئ القيس:

تصـــد وتبـــدي عـــن أســـيل وتتقـــي بنـــاظرة مـــن وحـــش وجـــرة مُطْفِـــلِ

(تصدّ: تنفر، تدير وجهها فيبدو خدّها أسيلاً- وتتّقي: تحذر – وجرة: اسم مكان- مطفل: لها طفل، إذا كانت الظبية مطفلاً كانت أشدّ شراسة في دفع المقتربين من جرائها).

وأحب الشعراء الأنف الأقنى: المرتفع وسط القصبة الضيّق المنخرين، وعلى هذا قول "معن بن أوس":

وأقنـــى كحـــدّ الســـيف يشربـــ قبلهـــا .....

(الأقنى: الذي يشبه القناة أو الرمح، المستقيم).

وتغنى الشعراء بالثغر المنوّر، والأسنان الناصعة، والشفتين السمراوين:

يقول امرؤ القيس في الثغر المنور والأسنان الناصعة:

بثغـــر كمثـــل الأقحـــوان منـــوّر نقـــي الثنايـــا أشـــنب غـــير أثعـــل

(الأقحوان: نبات بريّ بتلاته بيض تشبه الأسنان وقلبه أصفر- منوّر: مزهر- أشنب: أبيض- أثعل: متراكب، بعضه فوق بعض). أمّا اللثة فمن قول طرفة نستدلّ أنّها شديدة الحمرة كالرمل الخالص، ولا يستحسن أن تكون متضخّمة:

وتبســـم عـــن ألْمـــى كـــأنَّ منـــوِّراً تخلَّـــلَ حـــرَّ الرَّمـــلِ دِعْـــصٌ لـــه نَـــدِ

(ألمى: فم ذو شفتين سمراوين- تخلل حر الرمل: أسنانها نابتة في لثة حمراء صافية- الدعص: الجانب المكور من الرمل).

أمّا الشفاه فقد وصفت باللعس (الميل إلى السمرة) وسميت (لمياء).

وفضلوا أيضاً العنق الطويل الأبيض، واليد غير الموشومة، يقول عبيد بن الأبرص:

وإنّهـــا كمهـــاة الجـــوّ ناعمـــة تـــدني النصـــيف بكـــفٍّ غـــير موشـــومه

(المها: بقرة الوحش- النصيف: الغطاء).

الباب الرابع

الفصل السابع عشر

الشعـراء الأحنـاف في الشعر الجاهلي

منذ بدء التاريخ أرسل الله تعالى الأنبياء والرسل لهداية الناس إلى طريق الحق والخير والعدل والمساواة، ولكن البشرية على مر العصور كانت تتناسى هدي الأنبياء والرسل بفعل عامل الزمن والتقادم، ونسيان الناس لمنهاج الحق وتحت ضغط الشهوات ووساوس النفس، وقد كانت مسيرة الأنبياء ماضية.

ويعد سيدنا إبراهيم عليه السلام من الأنبياء ذوي العزم الذين تركت دعوتهم أثراً كبيراً في إصلاح المسيرة البشرية، ومع ذلك فقد تناست الناس مسيرة الهدى ونسيت تعاليم سيدنا إبراهيم إلا بعضاً من الذين تسموا بالأحناف، والذين بقوا على منهاج سيدنا إبراهيم، واستمروا حتى بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عام / ٦٧٢/ م، وقد كان بعض من الشعراء العرب ممن سبقوا مجيء هذه البعثة ما زالوا يعتقدون بدين سيدنا إبراهيم، ويسيرون على منهاجه، ومن هؤلاء الشعراء (زهير بن أبي سلمى – النابغة الذبياني – أمية بن أبي الصلت) إضافة إلى بعض الشعراء الذين عرفوا منهج الشعراء الأحناف وتجاوبوا مع بعض مفاهيمه (وحدانية الله تعالى)، ولم نلحظ فيما وصل إلينا من شعر الجاهليين ما يشير إلى طقوسهم الدينية، أو التعصب للعبادة، ومما وصل إلينا إشارات عابرة إلى التوحيد جاءت في ثنايا قصائد بعض الشعراء الأحناف أو النصرانيين كورقة بن نوفل وعدي بن زيد. ولما ظهر الإسلام لم يرض كثير من العرب في مكة المكرمة بالرسالة المحمدية، فحاربوا محمداً صلى الله عليه وسلم بالسلاح كما حاربوه بالقول؛ إذ وظفوا بعض شعرائهم للطعن في رسالة الإسلام ونقد المسلمين، بدعوة الدفاع عن معتقداتهم الدينية والتي هي عبادة الأصنام.

الباب الرابع

الفصل الثامن عشر

قصيدة المدح في العصر الجاهلي

لم يكن المدح في العصر الجاهلي في معظمه تكسباً كما هو رائج عند الكثير من النقاد والدارسين؛ إذ أن المدح الجاهلي في مجمله لم يكن إلا تعبيراً عن حب للآخرين وتقديرا لهم والثناء لأفعالهم كما هو عند زهير في مدحه للسدين المشهورين (هرم بن سنان) و(الحارث بن عوف) في ميميته المشهورة

يمينـــاً لـــنعم الســـيدان وجـــدتما ... عـلى كـل حـال مـن سـحيل ومـبرم

تـــداركتما عبســـاً وذبيـــان بعـــدما ... تفـــانوا ودقّـــوا بيـــنهم عطـــر منشـــم

وإن أول ما يلفت النظر في قصائد المدح عند شعراء الجيل الأول من شعراء الجاهلية هو قلة هذه القصائد باستثناء ما قاله (عمرو بن قميئة) و(المثقب العبدي) فقد ظهر المدح في مظهر كبير، ولم تتجاوز قصيدة المدح ثلاثة عشر بيتاً، وهي لا تعدو المناسبات، وغالباً ما تركز على قيمة القوة والكرم وحسن الجوار والنسب والصفح عن المخطئ والبعد عن الغيبة، وتقترب من الإخوانيات فالعرب لا تتكسب بالشعر، وإنما يصنع أحدهم ما يصنع فكاهة أو مكافأة عن يد لا يستطيع أداء حقها إلا بالشكر، وقد عبر عن ذلك الشاعر قتادة بن سلمة الحنيفي حين قال:

أبلـــغ قتـــادة غـــير ســـائله ... منـــه الثـــواب وعاجـــل الشـــكم

إني حمـــــــدتك للعشـــــــيرة إذ ... جـــاءت إليـــك مـــرقة العظـــم

ألقـــوا إليـــك بكـــل أرملـــة ... شعـــثاء تحمـــل منقـــع البـــرم

ففتحـــت بابـــك للمـــكارم حيـــ ... ـــن تواصـــت الأبـــواب بـــالأزم

فســـقى بـــلادك غـــير مفســـدها ... صـــوبُ الربيـــع وديمـــة تهمـــي

وقصيدة المدح تحتفل بمديح الجماعة وحمدها، ويعتبرها أصحابها رسالة محبة للمدوح، وهذه المحبة لا تعني الصدق التام؛ لأن قصيدة المدح قد تكون اعتذاراً لملك كما حصل عند النابغة مع النعمان بن المنذر:

فإنـــك شـــمس والملـــوك كواكـــب إذا ظهـــرت لم يبـــد مـــنهن كوكـــب

وقد تكون استعطافاً كما صنع عبيد بن الأبرص مع (حجر) أمير كندة والد امرئ القيس الشاعر المعروف. ويبدو أن الاعتذار فرع من شجرة المدح؛ لأنه يأخذ كل الصفات التي يضيفها الشاعر على ممدوحه، والشيء اللافت للانتباه هو اقتران قصيدة المدح بظاهرة التكسب بالشعر بعد أن كان هذا الشعر يقال مكافأة أو حباً، وقد شاركت إمارتا الغساسنة والحيرة في تغيير مضمون رسالة الشعر من المصالح القبلية إلى الكسب المادي، أو لمصلحة الشاعر الخاصة، وقد كان النابغة الذبياني وحسان بن ثابت في جاهليته يغذّان المسير إلى حوران مسكن الغساسنة؛ طلباً لذلك الكسب المادي والمكانة المرموقة، كما أن الأعشى جعل الشعر (حرفة) يتكسب من خلالها، وقد كان كعب بن زهير رأس الشعراء المحافظين في مدائحهم وزعيمهم في فن بناء قصيدة المدح المحافظة، حيث بقي على الرغم من إسلامه يتناول الموروث الجاهلي تناولاً بارعاً من خلال:

١- العودة للتراث والاصطفاء منه.

٢- توليد المادة التراثية.

٣- ضرب المادة التراثية ضرباً جديداً.

والمراجع لمعظم قصائد المدح القريبة من فترة ما قبل مجيء الإسلام ونزول القرآن الكريم؛ يدرك أن القصيدة الجاهلية وضعت نصب عينها غرض المدح بشكل واضح، بحيث أصبحت أمة تسجد أمام الملوك والأمراء من أجل دريهمات معدودة.

وقد تكسب بالشعر- إلى جانب النابغة والأعشى- زهير بن أبي سلمى مع هرم بن سنان والحارث بن عوف، وإذا كان زهير شاعر المدح في البادية فإن أمية بن أبي الصلت شاعر المديح في الحضر، ولقد مرت قصيدة المدح بدورين اثنين، دور التأهيل، ودور التجديد:

١ - فالدور الأول لم يكن فيه الشعراء ينشدون مكسباً مادياً من شعرهم.

٢ - والدور الثاني انحرفت فيه قصيدة المدح نحو التكسب المادي.

ومن شعراء الدور الأول حاتم الطائي في مديحه لبني بدر ودريد بن الصمة في مدح يزيد بن عبد المدان. قال حاتم الطائي يمدح ((بني بدر)):

إن كنت كارهة معيشتنا ... هاتي فحلي في بني بدر

جاورتهم زمن الفساد فنعم ... الحي في العوصاء واليسر

فسقيت بالماء النمير ولم ... أترك أواطس حمأة الجفر

ودعيت في أولى الندي ولم ... ينظر إلي بأعين خزر

الضاربين لدى أعنتهم ... الطاعنين وخيلهم تجري

والخالطين نحيتهم بنضارهم ... وذوي الغنى منهم بذي الفقر

وقال دريد بن الصمة يمدح ((يزيد بن عبد المدان)):

منحت يزيد بن عبد المدان ... فأكرم به من فتى ممتدح

إذا المدح زان فتى معشر ... فإن يزيد يزين المدح

حللت به دون أصحابه ... فأوري زنادي لما قدح

ورد النساء بأطهارها ... ولو كان غير يزيد فضح

وفك الرجال وكل امرئ ... إذا أصلح الله يوماً صلح

وقلت له بعد عتق النساء ... وفك الرجال ورد اللقح

أجر لي فوارس من عامر ... فأكرم بنفحته إذ نفح

ومازلت أعرف في وجهه ... بوقت السؤال ظهور الفرح

رأيت أبا النضر في مذحج ... بمنزلة الفجر حين اتضح

إذا قارعوا عنه لم يقرعوا ... وإن قدموه لكبش نطح

وإن حضرت النـــاس لم يخـــزهم وإن وزانـــوه بقـــرن رجـــح

فـــذاك فتاهـــا وذو فضـــلها وإنْ نـــابح بفخـــار نبـــح

أما شعراء الدور الثاني كالنابغة وزهير والأعشى، فقد اتخذت فيهم قصيدة المدح اتجاه التكسب من الحرفة، وكذلك عند (الأعشى)، ولا نستغرب أن نجد قصيدة المدح عند شعراء هذا الجيل، وخاصة عند الأعشى تأخذ في منهج الفن المعقد الشديد التعقيد الدقيق الإحكام، حيث افتتح شعراء هذا الجيل مدائحهم بمقدمات مختلفة، حيث تغزلوا في مقدمات هذه القصائد ووصفوا الأطلال البالية، وصوروا الظعائن المتحملة والطيف الطارق، وتحدثوا إليه وشكوا من الهموم وحوادث الأيام وتوجعوا من الشيب وأقبلوا على الحياة، كما هو عند بشر بن حازم:

أتعـــرف مـــن هنيـــدة رســـم دار بخرجـــي ذروة فـــإلى لـــواها

ومنهـــا منـــزل بـــبراق خبـــت عفـــت حقبـــاً وغيرهـــا بـــلاها

أرب عـــلى مغانيهـــا وملـــت هـــزيم ودقـــه حتـــى عفـــاها

ومـــا أشـــجاك مـــن أطـــلال هنـــد وقـــد شـــطت لطيتهـــا نـــواها

وقـــد أضـــحت حبـــالكما رثاثـــا بطـــاء الوصـــل قـــد خلقـــت قواهـــا

ليـــالي لا تطـــيش لهـــا سهـــام ولا ترنـــو لأســـهم مـــن رمـــاها

أو في استهلالية زهير بن أبي سلمى في معلقته:

أمـــن أم أوفى دمنـــة لم تكلـــم بحومانـــة الـــدراج فالمتثلـــم

ديـــار لهـــا بـــالرقمتين كأنهـــا مراجـــع وشـــم في نـــواشر معصـــم

بهـــا العـــين والآرام يمشـــين خلفـــة وأطلاؤهـــا ينهضـــن مـــن كـــل مجـــثم

وقفـــت بهـــا مـــن بعـــد عشـــرين حجـــة فلأيـــاً عرفـــت الـــدار بعـــد توهـــم

أثـــافيّ ســـفعاً في معـــرس مرجـــل ونؤيـــاً كجـــذم الحـــوض لم يتثلـــم

وكذلك في مديح النابغة للحارث الأصغر الغساني في تذكره لمغاني الأحباب التي هاجت شوقه الثائر:

أهاجك من أسماء رسم المنازل ... بروضة نعمى فذات الأجادل
أربت بها الأرواح حتى كأنما ... تهادين أعلى تربها بالمناخل
وكل ملث مكفهر سحابة ... كميش التوالي مرثعن الأسافل
إذا رجفت فيه رحى مرجحنة ... تبعق ثجاج غزير الحوافل
عهدت بها حياً كراماً فبدلت ... خناطيل آجال النعام الحوافل
ترى كل ذيال يعارض ربربا ... على كل رجاف من الرمل هائل
يثرن الحصى حتى يباشرن بردة ... إذا الشمس مجت ريقها بالكلاكل

وكذلك قول الشاعر:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعري أفراس الصبا ورواحله
وأقصر عما تعلمين وسددت ... علي سوى قصد السبيل معادله
وقال العذارى إنما أنت عمنا ... وكان الشباب كالخليط نزايله
فأصبحن ما يعرفن إلا خليقتي ... وإلا سواد الرأس والشيب شامله

ومهما يكن من أمر فإن الشعراء وقفوا من مقدماتهم في قصيدة المدح مواقف متشابهة لا تتعدى إعلان خبر الرحيل ومماشاة الركب الراحل، والوقوف عند معالم طريق الرحل ووصف الظعائن وذكر النساء والتحدث عنهن، وموقف الشعراء من الظعائن المحتملة كما أن الأعشى وبشكل خاص قد اقترنت عنده قصيدة المدح بوصف الخمرة وما تصنعه به من ضائع، وتباً لما تصنعه الخمرة من صنائع.

الباب الخامس

خصائص الشعر الجاهلي

الباب الخامس

الفصل الأول

تطور الشعر من الرجز إلى القصيد

يرجع النقاد ما وصل إلينا من شعر عربي في العصر الجاهلي إلى حوالي مئة عام، فإن تساهلوا جعلوها مئة وخمسين عاماً قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا ليس هو تاريخ الشعر الجاهلي فطفولة هذا الشعر مجهولة لأسباب لا نعرفها؛ لأننا وجدنا هذا الشعر قد استوى استواء تاماً في علومه وفنه وأدائه وأدواته.

ومن خلال استقراء هذا الشعر وتلك الحياة التي أفرزته نجد أن هذا الشعر قد بدأ بالحداء من خلال ترديد عبارات قصيرة يستعين المسافر بها على مشقة السفر، كما وأن عمال الآبار وواحات النخيل يغنون مشاعرهم شعراً بكلمات بسيطة استعانة على العمل، وأن هذا الغناء وذاك الحداء قد تطورا حتى صارا من مواد الشعر الأولى، ويدل على هذا أقدم المأثور من الشعر العربي الذي وصف الصحراء.

فقد روى ابن سلام أن من قديم الشعر العربي قول العنبر بن تميم.

قد رابني من دلوي اضطرابها والناي في بهواء واغترابها

إلا تجئْ ملأى يجيء قرابها .....

وهذا يدل على علاقة الدلو ناضح الماء من البئر بالشعراء، وكذلك من أقدم الشعر ما رواه ابن سلام وهو ما قاله سعد بن زيد وأنوار زوج أخيه مالك؛ حيث كان سعد يرعى الإبل فأوردها بعد ظمئها ومالك قاعد في ثياب صفراء مزعفرة، فأراد القيام لمساعدة أخيه فمنعته امرأته فجعل سعد يسقيها ويغني:

يظل يوم وردها مزعفرا وهي حناظيل تجدس الخضرا

فقالت النوار لمالك: ألا تسمع ما يقول أخوك؟ قال: بلى قالت: فأجبه قال: ما أقول قالت: قل:

أوردهـــا ســـعد وســـعد مشـــتمل مـــا هكـــذا تـــورد يـــا ســـعد الإبـــل

ولا زال لهذه الأغاني والأراجيز شواهد في كتب الأدب العربي إضافة إلى شعر الينابيع وشعر الآبار وشعر حداء الإبل، ونحن نعلم كم يفرح الإنسان عندما يكون في صحراء فاقداً للماء، ثم إنه يجده فجأة هذه هي حالة كشف الماء من قبل الجاهليين في الصحراء يفرحون ويغنون كما في قول أحدهم:

أفضى ـــــ أيهـــــا النبـــــع وأنـــــتم فتغنـــــوا لـــــه

إذاً فالحداء هو أصل هذا الشعر الذي صار من معانيه فرض الشعر على أن أوزان الشعر العربي قد رتبت على وقع أقدام الإبل، وهكذا فقد بدا أن الرجز أقدم أنواع الشعر تاريخاً؛ لأنه يعبر عن تتابع الحركات والشاعر العربي كان يرتجز الشعر على حركات أقدام النوق وهو راكبها، كما وأن أهل نجد ما يزالون يتطارحون الشعر في مجالسهم على طريقة أجدادهم وقد زرت نجداً عام ١٩٩٤ – ١٩٩٥ ووجدت هذه السمة موجودة بمجالس الغناء بين الرجال، وكذلك ما تزال أغاني الدلو موجودة في صحراء بلاد الشام سوريا.

الباب الخامس

الفصل الثاني

الشعر الجاهلي مطبوع ومصنوع

استوى للشعر صناعته في العصر الجاهلي وتقعدت قواعده، وأصبح له سلوكه الخاص الذي أقلق الشعراء في كثير من الأحيان حيث تتحد مسيرة القصائد. وقد كان عنترة يشكو من هذا الاتحاد. كما أن القصائد تتحد أساليبها ولغتها وتراكيبها، ومعانيها وصورها وأخيلتها، وكان زهير يشكو أيضاً من ذلك، فما يقال في بكاء الأطلال يتكرر عند الشعراء، وخاصة في وصف الأطلال والناقة والخيل، وقد تتبع النقاد هذا الجانب من صناعة الشعر العربي القديم، وهو جانب طريف يكشف لنا عن حقيقة الشعر الجاهلي وحقيقة صناعته، وأنها لم تكن مستودعاً للتجارب الفردية، بل كانت مقيدة بمصطلحات كثيرة لا في اللغة والنحو والعروض فقط، بل في الموضوع والمواد التي تكوّنه، وما يختاره الشاعر في صنع نماذجه من أدوات تصويرية أو أسلوبية أو معنوية.

هذه المصطلحات المختلفة التي كان يتقيد بها الشاعر الجاهلي تجعلنا نؤمن بأنه لم يكن حراً في صناعة شعره يصنعه كما يريد، بل يخضع لتقاليد تتناول ما يقوله وكيف يقوله.

إذن: فالشعر الجاهلي ليس تعبيراً فنياً حراً، بل هو تعبير فني مقيد، يعبر عن الطبع والتكلف. ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً (كاملاً) وزمناً طويلاً يردد فيها نظره ويجيل فيها عقله، ويقلب فيها رأيه، وكانوا يسمون تلك القصائد: الحوليات والمقلّدات والمنقّحات والمُحكمات ليصير قائلها فحلاً وشاعراً مُفلقاً"[1].

وكان زهير بن أبي سلمى يسمّي كبار قصائده الحوليات، ولذلك قال الحطيئة: خير الشعر الحولي المحكّك، وقال الأصمعي: زهير بن أبي سلمى والحُطيئة وأشباههما عبيد الشعر، وكذلك كل من جوّد في جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله، وأعاد فيه النظر، حتى يخرج

أبيات القصيدة كلها مستوية في الجودة. وكان يقال: إن الشعر قد كان استعبدهم واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة.

لقد وُجدت طائفة عند العرب كانت تكدُّ طبعها في عمل الشعر وصنعه، وكانت تقابلها طائفة أخرى لا تبلغ من التكلف غايتها، وهي طائفة المطبوعين كما يسميهم الأصمعي، ومن الشعر المتكلف والمطبوع. فالمتكلف هو الذي قوَّم شعره بالثِّقاف، ونقحه بطول التفتيش، وأعاد فيه النظر، كزهير والحطيئة. وإن هؤلاء المطبوعين لم يكونوا يلغون التكلف إلغاء. كما أن هؤلاء المتكلفين لم يكونوا يلغون الطبع إلغاء.

والمثل الفنية المطلقة من غير قيود ولا حدود لا توجد في الشعر وقد وجدت هذه "الصنعة" أو وُجد هذا الجهد في نماذج الشاعر الجاهلي؛ بحيث يمكن أن نقول: إن "الصنعة" أول مذهب يقابلنا في الشعر العربي، فهي توجد في جميع نماذجه القديمة، وإن كانت تتخذ شكلاً بسيطاً عند بعض الشعراء، بينما تتعقد تعقداً شديداً عند آخرين ممن يريدون أن يستوعبوا فهم مقدرات واسعة من الحذق والمهارة.

والحياة الأدبية في العصر الجاهلي لم تكن ساذجة بسيطة، فقد كانت معقدة ملتوية شديدة الالتواء، ولم تكن على هذا النحو من اليسر والسهولة الذي يجعل الشعراء يصدر عنهم شعرهم صدور الفطرة، بل كانوا يتكلفون في شعرهم فنوناً من التكلف.

وقد كان الشعراء أنفسهم يلتزمون لوازم كثيرة في صناعة شعرهم، وكان الناس من حولهم يراقبونهم ويشجعونهم على التفوق والإجادة، وكأنما كان هناك ذوق عام يدعو الشعراء إلى التجويد والتحبير، ولعل مما يفسر ذلك أيضاً أنهم كانوا يسمون الشعراء بأسماء تصور مهارتهم وإجادتهم، فربيعة بن عدي كان يسمّى المهلهل؛ لأنه أول من هلهل الشعر ورقّقه، وكان طفيل الخيل يسمّى المحبّر لتزيينه شعره، وكان النمر بن تولب يسمَّى في الجاهلية الكيس لحسن شعره. وكذلك سمّي النابغة باسمه لنبوغه في شعره، كما سمي المرقّش باسمه لتحسينه شعره وتنميقه، وسمي علقمة بالفحل، لجود أشعاره، وبجانب ذلك نجد أسماء أخرى مثل المثقّب والمنخّل والمتنخل والأفوه. وقد سموا القصائد بأسماء تصور هي الأخرى

مبلغ تفوقهم وإجادتهم، فسموها اليتيمة وسموها السموط وسموها الحوليات والمقلّدات والمنقّحات والمحكمات.

يقول كعب بن زهير يخاطب الشّماخ وأخاه مزرّداً:

فمن للقوافي شانها من يحوكها إذا ما ثوى كعبٌ وفوّز جرول

كفيتك لا تلقي من الناس واحداً تنخَّل منها مثلما نتنخّلُ

نُثقِّفها حتى تلين متونُها فيقصرُ عنها كل ما يُتمثَّلُ

فكعب وجرول أي الخطيئة يتنخلان شعرهما، ويأخذانه بالثقاف والتنقيح، ويجمعان له كل ما يمكن من وسائل التجويد والتحبير، وكذلك كان يصنع صنيعهما الشمّاخ ومزرد الذي ردّ على كعب قائلاً:

فإن تخشبا أخشب وإن تتنخّلا وإن كنت أفتى منكما أتنخَّل

وهذا التنخل من عمل الشعراء جميعاً، فهم مشتركون في الإجادة، ولعل ذلك ما جعل الحطيئة يقول:

الشعر صعبٌ وطويلٌ سُلّمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه

زلّت به إلى الحضيض قدمه يريد أن يعربه فيعجمه

وليس من شك في أن الحُطيئة والشعراء من حوله كانوا يلقون عنتاً شديداً في رقي هذا السلم الذي كان يستلزم منهم جهداً فنياً خاصاً. حتى يستطيعوا أن يبلغوا الشأو الذي يريدونه.

الباب الخامس

الفصل الثالث

بنية القصيدة الجاهلية

ـ آ ـ

مضامين القصيدة الجاهلية:

بصرف النظر عن اختلاف النقاد حول طفولة الشعر الجاهلي، أو وصول هذا الشعر إلينا خالياً من العيوب، فإن القصيدة الجاهلية التي وصلت إلينا كانت متقنة الصنع تتبع أسلوباً متميزاً وتنحو طريقاً متعارفاً عليها. وهذه القصيدة التي تولدت لدى الشعراء الجاهليين اتبعت في سيرها ومضمونها خطة تتمثل في:

١- المقدمة الطللية:

تكاد معظم القصائد الجاهلية تبدأ مطالعها بالوقوف على الأطلال؛ لما لذلك من علوقٍ في النفس؛ إذ إن الأطلال: هي الديار التي هجرها الأحبة، وأقاموا في مكان آخر تمثل ما لدى الشاعر من تطلعات وأحاسيس تتعلق بالمرأة والنفوس، كما يقول ابن قتيبة محبة للغزل، ولا يكاد يخلو أحدٌ من أن يكون متعلقاً بالغزل أو مرتبطاً به، ولذلك اعتمده الشعراء لاستمالة آذان المتلقين، وقد علل النقاد الظاهرة الطللية عند العرب بمسألة الانهدام الحضاري الذي أصاب الجزيرة العربية فأصبحت دياراً خربة بعد أن كانت حضارة معمورة، ومن هنا بكى الشعراء على أيام التألق وأصبح ذلك عادة عند الشعراء، وهو يشبه الحديث عن بنات الأولب عند اليونان.

يقول امرؤ القيس في مطلع معلقته متحدثاً عن أطلال محبوبته:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فتوضح فالمقراةَ لم يعف رسمها لما نسجته من جنوب وشمأل

وقوفاً بها صحبي عليّ مطيُّهم يقولون: لا تهلك أسىً وتجمل

ويقول زهير بن أبي سلمى في مطلع معلقته:

أمن أمِّ أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدّراج فالمتثلم

وقفت بها من بعد عشرين حِجة فلأياً عرفت الدار بعد توهم

فلما عرفت الدار قلت لربعها ألا عمْ صباحاً أيها الربع واسلمِ

ويقول النابغة الذبياني:

يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأبد

وقفت فيها أصيلاً كي أسائلها عيّت جواباً وما بالربع من أحد

٢ ـ وصف مشاهد التحمل والارتحال:

وفي هذا القسم تحدث الشعراء الجاهليون عن انعكاس أثر هذا الرحيل الذي ارتبط بالأطلال، والذي يزخر بالحبِّ والحزن والحنين بحيث نرى الشعراء يصفون رحلة النساء على الهوادج والجمال، وما لذلك من أثرٍ في نفوسهم.

يقول زهير بن أبي سلمى:

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن تحمّلن بالعلياء من فوق جرثم

علون بأنماطٍ عتاقٍ وكِلّة ورادٍ حواشيها مشاكهة الدم

بكرن بكوراً واستحرن بسحرةٍ فهن ووادي الرَّسّ كاليد للفم

ويقول عنترة في وصف الراحلة:

إن كنت أزمعت الفراق فإنما زمت ركابكم بليلٍ مظلمِ

ما راعني إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الحمحم

فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم

ويقول الشاعر بشر بن أبي حازم:

ألا بـــان الخلـــيط ولـــم يـــزاروا وقلبـــك في الظعـــائن مستعـــار
أســـائل صـــاحبي ولقـــد أراني بصـــيراً بالظعـــائنِ حيـــث ســـاروا

٣ ـ وصف المحاسن:

يتحدث الشعراء في هذا القسم عن وصف محاسن المرأة وجمالها الجسدي والمعنوي، يقول الأعشى:

غـــراء فرعـــاء مصـــقول عوارضـــها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

ويقول النابغة الذبياني:

نظـــرت بمقلـــةِ شـــادنٍ متربّـــب أحـــوى أحـــم المقلتـــين مُقَلَّـــدِ
صـــفراء كالسّـــيراء أُكمـــلَ خلقهـــا كالغصـــنِ في غلوائـــه المتـــأوّد

٤. وصف الرحلة والراحلة والطريق:

وقد تضمن ذلك رسم صورة الفرس والناقة اللتين هما وسائل النقل في ذلك العصر. وقد وفر الشعراء لهذه الوسائل صفات الصلابة والقوة والفخامة والشدة والصبر، وهما الصديقان الحميمان للشاعر في سفره.

يقول امرؤ القيس في وصف الفرس:

وقـــد أغتـــدي والطـــير في وكناتهـــا بمنجـــردٍ قيـــد الأوابـــدِ هيكـــلِ
مكـــرٍّ مفِّـــر مقبـــلٍ مـــدبرٍ معـــاً كجلمـــود صـــخرٍ حطّـــه السـيل مـن عـلِ

إذاً: فحصان الشاعر يتميز بصفات مختلفة عن صفات مثيله فهو يستطيع في لحظة واحدة أن يتحرك حركات مختلفة بين الإدبار والإقبال، إضافة إلى أنه منتخب الصفات، وكأني به يريد أن يقول: إن حصانه يشبه طائرة الأباتشي:

لـــه أيطـــلا ظبـــي وســـاقا نعامـــة وإرخـــاء سرحـــان وتقريـــب تتفـــلِ

ويقول طرفة في وصف ناقته:

وإني لأمضيـــ الهـــمَّ عنـــد احتضـــاره بعوجـــاء مرقـــالٍ، تـــروح وتغتـــدي

أمـــونٍ كـــألواح الإران نصأتُهـــا عـــلى لاحـــبٍ كأنـــه ظَهْـــرُ برجـــدِ

٥ ـ الغرض الذي كتبت من أجله القصيدة:

وقد يكون هذا الغرض مدحاً أو حكمة أو فخراً بنفسٍ أو قبيلةٍ، يقول زهير بن أبي سلمى في الحكمة:

ومـــن يـــك ذا فضـــل فيبخـــل بفضـــله عـــلى قومـــه يســـتغن عنـــه ويـــذمم

ومهـما تكـن عنـد امـرئ مـن خليقـة وإن خالهـا تخفـى عـلى النـاس تعلـم

ويقول عمرو بن كلثوم في معلقته مفتخراً بقبيلته:

ملأنـــا الـــبرّ حتـــى ضـــاق عنّـــا ووجـــه البحـــر نملـــؤه ســـفينا

إذا بلـــغ الفطـــامَ لنـــا صـــبيٌّ تخـــرّ لـــه الجبـــابر ســـاجدينا

بنية القصيدة الجاهلية

- ب -

نظرية عمود الشعر العربي

يطلق مصطلح عمود الشعر العربي عند النقاد القدامى على الميزان والمعيار الرصين للشعر، وقد تعارف العرب على أجزاء هذه النظرية واعتبروا أن الشعراء الذين حققوا عناصر هذه النظرية هم الشعراء المجيدون، وقد ساهم في بلورة هذه النظرية نقاد: كـ (الآمدي، والقاضي الجرجاني، والمرزوقي).

وتتألف هذه النظرية من:

١ - شرف المعنى وصحته: ومعياره عرض هذا المعنى على العقل الصحيح والفهم الثاقب، فإذا قبله كان المعنى شريفاً:

أمـــاويّ إن المـــال غـــادٍ ورائـــــح ويبقى مـن المال إلا الأحاديـث والـذكر

٢ - جزالة اللفظ واستقامته: ومعياره الطبع والرواية والاستعمال، كقول امرئ القيس:

وقـــد أغتـــدي والطـــير في وكناتهـــا بمنجـــرد قيـــد الأوابـــد هيكـــــل

٣- الإصابة في الوصف: ومعياره الذكاء وحسن التمييز، كقول امرئ القيس:

كـــأن قلـــوب الطـــير رطبـــاً ويابســـاً لـدى وكرهـا العنـاب والحشـف البـالي

٤ - المقاربة في التشبيه: ومعياره الفطنة وحسن التقدير من خلال اشتراك المشبه والمشبه به في الصفة (وجه الاستشهاد) كقول الأعشى:

تســمع للحــلي وسواســاً إذا انصرــفت كــما اســتعان بــريح عشرــق زجــل

٥-غزارة البديهة: ومعياره سرعة استجابة الشاعر لموقف من المواقف.

٦- كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة: ومعياره الأمثال السائرة واستعمال الناس لهذه الأبيات المتضمنة لها، أما معيار الأبيات الشاردة هو استشهاد أهل النقد والشعر بهذه الأبيات، من قول حسان بن ثابت:

لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم البغال وأحلام العصافير

وقول طرفة بن العبد:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

وقد زاد المرزوقي على عناصر الشعر ثلاثة.

٧- التحام أجزاء النظم وائتلافها على تخير من لذيذ الوزن: ومعياره الطبع واللسان بحيث لا يتعثر الطبع بأبنيته، قال طرفة:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

٨- مناسبة المستعار منه للمستعار له: وهو ما سميناه المقاربة في التشبيه ومعياره الذهن والفطنة، ومثاله قول امرئ القيس:

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي

٩- مشاركة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية: ومعياره كثرة مراس الشاعر وطول الدربة، والمدارسة لديه بحيث يجعل الألفاظ مقسمة على رتب المعاني، ويجعل الأحسن من الألفاظ للأحسن من المعاني بحيث تكون القافية كالموعود المنتظر الذي يتشوق الإنسان للقائه. ومثاله قول الشاعر:

وعدت وكان الخلف منك سجيةً مواعيد عرقوب أخاه بيثربٍ

الباب الخامس

الفصل الرابع

نسيج الشعر الجاهلي

الشعر صناعة تجتمع لها في كل لغة طائفة من المصطلحات والتقاليد، ما يزال النقاد منذ القديم يحاولون أن يصفوها بمقاييس. فكلمة شاعر عندنا معناها العالم والشعر معناه العلم، والعلم يدخل في باب الصنائع. وتناثر في أشعار العرب القدماء ما يدل على أنهم كانوا يحسون بأن الشعر ضرب من الصناعات، فقد جعلوه كبرود التعصب اليمانية وكالحلل والمعاطف والديباج والوشي. فهو يشبه صناعة الثياب، فقد روي أن عمر بن الخطاب قال: ((خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته)). فالشعر صناعة معقدة تخضع لقواعد دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صنّاع الشعر إلا ليضيفوا إليها قواعد أخرى ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره.

يقول (جويدي): ((إن قصائد القرن السادس الميلادي الجديرة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة))، فإن ما فيها من كثرة القواعد والأصول في لغتها ونحوها وتراكيبها وأوزانها يجعل الباحث يؤمن بأنه لم تستو لها تلك الصورة الجاهلية إلا بعد جهود عنيفة بذلها الشعراء في صناعتها. و((موسيقا)) الشعر الجاهلي يفسر بعض هذه الجهود، حيث يلتزم الشاعر في جميع هذه الأبيات وزناً واحداً يرتبط بنغماته، كما يلتزم حرفاً واحداً يتحد في نهاية هذه الأبيات يسمى الرويّ، ويدخله في (فن التصوير) ولعل ذلك ما جعل (جب) يقول: إن أدب العرب أدب رومانتيكي، ومن يرجع إلى امرئ القيس يلاحظ أنه يعنى بالتصوير في شعره إذ يقول:

مكـــرٍّ مفـــرٍّ مقبـــلٍ مـــدبر معـــاً كجلمـود صـخر حطَّـه السـيلُ مـن عَـل
كُميـــتٍ يـــزلُّ اللِّبـــدُ عـــن حـــال متنـــه كـــما زلَّـــت الصَّـــفواءُ بـــالمتنزلِ

وقد كان الشاعر الجاهلي يحاول أن يوفِّر في شعره كثيراً من ((القيم الصوتية والتصويرية))، وكان يلقى عناء شديداً في هذا التوفير؛ إذ نراه يتقيد بقيود كثيرة، لا تقف عند الموسيقا والتصوير، بل تتعدى ذلك إلى الموضوعات والألفاظ والمعاني.

ولذلك كان الشعراء يحرصون في كثير من مطولاتهم منذ العصر الجاهلي على أسلوب موروث فيها؛ إذ نراها تبتدئ عادة بوصف الأطلال وبكاء الدّمن، ثم تنتقل إلى وصف رحلات الشاعر في الصحراء. وحينئذ يصف ناقته التي تملأ حسَّه ونفسه وصفاً دقيقاً فيه حذق ومهارة، ثم يخرج من ذلك إلى الموضوع المعين من مدح أو هجاء أو غيرهما. واستقرت تلك (الطريقة التقليدية) في الشعر العربي، وثبتت أصولها في مطولاته الكبرى على مر العصور.

الباب الخامس

الفصل الخامس

فنية الشعر الجاهلي

بلغ الشعر الجاهلي من حيث الصنعة المتقنة مبلغاً عظيماً حيث أصبحت النماذج الجاهلية من الشعر مبلغاً سامقاً لم يطاوله إلى يومنا هذا أي عصر من العصور، وما يزال النقاد حتى يومنا هذا يعجبون لهذه القدرة الفنية العظيمة عند هؤلاء الشعراء، ولقد تميز الشعر الجاهلي بميزات كثيرة على رأسها:

١ - ملابسة الطَّبع للصّنعة ملابسة تموّهها وتخفيها حتى لتغفل عنها العين البصيرة، بل ربّما خفيت وجوه هذه الصنعة حتى ظُنَّ أنّها غير موجودة، وهذا موجود عند الحارث بن حلّزة في قصيدته:

لمن الديار عفون بالحبس آياتها كمهارق الفرس

٢- تعلّق الشّعر بالحقيقة أو الواقعيّة: فهو يتعلَّقُ بالواقع تعلّقاً يجعلُ التشبية صورة منعكسة عن هذا الواقع انعكاساً أصيلاً، ويتركُ له من الدلالة وقوّة الأداء عن النَّفس ما لا سبيل إلى التعبير عنهُ بسواه من أساليبِ التعبير، وهذا النحوُ من التشبيه نجدُه عند عنترة في تصويره المشهور للذُبابُ في الرّوضة:

وخلا الذُّباب بها فليس بسارحٍ غرداً كفعل الشاربِ المُترنِّمِ
هزجاً يحكُّ ذراعهُ بذراعهُ فدحَ المُكِبُّ على الزِّناد الأجذَمِ

٣- رقةُ الإحساس بالحياة وقوةُ الشعور بالجمال: وهي تتمثَّل بأظهر وجوهها في التعلّق بوصف جمال المرأة وفي أصالةِ الإحساس بها، وبآثارها في نفس الشاعر وحياته، فالقصيدة الجاهلية مهما يكن غرضها تستفتح بالغزل، فمنهم من يبكي الدّيار الدارسة، ومنهم من يصفها ومنهم من يصف المرأة جسديّاً، ومنهم من يصف رحيل الأحبّة، ومن ذلك استجلاء

جمال الطبيعة بكل مظاهرها والتعريج على الصور الجميلة الواضحة الجمال. ولا شيء أبلغ من الدلالة على الإحساس بجمال الصُّبح من تلك اللمحة الخاطفة يلقبها علقمة بن عبدة في معرض الحديث عن إبله يوردها حين يقول:

أوردتُهـــا وصـــدورُ العـــيس مســـنفةٌ والليـــلُ بالكوكـــبِ الـــدّرّيّ منجـــورُ
تبـــاشروا بعـــدما طـــال الوجيـــف بهـــم بالصُّـــبح لمـــا بـــدَتْ منـــهُ تباشـــيرُ
بـــدت ســـوابقُ مـــن أولاهُ تعرفهـــا وكـــبرهُ في ســـوادِ الليـــلِ مســـتورُ

٤- الاعتدالُ في تناول الأمور، والاتزان في تقديرها، والسّلامة في الإحساس بها، وهذا بين في شعرهم الغزلي والوصفيّ، يتناولون مشاعرهم في قصد، دون غلوّ أو إفراط، وصفةُ الاعتدال غالبةٌ على الشعر العربي الجاهلي، حتى إن ما خرج منه عنها أمكنَ عدّه وتتبّعه، وهو عدد ضئيل من الأبيات، فعابوا على المهلهل التزيُّد في شعره والمبالغة، وعندهم أنّ أكذب بيت قاله هو:

فلـــولا الرّيـــح أســـمع مـــن بحَجـــر صليـــل البيـــض تقـــرعُ بالذكـــور

وكان منزلهُ على شاطئ الفرات من أرض الشّام، وحجرُ هي ((اليمامة)) وقالوا: هو أخطأ وكذب، فبينَ موضع الوقعة التي ذكرها وبين حجرٍ مسافةٌ بعيدة جداً، وعندي ليس بكذب بمعناه الحقيقي بل هو مبالغة من مبالغات الشعراء التي قال فيها القرآن الكريم: (ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون).

٥- المحافظةُ والتقليدُ، وهي خلةٌ من خلال النفس العربية امتدت آثارها إلى الشعر، فتركت عليه طابعاً قوياً لازمه من أقدم عصوره، ومن أظهر مظاهر المحافظة التزامُ الشّعراء بالافتتاحية الغزلية، يأخذُه اللاّحقُ عن سابقيه، وليست هذه المحافظة بالتي تبلغُ من النّفس مبلغاً يُجمدُ بها عن التطور مع الحياة، ويحولُ بينها وبين مواجهة الحقائق الجديدة فيها، وإنّما هي خلَّة تقفُ بها النفسُ عند حدٍّ محمودٍ من التماسك والصُّمود، وإقامةِ الشخصيّة الفنيّة على أساس وثيق من الماضي العنيد وليست كل محافظة وتقليد مذمَّة كما يعتقد بعضهم.

٦- الإيجاز، وهو صفة من أبرز ما يتصّف به الشعر العربي بعامة، والجاهلّي بخاصة، من خلال قلّة اللفظ مع تأديته للمعنى الغزير الكثير، فالشاعر يكتفي بالبيت عن القصيدة، وباللفظة المعبِّرة عن العبارة، وقد أحسّ المتأخّرون بقيمة هذه الخّاصية إحساساً دفعهم إلى الغلو فيها حتى جعلوا البيت وحدهُ الشعر العربيّ، مع أن هذا لم يكن من شأن الشعر الجاهليّ.

وما أطول القصّة التي تمثّل وراءَ هذين البيتين للحارث بن مضاض:

كـأنْ لم يكـنْ بـين الحجـون إلى الصّـفا أنـيسٌ ولم يسـمرْ بمكَّـة سـامرُ

بلـى، نحـنُ كنّـا أهلهـا فأبادنـا صروفُ الليـالي والجـدود العـواثرُ

٧- المثاليّة والتسامي في تصوُّر الأمور وتصويرها، فالشاعر الجاهلي ينزع إلى اختيار الأجملِ والأكمل ((وليس ألصقَ بطباع العربيّ من الشّهامة والتضحية)) وأروعُ ما في هذه المثالية ذلك الإحساس العميقُ بالتقاربِ بين مظاهرِ الجمال في الوجود.

جمالُ يقعُ في القلب، وجمالُ يقع على العين، وصورٌ تتباعد وتتقاربُ حتى يغدو الشيئان وكأنهما شيء واحد.

الباب الخامس

الفصل السادس

الخصائص المعنوية للشعر الجاهلي

يتميّز الشعر الجاهلي بخصائص معنوية هي:

١- معاني الشاعر الجاهلي واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال؛ سواء حين يتحدث الشاعر عن أحاسيسه أو حين يصور ما حوله في الطبيعة.

٢- لا تعرف المعاني الغلو ولا المغالاة، ولا المبالغة التي قد تخرج به عن الحدود المعقولة.

٣- لم يكن الشاعر يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء.

٤- يحاول نقل المعاني إلى لوحاته نقلاً أميناً، يُبقي فيه على صورها الحقيقية دون أن يدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمس جواهرها.

٥- كانت معاني الشعر الجاهلي وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها ووديانها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها.

٦- المعاني في الشعر الجاهلي رسمت عادات الجاهليين وألوان حياتهم واستشهدوا بأشعارهم. وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه، وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات.

٧- معاني الشعر الجاهلي محددة تحديداً يبرزها في أتم ما يكون من ضياء، ومن ثم تبدو في كثير من جوانبها كأنها شيء راسخ ثابت. ويتضح ذلك في حكمهم التي تصور أحكاماً سليمة وخبرات صائبة، كما يتضح في جوانب كثيرة من تأبينهم ومديحهم وغزلهم وحماستهم.

٨- يقدم الشاعر المعاني منكشفة كأنها أشياء صلبة محسوسة؛ فهي حقائق تُسْرَدُ سرداً، وقلما شابها الخيال، إلا ليزيدها إمعاناً في الوضوح والجلاء.

٩- الشاعر الجاهلي لا يعرف التغلغل في خفايا النفس الإنسانية ولا في أعماق الأشياء الحسية. وتتضح هذه النزعة في خياله وتشبيهاته فهو ينتزعها من عالمه المادي، فهو يشبه المرأة

بالشمس والبدر والبيضة والدرة! والدمية والرمح والسيف والغمام والبقرة والظبية والقطاة، ويشبه أسنانها بالأُقحوان وبنانها بالعَنم وثغرها بالبللور، وخدها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد، ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي، ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمر وبالعسل، وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثيب وساقها بالبُردية، أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث وبالأسد وبالذئب، وبالعقاب وبالبعير وبالبدر والقمر، وبالرمح والسيف وبالبقرة والتيس والضبع، وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار، وبالصخرة وبالصقر وبالفحل.

١٠- الشاعر يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله. وكأن الشاعر نحات لا يصنع قصيدة، وإنما يصنع تمثالاً؛ فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفاصيله الدقيقة. وخير مثل لذلك وصف طرفة لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. ولم يترك منها شيئاً دون وصف أو بيان.

١١- القصيدة عندهم أشبه بفضائهم الواسع الذي يضم أشياء متباعدة لا تتلاصق، فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم؛ فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكري.

١٢- شعرهم ضرب من الروح القصصية، لا نراه ماثلاً في وصفهم للحيوان الوحشي فحسب؛ بل نراه أيضاً في وصف الصعاليك لمغامراتهم على نحو ما تعرض علينا ذلك تائية الشنفرى، فالقصص يتخلل شعرهم، وقد أفردوا له في مطوَّلاتهم قطعة وصف الحيوان الوحشي. ونراه ماثلاً في غزلهم على نحو ما مر بنا في غزلية المنخل اليشكري؛ وإنما تمثلنا بقطعة منها، وهو ماثل في غزل المرقّش الأصغر مما رواه صاحب المفضليات. فإذا قلنا بعد ذلك كله: إن معانيهم كان يسودها في بعض جوانبها ضرب من الروح القصصية لم نكن مبالغين، وهي روح لم تتسع عندهم، فقد أضعفتها حركتهم وميلهم إلى السرعة والإيجاز. وبذلك لم يظهر عندهم ضرب من ضروب الشعر القصصي؛ فقد ظل شعرهم غنائيّاً ذاتيّاً، يتغنى فيه الشاعر بأهوائه وعواطفه، غير محاول صُنْعَ قصة، يجمع لها الأشخاص والمقومات القصصية، ويرتبها ترتيباً دقيقاً، فإن شيئاً من ذلك لم يخطر بباله؛ إذ كان مشغولاً بنفسه، لا يهمه إلا أن يتغنى بها وبمشاعره.

الباب الخامس

الفصل السابع

الخصائص اللفظية

يتميز الشعر الجاهلي بخصائص لفظية هي:

١- الشعر الجاهلي كامل الصياغة.

٢- التراكيب تامة ولها دائماً رصيد من المدلولات تعبر عنه، وهي في الأكثر مدلولات حسية، والعبارة تستوفي أداء مدلولها.

٣- الألفاظ توضع في مكانها والعبارات تؤدي معانيها بدون اضطراب.

٤- تكرار التصريع في طائفة منها.

٥- وفروا لأشعارهم الصقل والتجويد في اللفظ والصيغة.

٦- الصيغة في الشعر صيغة موسيقية، فقد كان الشاعر يتقيد في قصيدته بالنغمة الأولى، وما زالوا يصفون في نغم القصيدة، حتى استوى استواء كاملاً، سواء من حيث اتحاد النغم أو اتحاد القوافي وحركاتها.

٧- وبرعوا في تجزئة الأوزان حتى يودعوا شعرهم كل ما يمكن من عذوبة وحلاوة موسيقية على نحو ما نلاحظ في غزلية المتنخل اليَشْكَري.

٨- استعانوا منذ أقدم أشعارهم؛ لغرض التأثير في سامعيهم، بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية، وأكثرها دوراناً في أشعارهم التشبيه؛ فلم يصفوا شيئاً إلا قرنوه بما يماثله ويشبهه من واقعهم الحسي، فالفرس مثلاً يشبه من الحيوان بمثل الظبي والأسد والفحل والوعل والذئب والثعلب، ويشبه من الطير بالعقاب والصقر والقطاة والباز والحمام، وأنشد ابن المعتز في كتابه "البديع" كثيراً من استعاراتهم مثل قول أوس بن حَجر:

وإني امـــرؤ أعـــددت للحـــرب بعـــدما رأيـــتُ لهـــا نابـــاً مـــن الشرـــ أَعْصَـــل

وقول علقمة بن عبدة:

بــل كــلُّ قــوم وإن عَــزُّوا وإن كرمــوا عَـــريفُهم بأثـــافي الشرِّ مَرْجُـــومُ

وقول طُفيل الغنَوي في وصف ناقته:

وجعلـــتُ كـــوري فـــوق ناجيـــة يقتـــاتُ شَـــحْمَ ســـنامها الرحـــل

وقول الحارث بن حلزة اليشكري:

حتـــى إذا التفـــع الظبـــاء بـــأَط ـــراف الظـــلال وقِلْـــنَ في الكُـــنْس

وفي شعرهم كثير من هذه الاستعارات الطريفة.

الباب الخامس

الفصل الثامن

نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل

ليس بين أيدينا أشعار تصور أطوار الشعر الجاهلي الأولى؛ إنما بين أيدينا هذه الصورة التامة لقصائده بتقاليدها الفنية المعقدة في الوزن والقافية، وفي المعاني والموضوعات وفي الأساليب والصياغات المحكمة، وحاول ابن سلام أن يرفع جانباً من هذا الستار، وتحدث فيه عن أوائل الشعراء الجاهليين، وتأثر به ابن قتيبة في مقدمة كتابه الشعر والشعراء، فعرض هو الآخر لهؤلاء الأوائل، وهم عندهما جميعاً أوائل الحقبة الجاهلية المكتملة الخلق والبناء في صياغة القصيدة العربية، وكأن الأوائل الذين أنشؤوا هذه القصيدة في الزمن الأقدم ونهجوا لها سننها طواهم الزمان. وفي ديوان امرئ القيس:

عُوجا على الطلل المحيل لعلنا نبكي الديار كما بكى ابن خذام

ولا نعرف من أمر ابن خذام هذا شيئاً سوى تلك الإشارة التي قد تدل على أنه أول من بكى الديار ووقف في الأطلال.

وتتراءى لنا مطولات الشعر الجاهلي في نظام معين من المعاني والموضوعات؛ إذ نرى أصحابها يفتتحونها غالباً بوصف الأطلال وبكاء آثار الديار، ثم يصفون رحلاتهم في الصحراء وما يركبونه من إبل وخيل، وكثيراً ما يشبهون الناقة في سرعتها ببعض الحيوانات الوحشية، ويمضون في تصويرها، ثم يخرجون إلى الغرض من قصيدتهم مديحاً أو هجاء، وفخراً أو عتاباً، واعتذاراً أو رثاء. وللقصيدة مهما طالت تقليد ثابت في أوزانها وقوافيها؛ فهي تتألف من وحدات موسيقية يسمونها الأبيات وتتحد جميع الأبيات في وزنها وقافيتها وما تنتهي به من رَوِيّ.

وتلقانا هذه الصورة التامة الناضجة للقصيدة. الجاهلية منذ أقدم نصوصها، وحقّاً توجد قصائد يضطرب فيها العروض ولكنها قليلة، من ذلك قصيدة عبيد بن الأبرص الأسدي:

أقفـــر مـــن أهلـــه ملحـــوب فالقطبيـــات فالـــذنوب

فهي من مخلع البسيط، وقلما يخلو بيت منها من حذف في بعض تفاعليه، أو زيادة على نحو ما نرى في الشطر الأول من هذا المطلع، وعلى غرارها قصيدة تنسب لامرئ القيس مطلعها:

عينـــاك دمعهـــا ســـجال كـــأن شـــأنيهما أو شـــال

ومثلهما في هذا الاضطراب قصيدة المرقش الأكبر:

هـــل بالـــديار أن تجيـــب صـــمم لـــو كـــان رســـم ناطقـــاً كلـــم

فهي من وزن السريع، وخرجت شطور بعض أبياتها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت:

مـــا ذنبنـــا في أن غـــزا ملـــك مـــن آل جفنـــة حـــازم مـــرغم

فإنه من وزن الكامل، وعلى هذه الشاكلة قصيدة عدي بن زيد العباد:

تعـــرف أمـــس مـــن لمـــيس الطلـــل مثـــل الكتـــاب الـــدارس الأحـــول

فهي من وزن السريع وخرجت بعض شطورها على هذا الوزن كالشطر الثاني من هذا البيت:

أنعـــم صـــباحاً علقـــم بـــن عـــدي أثويـــت اليـــوم أم ترحـــل

فإنه من وزن المديد، ويماثل هذه القصيدة في اختلال الوزن قصيدته:

قـــد حـــان أن تصـــحو أو تقصـــر وقـــد أتـــى لمـــا عهـــدت عصـــر

ومن هذا الباب نونية سُلميّ بن ربيعة التي أنشدها أبو تمام في الحماسة:

إن شـــواء ونشـــوة وخبـــب البـــازل الأمـــون

فقد لاحظ التبريزي والمرزوقي أنها خارجة عن العروض التي وضعها الخليل واضطراب هذه القصائد في أوزانها؛ مما يدل على صحتها وأن أيدي الرواة لم تعبث بها. ومعروف أن الزحافات تكثر في الشعر الجاهلي؛ بل في الشعر العربي بعامة، ومما كان يشيع بينهم الإقواء، وهو اختلاف حركة الروي في القصيدة كقول امرئ القيس في معلقته يصف جبل أبان:

كـــأَن أبانـــاً في أفـــانين ودقـــه كبـــير أنـــاس في بجـــاد مزمـــل

فقد ضم اللام في نهاية البيت، وهي مكسورة في المعلقة جميعها. وفي رأينا أن احتفاظ الشعر الجاهلي بهذه العيوب العروضية؛ مما يؤكد صحته في الجملة، وأن الرواة لم يصلحوه إصلاحاً واسعاً، ومهما يكن فليس بين أيدينا أشعار تصور مرحلة غير ناضجة من نظام الوزن والقافية في الجاهلية؛ فإن هؤلاء الشعراء الذين رويت عنهم تلك القصائد المضطربة في وزنها روي عنهم قصائد كثيرة مستقيمة في وزنها وقوافيها؛ مما يدل على أن ذلك كان يأتي شذوذاً وفي الندرة.

والرجز أقدم أوزان الشعر العربي، وأنه تولد من السجع، مرتبطاً بالحداء ووقع أخفاف الإبل في أثناء سيرها وسُرَاها في الصحراء، ومنه تولدت الأوزان الأخرى؛ وإن الرجز كان أكثر أوزان الشعر شيوعاً في الجاهلية؛ إذ كانوا يرتجلونه في كل حركة من حركاتهم، وكل عمل من أعمالهم في السلم والحرب، والحق أنه ليس بين أيدينا شيء من وزن أو غير وزن يدل على طفولة الشعر الجاهلي وحقبه الأولى، وكيف تم له تطوره حتى انتهى إلى هذه الصورة النموذجية التي تلقانا منذ أوائل العصر الجاهلي أو بعبارة أخرى منذ أوائل القرن السادس الميلادي. ونحن لا نستطيع أن نحصي من جرى لسانهم بالشعر حينئذ؛ فقد كانوا كثيرين، وكانت تشركهم فيه النساء مثل الخنساء، وكان ينظمه سادتهم وصعاليكهم. ويخيل إلى الإنسان أن الشعر لم يكن يستعصي على أحد منهم، وعدَّ ابن سلام في طبقاته أربعين من فحولهم وفحول المخضرمين، وقد جعلهم في عشر طبقات وجعل في كل طبقة أربعة، وأضاف إليهم نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل لأربعة من أصحاب المراثي، كما أضاف تسعة في مكة وخمسة في المدينة وخمسة في الطائف وثلاثة في البحرين، وعد لليهود ثمانية. ومن يرجع إلى هؤلاء الشعراء يجد بينهم البدوي والحضري، كما يجد بين البدو اليمني والربعي والمضري.

ومن المحقق أنه فقد كثير من الشعر الجاهلي؛ إذ عدت عليه عوادي الرواية وتلك الرحلة الطويلة التي قطعها من الجاهلية إلى عصور التدوين، ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه كان يقول: "ما انتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير".

الباب السادس

رموز الشعر الجاهلي

١ ـ امرؤ القيس

أ- نشأته وحياته:

تذكر مصادر الأدب أنه كان في الجاهلية ستة عشر شاعراً تسموا باسم امرئ القيس، والقيس في اللغة الصنم، أما شاعرنا حندج بن حجر ملك بني أسد الملقب بالملك الضليل أو بذي القروح، فقد ولد عام اثنين وعشرين بعد المئة قبل الهجرة، وتوفي عام اثنين وثمانين قبل الهجرة أي ما يقارب من(٥٠٠-٥٤٠) للميلاد، وهو من قبيلة كندة اليمنية، أبوه حجر أحد ملوك نجد، وأمه فاطمة بنت ربيعة أخت كليب ومهلهل التغلبيين.

عاش حياته لاهياً منصرفاً إلى الشراب والصيد والنساء، وقد قتل أبوه وهو مخمور، فقال قولته المشهورة: " اليوم خمر وغداً أمر، ضيعني صغيراً، وحمّلني دمه كبيراً لا صحو اليوم ولا سكر في غد". ثم أنشد قائلاً:

خليليّ لا في اليوم همل لشارب ولا في غد إذ ذاك ما كان يشرب

وقد لجأ امرؤ القيس إلى قيصر الروم، ومرَّ في حوران من أجل استرجاع ملكه، فأنشد قصيدته المشهورة والتي منها:

فلما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تبصر بعينيك منظرا

وعاد راجعاً بالفشل فمرض بعد خروجه من القسطنطينية، فأنشد بعدها قائلاً:

أجارتنا إنّ المزار قريب وإني مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان هاهنا وكل غريب للغريب نسيب

ب- شخصيته:

أسهم في تكوين شخصية الشاعر تربيته في بيت والده كملك، ومجالسته عليّة القوم واطلاعه على خفايا أمور لم يطلع عليها من هم في سنه، وأثر في تكوين هذه الشخصية عاملان أساسيان:

الأول: حياة اللهو والعبث التي عاشها الشاعر، والتي تمثلت في معلقته التي يقول فيها:

أفاطـــم مهـــلاً بعـــض هـــذا التـــدلل وإن كنـــت قـــد أزمعـــت صرمـــي فـــأجملي

وإن كنـــت قـــد ســـاءتك منـــي خليقـــة فســـلّي ثيابـــي مـــن ثيابـــك تنســـل

وقد أفحش القول في هذه المعلقة بأبيات تنبئ عن فسق فاضح، لا حاجة لذكرها.

والثاني: مقتل أبيه، الذي جعلـه ينهض مـن اللهو إلى طلب الثأر، ولكن بنـي أسد الذين قتلوا والده لم يكترثوا لذلك، فانطلق الشاعر يبحث عن وسائل النصرة وإن فشل في منتهاها، يقول مفتخراً بعزيمته على أخذ الثأر:

فـــدع ذا وســـل الهـــمَّ عنـــك بجســـرة ذا مـــول إذا صـــام النهـــار وهجّـــرا

عليهـــا فتـــىً لم تحمـــل الأرض مثلـــه أبـــرّ بميثـــاقٍ وأوفـــى وأصـــبرا

وقد فلسف خيبة أمله بقوله:

وقـــد طوفـــت فـــي الآفـــاق حتـــى رضـــيت مـــن الغنيمـــة بالإيـــاب

ج- جوانب شعره:

وقـد نظـم امرؤ القيس فـي معظم الأغراض الشـعرية، ولكنـه تفرّد بالوصف والغزل والصيد.

١- الوصف: امتلك الشاعر خيالاً واسعاً وثاقباً فـي الوصف، واستطاع مـن خلال قصائده أن يصف لنا معظم مظاهـر الصحـراء المحيطة بـه، وأكثر ما ظهـر وصفه في وصف الحصان حيث قال:

وقـــد أغتـــدي والطـــير في وكناتهـــا بمنجـــردٍ قيـــد الأوابـــد هيكـــل

مكـــرٍّ، مفـــرٍّ، مقبـــلٍ، مـــدبرٍ معـــاً كجلمودِ صـخرٍ حطّـه السيل مـن عـلِ

و في وصف الطير المُصادة في بعض الأعشاش:

كـــأن قلـــوب الطـــير رطبـــاً ويابســـاً لـــدى وكرهـــا العنـــاب والحشـــف البـــالي

و في وصف الليل حيث قال:

وليـــلٍ كمـــوج البحـــر أرخـــى ســـدوله علـــــيّ بـــأنواع الهمـــــوم لِيبتلـــــي

٢- الغزل عند امرئ القيس:

أجاد امرؤ القيس في وصف مغامراته والحديث عن النساء إجادة كبيرة؛ لأنه متفرغ لذلك فقد وصف الأطلال وصفاً بارعاً، وتحدث عمّا تركته من أثرٍ في نفسه:

قفـا نبـك مـن ذكـرى حبيـب ومنـزل بسقط اللـوى بـين الدخـول فحـومـل

كما أنه يبدو معاتباً رقيقاً:

أغـــــرك منـــــي أن حبـــــك قـــاتلي وإنـك مهمـــا تأمـــري القلـــب يفعـــل

وهو محب لمفاتن المرأة أكثر من حبه للقيم المعنوية لديها، أو للقيم الخلقية التي دعا إليها الإسلام الحنيف:

إلى مثلهـــا يرنـــو الحلـــيم صبـــــابة إذا مـــا اســـبكرت بـــين درع ومجـــول

وتضـحي فتيـت المسـك فـوق فراشـها نـؤوم الضـحى لم تنتطـق عـن تفضـل

٣- الحكم على شعر امرئ القيس:

يعد امرؤ القيس من شعراء الطبقة الأولى، كما صنفه صاحب طبقات فحول الشعراء "ابن سلام" لتميزه بما يلي:

١- أول من عرفناه قال الشعر.

٢- أول من بكى الدمن ووصف الديار.

٣- أول من قيد الأوابد.

٤- خسف للشعراء عين الشعر على حد قول عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

و ما يزال شعر امرئ القيس يقرأ إلى يومنا هذا ويدرس في الجامعات العربية والأجنبية بعد ترجمته، إذ إنه رائد من رواد الشعر العربي.

معلقة امرئ القيس

قَفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فَتُوضِحَ فَالْمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا ... لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمْأَلِ

تَرى بَعَرَ الآرْآمِ فِي عَرَصَاتِها ... وقِيعانِها كَأَنَّهُ حَبُّ فُلْفُلِ

كَأَنِّي غَدَاةَ الْبَيْنِ يَوْمَ تَحَمَّلُوا ... لَدَى سَمُراتِ الحَيِّ نَاقِف حَنْظَلِ

وُقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ ... يقُولُونَ: لا تَهلِكْ أَسىً وَتَجَمَّلِ

وإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْراقَةٌ ... فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا ... وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبابِ بِمَأْسَلِ

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكُ مِنْهُمَا ... نَسِيمَ الْصَّبَا جَاءَ تْبِرَيَّا الْقَرَنْفُلِ

فَفَاضَتْ دُمُوعُ الْعَيْنِ مِنِّي صَبَابَةً ... عَلى النَّحْرِ حَتَّى بَلَّ دَمْعِي محْمَلِي

وَيَوْماً على ظَهْرِ الْكَثيبِ تَعَذَّرَتْ ... عَلَيَّ وَآلَتْ حَلْفَةً لمتَحَلَّلِ

أَفاطِمَ مَهْلاً بَعْضَ هذا التَّدَلّلِ ... وَإِن كنتِ قد أَزْمعْتِ صَرْمي فأَجْمِلِي

أغَرَّكِ منِّي أن حبَّكِ قاتِلِي ... وَأَنَّكِ مهما تأْمري الْقلبَ يَفْعَلِ

وَإِنْ تَكُ قد ساءتك مِني خَليقةٌ ... فسُلِّي ثيابي من ثيابِكِ تَنْسُلِ

وَما ذَرَفَتْ عَيْناكِ إِلا لِتضرِبي ... بِسَهْمَيْكِ في أَعْشارِ قلْبٍ مُقَتَّلِ

وَبَيْضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها ... تَمَتَّعْتُ من لَهْوٍ بها غيرَ مُعجَلِ

تجاوَزتُ أَحْراساً إِلَيْها وَمَعْشراً ... عَليَّ حِراصاً لَوْ يسرُّونَ مقتَلي

إِذا ما الثّرَيَّا في السَّماءِ تَعَرَّضَتْ ... تَعَرُّضَ أَثْناءِ الْوِشاحِ المفَصَّلِ

فجِئْتُ وقد نَضَّتْ لِنَوْمٍ ثيابَها ... لدى السّترِ إِلا لِبْسَةَ المتَفَضِّلِ

فقالتْ: يَمينَ اللهِ مالكَ حِيلَةٌ ... وَما إِنْ أَرى عنكَ الغَوايةَ تَنْجلي

خَرَجْتُ بِها أَمْشي تَجُرُّ وَراءَنا ... عَلى أَثَرَيْنا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فلَمَّا أَجَزْنا ساحَةَ الحَيِّ وَانْتَحَى ... بنا بطنُ خَبْتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ

هَصَرْتُ بِفَوْدَيْ رأْسِها فَتمايَلَتْ ... عَليَّ هضِيمَ الْكَشْحِ رَيَّا الْمُخْلخَلِ

مُهَفْهَفَةٌ بَيْضاءُ غيرُ مُفاضَةٍ ... ترائبُها مَصْقولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ

كَبَكْرِ المقاناةِ البَياض بَصُفْرَةٍ ... غذاها نَميرُ الماءِ غيرُ المحَلّلِ

تصُدّ وَتُبْدي عن أَسيلٍ وَتَتَّقي ... بناظرَةٍ من وَحشِ وَجْرَةَ مُطفِلِ

وجِيدٍ كجِيدِ الرِّئْمِ ليْسَ بفاحشٍ ... إِذا هيَ نَصَّتْهُ وَلا بمُعَطَّلِ

وَفَرْعٍ يَزينُ اَلمتنَ أَسْودَ فاحِمٍ ... أَثِيثٍ كَقِنْوِ النّخلةِ المتَعَثْكِلِ

غدائِرُه مُسْتَشْزِراتٌ إِلى العُلا ... تَضِلّ العِقاصُ في مُثَنًّى وَمُرْسَلِ

وكَشْحٍ لطيفٍ كالجديل مُخَصَّرٍ ... وَساقٍ كأنبوبِ السَّقيّ المذَلَّلِ

وتضحي فتيتُ المِسكِ فوقَ فراشها ... نؤُومَ الضُّحى لم تَنْتَطِقْ عن تفضُّلِ

وَتَعْطو برَخْصٍ غيرِ شِثْنٍ كأنهُ ... أَساريعُ ظَبْيٍ أَوْ مساويكُ إِسْحِلِ

تُضيءُ الظَّلامَ بالعِشاءِ كأَنَّها ... مَنارَةُ مُمْسَى راهِبٍ مُتَبَتِّلِ

إِلى مِثْلِها يَرْنو الحَليمُ صَبابَةً ... إِذا ما اسبَكَرَّتْ بينَ درْعٍ ومجْوَلِ

تَسَلَّتْ عَمَياتُ الرِّجالِ عَنِ الصِّبا ... وليسَ فُؤَادي عن هواكِ بُمنْسَلِ

أَلا رُبَّ خصْمٍ فيكِ أَلْوَى رَدَدْتُه ... نصيحٍ على تَعذالِهِ غيرِ مُؤتَلِ

وَليلٍ كمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدولَهُ ... عليَّ بأَنْواعِ الهمُومِ ليبْتَلي

فَقلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بصُلْبِهِ ... وَأَرْدَفَ أَعْجَازاً وَناءَ بكَلْكَلِ

أَلا أَيُّها اللَّيْلُ الطَّويلُ أَلا انْجَلي ... بصُبْحٍ وما الإِصْباحُ مِنكَ بأَمْثَلِ

فيا لكَ مِن لَيْلٍ كأَنَّ نُجومَهُ ... بأَمْراسِ كتَّانٍ إِلى صُمِّ جنْدَلِ

وَقِرْبَةِ أَقْوامٍ جَعَلْتُ عِصَامَها ... على كاهِلٍ منِّي ذَلُولٍ مُرَحَّلِ

وَوَادٍ كجَـوْفِ الْعَـيرِ قَفْـرٍ قطعْتُـهُ ... بـهِ الـذئبُ يَعـوي كـالخَليعِ المُعَيَّـلِ

فقُلْـتُ لـهُ لمـا عَـوى: إنَّ شـأْنَنا ... قليـلُ الْغِنـى إنْ كنـتَ لَمَّـا تَمَـوَّلِ

كِلانـا إذا مـا نـالَ شَـيْئاً فاتَـهُ ... وَمَـنْ يحْـترِث حَرْثـي وحَرْثَـك يهـزل

وَقَـدْ أَغْتَـدي والطَّـيرُ في وُكُناتِهـا ... بُمنْجَـرِدٍ قَيْـدِ الأوابِـدِ هيْكَـلِ

مِكَـرٍ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدْبِرٍ مَعـاً ... كجُلْمُـودِ صَـخْرٍ حطَّـهُ السَّـيْل مـن عَـلِ

كُمَيْـتٍ يَـزِل اللَّبْـدُ عـن حـالِ مَتْنِـهِ ... كـما زَلَّـتِ الصَّـفْواءُ بـالمُتَنَزِّلِ

عـلى الـذَّبْلِ جَيَّـاشٍ كَـأَنَّ اهتزامَـهُ ... إذا جـاشَ فيـهِ حميُـهُ غَـلِيُ مِرْجَـلِ

مِسَـحٍّ إذا مـا السَّـابحاتُ عـلى الـوَنَى ... أَثَـرْنَ الْغُبـارَ بالكَديـدِ المرَكَّـلِ

يَـزِلّ الْغُـلامَ الخِـفُّ عَـنْ صَـهَواتِهِ ... وَيُلْـوي بـأَثْوابِ الْعَنيـفِ المثَقَّـلِ

دَريـرٍ كَخُـذْروفِ الْوَليـدِ أمَـرَّهُ ... تَتـابُعُ كفّيْـهِ بخَـيْطٍ مُوَصَّـلِ

لَـهُ أَيْطَـلا ظَبْـيٍ وسَـاقا نَعامَـةٍ ... وَإِرْخـاءُ سِرحـانٍ وَتَقْريـبُ تَتْفُـلِ

ضَـليعٍ إذا اسـتَدْبَرْتَهُ سَـدَّ فَرْجَـهُ ... بضـاف فُوَيْـقَ الأَرْض لـيس بـأَعزَلِ

كـأَنَّ عـلى المَتْنَـينِ منـهُ إذا انْتَحَـى ... مَـدَاكَ عَـروسٍ أَوْ صَـلايَةَ حنظَـلِ

كـأَنَّ دِمـاءَ الهادِيـاتِ بِنَحْـرِهِ ... عُصـارَةُ حِنَّـاءٍ بشَـيْبٍ مُرَجَّـلِ

فَعَـنَّ لنـا سِرْبٌ كـأَنَّ نِعاجَـهُ ... عَـذارَى دَوارٍ في مُـلاءٍ مُـذَيّلِ

فـأَدْبَرْنَ كـالجِزْعِ المَفصَّـلِ بَيْنَـهُ ... بِجِيـدٍ مُعَـمٍّ في الْعَشـيرةِ مُخْـوَلِ

فأَلْحَقَنـا بالهادِيـاتِ ودُونَـهُ ... جَواحِرُهـا في صَرَّةٍ لم تُزَيَّـلِ

فَعـادى عِـداءً بَـيْنَ ثَـوْرٍ وَنَعْجَـةٍ ... درَاكـاً وَلَمْ يَنْضَـحْ بِـماءٍ فَيُغْسَـلِ

فظَـلَّ طُهـاةُ اللّحْـم مـن بَـيْنِ مُنْضـجٍ ... صَـفِيفَ شِـواءٍ أَوْ قَـدِيرٍ مُعَجَّـلِ

وَرُحْنَـا يَكـادُ الطّـرْفُ يَقْصُرُ دُونَـهُ ... مَتَـى مَـا تَـرَقَّ الْعَـيْنُ فيـهِ تَسَـفّلِ

فَبَـاتَ عَلَيْـهِ سَرْجُـهُ وَلِجامُـهُ ... وبـاتَ بِعَيْنـي قـائِماً غَـيْرَ مُرْسَـلِ

أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ ... كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فِي حَبِيٍّ مُكلّلِ

يضِيءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ راهِبٍ ... أَمَالَ السَّلِيطَ بالذُّبَالِ المُفَتَّلِ

قَعَدْتُ لَهُ وَصُحْبَتِي بَيْنَ ضَارِجٍ ... وَبَيْنَ الْعُذَيْبِ بَعْدَمَا مُتَأَمَّلِي

عَلى قَطَنٍ بالشَّيْمِ أَيْمَنُ صَوْبَهِ ... وَأَيْسَرُهُ عَلى السِّتَارِ فَيُذْبُلِ

فَأَضْحَى يَسُحُّ الْمَاءَ حَوْلَ كُتَفْيَهِ ... يَكُبُّ عَلى الأَذْقَانِ دَوْجَ الكَنَهْبَلِ

وَمَرَّ عَلى الْقَنّانِ مِنْ نَفَيَانِهِ ... فَأَنْزَلَ منْه العُصْمَ من كلّ منزِلِ

وَتَيْمَاءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ ... وَلا أُطُماً إِلا مَشِيداً بِجَنْدَلِ

كَأَنَّ ثَبِيراً فِي عَرانِينِ وَبْلِهِ ... كَبِيرُ أُنَاسٍ فِي بِجَادٍ مُزَمَّلِ

كَأَنَّ ذُرَى رَأْسِ المجَيْمِرِ غُدْوَةً ... من السَّيْلِ وَالأَغْثَاءِ فَلْكَةُ مِغْزلِ

وَأَلْقَى بصَحراءِ الْغَبِيطِ بَعاعَهُ ... نُزُولَ اليماني ذي العِيا بِالمحمَّلِ

كَأَنَّ مَكاكِيّ الجِواءِ غُدَيَّةً ... صُبِحْنَ سُلافاً من رَحيقٍ مُفَلْفَلِ

كأَنَّ السِّباعَ فِيهِ غَرْقَى عَشِيَّةً ... بِأَرْجَائِهِ الْقُصْوَى أَنَابِيشُ عُنْصُلِ

وقال امرؤ القيس عندما لحق بقيصر يستعينه على استرداد ملكه والثأر لأبيه:

سَمالكَ شَوقٌ بَعْدَما كانَ أَقْصَرا ... وحَلتْ سُليمَى بَطْنَ قوٍّ فعَرْعَرا

كِنانيةٌ بانتْ وفي الصّدْر وُدّها ... مُجاورة غَسّانَ والحيّ يَعْمَرا

بعَينيَّ ظعْنُ الحيّ لما تحَمَّلوا ... لَدَى جانب الأفلاج منْ جَنْب تيمرا

فشَبهتهُمْ في الآل لما تكمَشّوا ... حَدائقَ دَوْمٍ أو سَفِيناً مُقيَّرا

أو المكْرَعات مِنْ نخيلِ ابن يامن ... دُوَيْنَ الصَّفا اللائي يَلينَ المشقرا

سَوامِقَ جَبّار أثيت فُروعُهُ ... وعالَيْنَ قنْواناً مِنَ البُسْر أحمرا

حَمَتهُ بنو الرّبْداءِ من آل يامن ... بأسيافِها حتىّ أقرَّ وأوقرَا

وأرْضَى بني الرَّبداءِ واغْتمَّ زَهوُهُ ... وأكمامُهُ حتى إذا ما تهصَّرا

أطافَتْ بِهِ جَيْلانُ عِنْدَ قِطاعِةِ ... تَرَدَّدُ فيهِ العَيْنُ حَتّى تَحَيَّرا

كأنَّ دمي سَقفِ على ظهْرِ مَرْمَرِ ... كسا مُزْبِدَ السّاجومِ وشْياً مُصَوَّرا

غَرائِرُ في كِنّ وصَونٍ وَنَعْمَةٍ ... يُحَلِيْنَ ياقوتاً وشَذراً مُفَقرا

ورَيحَ سناً في حُقّةٍ حِميّريةٍ ... تُخَصُّ بمَفْروكٍ مِنَ المِسْكِ أذْفَرا

وبانا وَأُلوياً مِنَ الهِنْدِ ذاكياً ... ورَنْداً وُلبْنى والكباءَ المَقترا

غَلقْنَ برَهْنٍ مِنْ حَبيبٍ بِهِ ادَّعتْ ... سُليْمى فأمْسى حَبلُها قدْ تبَترا

وكانَ لها في سالف الدهر خُلة ... يُسارقُ بالطرْفِ الخِباءَ المستَّرا

إذا نالَ مِنْها نَظرَةً رِيعَ قلبُه ... كما ذعَرَتْ كأسُ الصَّبوحِ المخَمَّرا

نَزيفٌ إذا قامتْ لوَجْهٍ تمايلتْ ... تُراشي الفُؤاد الرَّخْصَ إلا تخَتّرا

أأسْمَاءُ أمْسى وُدُّها قَدْ تَغَيّرا ... سَنُبْدلُ إنْ أبدَلْتِ بالوُدِّ آخَرا

تذكَّرتُ أهلي الصَّالحينَ وقدْ أتتْ ... على خملى خُوصُ الركابِ وَأوْجَرا

فَلمّا بَدَتْ حَورانُ في الآلِ دُونَها ... نَظرْتَ فلم تَنْظرْ بعَيْنَيْكَ مَنْظرا

تقَطعَ أسبابُ اللُّبانَةِ والهَوَى ... عَشِيَّةَ جاوَزْنا حَماةَ وشَيْزَرا

بسيْرٍ يضِجُّ العَوْدُ منه يَمُنُّهُ ... أخو الجَهْدِ لا يُلْوي على مَنْ تعَذَّرا

ولم يُنْسِني ما قد لقيتُ ظعائناً ... وَخَمْلاً لها كالقرِّ يوماً مُخَدراً

كأثلٍ مِنْ الأعْراض مِنْ دون بيشَةٍ ... ودُونَ الغُمَيْرِ عاماتٍ لغَضْوَرَا

فدعْ ذا وسلِّ الهمَّ عَنْكَ بجسْرَةٍ ... ذمول إذا صامَ النَّهارُ وهجَّرا

تُقطعُ غِيطاناً كأنَّ مُتونها ... إذا أظهَرَتْ تُكسى مُلاءً مُنشَّرا

بَعيدة بَيْنَ المَنْكبَيْن كأنّها ... ترى عِنْدَ مَجْرى الضَّفر هراً مُشَجَّرا

تُطايرُ ظرّانَ الحصى بمَناسِمٍ ... صلابِ العُجى مَثلومُها غَيْرُ أَمْعَرا

كأنَّ الحصى من خَلفِها وأمامَها ... إذا نجلتهُ رِجْلها حَذفُ أعْسَرا

كـــأنَّ صَـــليلَ المرْوحـــين تطـــيرُهُ ... صَلـــيلُ زيـــوفٍ ينتقـــدْنَ بـــعبَقرا

عليهـــا فتـــى لم تحْمِـــل الأرْضُ مثلَـــهُ ... أبـــرَّ بمِيثـــاقٍ وأوْفى وأصْـــبرا

هـــو المُنْـــزلُ الألآفِ مـــنْ جـــوِّ نـــاعطٍ ... بنـــي أســـدٍ حزْنـــاً مـــنَ الأرض أوْعَـــرا

ولـــو شـــاء كـــان الغـــزْوُ مِـــنْ أرض حْمَـــير ... ولكنّـــهُ عمْـــداً إلى الـــرّوم أنْفـــرا

بكـــى صـــاحبي لمـــا رأى الـــدَّرْبَ دونـــهُ ... وأيْقـــنَ أنّـــا لاحـــقان بـــقيْصَرا

فقلـــتُ لـــه: لا تبْـــكِ عَيْنـــكَ إنّـــما ... نحـــاولُ مُلكـــاً أوْ نَمـــوتَ فنُعْـــذرا

وإني زَعـــيمٌ إنْ رَجَعْـــتُ مُملكـــاً ... بسَـــيْر تـــرى منـــهُ الفرِانـــقَ أزْوَرا

عـــلى لاحـــبٍ لا يُهْتـــدى بمَنـــاره ... إذا ســـافهُ العَـــوْدُ النَّبـــاطيُّ جَرْجَـــرا

عـــلى كـــلِّ مَقصـــوص الـــذنابى مُعـــاودٍ ... بَريـــدَ السُّـــرى باللـــيْلِ مـــنْ خيْـــل بَرْبَـــرا

أقـــبَّ كـــسِرْحان الغَضـــا مُتمَطـــرٍ ... تـــرى المـــاءَ مِـــنْ أعطافـــهِ قـــد تحَـــدّرا

إذا زُعْتـــهُ مـــنْ جانبَيْـــهِ كِلـــيْهما ... مَشَـــى الهَيْـــدَبى في دَفـــه ثُـــمّ فـــرْفـــرا

إذا قلـــتُ: روِّحْنـــا أرَنَّ فرانـــقٌ ... عـــلى جَلعَـــدٍ واهـــي الأبِاجـــلِ أبْـــترا

لـــقدْ أنْكرتنـــي بَعْلبَـــكٌ وَأهْلهـــا ... ولَابـــنُ جُـــرَيْجٍ في قـــرى حِمْـــصَ أنكـــرَا

نشـــيمُ بُـــروقَ المُـــزْنِ أيـــنَ مَصـــابُهُ ... ولا شَيْءَ يَشْـــفي منْـــكِ يابْنَـــة عَفْـــزَرا

مـــن القـــاصرات الطـــرف لـــو دب محـــول ... مِـــنَ الـــذرِّ فـــوْقَ الإتـــبِ مِنْهـــا لأَثَـــرا

لـــهُ الويـــلُ إنْ أمْســـى ولا أمُّ هاشِـــمٍ ... قريـــبٌ ولا البَسْباسَـــةُ ابْنـــةُ يَشْـــكرا

أرى أمَّ عَمْـــرو دَمْعُهـــا قـــد تحـــدَّرا ... بكـــاءً عـــلى عمْـــرو ومـــا كـــانَ أصْـــبَرا

إذا نَحْـــنُ سِرْنـــا خَمْـــسَ عَشْرَـــةَ لَيْلـــةً ... وراءَ الحِســـاءِ مِـــنْ مَدافـــعِ قيـــْصَرا

إذا قلـــتُ: هـــذا صـــاحبٌ قـــد رضَيتـــهُ ... وَقـــرَّتْ بـــه العَـــيْنان بُـــدِّلتُ آخَـــرا

كـــذلكَ جَـــدي مـــا أصـــاحِبُ صـــاحباً ... مِـــنَ الـــناس إلا خـــانني وتغَـــيَّرا

وكنّـــا أناســـاً قبْـــلَ غـــزوْةِ قرْمَـــلٍ ... وَرثنـــا الغنِـــى والمجْـــدَ أكْـــبَرَ أكـــبْرا

وما جَبُنَتْ خَيْلي ولكنْ تذكَّرتْ مَرابطَها منْ بَرْبَعِيصَ ومَيْسَرا
ألا رُبَّ يَوْمٍ صالحٍ قدْ شَهدْتهُ بتاذفَ ذاتِ التلِّ منْ فوْق طرْطرا
ولا مِثلَ يَوْمٍ في قذارانَ ظلتهُ كأني وأصْحابي على قرْن أعْفرا

وقد زادت بعض الروايات بعد هذا البيت:

فهَلْ أنا ماشٍ بَيْنَ شُوطٍ وحَيّهِ وهلْ أنا لاقٍ حيّ قيسِ بنِ شَمَّرا
وعَمْرَو بْنَ دَرْماءَ الهُمامَ إذا غدا بذي شُطبٍ عَضْبٍ كِمشْيَةِ قسْوَرا
وكنتُ إذا ما خِفتُ يوماً ظلامةً فإنّ لها شِعباً ببُلطةِ زَيْمَرا
نيافاً تزلُّ الطيرُ عَنْ قذُفاته يَظلُّ الضّبابُ فوقهُ قد تعصّرا

٢ ـ النابغة الذبياني

آ- حياته ونشأته:

لم يستطع مؤرخو أن يحددوا الأدب سنة ولادة النابغة وإن كانت وفاته في السنة الثامنة عشرة للهجرة حوالي ٦٠٤ م، وقد سمي بالنابغة؛ لأن ذكاءه برز بعد سن الأربعين.

و هو زياد بن معاوية بن جناب يكنى أبا أمامة باسم ابنته، وقد اشتهر بعلاقته ببلاط المناذرة أولاً والغساسنة ثانياً، فقد كان يمدح أمراءهم كالنعمان بن المنذر، وعمرو بن الحارث وقد حدثت بين الشاعر والمناذرة جفوة بسبب قصيدته المسماة " المتجردة"، وإن كان بعض الرواة يقولون: إن هناك شكاً في نسبة هذه القصيدة لهذا الشاعر، ومن ثم عادت العلاقة بين الشاعر والملك النعمان.

ب- شخصيته:

امتلك النابغة خصائص جعلته ذا مكانة متميزة بين أدباء عصره، فهو رجل يميل إلى الاتزان ويمتلك كياسة وحسن تصرف إضافة إلى حصافة أدبية وفكرية جعلته صاحب مشورة في قضيتين مهمتين: قضية اجتماعية، وقضية أدبية.

القضية الاجتماعة: كونه كان سفيراً لقومه يمثلهم في المناقشات والمعاهدات.

القضية الأدبية: أنه كان ناقداً وصاحب مشورة في تصنيف الشعراء؛ إذ كانت تنصب له خيمة في سوق عكاظ يحكم بها بين الشعراء.

يقول النابغة محذراً قومه بعدم الاقتراب من الأرض التي قد حماها الغساسنة في "وادي أقر":

لقد نهيت بني ذبيان عن أقر ... وعن تربعهم في كل أصفار

وقلت: يا قوم إن الليث منقبض ... على براثنه لوثبةِ الضّاري

ج- شعره وأغراضه:

كتب النابغة في معظم أغراض الشعر وأجاد إجادة كبيرة في غرضي المديح والاعتذار، ويتصف شعر النابغة بالصفات التالية:

١ - البراعة في القول.

٢ - حسن اختيار الألفاظ.

٣- تنوع المعاني.

٤ - الصورة الفنية الجميلة، وقد اتضح ذلك في قوله:

كليني لهمٍّ يا أميمة ناصب ... وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

تطاول حتى قلت ليس بمنقضٍ ... وليس الذي يرعى النجوم بآيب

وقوله:

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وقوله:

فإنك شمس والملوك كواكب ... إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

د- المديح عند النابغة:

برع النابغة في غرض المديح، ونظم في هذا الغرض الكثير من قصائده، وقد مدح النعمان بن المنذر وعمرو بن الحارث، ومن ذلك قوله في مدح الغساسنة:

لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم ... من الجود والأحلام غير عوازب

رقاق النعال، طيب حجزاتهم ... يُحَيَّوْنَ بالرَّيحان يوم السباسب

ويقول أيضاً في مدح النعمان:

فما الفرات إذا هبَّ الرياح له ... ترمي أواذيّه العبرين بالزبد

يوماً بأجود منه سيب نافلةٍ ... ولا يحول عطاء اليوم دون غدِ

هـ- الاعتذار عند النابغة:

يعـد النابغـة الذبياني المؤسس الأول لفـن الاعتذار؛ إذ إنه برع في اعتذارياته للنعمان بعد القطيعة التي جرت بينهما، وقد كان النابغة يقدم الاعتذار تلو الاعتذار، ويدبّج القصائد ليرضى عنه النعمان بعدما أوقع الواشون بينهما.

يقول النابغة في داليته:

فـلا لعمـــر الـــذي مسّحـــتُ كعبتـــه ما هريـق عـلى الأنصـاب مـن جســـــد

مـا قلـت مـــن سـيّئٍ ممـا أتيـت بـــــه إذن فـلا رفعـت سوطـــي إلـــيّ يـدي

ويقول أيضاً:

أتـــاني- أبيـــت اللعـــن- أنـــك لمتنـــي وتلـك التـي أهـتم منهـــا وأنصـــب

فبـتّ كـأنّ العائـدات فـــرشن لـــي هراســاً، بـه يعلـــى فـراشي ويقشـب

و- غزل النابغة:

أما غزل النابغة فيعتمد النسيب والوقوف على الأطلال، ولم ينسب للشاعر أنه كان متعلقاً بامرأة ما:

يـــا دار ميـــة بالعليـــاء فالسنـــــد أقـوت، وطـال عليهـا سـالف الأمـد

كلينـــي لهـــمٍّ يـــا أميمـــة ناصـــب وليـــلٍ أقاســـيه بطـــيء الكـــواكب

معلقة النابغة الذبياني

يـــا دارَ مَيّـــةَ بالعَلْيـــاءِ فالسَّـــنَدِ ... أقْـوَتْ وطـالَ عليهـا سـالفُ الأبَـدِ

وقفـــتُ فيهـــا أُصَـــيلاناً أُسَـــائِلُها ... عَيّـتْ جواباً ومـا بـالرَّبعِ مـن أحـدِ

إلاّ الأواريَّ لأيـــاً مـــا أُبَيِّنُهَـــا ... والنُّـؤي كـالحَوْضِ بالمظلومـةِ الجَلَـدِ

رَدّت عليَـــهِ أقاصـــيهِ ولبّـــدَهُ ... ضَرْبُ الوليـدةِ بالمِسـحاةِ في الثَّـأَدِ

خلـــتْ ســـبيلَ أتيٍّ كـــانَ يحبسُـــهُ ... ورفعتـــهُ إلى الســـجفينِ فالنضـــدِ

أمسـتْ خـلاءً وأمسـى أهلهـا احتملـوا ... أخنـى عليهـا الـذي أخنـى عـلى لبـدِ

فعَـدِّ عَـمّا تـرى إذ لا ارتِجـاعَ لـه ... وانـمِ القتـودَ عـلى عيرانـةٍ أجـدِ

مَقذوفـةٍ بـدخيس الـنّحضِ بازِلُهـا ... لـــه صريـــفُ القعـــوِ بالمســـدِ

كـأنّ رَحْـلي وقـد زالَ النّهـارُ بنـا ... يـومَ الجليـلِ عـلى مُسـتأنِسٍ وحِـدِ

مـن وحـشِ وجـرةَ مـوشيٍّ أكارعـهُ ... طـاوي المصـيرِ كسـيفِ الصّـيقل الفَـرَدِ

سرتْ عليـــه مـــن الجـــوزاءِ ســـاريةٌ ... تُزجـي الشَّـمالُ عليـهِ جامِـدَ البَـرَدِ

فارتـاعَ مـن صـوتِ كـلابٍ فبـاتَ لـه ... طـوعَ الشّـوامتِ مـن خـوفٍ ومـن صَرَدِ

فبَـــثّهُنّ عليـــهِ واســـتَمَرّ بِـــهِ ... صُـمْعُ الكُعـوبِ بريئـاتٌ مـن الخَـرَدِ

وكـان ضُـمْرانُ منـه حيـثُ يُوزِعُـهُ ... طَعـنَ المُعـارِكِ عنـد المُحجَـرِ النَّجُـدِ

شـكَّ الفَريصـةَ بالمِـدْرى فأنفَـذَها ... طَعـنَ المُبَيطِـرِ إذ يَشـفي مـن العَضَـدِ

كأنّـه خـارج مـن جنـبِ صَـفْحَتِهِ ... سَـفّودُ شَرْبٍ نَسُـوهُ عنـدَ مُفْتَـأدِ

فظَـلّ يَعجَـمُ أعـلى الـرَّوْقِ مُنقبضـاً ... في حالـكِ اللـونِ صـدقٍ غـير ذي أودِ

لمـا رأى واشـقٌ إقعـاصَ صـاحبِهِ ... ولا سَـبيلَ إلى عَقـلٍ ولا قَـوَدِ

قالـت لـه الـنفسُ: إني لا أرى طمعـاً ... وإنّ مـولاكَ لم يسـلمْ ولم يصـدِ

فتلـــك تبلغنـــي الـــنعمانَ إنّ لـــهُ ... فضـلاً عـلى النّـاس في الأدنَـى وفي البَعَـدِ

ولا أرى فـــاعلاً في النـــاس يشـــبهه ... ولا أُحـــاشي مـــن الأقـــوام مـــن أحَـــدِ

إلاّ ســـليمانَ إذ قـــالَ الإلـــهُ لـــهُ: ... قـــم في البريـــةِ فاحـــددها عـــنِ الفنـــدِ

وخـــيّسِ الجِـــنّ! إنّي قـــد أَذِنْـــتُ لهـــمْ ... يَبْنُـــونَ تَـــدْمُرَ بالصُّـــفّاحِ والعَمَـــدِ

فمـــن أطاعـــكَ فانفعـــهُ بطاعتـــهِ ... كـــما أطاعـــكَ وادلهُ عـــلى الرشـــدِ

ومـــن عَصـــاكَ فعاقِبْـــهُ مُعاقَبَـــةً ... تَنهَـى الظَّلـومِ ولا تَقعُـدْ عـلى ضَـمَدِ

إلاّ لِمِثْلِـــكَ أوْ مَـــنْ أنـــتَ ســـابِقُهُ ... سـبقَ الجـواد إذا اسـتولى عـلى الأمـدِ

أعطـــى لفارِهَـــةٍ حُلـــوٍ توابِعُهـــا ... مـــنَ المَواهِـــبِ لا تُعْطَـــى عـــلى نَكَـــدِ

الواهِـــبُ المِئَـــةِ المعْكـــاء زيّنَهـــا ... سَـــعدانُ توضِـــحَ في أوبارِهـــا اللِّبَـــدِ

والأدمَ قـــد خيســـتْ فـــتلاً مرافقهـــا ... مَشـــدودَةً برِحـــالِ الحـــيرةِ الجُـــدُدِ

والراكضـــاتِ ذيـــولَ الـــريطِ فانقهـــا ... بـــردُ الهـــواجرِ كـــالغزلانِ بـــالجردِ

والخَيـــلَ تَمـــزَعُ غربـــاً في أعِنّتهـــا ... كـالطيرِ تنجـو مـن الشـؤبوبِ ذي البـردِ

احكـــمْ كحكـــم فتـــاةِ الحـــيّ إذ نظـــرتْ ... إلى حمـــــامِ شراعٍ واردِ الثمـــــدِ

يحفـــهُ جانبـــا نيـــقٍ وتتبعـــهُ ... مثـــلَ الزجاجـــةِ لم تكحـــلْ مـــن الرمـــدِ

قالـــت: ألا لَيْـــتَما هـــذا الحَـــمامُ لنـــا ... إلى حمامتنـــا ونصـــفهُ فقـــدِ

فحســـبوهُ فـــألقوهُ كـــما حســـبتْ ... تِســـعاً وتِســـعينَ لم تَـــنقُصْ ولم تَـــزِدِ

فكملـــتْ مئـــةً فيهـــا حمامتهـــا ... وأسرعـــتْ حســـبةً في ذلـــكَ العـــددِ

فـــلا لعمـــرُ الـــذي مســـحتُ كعبتـــهُ ... ومـــا هريـــقَ عـــلى الأنصـــابِ مـــن جســـدِ

والمـــؤمنِ العائِـــذاتِ الطّـــيرَ تمسَـــحُها ... ركبـــانُ مكـــةَ بـــينَ الغيـــلِ والســـعدِ

مـــا قلـــتُ مـــن سيءٍ ممـــا أتيـــتَ بـــه ... إذاً فـــلا رفعـــتْ ســـوطي إليّ يـــدي

إلاّ مقالـــةَ أقـــوامٍ شـــقيتُ بهـــا ... كانَـــتْ مقَـــالَتُهُمْ قَرْعـــاً عـــلى الكَبِـــدِ

إذاً فعـــــــاقبني ربي معاقبـــــــةً قـــرتْ بهـــا عـــينُ مـــنْ يأتيـــكَ بالفنـــدِ
أُنْبِئْـــتُ أنّ أبـــا قـــابوسَ أوْعَـــدَني ولا قـــرارَ عـــلى زأرٍ مـــنَ الأســـدِ
مَهْـــلاً فِـــداءٌ لـــك الأقـــوامِ كُلّهُـــمُ ومـــا أثمـــرُ مـــن مـــالٍ ومـــنْ ولـــدِ
لا تقـــذفني بـــركنٍ لا كفـــاءَ لـــه وإنْ تأثّفَـــكَ الأعـــداءُ بالرِّفَـــدِ
فـــما الفُـــراتُ إذا هَـــبّ الرّيـــاحُ لـــه تَرمـــي أواذيُّـــهُ العِـــبْرَينِ بالزّبَـــدِ
يَمُـــدّهُ كـــلُّ وادٍ مُـــتْرَعٍ لِجِـــبٍ فيـــه ركـــامٌ مـــن الينبـــوتِ والحضـــدِ
يظَـــلّ مـــن خوفـــهِ المَـــلاحُ مُعتصِـــماً بالخيزرانـــةِ بعـــدَ الأيـــنِ والنجـــدِ
يومـــاً بـــأجوَدَ منـــه سَـــيْبَ نافِلَـــةٍ ولا يَحُـــولُ عَطـــاءُ اليـــومِ دونَ غَـــدِ
هـــذا الثّنـــاءُ فـــإن تَســـمَعْ بـــه حَسَـــناً فلـــم أُعـــرّض أبَيـــتَ اللّعـــنَ بالصَّـــفَدِ
هـــا إنّ ذي عِـــذرَةٌ إلاّ تكُـــنْ نَفَعَـــتْ فـــإنّ صـــاحبها مشـــارِكُ النكـــدِ

قال النابغة الذبياني يمدح النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه مما وشى عليه بنو قريع في أمر المتجردة:

يـــا دار ميـــة بالعليـــاء فالســـند أقـــوت وطـــال عليهـــا ســـالف الأبـــد
وقفـــت فيـــها أصـــيلاناً أســـائلها عيـــت جواباً ومـــا بـــالربع مـــن أحـــد

وقال يعتذر إلى النعمان أيضاً:

عفـــا ذو حســـاً مـــن فرتنـــى فـــالفوارع فجنبـــا أريـــك فـــالتلاع الـــدوافع
فمجتمـــع الأشراج غيـــر رســـمها مصـــايف مـــرت بعـــدنا ومرابـــع
توهمـــت آيـــات لهـــا فـــعرفتها لســـتة أعـــوام وذا العـــام ســـابع
رمـــاد ككحـــل العـــين لأيـــاً أبينـــه ونـــؤي كجـــذم الحـــوض أثلـــم خاشـــع
كـــأنّ مجـــر الرامســـات ذيولهـــا عليـــه حصـــير نمقتـــه الصـــوانع
عـــلى ظهـــر مبنـــاة جديـــد ســـيورها يطـــوف بهـــا وســـط اللطيمـــة بـــائع

فكفكفت مني عبرة فرددتها ... على النحر منها مستهل ودامع
على حين عاتبت المشيب على الصبا ... وقلت ألما أصح والشيب وازع
وقد حال هم دون ذلك شاغل ... مكان الشغاف تبتغيه الأصابع
وعيد أبي قابوس في غير كنهه ... أتاني ودوني راكس فالضواجع
فبت كأني ساورتني ضئيلة ... من الرقش في أنيابها السم ناقع
يسهد من ليل التمام سليمها ... لحلي النساء في يديه قعاقع
تناذرها الراقون من سوء سمها ... تطلقه طوراً وطوراً تراجع
أتاني أبيت اللعن أنك لمتني ... وتلك التي تستك منها المسامع
مقالة أن قد قلت سوف أناله ... وذلك من تلقاء مثلك رائع
لعمري وما عمري علي بهين ... لقد نطقت بطلاً علي الأقارع
أقارع عوف لا أحاول غيرها ... وجوه قرود تبتغي من تجادع
أتاك امرؤ مستبطن لي بغضه ... له من عدو مثل ذلك شافع
أتاك بقول هلهل النسج كاذب ... ولم يأت بالحق الذي هو ناصع
أتاك بقول لم أكن لأقوله ... ولو كبلت في ساعديَّ الجوامع
حلفت فلم أترك لنفسك ريبة ... وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع
بمصطحبات من لصاف وثيرة ... يزرن إلالاً سرهن التدافع
سماماً تباري الريح خوصاً عيونها ... لهن رذايا بالطريق ودائع
عليهن شعث عامدون لحجهم ... فهن كأطراف الحني خواضع
لكفتني ذنب امرئ وتركته ... كذي العر يكوي غيره وهو رائع
فإن كنت لا ذو الضغن عني مكذب ... ولا حلفي على البراءة نافع
ولا أنا مأمون بشيء أقوله ... وأنت بأمر لا محالة واقع

فإنك كالليل الذي هو مدركي ... وإن خلت أن المنتأي عنك واسع
خطاطيف حجن في حبال متينة ... تُمَدُّ بها أيدٍ إليك نوازع
أتوعد عبداً لم يخنك أمانة ... وتترك عبداً ظالماً وهو ضالع
وأنت ربيع ينعش الناس سيبه ... وسيف أعيرته المنية قاطع
أبى الله إلا عدله ووفاءه ... فلا النكر معروف ولا العرف ضائع
وتسقى إذا ما شئت غير مصرد ... بزوراء في حافاتها المسك كانع

وقال أيضاً يمدح عمرو بن الحارث الغساني:

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسية بطيء الكواكب
تطاول حتى قلت ليس بمنقض ... وليس الذي يرعى النجوم بآيب
وصدر أراح الليل عازب همه ... تضاعف فيه الحزن من كل جانب
علي لعمرو نعمة بعد نعمة ... لوالده ليست بذات عقارب
حلفت يميناً غير ذي مثنوية ... ولا علم إلا حسن ظن بصاحب
لئن كان للقبرين قبر بجلق ... وقبر بصيداء الذي عند حارب
وللحارث الجفني سيد قومه ... ليلتمسن بالجيش دار المحارب
وثقت له بالنصر إذ قيل قد غزت ... كتائب من غسان غير أشائب
بنو عمه دنيا وعمرو بن عامر ... أولئك قوم بأسهم غير كاذب
إذا ماغزوا في الجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائب
يصاحبنهم حتى يغرن إغارهم ... من الضاريات بالدماء الدوارب
تراهن خلف القوم خزراً عيونها ... جلوس الشيوخ في ثياب المرانب
جوانح قد أيقن أن قبيله ... إذا ما التقى الجمعان أول غالب
لهن عليهم عادة قد عرفنها ... إذا عرض الخطي فوق الكواثب

عـــلى عارفـــات للطعـــان عـــوابس ... بـــهن كلـــوم بـــين دام وجـــالب

إذا اســـتنزلوا عـــنهن للطعـــن أرقلـــوا ... إلى المـــوت إرقـــال الجـــمال المصـــاعب

فـــهم يتساقـــون الـــمنية بيـــنهم ... بأيـــديهم بيـــض رقـــاق الـــمضارب

يطـــير فضاضـــاً بينهـــا كـــل قـــونس ... ويتبعهـــا مـــنهم فـــراش الحواجـــب

ولا عيـــب فـــيهم غـــير أن ســـيوفهم ... بهـــن فلـــول مـــن قـــراع الكـــتائب

تـــورثن مـــن أزمـــان يـــوم حليمـــة ... إلى اليـــوم قـــد جـــربن كـــل التجـــارب

تقـــد الســـلوقي المضـــاعف نســـجه ... وتوقـــد بالصفـــاح نـــار الـــحباحب

بضربـــب يزيـــل الهـــام عـــن ســـكناته ... وطعـــن كـــإيزاغ المخـــاض الضـــوارب

لهـــم شـــيمة لم يعطهـــا الله غـــيرهم ... مـــن الجـــود والأحـــلام غـــير عـــوازب

محلـــتهم ذات الإلـــه وديـــنهم ... قـــويم فـــما يرجـــون غـــير العواقـــب

رقـــاق النعـــال طيـــب حجـــزاتهم ... يحيـــون بالريحـــان يـــوم السباســـب

تحيـــيهم بـــيض الولائـــد بيـــنهم ... وأكســـيه الإضريـــج فـــوق المشـــاجب

يصـــونون أجســـاداً قـــديماً نعيمهـــا ... بخالصـــة الأردان خضـــر المناكـــب

ولا يحســـبون الخـــير لا شر بعـــده ... ولا يحســـبون الشـــر ضربـــة لازب

حبـــوت بهـــا غســـان إذ كنـــت لاحقـــا ... بقـــومي وإذ أعيـــت عـــلي مـــذاهبي

٣ ـ الأعشى

(صناجة العرب)

أ ـ نشأته وحياته:

ولد الأعشى ميمون بن قيس من قبيلة بكر بن وائل فـي منطقة اليمامة، وكني بأبي بصير أو الأعشى لضعف بصره، وليس هناك معلومات دقيقة عـن نشأته أكثـر مـن كونـه كان أعرابياً بدوياً لا تختلف نشأته عن نشأة أي بدوي من أفراد القبيلة، وقد كان الأعشى كثير التجول يمدح شيوخ العـرب وأشرافهم متكسباً في شعره، يراعي مصالح قومه ويناصر قبيلته، أدرك الإسلام، ولكنه لم يسلم ومات قرب اليمامة في السنة السابعة بعد الهجرة (٦٢٩م).

ب ـ شخصيته:

عاش الأعشى شخصيته المعهودة بين الناس، وعبّر من خلال شعره عن القضايا التي عاشها قومه دون أن يكون هناك أي عوائق في البيئة النفسية لهذه الشخصية، حتى أن ضعف البصر لديه لم يؤثر فيه، ولم يترك أي انعكاس سلبي علـى حياته، فقـد بدأ حياته بمحبة اللهو والغناء وانكب على شرب الخمرة عافانا الله وإياكم منها، ووصفها ولكنه لما أسنّ طرح الهوى وبحث عن الحكمة.

ج- شعره ومعلقته:

امتاز ميمون بن قيس بنظم القصائد الطوال وبتحدثه عن فنون الشعر(المدح، الهجاء الفخـر، الغزل)، وقـد كان مدحه مبالغاً فيه، يسرف فـي وصف الممدوح بالشجاعة والكرم وقـوة الشكيمة،

يقول الأعشى فـي مدح قيس بن معـد يكرب واصفاً إياه بالجرأة والشجاعة واقتحام الحـرب أعزلاً:

وإذا تجـــيء كتيبـــة ملمومـــة خرســاء يخشـى الـدارعون نزالهـا

كنـــت المقـــدّم غـــير لابـــس جُنّـــةً بالســـيف تضـــرب معلـــماً أبطالهـــا

أما هجاء الأعشى فهو سخرية وتهديد، يقول هاجياً يزيد الشيباني ومهدداً إياه:

ألســـت منتهيـــاً عـــن نحـــت أثلتنـــا ولســـت ضـــائرها مـــا أطـــت الإبـــل

كنـــاطحٍ صـــخرةٍ يومـــاً ليوهنهـــا فلـــم يضرـــها وأوهـــى قرنـــه الوعـــل

أما فخر الأعشى فقد اتضحت معالمه في معركة (ذي قار) وهو يوم انتصر فيه العرب على الفرس وانتصفوا منهم:

وخيـــل بكـــرٍ فـــما تنفـــك تطحـــنهم حتـــى تولـــوا وكـــاد اليـــوم ينتصـــف

وقد برع الأعشى في وصف الرياض، يقول في وصف صاحبته مشبهاً إياها بروضة خضراء:

مـا روضـة مـن ريـاض الحسْـن معشـبة خضرـــاء جـــاد عليهـــا مســـبل هطـــل

يومـــاً بأطيـــب منهـــا نشرـــ رائـــحة ولا بأحســـن منهـــا إذ دنـــا الأصـــل

ويعتبر شعر الأعشى من شعر الطبقة الأولى عند العرب؛ إذ وصفه ابن سلام في طبقات فحول الشعراء في المرتبة الأولى، وكان يونس بن حبيب راوية العرب؛ إذ سئل من أشعر الناس؟ قال: "امرؤ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب".

وقد قال المفضل الضبي: "من زعم أن أحداً أشعر من الأعشى فليس يعرف الشعر".

معلقة الأعشى

ودع هريـــرة إن الركـــب مرتحـــل ... وهـــل تطيـــقُ وداعـــاً أيهـــا الرجـــل

غـــراء فرعـــاء مصـــقولٌ عوارضـــها ... تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوحل

كـــأن مشـــيتها مـــن بيـــت جارتهـــا ... مـــرّ الســـحابة لا ريـــثٌ ولا عجـــل

تســـمع للحـــلي وسواســـاً إذا انصرـــفت ... كـــما اســـتعانَ بـــريحٍ عشرـــقٌ زجـــل

ليســـت كمـــن يكـــره الجـــيران طلعتهـــا ... ولا تراهـــا لسرّ الجـــارِ تختتـــل

يكـــاد يصرـــعها لـــولا تشـــدّدها ... إذا تقـــومُ إلى جاراتهـــا الكَسَـــلُ

إذا تلاعـــب قرنـــاً ســـاعةً فـــترت ... وارتـــج منهـــا ذنـــوبُ المـــتن والكفَـــلُ

صـــفر الوشـــاح ومـــلء الـــدرع بهكنـــة ... إذا تـــأتى يكـــاد الخصرُ ينخـــزل

نعـــم الضـــجيع غـــداة الـــدجن يصرـــعها ... للـــذة المـــرء لا جـــافٍ ولا تفـــل

هركولـــةٌ، فنـــقٌ، درمٌ مرافقهـــا ... كـــأن أخمصـــها بالشـــوك ينتعـــل

إذا تقـــوم يضـــوعُ المســـكُ أصـــورةً ... والزنبـــق الـــورد مـــن أردانهـــا شـــمل

مـــا روضـــةٌ مـــن ريـــاض الحســـن معشـــبةٌ ... خضرـــاء جـــاد عليهـــا مســـبلٌ هطـــل

يضـــاحك الشـــمس منهـــا كوكـــبٌ شرقٌ ... مـــؤزرٌ بعمـــيم النبـــت مكتهـــل

يومـــاً بأطيـــب منهـــا نشرـــ رائحـــةٍ ... ولا بأحســـن منهـــا إذ دنـــا الأصـــل

علقتهـــا عرضـــاً وعلقـــت رجـــلاً ... غـــيري وعلـــق أخـــرى غيرهـــا الرجـــل

وعلقتـــه فتـــاة مـــا يحاولهـــا ... ومـــن بنـــي عمهـــا ميـــت بهـــا وهـــل

وعلقتنـــي أخـــيرى مـــا تلائمنـــي ... فـــاجتمع الحـــبّ، حـــبٌّ كلـــه تبـــل

فكلنـــا مغـــرمٌ يهـــذي بصـــاحبه ... نـــاءٍ ودانٍ ومخبـــولٌ ومختبـــل

صـــدت هريـــرة عنـــا مـــا تكلمنـــا ... جهـــلاً بـــأم خليـــدٍ حبـــل مـــن تصـــل

أأن رأت رجـــلاً أعشـــى أضر بـــه ... ريـــب المنـــون ودهـــرٌ مفنـــدٌ خبـــل

قالت هريرة لما جئت طالبها ... ويلي عليك وويلي منك يا رجل

إما ترينا حفاةً لا نعال لنا ... إنا كذلك ما نحفى وننتعل

وقد أخالس رب البيت غفلته ... وقد يحاذر مني ثم ما يئل

وقد أقود الصبا يوماً فيتبعني ... وقد يصاحبني ذو الشرة الغزل

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني ... شاوٍ مشلٌّ شلولٌ شلشلٌّ شول

في فتيةٍ كسيوف الهند قد علموا ... أن هالكٌ كل من يحفى وينتعل

نازعتهم قضب الريحان متكئاً ... وقهوةً مزةً راووقها خضل

لا يستفيقون منها وهي راهنةٌ ... إلا بهات وإن علوا وإن نهلوا

يسعى بها ذو زجاجاتٍ له نطفٌ ... مقلصٌ أسفل السربال معتمل

و مستجيبٍ تخال الصنج يسمعه ... إذا ترجع فيه القينة الفضل

الساحبات ذيول الريط آونةً ... والرافعات على أعجازها العجل

من كل ذلك يومٌ قد لهوت به ... وفي التجارب طول اللهو والغزل

و بلدةٍ مثل ظهر الترس موحشةٍ ... للجن بالليل في حافاتها زجل

لا يتمنى لها بالقيظ يركبها ... إلا الذين لهم فيها أتوا مهل

جاوزتها بطليحٍ جسرةٍ سرحٍ ... في مرفقيها إذا استعرضتها فتل

بل هل ترى عارضاً قد بت أرمقه ... كأنما البرق في حافاته شعل

له ردافٌ وجوزٌ مفأمٌ عملٌ ... منطَّقٌ بسجال الماء متصل

لم يلهني اللهو عنه حين أرقبه ... ولا اللذاذة في كأس ولا شغل

فقلت للشرب في درنا وقد ثملوا ... شيموا وكيف يشيم الشارب الثمل

قالوا نمارٌ، فبطن الخال جادهما ... فالعسجديةٌ فالأبلاء فالرجل

فالسفح يجري فخنزيرٌ فبرقته ... حتى تدافع منه الربو فالحبل

حتى تحمل منه الماء تكلفةً ... روض القطا فكثيب الغينة السهل

يسقي دياراً لها قد أصبحت غرضاً ... زوراً تجانف عنها القود والرسل

أبلغ يزيد بني شيبان مألكةً ... أبا ثبيتٍ أما تنفك تأتكل

ألست منتهياً عن نحت أثلتنا ... ولست ضائرها ما أطت الإبل

كناطح صخرةً يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهن قرنه الوعل

تغري بنا رهط مسعودٍ وإخوته ... يوم للقاء فتردي ثم تعتزل

تلحم أبناء ذي الجدين إن غضبوا ... أرماحنا ثم تلقاهم وتعتزل

لا تقعدن وقد أكلتها خطباً ... تعوذ من شرها يوماً وتبتهل

سائل بني أسدٍ عنا فقد علموا ... أن سوف يأتيك من أبنائنا شكل

واسأل قشيراً وعبد الله كلهم ... واسأل ربيعة عنا كيف نفتعل

إنا نقاتلهم حتى نقتلهم ... عند اللقاء وإن جاروا وإن جهلوا

قد كان في آل كهفٍ إن هم احتربوا ... والجاشرية من يسعى وينتضل

لئن قتلتم عميداً لم يكن صدداً ... لنقتلن مثله منكم فنمتثل

لئن منيت بنا عن غب معركةٍ ... لا تلفنا عن دماء القوم ننتقل

لا تنتهون ولن ينهى ذوي شططٍ ... كالطعن يذهب فيه الزيت والفتل

حتى يظل عميد القوم مرتفقاً ... يدفع بالراح عنه نسوةٌ عجل

أصابه هنداوانيٌّ فأقصده ... أو ذابلٌ من رماح الخط معتدل

كلا زعمتم بأنا لا نقاتلكم ... إنا لأمثالكم يا قومنا قتل

نحن الفوارس يوم الحنو ضاحيةً ... جنبي فطيمة لا ميلٌ ولا عزل

قالوا الطعان فقلنا تلك عادتنا ... أو تنزلون فإنا معشرٌ نزل

قد نخضب العير في مكنون فائله ... وقد يشيط على أرماحنا البطل

٤ ـ عمرو بن كلثوم

أ- حياته ونشأته:

يعتقد أن عمرو بن كلثوم قـد ولد في مساكن الجزيرة السورية، وهـو مـن بني مالك مـن قبيلة تغلب، وهـي القبيلة المتعالية القوية التي قيل فيها لـو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس.

وقـد ولد الشاعر في بداية القرن السادس، وأصبح سيداً لقومه في الخامسة عشرة من عمره، ويعد من الشعراء الفرسان، عاش ما يزيد على المئة عام، وقد توفي حوالي الأربعين قبل الهجرة.

ب ـ شخصية عمرو:

أسهم في بناء شخصية عمرو بن كلثوم عاملان أساسيان:

أ- بيت الملك والمجد والسؤدد الذي تربى في كنفه الشاعر.

ب- قتله للملك عمرو بن هند في مجلس الملك نفسه عندما أراد أن يجعل من أم الشاعر ليلى بنت المهلهل خادمة لأمه.

وقد بدا عمرو بعد ذلك شاعراً فارساً عزيز الجانب.

ج- شعره ومعلقته:

نظم عمرو بن كلثوم في أغراض كثيرة من الشعر منها: (الفخر، الغزل، الحكم...)

ولم ينظم في المديح لمكانته من قومه، يقول مفتخراً بنفسه:

ألا لا يجهلـــن أحـــــد علينـــــا فنجهـــل فـــوق جهـــل الجاهلينـــا

إذا بلـــغَ الفطـــام لنـــا صبـــــي تخـــــرّ لـــــه الجبـــابر ســـاجدينا

ويقول:

ورثنـــا المجـــد قـــد علمـــت معـــدٌّ نطاعـــــن دونـــه حتـــــى يبنيـــا

أما معلقة الشاعر فتعد من روائع الشعر العربي، وقد كانت قبيلة تغلب تعظم هذه المعلقة، والتي تعتبر من عيون الشعر العربي حتى أن العرب كانوا يعلقونها مع المعلقات على أستار الكعبة المشرفة.

يعد شعر عمرو بن كلثوم حسن السبك، واضح المعاني، صافي الديباجة يصدر عن طبع غير متصنع وتبلغ معلقته مئة بيت مطلعها:

ألا هبـــــي بصـــــحنك واصـــــبحينا ولا تبقـــــــي خمـــــــور الأنـــــدرينا

معلقة عمرو بن كلثوم

أَلا هُبِّـــي بصَـــحْنِكِ فَاصْـــبَحينا ... وَلا تُبْقِـــي خُمـــورَ الأَنـــدَرِينا

مُشَعْشَـــعَةً كـــأنَّ الحُـــصَّ فيهـــا ... إِذا مـــا المـــاءُ خالَطَهـــا سَـــخِينا

تَجُـــورُ بـــذي اللُّبَانَـــةِ عَـــنْ هَـــوَاهُ ... إِذا مَـــا ذاقَهـــا حَتَّـــى يَلِينـــا

تَـــرَى اللّحِـــزَ الشّـــحيحَ إِذا أُمِـــرَّتْ ... عَلَيْـــهِ لِمالِـــهِ فيهـــا مُهينـــا

صَـــبَنْتِ الْكَـــأْسَ عَنّـــا أُمَّ عَمْـــرٍو ... وكـــانَ الْكَـــأْسُ مَجْراهـــا الْيَمِينـــا

وَمَـــا شَرُّ الثّلاثَـــةِ أُمَّ عَمْـــرٍو ... بِصـــاحِبِكِ الـــذِي لا تصْـــبَحِينا

وَكَـــأسٍ قَـــدْ شَرِبْـــتُ بِبَعْلَبَـــكٍّ ... وَأُخْـــرَى فِي دِمَشْـــقَ وَقَاصِرِينـــا

وَإِنَّـــا سَـــوْفَ تُـــدْرِكُنا المنَايَـــا ... مُقَـــدَّرَةً لَنـــا وَمُقَـــدِّرِينا

قِفِـــي قَبْـــلَ التَّفَـــرُّقِ يَـــا ظَعِينـــا ... نُخَـــبِّرْكِ الْيَقِـــينَ وَتُخْبِرِينـــا

قِفِـــي نَسْـــأَلْكِ هَـــلْ أَحْـــدَثْتِ صِرْمـــاً ... لِوَشْـــكِ الْبَـــيْنِ أَمْ خُنْـــتِ الأَمِينَـــا

بِيَـــوْمِ كَرِيهَـــةٍ ضَرْبـــاً وَطَعْنـــاً ... أَقَـــرَّ بِـــهِ مَواليـــكِ الْعُيُونـــا

وَإِنَّ غَـــداً وإِنَّ الْيَـــوْمَ رَهْـــنٌ ... وَبَعْـــدَ غَـــدٍ بِـــما لا تَعْلَمِينـــا

تُرِيـــكَ إِذا دَخَلْـــتَ عَـــلى خَـــلاءٍ ... وَقَـــدْ أَمِنَـــتْ عُيُـــونَ الْكَاشِـــحِينَا

ذِرَاعَـــي عَيْطَـــلٍ أَدْمَـــاءَ بَكْـــرٍ ... هِجَـــانِ اللَّـــوْنِ لَمْ تَقْـــرَأْ جَنِينَـــا

وَثَـــدْياً مِثْـــلَ حُـــقِّ الْعَـــاجِ رَخْصـــاً ... حَصَـــاناً مِـــنْ أَكُـــفِّ اللّامِسِـــينا

وَمَتْنَـــيْ لَدْنَـــةٍ سَـــمَقَتْ وَطَالَـــتْ ... رَوَادِفُهـــا تَنُـــوءُ بِـــما وَلِينـــا

وَمَأْكَمَـــةً يَضِـــيقُ الْبَـــابُ عَنْهـــا ... وَكَشْـــحاً قَـــدْ جُنِنْـــتُ بِـــهِ جُنُونـــا

وَسَـــارِيَتَيْ بِلَـــنْطٍ أَوْ رُخـــامٍ ... يَـــرِنُّ خَشَـــاشُ حَلْـــيِهِما رَنِينـــا

فَـــما وَجَـــدْتُ كَوَجْـــدِي أُمَّ ســـقْبٍ ... أَضَـــلَّتْهُ فَرَجَّعَـــتِ الحَنِينـــا

وَلا شَـــمْطَاءُ لَمْ يَـــتْرُكْ شَـــقاها ... لَهَـــا مِـــنْ تِسْـــعَةٍ إلا جَنِينـــا

تَـــذَكَّرْتُ الصِّـــبَا وَاشْـــتَقْتُ لَمَّـــا ... رَأَيْـــتُ حُمُولَهَـــا أُصُـــلاً حُـــدِينا

فَأَعْرَضَـــتِ الْيَمَامَـــةُ وَاشْـــمَخَرَّتْ ... كأَسْـــيَافٍ بِأَيْـــدِي مُصْـــلَتِينَا

أَبَـــا هِنْـــدٍ فَـــلا تَعْجَـــلْ عَلَيْنـــا ... وَأَنْظِرْنـــا نُخَـــبِّرْكَ الْيَقِينـــا

بِأَنَّـــا نُـــورِدُ الرَّايَـــاتِ بِيضـــاً ... وَنُصْـــدِرُهُنَّ حُمْـــراً قَـــدْ رَوِينـــا

وَأَيَّـــامٍ لَنَـــا عـــزٍّ طِـــوَالٍ ... عَصَـــيْنا الْمَلْـــكَ فيهَـــا أَنْ نَـــدِينا

وَسَـــيِّدِ مَعْشَـــرٍ قَـــدْ تَوَّجُـــوهُ ... بِتَـــاجِ الْمُلْـــكِ يَحْمِـــي الْمُحَجرِينـــا

تَرَكْنـــا الْخَيْـــلَ عَاكِفَـــةً عَلَيْـــهِ ... مُقَلَّـــدَةً أَعِنَّتَهـــا صُـــفُونا

وَأَنْزَلْنـــا الْبُيُـــوتَ بِـــذِي طُلُـــوحٍ ... إلى الشَّـــامَاتِ تَنْفِـــي الْمُوعِـــدِينا

وَقَـــدْ هَـــرَّتْ كِـــلابُ الحَـــيِّ مِنَّـــا ... وَشَـــذَّ بنـــا قَتَـــادَةَ مَـــن يَلِينـــا

مَتَـــى نَنْقُـــلْ إلى قَـــوْمٍ رَحَانـــا ... يَكُونُـــوا فِي اللِّقَـــاءِ لَهَـــا طَحِينـــا

يَكُـــونُ ثِفَالُهَـــا شَرْقِـــيَّ نَجْـــدٍ ... وَلَهْوَتُهَـــا قُضَـــاعَةَ أَجْمَعِينـــا

نَـــزَلْتُمْ مَنْـــزِلَ الأَضْـــيَافِ مِنَّـــا ... فَأَعْجَلْنـــا الْقِـــرَى أَنْ تَشْـــتِمُونا

قَرَيْنَـــاكُمْ فَعَجَّلْنـــا قِـــرَاكُمْ ... قُبَيْـــلَ الصُّـــبْحِ مِـــرْدَاةً طَحُونـــا

نَعُـــمُّ أُنَاسَـــنا وَنَعِـــفُّ عَـــنْهُمْ ... وَنَحْمِـــلُ عَـــنْهُمُ مَـــا حَمَّلُونـــا

نُطَـــاعِنُ مَـــا تَرَاخَـــى النّـــاسُ عَنَّـــا ... وَنَضْرِبُ بِالسُّـــيُوفِ إِذَا غُشِـــينا

بِسُـــمْرٍ مِـــنْ قَنـــا الخطِّـــيِّ لُـــدْنٍ ... ذَوَابِـــلَ أَوْ بِبِـــيضٍ يَخْتَلِينـــا

كـــأَنَّ جَمَـــاجِمَ الأَبطَـــالِ فِيهـــا ... وَسُـــوقٌ بِالأَمَـــاعِزِ يَرْتَمِينـــا

نَشُـــقُّ بِهَـــا رُؤُوسَ الْقَـــوْمِ شَـــقا ... وَنَخْتَلِـــبُ الرِّقَـــابَ فَتَخْتَلِينـــا

وَإِنّ الضِّـــعْنَ بَعْـــدَ الضِّـــعْنِ يَبْـــدُو ... عَلَيْـــكَ وَيُخْـــرِجُ الـــدَّاءَ الـــدَّفِينا

وَرِثْنـــا الْمَجْـــدَ قَـــدْ عَلِمَـــتْ مَعَـــدٌّ ... نُطَـــاعِنُ دُونَـــهُ حَتَّـــى يَبِينـــا

وَنَحْـــنُ إِذا عِـــمَادُ الْحَـــيِّ خَـــرَّتْ ... عَـــنِ الأَحْفَـــاضِ نَمْنَـــعُ مَـــنْ يَلِينـــا

نَجُـــدٌ رُؤُوسَـــهُمْ فِي غَـــيْرِ بِـــرٍّ فَـــما يَـــدْرُونَ مَـــاذا يَتَّقُونـــا
كـــأَنَّ سُـــيُوفَنا مِنّـــا وَمِـــنْهُم مَخَـــارِيقٌ بِأَيْـــدِي لاعِبِينـــا
كـــأنَّ ثِيابَنـــا مِنّـــا وَمِـــنْهُم خُضِـــبْنَ بِـــأُرْجُوانٍ أَوْ طُلِينـــا
إِذا مـــا عَـــيَّ بالإِسْـــنافِ حَـــيٌّ مِـــنَ الهَـــوْلِ المُشَّـــبهِ أَنْ يَكُونـــا
نَصَـــبْنا مِثْـــلَ رَهْـــوَةَ ذَاتَ حَـــدٍّ مُحَافَظَـــةً وكُنّـــا السّـــابِقِينا
بِشُـــبَّانٍ يَـــرَوْنَ الْقَتْـــلَ مَجْـــداً وَشِـــيبٍ فِي الحُـــرُوبِ مُجَرَّبِينـــا
حُـــدَيَّا النّـــاسِ كُلِّهِـــمُ جَمِيعـــاً مُقَارَعَـــةً بَنِـــيهِمْ عَـــنْ بَنِينـــا
فَأَمَّـــا يَـــوْمَ خَشْـــيَتِنا عَلَـــيْهِمْ فَتُصْـــبِحُ خَيْلُنـــا عُصَـــباً نُبِينـــا
وَأَمَّـــا يَـــوْمَ لا نَخْشَـــى عَلَـــيْهِمْ فَـــنُمْعِنُ غَـــارَةً مُتَلَبِّبِينـــا
بِـــرَأْسٍ مِـــنْ بَنِـــي جُشَـــمِ بْـــنِ بَكْـــرٍ نَـــدُقُّ بِـــهِ السُّـــهُولَةَ وَالحُزُونَـــا
أَلا لا يَعْلَـــمُ الأَقْـــوامُ أَنَّـــا تَضَعْضَـــعْنا وَأَنَّـــا قَـــدُ وَنِينـــا
أَلا لا يَجْهَلَـــنْ أَحَـــدٌ عَلَيْنَـــا فَنَجْهَـــلُ فَـــوْقَ جَهْـــلِ الجاهِلِينـــا
بـــأَيِّ مَشِـــيئَةِ عَمْـــرَو بْـــنَ هِنْـــدٍ نَكُـــونُ لِقَـــيلِكُمْ فيهـــا قَطِينـــا
بـــأَيِّ مَشِـــيئَةِ عَمْـــرَو بْـــنَ هِنْـــدٍ تُطيـــعُ بِنـــا الْوُشَـــاةَ وَتَزْدَرِينـــا
تَهَـــدَّدْنا وَأَوْعِـــدْنَا رُوَيْـــداً مَتَـــى كُنّـــا لأُمِّـــكَ مَقْتَوِينـــا
فَـــإِنَّ قَنَاتَنـــا يـــا عَمْـــرُو أَعْيَـــتْ عَـــلى الأَعْـــدَاءِ قَبْلَـــكَ أَنْ تَلِينـــا
إِذا عَـــضَّ الثِّقـــافُ بِهـــا اشْـــمأَزَّتْ وَوَلَّتْـــهُ عَشَـــوْزَنَةً زَبُونـــا
عَشَـــوْزَنَةً إِذا انْقَلَبَـــتْ أَرَنَّـــتْ تَشُـــجُّ قَفَـــا المُثَقِّـــفِ وَالجَبِينـــا
فَهَـــلْ حُـــدِّثْتَ فِي جُشَـــمِ بْـــنِ بَكْـــرٍ بِـــنَقْصٍ فِي خُطُـــوبِ الأَوَّلِينـــا
وَرِثْنـــا مَجْـــدَ عَلْقَمَـــةَ بـــنِ سَـــيْفٍ أَبـــاحَ لَنَـــا حُصُـــونَ المَجْـــدِ دِينـــا
وَرِثْـــتُ مُهَلْهِـــلاً وَالخَـــيرَ مِنْـــهُ زُهَـــيْراً نِعْـــمَ ذُخْـــرِ الـــذّاخِرِينا

وَعَتَّابـــــاً وَكُلْثُومـــــاً جَمِيعـــــاً ... بِهِـــمْ نِلْنـــا تُـــراثَ الأَكْرَمِينـــا

وَذا الـــبُرَةِ الـــذِي حُـــدِّثْتَ عَنْـــهُ ... بِـــهِ نُحْمَـــى وَنَحْمِـــي المُحْجَرِينـــا

وَمِنَّـــا قبْلَـــةُ السّـــاعِي كُلَيْـــبٌ ... فـــأيُّ المجْـــدِ إلا قَـــدْ وَلِينـــا

مَتَـــى نَعْقِـــدْ قَرِينَتَنـــا بِحَبْـــلٍ ... تَجُـــذَّ الحُبْـــلَ أَوْ تَقِـــصِ الْقَرِينـــا

وَنُوَجـــدُ نَحْـــنُ أَمْـــنَعَهُمْ ذِمَـــاراً ... وَأَوْفـــاهُمْ إِذا عَقَـــدُوا يَمينـــا

وَنَحْـــنُ غَـــداةَ أُوقِـــدَ فِي خَـــزَازَى ... رَفَـــدْنَا فَـــوْقَ رِفْـــدِ الرافِـــدِينا

وَنَحْـــنُ الحابِسُـــونَ بِـــذِي أَرَاطَـــى ... تَسَـــفُّ الجِلّـــةُ الخُـــورُ الـــدَّرِينا

وَنَحْـــنُ الحُـــاكِمونَ إِذا أُطِعْنـــا ... وَنَحْـــنُ الْعَـــازِمُونَ إِذا عُصِـــينا

وَنحْـــنُ التَّـــارِكُونَ لِمـــا سَـــخِطْنا ... وَنَحْـــنُ الآخِـــذُونَ لِمـــا رَضِـــينا

وَكُنَّـــا الأَيْمَنِـــينَ إِذا الْتَقَيْنـــا ... وَكـــانَ الأَيْسَرِيـــنَ بَنُـــو أَبِينـــا

فَصَـــالُوا صَـــوْلَةً فِـــيمَنْ يَلِـــيهِمْ ... وَصُـــلْنا صَـــوْلَةً فـــيمَنْ يَلِينـــا

فـــآبُوا بالنِّهـــابِ وبالسَّـــبايا ... وَأُبْنـــا بـــالمُلوكِ مُصَـــفَّدِينا

إِلَـــيْكُمْ يـــا بَنـــي بَكْـــرٍ إِلَـــيْكُم ... أَلَمَّـــا تَعْرِفُـــوا مِنَّـــا الْيَقِينـــا

أَلَمَّـــا تَعْلَمُـــوا مِنّـــا وَمِـــنْكم ... كَتَائِـــبَ يَطَّعِـــنَّ وَيَرْتَمِينـــا

عَلَيْنـــا الْبَـــيْضُ وَالْيَلَـــبُ الْـــيَماني ... وَأَسْـــيَافٌ يَقُمْـــنَ وَيَنْحَنِينـــا

عَلَيْنـــا كُـــلُّ سَـــابِغَةٍ دِلاصٍ ... تَـــرَى فَـــوْقَ النِّطـــاقِ لهـــا غُضـــونا

إِذا وُضِـــعَتْ عَـــنِ الأَبْطـــالِ يَوْمـــاً ... رَأَيْـــتَ لَهَـــا جُلـــودَ الْقَـــوْمِ جُونـــا

كـــأَنَّ عُضُـــونَهُنَّ مُتُـــونُ غَـــدْر ... تُصَـــفِّقُهَا الرِّيَـــاحُ إِذا جَرَيْنـــا

وَتَحْمِلُنـــا غَـــداةَ الـــرَّوْعِ جُـــرْدٌ ... عُـــرِفْنَ لَنـــا نَقَائِـــذَ وَافْتُلِينـــا

وَرَدْنَ دَوَارِعـــاً وَخَـــرَجْنَ شُـــعْثاً ... كأمثـــال الرّصـــائِعِ قَـــدْ بَلِينـــا

وَرِثْنـــاهُنَّ عَـــنْ آبَـــاءِ صِـــدْقٍ ... وَنُورِثُهـــا إِذا مُتْنـــا بَنِيْنـــا

عَـــلى آثَارِنَـــا بِـــيضٌ حِســـانٌ نُحَـــاذِرُ أَنْ تُقَسَّـــمَ أَوْ تَهونـــا
أَخـــذْن عَـــلى بُعُـــولَتِهِنَّ عَهْـــداً إِذا لاقُـــوْا كَتَائِـــبَ مُعْلِمِينَـــا
لَيَسْـــتَلِبُنَّ أَفْرَاســـاً وَبِيضـــاً وَأَسْرَى فِي الْحَدِيـــدِ مُقَرَّنِينـــا
تَرَانَـــا بَـــارِزِينَ وَكُـــلُّ حَـــيٍّ قَـــدِ اتَّخَـــذُوا مَخَافَتَنَـــا قَرِينـــا
إِذا مـــا رُحْـــنَ يَمْشِـــينَ الْهُـــوَيْنَى كَـــما اضْـــطَرَبَتْ مُتُـــونُ الشَّـــارِبِينا
يَقُـــتْنَ جِيادَنَـــا وَيَقُلْـــنَ لَسْـــتُمْ بُعُولَتَنَـــا إِذَا لَمْ تَمْنَعونـــا
ظَعَـــائِنَ مِـــنْ بَنِـــي جشَـــمٍ بِـــنِ بَكْـــرٍ خَلَطْـــنَ بِميسَـــمٍ حَسَـــباً وَدِينـــا
وَمَـــا مَنَـــعَ الظَّعَـــائِنَ مِثْـــلُ ضَرْبٍ تَـــرَى مِنْـــهُ السَّـــواعِدَ كالقُلِينـــا
كأَنَّـــا وَالسُّـــيُوفُ مُسَـــلَّلاتٌ وَلَـــدْنا النَّـــاسَ طُـــرَّاً أَجْمَعِينـــا
يُدَهْـــدُونَ الـــرُّؤُوسَ كـــما تُدَهْـــدِي حَـــزَاوِرَةٌ بِأَبْطَحِهَـــا الْكُرِينـــا
وَقَـــدْ عَلِـــمَ الْقَبَائِـــلُ مِـــنْ مَعَـــدٍّ إِذَا قُبَـــبٌ بِأَبْطَحِهَـــا بُنِينـــا
بِأَنَّـــا الْمُطْعِمُـــونَ إِذَا قَـــدَرْنَا وَأَنَّـــا الْمُهْلِكُـــونَ إِذَا ابْتُلِينـــا
وَأَنَّـــا المـــانِعُونَ لِمـــا أَرَدْنـــا وَأَنَّـــا النَّـــازِلُونَ بِحَيْـــثُ شِـــينا
وَأَنَّـــا التَّـــارِكُونَ إِذَا سَـــخِطْنَا وَأَنَّـــا الآخِـــذُونَ إِذَا رَضِـــينا
وَأَنَّـــا الْعَاصِـــمُونَ إِذَا أُطِعْنـــا وَأَنَّـــا الْعَـــازِمُونَ إِذَا عُصِـــينا
وَنَشْرَـــبُ إِنْ وَرَدْنَـــا المـــاءَ صَـــفْوا وَيَشْرَـــبُ غَيْرُنَـــا كَـــدِراً وَطِينـــا
أَلا أَبْلِـــغْ بَنـــي الطَّـــمَّاحِ عَنَّـــا وَدُعْمِيّـــاً فَكَيْـــفَ وَجَـــدْتُمونا
إِذَا مَـــا الْمَلْـــكُ سَـــامَ النَّـــاسَ خَسْـــفا أَبَيْنـــا أَنْ نُقِـــرَّ الـــذُّلَّ فِينـــا
مَلأنـــا الْـــبَرَّ حَتَّـــى ضَـــاقَ عَنَّـــا وَمَـــاءَ الْبَحْـــرِ نَمْلـــؤُهُ سَـــفِينا
إِذا بَلَـــغَ الْفِطَـــامَ لَنـــا صَـــبِيٌّ تَخِـــرُّ لَـــهُ الْجَبـــابِرُ ســـاجِدِينا

٥ ـ طرفة بن العبد

أ- حياته ونشأته:

ولد الشاعر طرفة بن العبد المسمى "عمرو بن العبد" في منطقة البحرين، وقد توفي والده وهو طفل فكفله أعمامه، وقضى طفولته راعياً للإبل يميل إلى البطالة واللهو وقول الشعر، وقد هجا الملك عمرو بن هند فأضمر له السوء وحمّله رسالة إلى واليه في البحرين متضمنة قتل طرفة وفعلا قتله الوالي عام ٦٢ ق.هـ.

ب- شخصية طرفة بن العبد:

تميز طرفة بشخصية ذات أبعاد متوثبة؛ إذ كان شاباً ذكياً طموحاً وإن عاش حياة التشرد والضياع، ويبدو ذلك في قوله:

وما زال تشرابي الخمور ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومتلدي
إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد

وقد كان الفارس الشجاع الذي يقف مدافعاً عن قبيلته، وفي ذلك يقول:

إذا القوم قالوا: من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

ج- شعره:

يعد طرفة من الشعراء المقلين نظراً لحياته القصيرة، فقد توفي في السادسة والعشرين من عمره، وإن كان قد طرق موضوعات: الفخر، الهجاء، الوصف.

أعظم ما في معلقته حكمه الخالدة في الموت والحياة مع صغر سنه، يقول مفتخراً بنفسه:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

ويقول في ذكر الموت:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ باليد

ويقول:

أرى العيش كنزاً ناقصاً كلَّ ليْلةٍ وما تنقصِ الأيَّامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ

ويقول واصفاً أطلال خولة:

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

ويعد طرفة من الشعراء المطبوعين ومن شعراء الطبقة الأولى الذين ذكرهم ابن سلام في كتابه.

د- معلقته:

تعد معلقة طرفة بالرغم من سنه الصغيرة حيث لم يعش أكثر من ستة وعشرين عاماً من أبرع المعلقات الشعرية الجاهلية، فقد استطاع طرفة في هذه المعلقة أن يجاري فحول الشعراء، وأن يبزهم حتى بدت معلقته من أفخم المعلقات.

هـ- الخصائص الفنية لشعره:

تميز شعر طرفة على حداثة سنه بالقوة والجزالة ومتانة السبك وبراعة الأسلوب وتحليق الخيال، وإنْ كان في معلقته قد ترسم خطا المرقش الأكبر في تشبيه الرحيل بسير السفن، وإن كان يعد أول من أطنب في وصف السفن على هذا النحو.

و- الفخر عند طرفة:

عاش طرفة في قومه شاباً ثائراً لا يرضيه شيء معتزاً بنفسه ينتقد أقاربه وأهله في البحرين، ويخالف تقاليدهم وفخره بنفسه فخر شاعر يأنف من علو غيره عليه، فهو مقاتل شجاع لا يثنيه عن همته شيء، وقد قال في معلقته:

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد

ح- الحكمة عند طرفة:

تعد حكمة طرفة بن العبد من أكثر حكم الجاهلية فلسفة؛ لما تحوي من تفكير بالموت والحياة، وكأني به قد اطلع على كتب الأديان السابقة اليهودية والنصرانية، وعرف بتجربته معنى الحياة والموت، لقد كان طرفة في فلسفته للموت لا يخطئ أحداً، وهو مربوط بالحاكم

على الناس بهذا الموت، بينما يراه زهير ناقة عشواء تخبط كيفما تشاء مع العلم أن زهيراً كان من الشعراء الأحناف.

ط- شعر الوصف والطبيعة عند طرفة:

يمثل غرض الوصف والطبيعة عند طرفة حياته أصدق تمثيل، فقد جمع بين معاني البادية التي طاف بها على ظهر ناقته وبين معاني الحضر الذي نشأ فيه بين جماعته بكر في البحرين وتصويره حسي دقيق التمثيل مع عناية بالتشابيه، وهو يصف البقر والثيران والحمر الوحشية ومعارك الصيد وورود الماء، وقد وصف لنا في معلقته الناقة وأجزاءها، وقد أبدع طرفة في وصف الناقة إبداعاً كبيراً.

معلقة طرفة بن العبد

لِخولـــة أَطْـــلالٌ بِبرْقَـــةِ ثَهْمَـــدِ ... تَلُـوحُ كَبَـاقي الْوَشْـمِ في ظـاهِرِ الْيَـدِ

وُقُوفـاً بِهَـا صَـحْبي عَـلَيَّ مطِـيَّهُمْ ... يَقُولُـونَ لا تَهْلِـكْ أَسَـىً وَتَجَلَّـدِ

كـأَنَّ حُـدُوجَ الْمالِكِيَّـةِ غُـدْوَةً ... خَلايـا سَـفِينٍ بِالنَّوَاصِـفِ مِـنْ دَدِ

عَدُولِيَّـةٌ أَوْ مِـنْ سَـفِينِ بْـنِ يَـامِنٍ ... يَجُـوز بِهَـا الْمَـلاحُ طَـوراً وَيَهْتَـدِي

يَشُـقُّ حَبَـابَ المـاءِ حَيْزُومُهـا بهـا ... كـما قَسَـمَ الـتُّرْبَ الْمُفايِـلُ باليَـدِ

وفِي الحـيِّ أَخْـوَى يَـنْفُضُ المـرْ دَشـادِنٌ ... مُظَـاهِرِ سُـمْطَيْ لُؤْلُـؤٍ وَزَبَرْجَـدِ

خَـذُولٌ تُراعـي رَبْرَبـاً بِخَميلَـةٍ ... تَنَـاوَلُ أَطْـرَافَ البريـرِ وَتَرْتَـدِي

وَتَبْسِـمُ عَـنْ أَلْمـى كـأَنَّ مُنَـوّراً ... تَخَلَّـلَ حُـرَّ الرَّمْـلِ دِعْـصٍ لَـهُ نَـدِ

سَـقَتْهُ إِيَـاةُ الشَّـمْس إِلا لِثَاتِـهِ ... أُسِـفّ وَلَمْ تَكْـدِمْ عَلَيْـهِ بِإِثْمِـدِ

وَوَجْـهٌ كـأَنَّ الشَّـمْسَ أَلقَـتْ رِداءَهَـا ... عَلَيْـهِ نَقِـيُّ اللَّـوْنِ لَمْ يَتَخَـدَّدِ

وَإِني لأُمْضِي الهَـمَّ عِنْـدَ احْتِضَـارِهِ ... بِعَوْجَـاءَ مِرْقَـالٍ تَـرُوحُ وَتَغْتَـدِي

أَمـونٍ كـأَلْوَاحِ الإِرانِ نَصَـأْتُها ... عـلى لاحِـبٍ كأَنَّـهُ ظَهْـرُ بُرْجُـدِ

جَمَالِيَّـةٍ وَجْنَـاءَ تَـرْدي كَأَنَّهَـا ... سَـفَنجَةٌ تَـبْري لأَزْعَـرَ أَرْبَـدِ

تُبـارِي عِتَاقـاً ناجِيـاتٍ وَأَتْبَعَـتْ ... وَظِيفـاً وَظِيفـاً فَـوْقَ مَـوْرٍ مُعَـبَّرِ

تَرَبَّعَـتِ الْقُفّـيْنِ فِي الشَّـوْلِ تَرْتَعِـي ... حَـدَائِقَ مَـوْلِيِّ الأَسِرَّةِ أَغْيَـدِ

تَرِيـعُ إِلَى صَـوْتِ الْمُهِيـبِ وَتَتَّقِـي ... بـذي خُصَـلٍ رَوْعَـاتِ أَكلَـفَ مُلْبِـدِ

كَـأَنَّ جنَـاحَيْ مَضْرَحِـيٍّ تَكَنَّفَـا ... حِفافيـهِ شُـكّا فِي العَسِـيبِ بِمِسْرَدِ

فَطَـوْراً بِـهِ خَلْـفَ الزّميـلِ وَتَـارَةً ... عـلى حَشَـفٍ كالشَّـنّ ذاوٍ مُجَـدَّدِ

لهـا فَخِـذَانِ أُكمِـلَ الـنَّحْضُ فـيهما ... كـأَنّهما بابـا مُنيـفٍ مُمَـرَّدِ

وَطَـــيٍّ مُحَـــالٍ كَـــالحنيّ خُلُوفُـــهُ ... وَأجْرِنَـــةٌ لُـــزَّتْ بِـــدَأْيٍ مُنَضَّـــدِ

كَـــأنّ كِنَـــاسَيْ ضَـــالَةٍ يُكْنِفانِهَـــا ... وَأَطْـــرَ قِسِيٍّ تَحْـــتَ صُـــلْبٍ مُؤَبَّـــدِ

لهـــا مِرْفَقَـــانِ أَفْـــتَلانِ كأنّهـــا ... تَمُـــرُّ بِسَـــلْمَيْ دالِـــجٍ مُتَشَـــدِّدِ

كقَنْطَـــرَةِ الرُّومِـــيّ أَقْسَـــمَ ربّهـــا ... لَتُكْتَـــنَفَنْ حتـــى تُشـــادَ بِقَرْمَـــدِ

صُـــهابِيّةُ الْعُثْنُـــونِ مُوجَـــدَةُ الْقَـــرَا ... بعيـــدةُ وَخْـــدِ الرّجْـــلِ مَـــوّارَةُ اليَـــدِ

أُمِـــرَّتْ يَـــدَاها فَتْـــلَ شَـــزْرٍ وأُجْنِحَـــتْ ... لهـــا عَضُـــداها في سَـــقيفٍ مُسَـــنَّدِ

جَنُـــوحٌ دِفَـــاقٌ عَنْـــدَلٌ ثـــمَّ أُفْرِعَـــتْ ... لهـــا كتِفَاهـــا في مُعـــالي مُصَـــعَّدِ

كـــأَنَّ عُلُـــوبَ النَّسْـــعِ في دَأَيَاتِهـــا ... مَـــوَارِدُ مـــن خَلْقـــاءَ في ظهـــرِ قَـــرْدَدِ

تَلاقَـــى وَأَحْيانـــاً تَبِـــينُ كأنّهـــا ... بَنـــائِقُ غَـــرٍّ في قَمـــيصٍ مُقَـــدَّدِ

وَأَتْلَـــغُ نَهَّـــاضٌ إذا صَـــعَّدَتْ بِـــهِ ... كسُـــكّانِ بُـــوصِيٍّ بِدْجِلَـــةَ مُصْـــعِدِ

وَجُمْجُمَـــةٌ مِثْـــلُ الْعَـــلاةِ كـــأنّما ... وَعـــى المُلتقـــى منهـــا إلى حـــرْفِ مِـــبْرَدِ

وَخَـــد كقِرْطَـــاسِ الشّـــآمي ومِشْـــفَرٌ ... كسِـــبْتِ الْـــيَماني قَـــدُّهُ لم يُجَـــرَّدِ

وَعَيْنَـــانِ كالمـــاوِيَتَيْنِ اسْـــتَكَنّتا ... بكهفَـــي حجَـــاجَي صَـــخْرَةٍ قلّـــتِ مَـــوْرِدِ

طَحـــورانِ عُـــوّارَ الْقَـــذَى فَتَراهُمـــا ... كمِكْحَلَتَـــيْ مـــذعورَةٍ أُمِّ فَرْقَـــدِ

وَصَـــادِفَتَا سَـــمْعِ التَّـــوَجُّسِ للسُّـــرى ... لِهَجْـــسٍ خَفِـــيٍّ أَوْ لِصَـــوْتٍ مُنَـــدِّدِ

مُوَلّلتـــانِ تَعْـــرِف الْعِتْـــقَ فـــيهِما ... كســـامِعَتَيْ شـــاةٍ بحَـــوْمِ المُفْـــرَدِ

وَأَرْوَعُ نَبَّـــاضٌ أَحَـــدُّ مُلَمْلَـــمٌ ... كمِـــرْداةِ صَـــخْرٍ في صَـــفِيحٍ مُصَـــمَّدِ

وَأَعْلَـــمُ مَخْـــرُوتٌ مِـــن الأَنْـــفِ مـــارِنٌ ... عَتِيـــقٌ متـــى تَـــرْجُمْ بـــه الأَرْضَ تَـــزْدِدِ

وَإِنْ شِـــئتُ لم تُرْقِـــلْ وَإِنْ شِـــئتُ أَرْقَلَـــتْ ... مَخَافَـــةَ مَلْـــوِيٍّ مِـــنَ الْقَـــدِّ مُحْصَـــدِ

وَإِنْ شئتُ سلمى وَاسطَ الكورِ رَأسهَا ... وَعامَـــتْ بضَـــبْعَيها نجـــاءَ الخَفَيْـــدَدِ

عـــلى مِثْلِهَـــا أَمْضِي إِذَا قـــالَ صـــاحبي ... أَلا لَيْتَنـــي أَفـــديكَ منهـــا وَأَفْتَـــدي

وَجاشَتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ خَوفاً وَخالَه ... مُصاباً وَلَوْ أَمْسَى على غيرِ مَرْصَدِ

إِذَا الْقَوْمُ قالوا مَنْ فَتًى خِلْتُ أَنَّني ... عُنِيتُ فلَم أَكْسَلْ وَلَمْ أَتَبَلَّدِ

أَحلْتُ عَلَيْها بالقطيع فأجذَمَت ... وَقَدْ خَبَّ آلُ الْأَمْعَزِ الْمتوَقِّد

فَذالتْ كما ذالتْ وَليدَة مَجْلِسٍ ... تُرِي رَبَّهَا أَذيالَ سَحلٍ مُمَددِ

وَلَسْتُ بِحَلاَّلِ التِّلاعِ مَخافَةً ... وَلكِنْ متى يَسْتَرْفِدِ الْقَوْمُ أَرْفِدِ

فَإِنْ تَبْغِني في حَلْقَةِ القَوْمِ تلقَني ... وَإِنْ تَلْتَمِسْني في الْحَوَانِيتِ تَصْطَدِ

وَإِنْ يَلْتَقِ الْحَيُّ الْجَمِيعُ تُلاقِني ... إِلى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشَّرِيفِ الْمُصَمَّدِ

نَدَامايَ بِيضٌ كالنجوم وَقَيْنَةٌ ... تَرُوحُ عَلَيْنَا بينَ بُرْدٍ وَمَجْسَدِ

رَحيبٌ قِطَابُ الجَيْبِ منْهَا رَقِيقةٌ ... بِجَسِّ النَّدامَى بَضَّةُ الْمُتَجَرَّدِ

إِذَا نَحْنُ قُلْنَا أَسْمِعِينا انْبَرَتْ لَنَا ... على رِسْلِها مَطْرُوقَةً لمتَشَدَّدِ

إِذَا رَجَعَتْ في صَوْتِهَا خِلْتَ صَوْتَها ... تَجاوُبَ أَظْآرٍ على رُبَعٍ رَدِ

وَمَا زالَ تَشْرابي الْخُمورَ وَلَذَّتي ... وَبَيْعِي وَإِنْفَاقي طَرِيفي وَمُتْلَدِي

إِلى أَنْ تَحامَتْني الْعَشيرَةُ كُلّهَا ... وَأُفْرِدْتُ إِفْرَادَ الْبَعِيرِ الْمُعَبَّدِ

رَأَيتُ بَنِي غَبْراء لا يُنْكِرُونَني ... وَلا أَهْلُ هذاكَ الطِّرافِ الْمُمَددِ

فَإِنْ كنتَ لا تسْتَطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتي ... فَدَعْني أبادِرْهَا بِمَا مَلَكَتْ يَدِي

ولَولا ثَلاثٌ هُنَّ من عيشةِ الْفَتى ... وَجِدِّكَ لم أَحفِلْ مَتى قامَ عُودي

فَمِنْهُنّ سَبْقِي الْعاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ ... كُمَيْتٍ متى ما تُعْلَ بالماءِ تُزْبِدِ

وَكَرِّي إِذَا نادَى الْمُضافُ مُجَنَّباً ... كَسِيدِ الْغَضا نَبَّهْتَهُ الْمتَوَرِّدِ

وَتقصيرُ يوم الدَّجنِ والدجنُ مُعجِبٌ ... بِبَهْكَنَةٍ تَحْتَ الخِباءِ الْمُعَمَّدِ

كَأَنّ الْبُرينَ وَالدَّماليجَ عُلِّقَتْ ... على عُشَرٍ أو خِروَعٍ لم يُخَضَّدِ

كَرِيمٌ يروِّي نَفْسَهُ في حَيَاتِه ... سَتَعْلَمُ إِن مُتْنا غَداً أَيّنا الصدي

أَرَى قَـــبْرَ نَحّـــامٍ بَخَيـــلٍ بِمَالـــه ... كقَـــبْرِ غـــوِيٍّ في البطالَـــةِ مُفْسِـــدِ

تَـــرَىَ جشـــوَتَيْنِ مـــن تُـــراب عَلَـــيْهِمَا ... صَـــفَائحُ صُـــمٍّ مـــن صَـــفيحٍ مُنَضَّـــدِ

أَرى المـــوت يَعْتـــامُ الكِـــرَامَ ويَصْـــطفي ... عَقِيلـــةَ مَـــالِ الْفَـــاحِشِ المُتَشَـــدِّدِ

أَرَى الْعَـــيْشَ كنـــزاً ناقصـــاً كـــلّ ليْلَـــةٍ ... وَمَـــا تَـــنْقُصِ الأَيَّـــامُ وَالـــدّهرُ يَنْفَـــدِ

لَعَمْـــرُكَ إِنّ اَلمـــوَتَ مَـــا أَخْطـــأَ الْفَتـــى ... لكَـــالطِّوَلِ المُرْخَـــى وثِنْيَـــاهُ بِاليَـــدِ

فـــمالِي أرَاني وَابْـــنَ عَمِّـــيَ مَالِكـــاً ... مَتَـــى أَدْنُ مِنْـــه يَنْـــأَ عَنِّـــي وَيَبْعُـــدِ

يَلُـــومُ ومَـــا أَدْرِي عَـــلاَمَ يَلُـــومني ... كـــما لامنـــي في الحـــيّ قُـــرْطُ بـــنُ مَعْبـــدِ

وأَيْأَسَـــني مـــن كـــل خَـــيْرٍ طَلَبْتُـــهُ ... كأَنَّـــا وَضَـــعنَاهُ إِلى رَمْـــسٍ مُلْحَـــدِ

عـــلى غَـــيْرِ شيءٍ قُلْتُـــهُ غَـــيْرَ أَنَّنـــي ... نَشَـــدْتُ فلـــم أُغْفِـــل حَمولَـــةَ مَعْبَـــدِ

وَقَرّبْـــتُ بـــالقُرْبَى وَجـــدِّكَ إِنَّنـــي ... متـــى يَـــكُ أَمْـــرٌ لِلنّكيثَـــةِ أَشْـــهَدِ

وإِنْ أُدْعَ للجُـــلَّى أَكـــنْ مِـــنْ حُماتِهـــا ... وإِنْ يَأتِـــكَ الأَعْـــدَاءُ بالجَهْـــدِ أَجْهَـــدِ

وإِنْ يَقـــذِفُوا بالقـــذعِ عِرْضَـــك أَسْـــقِهِمْ ... بكَـــأْسِ حِيَـــاضِ المـــوتِ قبـــلَ التهـــدُّدِ

بِـــلاَ حـــدَثٍ أَحْدَثْتُـــهُ وكَمُحْـــدَثٍ ... هِجـــائي وقَـــذْفي بالشَّـــكَاةِ ومُطْـــرَدِي

فَلَـــوْ كـــان مَـــوْلايَ امْـــرُأً هُـــوَ غَـــيْرَهُ ... لَفَـــرَّجَ كَـــرْبي أَوْ لأنظَـــرَني غَـــدِي

وَلكِـــنّ مَـــوْلايَ امْـــرُؤٌ هُـــوَ خـــانقي ... عـــلى الشُّـــكْرِ والتَّسْـــآل أَوْ أَنَـــا مُفْتَـــدِ

وظُلْـــمُ ذَوي الْقُرْبَـــى أَشَـــدُّ مضاضَـــةً ... عـــلى المـــرءِ مِـــن وَقْـــعِ الحســـامِ المهَنَّـــدِ

فَـــذَرْني وَخُلْقـــي إِنَّنـــي لَـــكَ شَـــاكِرٌ ... وَلَـــوْ حَـــلّ بَيْتـــي نائبـــاً عنـــد ضَرْغَـــدِ

فَلَـــوْ شَـــاءَ رَبّي كُنـــتُ قَـــيسَ بـــنَ خَالِـــدٍ ... وَلَـــوْ شَـــاءَ رَبي كُنْـــتُ عَمـــرو بـــن مَرْثَـــدِ

فأَصْـــبَحْتُ ذَا مَـــالٍ كثـــيرٍ وَزَارَني ... بَنـــونٌ كـــرامٌ ســـادَةٌ لمسَـــوَّدِ

أَنـــا الرّجُـــلُ الضَّـــرْب الـــذِي تَعْرِفُونَـــهُ ... خَشـــاشٌ كـــرَأْسِ الحيّـــة المُتوقّـــدِ

فَآليْـــتُ لا يَنْفَـــكُّ كشْـــحي بطانَـــةً ... لِعَضْـــبٍ رَقِيـــقِ الشَّـــفْرَتَيْنِ مُهَنَّـــدِ

حُسَـــامٍ إِذَا مـــا قُمـــتُ مُنتَصِـــراً بـــه ... كفـى الْعَـوْدَ منـه الْبَـدءُ لـيسَ بِمعْضَـدِ

أَخِـــي ثقَـــةٍ لا يَنْثَنـــي عَـــنْ ضَرِيبـــةٍ ... إِذَا قِيـــلَ مَهْـــلاً قـــال حـــاجِزُهُ قَـــدِي

إِذَا ابتـــدَرَ الْقَـــوْمُ السِّـــلاَحَ وَجـــدْتَني ... مَنيعـــاً إِذَا بَلّـــتْ بقَائِمِـــهِ يَـــدِي

وبَـــرْكُ هُجُـــودٍ قَـــد أَثَـــارتْ مَخَـــافتي ... بَوَادِيَهَـــا أَمشِي بِعَضْـــبٍ مُجَـــرَّدِ

فَمـــرّتْ كَهَـــاةٌ ذَاتُ خَيْـــفٍ جُلالـــةٌ ... عَقِيلَـــةُ شَـــيْخٍ كَالوَبيـــلِ يَلَنْـــدَدِ

يَقُـــولُ وقَـــدْ تَـــرّ الْوَظِيـــفُ وَسَـــاقُهَا ... أَلَســـتَ تَـــرى أَن قَـــد أَتَيْـــتَ بمؤْيِـــدِ

وقَـــالَ ألا مـــاذَا تَـــرَوْنَ بِشَـــارِبٍ ... شَـــدِيدٍ عَلَيْنـــا بَغْيُـــهُ مُتَعَمِّـــدِ

وقَـــالَ ذَرُوه إِنَّـــما نَفْعُهـــا لَـــهُ ... وإِلاّ تكُفّـــوا قـــاصيَ الْـــبَرْكِ يَـــزْدَدِ

فَظَـــلّ الْإِمـــاءُ يَمْـــتَلِلْنَ حُوَارَهَـــا ... وَيُسْـــعَى بهـــا بالسّـــديفِ المسَرْهَدِ

فـــإِنْ مِـــتُّ فـــانْعِيني بِـــما أَنَـــا أَهْلُـــه ... وَشُـــقِّي عَـــلَيَّ الجَيْـــبَ يَـــا ابْنَـــةَ مَعْبَـــدِ

وَلا تَجْعَلِينـــي كـــامرِئٍ لَـــيْسَ هَمُّـــهُ ... كهَمِّـــي وَلا يُغْنِـــي غَنـــائي ومَشْـــهَدِي

بَطِـــيءٍ عَـــن الجُـــلَّى سَرِيـــع إِلى الخَنـــا ... ذَلُـــولٍ بأَجمـــاعِ الرِّجَـــالِ مُلَهَّـــدِ

فَلـــوْ كُنْـــتُ وَغـــلاً في الرِّجـــالِ لَضَرَّنـــي ... عَـــدَاوَةُ ذِي الْأَصْـــحَابِ وَالْمُتوَحِّـــدِ

ولكِـــنْ نَفَـــى عنـــي الرِّجـــال جَـــراءَتي ... عَلَـــيْهِمْ وَإِقْـــدَامِي وَصِـــدْقِي وَمحْتَـــدِي

لَعَمْـــرُكَ مـــا أَمْـــري عَـــلَيَّ بغُمَّـــةٍ ... نَهـــاري وَلا لَـــيْلِي عَـــلَيَّ بسَرْمَـــدِ

ويَـــومٍ حَبَسْـــتُ الـــنَّفْسَ عنـــدَ عراكـــهِ ... حِفَاظـــاً عَـــلى عَوْراتِـــهِ والتَّهَـــدُّدِ

عـلى مَـوْطِنٍ يَخْشَـى الفتَـى عِنـدَهُ الـرَّدى ... متـــى تَعْـــتَرِكْ فيـــهِ الْفَـــرائِصُ تُرْعَـــدِ

وَأَصْـــفَرَ مَضْـــبُوحٍ نَظَـــرْتُ حِـــوَارَهُ ... عـــلى النـــارِ واســـتَوْدَعْتُهُ كَـــفَّ مُجْمِـــدِ

ســـتُبْدِي لـــكَ الأَيَّـــامُ مـــا كُنْـــتَ جـــاهِلاً ... وَيَأْتِيـــكَ بالْأَخْبَـــارِ مَـــنْ لَمْ تُـــزَوِّدِ

وَيَأْتِيـــكَ بالأَخْبـــارِ مَـــنْ لَمْ تَبـــعْ لَـــهُ ... بَتَاتـــاً وَلَمْ تَضْرِبْ لَـــهُ وَقْـــتَ مَوْعِـــدِ

٦ ـ لبيد بن ربيعة

لبيد بن ربيعة العامري أفضل شعراء الجاهلية والإسلام

(ألا كل شيء ما خلا الله باطل)

أصدق ما قاله الناس: محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

١- **حياته ونشأته:** ينتسب لبيد بن ربيعة إلى قبيلة هوازن قيس وهو سيد من ساداتها، ومن أصحاب المروءات الكبيرة فيها عاش قبل إسلامه سبعين عاماً أو أكثر ينساب بين البادية وأطرافها، ثم أسلم وانتقل إلى الكوفة حتى توفي سنة ٦٦١ بعد أن عمِّر نحو مئة عام أو أكثر.

٢- **شخصيته:** يعد لبيد من سادة العرب وشعرائهم الأفذاذ الذين لم يتكسبوا بشعرهم حتى جعله البعض أفضل شعراء الجاهلية والإسلام، وقد نهج في تأليف قصيدته نهجاً كاد يأخذ نفسه به أخذاً شديداً، فقد وقف بالأطلال وقفة صادقة (تحمل أهلها وحلول الوحش والظباء محلهم) وبكى الدمع مدراراً يعزيه أصحابه، ثم ينجو بناقته، وقصيدته اللامية خير من يمثل ذلك:

ألم تلملم على الدمن الخوالي لسلمى بالمذائب فالقفال

٣- **أغراض شعره:** كتب لبيد شعره في أغراض متعددة؛ كالفخر والغزل القليل ووصف الطبيعة، ولم يتكسب بشعره لكونه سيداً من سادات قومه، ومن أهم أغراضه الشعرية:

١- **الفخر.**

٢- **الغزل:** لم يتحدث لبيد عن الغزل طويلاً، ولم يشده شعر الغزل لكونه سيداً من سادات هوازن، ولكونه أحد الشعراء الحنفاء الذين تألهوا في بعض شعرهم كقوله:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

٣- **الوصف والطبيعة:** تعد معلقته المثل الأكثر وضوحاً لوصفه الطبيعة لما فيها من جدة وطرافة، فقد اتخذ من الناقة سبيلاً لوصف الغمامة الحمراء والأتان الوحشية مع حمار الوحش والبقرة الوحشية التي افترس السبع ولدها، ولم تظفر الناقة من وصفه سوى بيتين حيث ضمر

ظهرها وسنامها وبدت عارية من اللحم أتعبتها الأسفار وأعيتها رغم أنها سريعة كالسحابة الخفيفة الحمراء لا ماء فيها تدفعها ريح الجنوب ركضها كركض الأتان الوحشية. وقصيدته التي مطلعها:

طافـــت أســـيماء بالرحـــال فقـــد هـــيج منـــي خيالهـــا طربـــا

تبين مدى إحاطة لبيد بالأماكن الصحراوية وما فيها من روضات معشبة.

٤- معلقته:

معلقة لبيد بن ربيعة:

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحَلّهَا فَمُقَامُهَا ... بِمِنىً تَأَبَّدَ غَوْلُهَا فرِجَامُهَا

فَمَدافِعُ الرَّيَّانِ عُرِّيَ رَسْمُهَا ... خَلَقاً كما ضَمِنَ الوحِيُ سِلامُهَا

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِها ... حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُهَا وَحَرامُها

رُزِقَتْ مَرابِيعَ النُّجومِ وَصَابَها ... وَدْقُ الرَّوعِدِ جَوْدُهَا فَرِهَامُها

مِنْ كُلِّ سارِيَةٍ وغَادٍ مُدْجِنٍ ... وَعَشِيَّةٍ مُتَجَاوِب إِرزَامُهَا

فَعَلا فُرُوعُ الأَيْهَقانِ وَأَطْفَلَتْ ... بالجلْهَتَيْنِ ظِباؤُها وَنَعامُها

وَالْعَيْنُ ساكِنَةٌ على أَطْلائِها ... عُوذاً تَأَجَّلُ بالفَضاءِ بِهامُها

وَجَلا السّيُولُ عَنِ الْطّلولِ كأنّها ... زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أَقْلامُها

أَوْ رَجْعُ وَاشِمَةٍ أُسِفَّ نَؤورهُا ... كِفَفاً تَعَرَّضَ فَوْقَهُنَّ وَشامُها

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُها وَكيفَ سُؤالُنا ... صُمّاً خَوَالِدَ ما يَبِينُ كلامُها

عَرِيَتْ وكانَ بها الجمِيعُ فَأَبْكَرُوا ... مِنْها وَغُودِرَ نُؤْيُها وَثُمامُها

شَاقَتْكَ ظُعْنُ الحَيِّ حينَ تَحَمَّلوا ... فتكَنَّسوا قُطُناً تَصِرُّ خِيَامُها

مِنْ كلّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ ... زَوْجٌ عَلَيْه كِلَّةٌ وَقِرَامُها

زُجُلاً كأَنَّ نِعَاجَ تُوضِحَ فَوْقَها ... وَظِبَاءَ وَجْرَةَ عُطَّفاً أَرْآمُها

حُفِزَتْ وَزَايَلَها السَّرَابُ كأنها ... أَجْرَاعُ بِيشَةَ أَثْلُها وَرِضَامُها

بَلْ مَا تَذَكّرُ مِنْ نَوَار وَقَدْ نَأَتْ ... وَتَقَصَّعَتْ أَسْبَابُها وَرِمَامُها

مُرِّيَّةٌ حَلّتْ بِفَيْدَ وَجَاوَرَتْ ... أَهْلَ الْحِجَارِ فأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُها

بِمشَارِق الجُبَلَيْنِ أَوْ بِمُحَجَّر ... فَتَضَمَّنَتْها فَرْدَةٌ فَرُخَامُهَا

فَصُوَائِقٌ إِنْ أَيْمَنَتْ فِمظَنَّةٌ ... فبها وَحَافُ الْقَهْرِ أَوْ طِلْخَامُها

فَـاقْطَعْ لُبَانَـةَ مَـن تَعَـرَّضَ وَصْـلُهُ ... وَلشَرُّ ـــ واصِـلِ خُلَّـةٍ صَرَّامُهَـا

وَاحْـبُ المجَامِـلَ بالجزيـلِ وَصَرْمُـهُ ... بـاقٍ إِذَا ظَلَعَـتْ وَزَاغَ قِوامُهَـا

بِطَلِـيحِ أَسْـفَارٍ تَـرَكْنَ بَقِيَّـةً ... مِنْهـا فَـأَحْنَقَ صُـلْبُهَا وَسَـنامُهَا

وَإِذَا تَغَـالَى لَحْمُهَـا وَتَحَسَّرَـتْ ... وَتَقَطَّعَـتْ بَعْـدَ الكَـلالِ خِـدَامُهَا

فَلَهَـا هِبَـابٌ فِي الزِّمَـامِ كأَنَّهَـا ... صَـهْبَاءُ خَـفَّ مَـعَ الجُنُـوبِ جِهَامُهَـا

أَوْ مُلْمِـعٌ وَسَـقَتْ لأَحْقَـبَ لاَحَـهُ ... طَـرْدُ الْفُحُـولِ وَضَرْبُهَـا وَكِـدامُهَا

يَعْلُـو بِهَـا حَـدَبَ الإِكَـامِ مُسَـتْحَجٌ ... قَـدْ رَابَـهُ عِصْـيَانُهَا وَوِحامُهَـا

بِـأَجِزَّةِ الثَّلَبُـوتِ يَرْبَـأُ فَوْقَهَـا ... قَفْـرَ المراقِـبِ خَوْفُهَـا آرَامُهَـا

حَتَّـى إِذَا سَـلَخَا جُمَـادَى سِـتَّةً ... جَـزءاً فَطَـالَ صِـيَامُهُ وَصِـيَامُهَا

رَجَعَـا بِأَمْرِهِمَـا إلى ذِي مِـرَّةٍ ... حَصِـدٍ وَنُجْـعُ صَرِيَمـةٍ إِبْرَامُهَـا

وَرَمَـى دَوابِرَهَـا السَّـفَا وَتَهَيَّجَـتْ ... رِيـحُ المصَـايِفِ سَـوْمُهَا وَسِـهامُهَا

فَتَنَازَعَـا سَـبِطاً يَطِـيرُ ظِلالُـهُ ... كَـدُخَانِ مُشْـعَلَةً يُشَـبُّ ضِرامُهَـا

مَشْـمُولَةٍ غُلِثَـتْ بِنَابِـتِ عَـرْفَجٍ ... كَـدُخَانِ نـارٍ سـاطِعٍ أَسْـنَامُهَا

فَمضَى ـــ وَقَـدَّمَهَا وكانَـتْ عـادَةً ... مِنْـهُ إِذَا هِـيَ عَـرَّدَتْ إِقْـدَامُهَا

فَتَوَسَّـطا عُـرْضَ السَّرِـيِّ وَصَـدَّعَا ... مَسْـجُورَةً مُتَجَـاوِراً قُلامهـا

مَحْفُوفَـةً وَسْـطَ الْـيَرَاعِ يُظِلُّهَـا ... مِنْـهُ مُصَرَّـعُ غابَـةٍ وَقِيَامُهـا

أَفَتِلْـكَ أَمْ وَحشِـيَّةٌ مَسْـبُوعَةٌ ... خَـذَلَتْ وَهَادِيَـةُ الصِّـوَارِ قِوامُهَـا

خَنْسَـاءُ ضَـيَّعَتِ الْفَرِيـرَ فَلَـمْ يَـرِمْ ... عُـرْضَ الشَّـقَائِقِ طَوْفُهَـا وَبُغَامُهَـا

لِعَفَّـرٍ قَهْـدٍ تَنَـازَعُ شِـلْوَهُ ... غُـبْسٌ كَواسِـبُ لا يُمَـنَّ طَعامُهـا

صَـادَفْنَ منهَـا غِـرَّةً فَأَصَـبْنَهَا ... إِنَّ المنايَـا لا تَطِـيشُ سِـهَامُها

بَاتَـتْ وَأَسْـبَلَ وَاكِـفٌ مـن دِيَمـةٍ ... يُـرْوِي الخَمائِـلَ دائِـماً تَسْـجَامُها

يَعْلُـــو طَرِيقَـــةَ مَتْنِهَـــا مُتَـــوَاتِرٌ ... فِي لَيْلَـــةٍ كَفَـــرَ النُّجُـــومَ غَمَامُهـــا

تَجتَـــافُ أَصْـــلاً قالِصـــاً مُتَنَبِّـــذاً ... بعُجُـــوبِ أَنْقَـــاءِ يَميـــلُ هُيامُهـــا

وَتُضِيـــءُ فِي وَجْـــهِ الظَّـــلامِ مُنِـــيرَةً ... كَجُمَانَـــةِ الْبَحْـــرِيِّ سُـــلَّ نِظامهـــا

حَتَّـــى إِذَا انْحَسَرَ الظـــلامُ وَأَسْـــفَرَتْ ... بَكَـــرَتْ تَـــزِلُّ عَـــنِ الثَّـــرَى أَزْلاَمُهـــا

عَلِهَـــتْ تَـــرَدَّدُ فِي نِهَـــاءِ صُـــعَائِدٍ ... سَـــبْعاً تُؤامـــاً كـــاملاً أَيَّامُهـــا

حتـــى إِذا يَئِسَـــتْ وأَسْـــحَقَ خَـــالِقٌ ... لم يُبْلِـــهِ إِرْضَـــاعُها وَفِطامُهـــا

فَتَوَّجســـتْ رِزَّ الأَنِـــيسِ فَراعَهـــا ... عـــنْ ظَهْـــرِ غَيْـــبٍ وَالأَنِـــيسُ ســـقامُها

فَغَـــدَتْ كِـــلا الْفَـــرْجَيْنِ تَحْسَـــبُ أَنَّـــهُ ... مُـــوْلى المخَافَـــةِ خَلْفُهَـــا وَأَمَامُهـــا

حتـــى إِذا يَـــئِسَ الرُّمَـــاةُ وَأَرْسَـــلُوا ... غُضْـــفاً دَوَاجِـــنَ قـــافِلاً أعْصـــامُها

فَلَحِقْـــنَ وَاعْتَكَـــرَتْ لهـــا مَدْرِيَّـــةٌ ... كالسَّـــمْهَرِيَّةِ حَـــدُّهَا وَتَمَامُهـــا

لِتَـــذُودَهُنَّ وَأَيْقَنَـــتْ إِنْ لم تُـــذُدْ ... أَنْ قَـــدْ أَحَـــمَّ مِـــنَ الْحُتُـــوفِ حِمامُهـــا

فَتَقَصَّـــدَتْ مِنْهَـــا كَسَـــابِ فَضُرِّجَـــتْ ... بِـــدَمٍ وَغُـــودِرَ فِي المكَـــرِّ سُـــخَامُها

فَبِتِلْـــكَ إِذْ رَقَـــصَ اللَّوَامِـــعُ بالضُّـــحى ... وَاجْتَـــابَ أَرْدِيَـــةَ السَّـــرابِ إِكامُهَـــا

أَقْضِي اللُّبَانَـــةَ لا أُفَـــرِّطُ رِيبَـــةً ... أَوْ أَنْ يَلُـــومَ بحاجَـــةٍ لَوَّامُهـــا

أَوَ لَمْ تَكُـــنْ تَـــدْرِي نَـــوَارُ بـــأَنَّني ... وَصَّـــالُ عَقْـــدِ حَبَائِـــلٍ جَـــذَّامُها

تَـــرَّاكُ أَمْكِنَـــةٍ إِذا لم أَرْضَـــها ... أَوْ يَعْتَلِـــقْ بَعْـــضَ النُّفُـــوسِ حِمَامُهـــا

بـــلْ أَنْـــتِ لا تَـــدْرِينُ كَـــمْ مِـــن لَيْلَـــةٍ ... طَلْـــقٍ لَذِيـــذٍ لَهْوُهَـــا وَنِـــدَامُهَا

قَـــدْ بِـــتُّ ســـامِرَها وَغَايَـــةَ تـــاجِرٍ ... وَافَيْـــتُ إِذْ رُفِعَـــتْ وعَـــزَّ مُـــدَامُها

أُغْـــلِي السِّـــباءَ بكُـــلِّ أَدْكَـــنَ عـــاتِقٍ ... أَوْ جَوْنَـــةٍ قُـــدِحَتْ وَفُـــضَّ خِتامُهـــا

بِصَـــبُوحِ صَـــافِيَةٍ وَجَـــذْبٍ كَرِينَـــةٍ ... بِمُـــوَتَّرٍ تَأْتَالُـــهُ إِبْهَامُهـــا

بـــاكَرْتُ حاجَتَهـــا الـــدَّجَاجَ بِسُـــحْرَةٍ ... لأعَـــلَّ مِنهَـــا حـــينَ هَـــبَّ نِيامُهـــا

وَغَـــدَاةَ رِيـــحٍ قَـــدْ وَزَعْـــتُ وقِـــرَّةٍ ... قـــد أَصْـــبَحَتْ بيَـــدِ الشَّـــمالِ زِمامُهـــا

وَلَقَـــدْ حَمَيْـــتُ الحَـــيَّ تَحْمِـــلُ شِـــكَّتي ... فُـــرْطٌ وِشـــاحي إِذْ غَـــدَوْتُ لِحامُهـــا

فَعَلَـــوْتُ مُرْتَقِبـــاً عـــلى ذِي هَبْـــوَةٍ ... حَـــــرْجٍ الى أَعْلامِهِـــــنَّ قَتامُهـــــا

حتّـــى إِذا أَلْقَـــتْ يَـــداً في كـــافِرٍ ... وَأَجَـــنَّ عَـــوْراتِ الثُّغـــورِ ظَلامُهـــا

أَسْـــهَلْتُ وَانْتَصَـــبَت كَجِـــذْعِ مُنِيفَـــةٍ ... جَـــرْداءَ يَحْصَرُ دُونَهـــا جُرَّامُهـــا

رَفّعْتُهـــا طَـــرْدَ النّعـــامِ وَشَـــلهُ ... حتّـــى إِذا سَـــخِنَتْ وَخَـــفّ عِظامُهـــا

قَلِقَـــتْ رِحالَتُهـــا وَأَسْـــبَلَ نَحْرُهـــا ... وَابْتَـــلَّ مِـــن زَبَـــدِ الحَمِـــيمِ حزَامُهـــا

تَرْقَـــى وَتَطْعَـــنُ في الْعِنـــانِ وَتَنْتَحِـــي ... ورْدَ الحُمامَـــــةِ إِذْ أَجَـــــدَّ حمامُهـــــا

وَكَثِـــــيرَةٍ غُرباؤُهـــــا مَجْوُلَـــــةٍ ... تُرْجَـــى نَوَافِلُهـــا ويُخْشـــى ذَامُهـــا

غُلْـــبٍ تَشَـــذَّرُ بالـــدُّخولِ كأنّهـــا ... جِـــنُّ الْبَـــدِيِّ رَواســـيا أقْـــدَامُها

أَنْكَـــرْتُ باطِلَهـــا وُبـــؤْتُ بِحَقِّهـــا ... عِنـــدِي ولم يَفْخَـــرْ عَـــلَيَّ كِرامُهـــا

وَجـــزُورِ أَيْســـارٍ دَعَـــوْتُ لِحَتْفِهـــا ... بِمَغَـــالِقٍ مُتَشـــابِهٍ أَجْســـامُها

أَدْعُـــو بِهِـــنَّ لِعَـــاقِرٍ أَوْ مُطْفِـــلٍ ... بُـــذِلَت لجـــيرانِ الجميـــعِ لِحامُهـــا

فَالضَّـــيْفُ وَالجـــارُ الجَنِيـــبُ كَـــأَنَّما ... هَبَطَـــا تَبالَـــةَ مُخْصِـــباً أَهْضـــامُها

تـــأوِي إِلى الأَطْنـــابِ كـــلُّ رِذِيَّـــةٍ ... مِثْـــلِ الْبَلِيَّـــةِ قـــالِصٌ أَهْـــدامُها

وُيكَلِّلـــونَ إِذَا الرِّيَـــاحُ تَناوَحـــتْ ... خُلُجـــاً تُمَـــدُّ شَـــوارِعاً أَيْتامُهـــا

إِنّـــا إِذا الْتَقَـــتِ المجـــامِعُ لَمْ يَـــزلْ ... مِنّـــا لـــزازُ عَظِيمَـــةٍ جَشَّـــامُها

وُمقَسِّـــمٌ يُعْطِـــي الْعشِـــيرةَ حَقَّهـــا ... ومُغَـــذْمِرٌ لِحُقُوقِهـــا هَضّـــامُها

فَضـــلاً وذُو كـــرمٍ يُعِـــينُ عـــلى النَّـــدى ... سَـــمْحٌ كَسُـــوبُ رَغائِـــبٍ غَنّامُهـــا

مِـــنْ مَعْشَـــرٍ سَـــنَّتْ لهُـــمْ آبـــاؤهُمْ ... ولِكُـــلِّ قَـــوْمٍ سُـــنّةٌ وإِمامُهـــا

لا يَطْبَعُـــون ولا يَبُـــورُ فَعـــالُهُمْ ... إِذْ لا يَميـــلُ مَـــعَ الْهَـــوى أَحْلامُهـــا

فَـــاقْنَعْ بـــما قَسَـــمَ المَلِيـــكُ فـــإِنّما قَسَـــمَ الخلائِـــق بَيْنَنـــا عَلاّمهـــا

وَإِذا الأَمانـــةُ قُسِّـــمَتْ في مَعْشَـــر أَوْفَى بِـــأَوْفَرِ حَظّنـــا قَسّـــامُها

فَبَنَـــى لَنـــا بَيْتـــاً رَفِيعـــاً سَـــمْكُهُ فَسَـــما إِلَيْـــهِ كَهْلُهـــا وغُلامُهـــا

وهُـــمُ السّـــعاةُ إِذَا الْعَشـــيرَةُ أُفْظِعَـــتْ وهُـــمُ فَوارِسُـــها وَهُـــمْ حُكّامُهـــا

وهُـــمُ رَبيـــعٌ لِلْمُجـــاوِرِ فِـــيهِمُ والمـــرْمِلاتِ إِذا تَطـــاوَلَ عامُهـــا

وهُـــمُ الْعَشِـــيرَةُ أَنْ يُبَطِّـــئ حاسِـــدٌ أَوْ أَنْ يَميـــلَ مَـــعَ الْعَـــدُوِّ لِئَامُهـــا

٧ ـ عروة بن الورد

أ ـ حياته ونشأته:

ينتسب عروة بن الورد إلى قبيلة عبس، ويعد والده من أشراف القبيلة وشجعانها وكذلك كان عروة نفسه. أما أمه فتنتسب إلى قضاعة، وقد امتهن عروة الصعلكة واعتبر زعيماً شعبياً للصعاليك لرعايته لهم ومساعدته إياهم في المواقف الضنكة؛ إذ إنه يمتلك نفساً أبية تحمل الطوابع الإنسانية، وقد تزوج من امرأة اسمها سلمى كان قد سباها في إحدى غزواته. توفي عروة في العام السابع قبل الهجرة.

ب ـ جوانب شخصيته:

أثّر في شخصية عروة عاملان رئيسيان دفعاه إلى الصعلكة:

١ - مكانة أمه من قبيلة قضاعة التي كانت أقلّ شرفاً من قبيلة عبس؛ إذ إن الشاعر كان يحس بالعار من خلال انتساب أمه إلى نهد قضاعة:

وما فيّ من عار إخال علمته سوى أن أخوالي إذا نسبوا نهد

٢- الواقع الاجتماعي الذي عاشه الجاهليون الذي يميز الإنسان عن أخيه الانسان، ويعطي صفات لأناس دون أناس تبعاً للقبيلة أو للمال؛ إذ إن ذلك دفع قسماً من الشعراء إلى الخروج عن التبعية للقبيلة وامتهان الصعلكة كرد فعل على هذا الواقع وعروة كان صعلوكاً قائداً لجماعته لم يمتهن الصعلكة فقراً، وإنما نقمة على واقعه.

ج ـ شعره:

تميز شعر عروة بالأنفة والكبرياء فهو مغامر لا يثنيه عن هدفه شيء ما، وهو مجسد للفقر بصوره البشعة تجسيداً رائعاً وهو في الوقت نفسه إنساني اجتماعي، بطبعه يميل إلى مشاركته الناس في طعامه، يقول عروة في معلقته واصفاً الفقر في نفوس أهله ومخاطباً زوجته التي كانت تقف حائلاً بينه وبين السفر وتركها:

ذريني أطوف في البلاد لعلني أخليك أو أغنيك عن سوء محضري

ذريني للغنى أسعى فإنـي رأيت النـاس شرهـم الفقيـر

ويقول أيضاً واصفاً حياة الصعاليك:

لحـى الله صـعلوكاً إذا جـنّ ليلـه مضى في المشـاش آلفـاً كـلّ مجـزر

يعـد الغنـى مـن نفسـه كـل ليلـة أصـاب قراهـا مـن صـديق ميسر

ينـام عشـاء ثـم يصـبح طاويـاً يحـث الحصى عـن جنبـه المتعفـر

قليـل الـتماس الـزاد إلا لنفسـه إذا هـو أمسـى كـالعريش المجـور

يعـين نسـاء الحـي مـا يسـتعنَّه ويمسي طليحـاً كـالبعير المحسر

ويبدو أن المشاركة الاجتماعية كانت من صفاته؛ إذ إنه كان يفتخر بأن طعامه مقدم للناس جميعاً، يقول:

إني امـرؤ عـافي إنـائي شركـة وأنـت امـرؤ عافـي إنائـك واحـد

أقسـم جسـمي في جسـوم كثـيرة وأحسـو قـراح المـاء والمـاء بـارد

وقد أعجب عبد الملك بن مروان بعروة وتمنى أن يكون من نسله، كما أن معاوية تمنى أن يكون لعروة ذرية حتى يتزوج إليهم.

٨ ـ زهير بن أبي سلمى
الشاعر الحكيم

أ ـ حياته ونشأته:

ينتهي نسب زهير إلى مُزينة، ولد عام (٥٣٠) م، في أرض نجدٍ ومات أبوه وهو طفل، فتزوّجت أمّه الشاعر المعروف أوس بن حَجر، فتتلمذ على يديه في الشعر، وكان راويةً له. وتوفي عام (٦٢٧)م عن عمر يناهز(٩٧) سنة.

وزهير سليل أسرة اجتمع فيها الشعر، فأبوه شاعر، وأختاه سلمى والخنساء شاعرتان، وابناه كعب وبُجير وحفيده عُقبة من الشعراء، أمّا خاله بشامة بن الغدير فكان شاعر مضر في زمانه. وقد شهد حرب داحس والغبراء، وآله ما سُفكَ فيها من دماء بين قبيلتي عبس وذبيان، واهتزّ لأريحية السيّدين اللذين سعيا في إنهائها وهما هرِم بن سِنان والحارث بن عوف، واحتملا من مالهما الخاص ديات القتلى من الطرفين فبلغت ثلاثة آلاف بعير. عمِّر زهير طويلاً، وتوفي قبل البعثة النبوية، أي قبل ٦١٠م.

ب ـ شخصيته:

تميزت شخصية زهير بالاتزان والرصانة والحكمة ساعده على ذلك تلقيه الشعر من خاله بشامة بن الغدير وزوج أمه أوس بن حجر، إضافة إلى امتلاكه عقلاً راجحاً جعله يتبوأ منزلة عالية مع أسياد القبائل، يدعو إلى الخير والصلاح، ويعتقد أنه كان من الشعراء المتألهين: "الذين يدينون بالحنيفية السمحاء دين إبراهيم الخليل عليه السلام"، كما أن شخصيته الرزينة جعلته متعففاً. وأبرز ما في شخصية زهير مدحه غير المتكسب، وأنه كما قال فيه عمر بن الخطاب: "لا يقول بالرجل إلا بما فيه ".

ج ـ شاعريته:

يعدّ النقاد زهيراً من أبرز شعراء الجاهلية، قال فيه عمر بن الخطاب: "هو شاعر الشعراء؛ لأنّه لا يعاظل في الكلام (أي لا يداخل فيه ويُعقّد) وكان يتجنّب حوشيّه، ولم يمدح أحداً إلا بما فيه".

برز في الوصف أيضاً، ورسم بيئته معتمداً على دقة ملاحظته، وحُسنِ تبويبه، وتمثّل الواقع الحسيّ المحيط به. وغزله تقليدي، يرد في مطالع قصائده جرياً على عادة الجاهليين. ويبدو في حكمته رجل العقل والخبرة التي غذتها تجارب الحياة وطول العمرِ.

عرف عنه أنه كان يُنقّح شعره ويهذّبه قبل أن يعلنه للناس، شأنه شأن أستاذه أوس بن حجر، حتى سُميت قصائده "الحوليّات" لأنه كان يقضي حولاً كاملاً في تجويدها وتنقيحها وعرضها على أصحاب الخبرة بالشعر.

د ـ معلقته:

تعد معلقة زهير من المعلقات "المصمتات" التي أثرت وحفظت من قبل العرب لذكرها أمرين مهمين:

الأول: ذكر الصلح بين قبيلتي عبس وذبيان بعد حرب داحس والغبراء، وما أداه سيدا بني مرّة هرم بن سنان والحارث بن عوف من ديات القتلى التي بلغت ثلاثة آلاف بعير.

الثاني: ما اشتملت عليه هذه المعلقة من حكم جليلة وآراء صائبة وضحت فلسفة العرب في جاهليتهم، ووصفت حياتهم وطريقة عيشهم.

أقسام المعلقة:

١- الوقوف على الأطلال.

٢- وصف مشاهد التحمل والارتحال.

٣- المديح.

٤- وصف الحرب وويلاتها.

٥- الحكم والأمثال.

١ـ الوقوف على الأطلال:

أمـــن أم أوفـــى دمنـــة لـــم تكلـــم بحـومانـــــة الـــــدراج فالمتثلـــــم

ودار لـــــها بـــــالرقمتين كأنـــــها مراجـــع وشـــم فـــي نـــواشر معصـــم

بهـــا العـــين والآرام يمشـــين خلفـــــة وأطلاؤهـــا ينهضـــــن مـــن كـــل مجـــثم
وقفـــت بهـــا مـــن بعـــد عشرـــين حجـــة فلأيـــاً عـــــرفت الـــــدار بعـــــد تـــوهم
فلـــما عرفـــت الـــدار قلـــت لربعـــــها ألا عـــم صـــباحاً أيهـــا الربـــع واسلـــم

المقدمة الطللية: ترمز عند الشاعر زهير إلى الماضي المحبب لديه خاصة وأنه يتحدث عن زوجته السابقة أم أوفى التي طلقها وبقي متعلقاً بها. إنها ترمز إلى حياة العرب المتنقلة، وما يحدثه ذلك التنقل من فراغ في النفس يبعث الحزن والشجا، ومن هنا كان الشعر الجاهلي عاطفياً وجدانياً تتمحور عاطفته في الجانب الإنساني، إن ما رآه الشاعر في تلك الديار المقفرة ليعيد إليه صورة البقر الوحشي والظباء وأولادها اللواتي كنَّ يبعثن الحركة والحياة في النفس والوجود، والتي تحولت بعد ذلك إلى بقايا حجارة سوداء تذكر بمراجل الطبخ التي لا يكاد يميزها الشاعر إلا بصعوبة كبيرة، والصور والأخيلة في هذه المقدمة تبدو صادقة؛ لأنها تعبر عن واقع عاشه الشاعر، وأبرزه لنا بصورته الصحيحة.

٢ ـ وصف مشاهد التحمل والارتحال:

تبصرـ خلـيلي هـل تـرى مـن ظعـائن تحملـن بالعليـاء مـن فـوق جـرثم
جعلـن القنـان عـن يمـين وحـزنـه وكـم بالقنـان مـن محـل ومحـرم
علـــون بأنمـــاط عتـــاق وكلّـــة وراد حواشـــيها مشـــاكهة الـــدم
ظهـرن مـن السـوبان ثـم جزعنـه علـى كـلّ قينـي قشـيب ومفـأم
وورّكـن في السـوبان يعلـون متنـه عليهـن دلّ الناعـم المتـنعم
كـأن فتـات العهـن فـي كـل منـزل نـزلن بـه حـبّ الفنـا لم يحطـم
بكـرن بكـوراً واسـتحرن بسـحرة فهـن ووادي الـرس كاليـد للفـم
فلمـا وردن المـاء زرقـاً جمامـه وضـعن عصيـ الحـاضر المتخـيم
وفـيهن ملـهى للطيـف ومنظـر أنيـق لـعين النـاظر المتـوسم

مستويات النص عند زهير:

١- المستوى المعنوي للأبيات:

الشاعر استقى معانيه من البيئة المحيطة به، وهي معاني ليست جديدة، ولا تحتاج إلى إعمال الفكر من أجل فهمها، وهي شريفة لأن العقل الصحيح والمنطق السليم لا ينفر منها؛ ذلك أنه لم يتعرض في معانيه للمرأة مباشرة، بل وصفها من خلال صورة متكاملة، وليست مرتبطة بالمغامرات كما عند طرفة وامرئ القيس.

٢- المستوى العاطفي والخيالي:

بدت عاطفة الشاعر عاطفة حب تنطلق من ذاته وتعبر عن مكنونات نفسه، وهي عاطفة صادقة؛ لأنها تعبر عن غريزة إنسانية شريفة، وتنظر للمرأة على أنها عنصر جمالي وروحي في هذه الطبيعة.

وصوّر الشاعر ثياب النسوة المرتحلات باللون الأحمر وجعل فتات العهن أيضاً بهذا اللون، كما صور مكانهن من وادي الرس كمكان اليد من الفم، وصوره بدت روحية لا جسدية تشكل هذه الصورة لوحة فنية وهي تهتم بالجزئيات وتتصف بالواقعية؛ لأنها عبرت بأسلوب التشبيه عن واقع صورة من صور الارتحال العربي.

٣- المستوى الأسلوبي للأبيات:

بدت ألفاظ الشاعر جزلة لأن حروف كلماته تملأ الفم (اللام، الميم، الكاف، القاف...) وهي مستقاة من الواقع الصحراوي الذي يرمز إلى صعوبة الكلمات، ومع ذلك فقد خدمت هذه الألفاظ معاني الشاعر وعبرت عن مكنونات نفسه، واللغة عند الشاعر موجزة، وهي لغة تعبيرية وتصويرية في جوانب أخرى، ولهذه الألفاظ طاقة موسيقية تريح الأذن عند سماعها. أما التراكيب فقد غلب على جملها الطابع الخبري، وهي في معظمها قصيرة الطول رسمت معاني وعواطف الشاعر بشكل دقيق.

٣ ـ وصف الحرب:

وَمَا الحَرْبُ إِلا مَا عَلِمْتُم وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُو عَنْهَا بالحَديثِ المُرَجَّمِ

مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَميمَةً ... وَتَضْرَ إِذا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرَم

فَتَعْـــرُكُكُم عـــرْكَ الرّحـــى بثِقالهـــا وَتَلْقَـــحْ كِشَـــافاً ثـــمَّ تُنْـــتَجْ فَتُتْـــئِمِ
فَتُنْـــتِجْ لَكُـــمْ غلْـــمانَ أَشـــأَمَ كلّهـــمْ كـــأَحْمَرِ عـــادٍ ثـــمَّ تُرْضِـــعْ فَـــتَفْطِمِ
فتُغْلِـــلْ لكُـــمْ مَـــا لا تُغِـــلُّ لأَهْلِهَـــا قُـــرًى بـــالعرَاقِ مـــن قَفِيـــزٍ وَدِرْهَـــمِ

المستوى المعنوي للأبيات:

وصف الحرب بأنها آلة تقتل الناس وتترك أولادهم ضعافاً هزالاً، وأن قيام الحرب لم تكن برأي حصين بن ضمضم فقد ستر ما عرفه عن حقيقة تلك الحرب، ولـم يقتل ذلك العبسي إلا بمفرده وهي معاني شريفة أراد الشاعـر منها أن ينفر مـن حالة الحـرب، وأن يبعد شبح الحرب عن قبيلتي عبس وذبيان، والعقل السليم يقبل بما أشار إليه زهير.

المستوى العاطفي للأبيات:

حملت أبيات الشاعر إنسانية مفعمة بالمحبة والشفقة على فناء أهل القبيلتين، وعلى ما يحدث لأبنائهم من تشرد ووصف. وهـي عاطفة صادقة لأن الشاعـر وصف الحرب وصفاً واقعياً.

المستوى الخيالي والتصويري للأبيات:

اكتظت الأبيات بالاستعارات التي أبرزت المعاني بشكلها المعبر واللافت للانتباه، فالحرب نار تحرق ورحى تطحن وتعـرك وناقة تحمل توأمين وناقة تنتج غلمـان الشؤم، وهـي أرض تغل بالقتلى كما أن الرجـل الذي قتله حصين بن ضمضم يشبه الأسد واستعمل كناية أم قشعم، وبذلك بدا الخيال عند الشاعر آلة تصوير حساسة تلتقط أدق الصور الواقعية التي تجعل النفس تتقزز ذكر الحرب.

المستوى الأسلوبي للأبيات:

نظـراً لكـون زهير أحـد أركان المدرسة الأوسية التـي تعتمـد المحاككة فـي الشعر واختيار الألفاظ المعبـرة الجزلة، فقد كانت ألفاظه خادمة للمعاني بحيث جعل الحرب طعاماً يذاق وصفه تذم، ونادراً ما تحس حرارتها. وهـي ألفاظ جزلة الحروف (اللام، الميم، الكاف، القاف)ـ (ذقتم، تعرككم، تلقح ـ تضلل ـ ضمضم).

أما تراكيبه فقد كانت متناوبة بين الطول والقصر، فمن التراكيب القصيرة (تلقح كشافاً، ترضع، تفطم) ومن التراكيب الطويلة (إذا طلعت إحدى الليالي بمعظم).

٣ ـ الحكمة والأمثال:

سَئِمْتُ تَكالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمانِينَ حَولاً لا أَبا لَكِ يَسأمِ

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلكِنَّنِي عن عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

رَأَيْتُ المنايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَن تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمِنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمَنْ لم يُصانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ

وَمَنْ يَجْعل المعْروفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضلِهِ ... على قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عنْهُ وَيُذْمَمِ

وَمَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ وَمن يُهدَ قلبُهُ ... إِلى مُطْمَئِنِّ الْبِرِّ لا يَتَجَمْجمِ

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وَمَن يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجاجِ فإِنَّهُ ... يُطيعُ الْعَوالِي رُكِّبَتْ كلَّ لُهْذَمِ

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظلمِ النّاسَ يُظلَمِ

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عدُوّاً صَدِيقَهُ ... وَمَنْ لَمْ يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لم يكَرَّمِ

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى على النّاسِ تُعْلَمِ

وكائنْ تَرَى من صامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلّمِ

لسانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فؤَادُهُ ... فلَمْ يَبْقَ إِلا صورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

وَإِنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ ... وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ

سَأَلْنا فَأَعْطَيْتُمْ وَعُدْنَا فَعُدْتُم ... وَمَنْ أَكْثَرَ التّسآلَ يوماً سَيُحْرَمِ

لعلّ كون زهير من الشعراء الحنفاء جعله يبثّ حكمته في ثنايا شعره، ويدعو المتلقين لشعره في قبيلته وبين القبائل الأخرى إلى التعقل والتأني والصبر، وأخذ الأمور بموازين الرضا بالأقدار ومصانعة الناس وإظهار القوة والشجاعة والتجلد.

يقول زهير في وصف القضاء والقدر:

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن طال أسباب السماء بسلم

ويقول في وصف ضرورة مداراة الناس ومجاملتهم والتعاون معهم:

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضّرس بأنياب ويوطأ بمنسم

ويقول زهير في وصف دور الشجاعة والقوة والدفاع عن النفس والقبيلة:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلم

وقد تميزت حكمة زهير بأنها مستقاة من التجربة الواقعية، وليس من الخلفية الفلسفية، ومن هنا أعجب عمر بن الخطاب بزهير، وخاصة بيته القائل:

وإنّ الحقّ مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء

هـ ـ صنعة زهير الشعرية:

يعد زهير من أبرز شعراء الصنعة في العصر الجاهلي. فقد كان يأخذ شعره بالثّقاف والتنقيح والصقل. وكأنه يفحص ويمتحن ويجرّب كل قطعة من قطع نماذجه، فهو يعني بتحضير مواده، ومن يتتبع القدماء في درسهم له يجدهم يلاحظون أنه خرج من مدرسة شعرية؛ إذ كان زوج أمه أوسُ بن حجر شاعراً. وكذلك كانت أخته شاعرة. وكان ابنه كعب شاعراً مشهوراً، وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصيدة معروفة. ولكعب أخ يسمى بجيراً كان شاعراً أيضاً، وإذا استمررنا وجدنا لكعب أبناء وأحفاداً من الشعراء. وتتفق الروايات على أن الحطيئة كان راوية لزهير. وأن هدبة كان راوية للحطيئة. وأن جميلاً كان راوية لهدبة، وأن كثيراً كان راوية لجميل. إذن فنحن أمام مدرسة في الشعر أستاذها زهير وتلامذتها جماعة. تارة يكونون من أهل بيته. وتارة لا يكونون. وهي مدرسة تتميز بما يلي:

١ ـ تعتمد على الأناة والرويّة.

٢ ـ تقاوم الطبع والاندفاع في قول الشعر مع السجية.

٣ ـ كثر عندها التشبيه، والمجاز والاستعارة.

٤ ـ اتكأت في وصفها على التصوير المادي.

٥ ـ أن يأخذ الشاعر نفسه بالتجويد والتصفية والتنقيح، ثم التأليف.

٦ ـ تعنى بتحقيق صوره لا بمتراكمها.

٧ ـ يعمد إلى تفصيل الصورة وتمثيلها.

تنازعهـــا المهـــا شـــبها ودرّ النُّـــ حـــور وشـــاكهت فيهـــا الظبـــاءُ

فأمـــا مـــا فويـــق العقـــد منهـــا فمـــن أدمـــاءَ مرتعُهـــا الخَـــلاء

وأمـــا المقلتـــان فـمـــن مـهـــاة وللـــدّرّ الملاحـــةُ والصفـــاء

ولم يكتف بأن يشبه صاحبته بالظباء والمها والدر جملة، بل رجع إلى تفصيل ذلك وتحقيقه، فجعل للظباء ما فويق العقد وجعل للمهاة عينيها وللدر الملاحة والصفاء. وكان لزهير مهارة خاصة في استخدام الألفاظ والعبارات المثيرة التي تجعل المنظر كأنه يتحرك تحت أعيننا، وانظر إلى قوله في وصف صيد وحكايته للغلام الذي أنبأه به:

إذا مـــا غـــدونا نبتغـــي الصّـــيد مـــرّة متـــى نـــرهُ فإننـــا لا نخاتلُـــه

فبينـــا نُبغّـــي الصـــيد جـــاء غلامنـــا يـــدبُّ ويخفـــي شخصـــه ويضـــائله

فقـــال: شـــياهٌ رائعـــاتٌ بقفـــرةٍ بمستأســـد القربـــان حـــو مسـايلـــه

ثـلاثٌ كـأقـواس السّـراء ومسـحـلٌ قد اخضرَّ من لـسّ الغمير جحافلـه

فغلامه يدب دبيباً، وهو يخفي شخصه كأنه يتوارى عن الأعين، وانظر هذا اللون الأخضر الذي علق بفم الوحش لكثرة ما أكل من النبات، فإنك تجد مادة أخرى من مواد التصوير عند زهير؛ إذ تراه لا يكتفي (بالتفصيل) ولا باستعمال (العبارات التي تجعل الأشياء كأنها منظورة) بل هو يضيف (التدريج) أي لون موصوفاته إلى تصويره حتى يأخذ الشكل ويتّم الوصف، وكأنه كان يعرف في دقة الكلمة التي تلائم وصفه معرفة الصانع الماهر الذي اطّلع على كثير

من أسرار فنه، والأدوات التي يستخدمها في صناعته. ويستطيع القارئ أن يعود إلى مطوّلته فسيراها تصور مهارته في صنع صورته تصويراً دقيقاً. وانظر إليه يسهلها بقوله:

أمـــن أمّ أوفـــى دمنـــةٌ لـــم تكلّـــمِ ... بحـومانـــــة الـــــدّرّاج فالـمتثلّـــــمِ
ديـــــارٌ لهـــــا بـــــالرّقمتين كأنهـــــا ... مراجـــعُ وشـــمٍ في نـــواشرِ معصـــم
بهـــا العـــين والآرام يمشـــين خلفـــةً ... وأطلاؤهـــا يـــنهض مـــن كـــل مجـــثمِ
وقفـتُ بهـا مـن بعـد عشريـن حجّـةً ... فلأيـــاً عرفـــت الـــدار بعـــد تـــوهّم
أثـــافيَّ ســـفعاً في معـــرَّس مرجـــلٍ ... ونؤيـــاً كجـــذم الحـــوضِ لم يتـــثلَّمِ
فلـمـــا عرفـــت الـــدار قلـــت لربعهـــا ... ألا انعم صباحـــاً أيـــها الرّبـــعُ واسلـــم

يصف هنا زهير الطلل، ويعتمد في تصويره على التفاصيل يعرض المناظر أمامنا بكل أجزائها وتفاصيلها، وهذه الوحش التي اتخذت دار صاحبته مقاماً، تراها تمشي أمامك خلفة، أي في جهات متضادة، وقد نهضت أطلاؤها الصغار وانتثرت هنا وهناك.

إن زهيراً لم يكن يطلب أفقاً وسطاً، بل كان يريد أن يحلّق في الأفق الأعلى، ولذلك كان يحقق لنماذجه وصوره كل ما يمكن من مهارة، وهي لا تقف عند هذه الجوانب التي وصفناها، بل تتعداها إلى جانب آخر مهم، وهو جانب "الإغراب في التصوير" على نحو ما نراه يصور الحرب في معلقته هذا التصوير الرائع:

ومـــا الحـــربُ إلا مـــا علمـــتم وذقـــتمُ ... ومـــا هـــو عنهـــا بالحـــديث المُـــرجّم
متـــى تبعثوهـــا تبعثوهـــا ذميمـــةً ... وتضرَ ـــــ إذا ضرّيتموهـــا فتضرـــمِ
فتعـــرككم عـــرك الرّحـــى بثقالهـــا ... وتلقـــح كشـــافاً ثـــم تنـــتج فتتـــئمِ
فتغـــل لـكـــم مـــا لا تغـــلُّ لأهلهـــا ... قـــرىً بالعـــراق مـــن قفيـــزٍ ودرهـــمِ

و ـ الخصائص الفنية لشعر زهير:

نظراً لكون زهير من مدرسة عبيد الشعر التي كان من أركانها: (أوس بن حجر وبشامة بن الغدير، وابناه كعب وبجير، الحطيئة، وجميل بن معمر). فإنه اهتم بالصناعة الشعرية اهتماماً

كبيراً، حتى قيل: إن زهيراً يكتب القصائد الحولية المحككة، ولو أن استقصينا الخصائص الفنية عند هذا الشاعر لوجدنا أنه يتميز بميزات جعلته من شعراء الطبقة الأولى كما ذكر ابن سّلام.

وأهم الخصائص الفنية لشعره:

١- الخصائص الفنية للمعاني: طرق زهير معظم أغراض الشعر وعبّر عن أغراضه بمعان شريفة سامية جليلة، فهو إذا مدح ارتقى وإذا تغزّل تعقل في غزله، وإذا عرض تجاربه كانت حكماً وأمثالاً والشواهد معروفة لدينا.

٢- الخصائص الفنية للألفاظ: عبّر زهير عن معانيه السالفة الذكر بألفاظ تميل إلى التجميل (الإيجاز) في الألفاظ، واختيار هذه الألفاظ اختياراً عقلياً وعاطفياً وشعورياً؛ بحيث تكون مستقاة من بيئة الشاعر الجاهلية، فلا يذكر في المدح إلا ألفاظاً تتلبس معاني الممدوح تلبساً واقعياً وهي ألفاظ جزلة في موطن الجزالة ورقيقة في موطن الرقة (بكرن بكوراً، استحرن بسحرة، أطراف الزجاج).

٣-الخصائص الفنية للخيال والصور: امتلك زهير خيالاً واسعاً اعتمد عليه في رسم صوره، وإن غلّب التشبيه على هذه الصور كما هو الحال في معظم الشعر الجاهلي، ومن ذلك قوله: (فهن ووادي الرس كاليد للفم). وهو تشبيه حسي مجسم: (فتعرككم عرك الرحى بثفالها) استعارة تعتمد على التخيل المجسم الواقعي: (يضرّس بأنياب ويوطأ بمنسم) كناية عن الذم والإذلال) أي الرجال المهذب) إيجاز فيه من الحذف.

٤- خصائص الشعور والعاطفة: تميزت مشاعر زهير تجاه ممدوحيه بالصدق، والصدق الفني بحيث بدت عاطفته صادقة، لا تفارق ولا تغاير ما وقع في أحاسيسه تجاه هؤلاء الممدوحين.

معلقة زهير بن أبي سلمى

أَمِـــنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَـــةٌ لَمْ تَكَلَّـــمِ ... بِحَوْمَانَـــةِ الـــدَّرَّاجِ فَـــالمتَثَلّمِ

وَدَارٌ لهـــا بـــالرَّقْمتَيْنِ كأَنَّهَـــا ... مَرَاجِيـــعُ وَشْـــمٍ فِي نَـــوَاشِرِ مِعْصَـــمِ

بِهَـــا الْعَـــيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِـــينَ خِلْفَـــةً ... وَأَطْلاَؤُهَـــا يَنْهَضْـــنَ مِـــنْ كُـــلِّ مَجْـــثَمِ

وَقَفْـــتُ بِهَـــا مـــن بعْـــدَ عِشْرِيـــنَ حِجَّـــةً ... فَلأْيـــاً عَرَفْـــتُ الـــدَّارَ بَعْـــدَ تَـــوَهُّمِ

أَثَـــافِيَ سُـــفْعاً فِي مُعَـــرَّسِ مِرْجَـــلٍ ... وَنُؤْيـــاً كَجِـــذْمِ الْحَـــوْضِ لم يتَـــثَلَّمِ

فَلَـــمَّا عَرَفْـــتُ الـــدَّارَ قُلْـــتُ لِرَبْعِهَـــا ... أَلا أَنْعِـــمْ صَـــبَاحاً أَيُّهَـــا الرَّبْـــعُ وَاسْـــلَمِ

تَبَصَّرْ خَلِـيلي هَـلْ تَـرَى مـن ظَعـائِنٍ ... تَحَمَّلْـــنَ بالعَلْيَـــاءِ مـــن فَـــوْقِ جُـــرْثُمِ

جَعَلْـــنَ الْقنـــانَ عَـــنْ يَمـــينٍ وَحَزْنَـــهُ ... وكَـــمْ بِالقنـــانِ مِـــن مُحِـــلٍّ وَمُحْـــرِمِ

عَلَـــوْنَ بـــأَنْماطٍ عِتَـــاقٍ وَكِلَّـــةٍ ... ورَادٍ حَوَاشِـــيهَا مُشَـــاكهةَ الـــدَّمِ

وَوَرَّكْـــنَ فِي السُّـــوبانِ يَعْلُـــونَ مَتْنَـــهُ ... عَلَـــيْهِنَّ دَلُّ النَّـــاعِمِ المتَـــنَعِّمِ

بَكَـــرْنَ بُكُـــوراً وَاسْـــتَحَرْنَ بِسُـــحْرةٍ ... فَهُـــنَّ وَوَادِي الـــرَّسِّ كاليَـــدِ لِلْفَـــمِ

وَفـــيهِنَّ مَلْهَـــىً لِّلطِيـــفِ وَمَنْظَـــرٌ ... أَنِيـــقٌ لِعَـــيْنِ النَّـــاظِرِ المُتَرَسِّـــمِ

كَـــأَنَّ فُتَـــاتَ الْعِهْـــنِ فِي كـــلِّ مَنْـــزِلٍ ... نَـــزَلْنَ بـــهِ حَـــبُّ الْفَنَـــا لم يحْطَـــمِ

فَلَـــمَّا وَرَدْنَ المـــاءَ زُرْقـــاً جِمَامُـــهُ ... وَضَـــعْنَ عِصِيّـــ الحُـــاضِرِ المُتَخَـــيِّمِ

ظَهَـــرْنَ مِـــنَ السُّـــوبانِ ثُـــمَّ جَزَعْنَـــهُ ... عـــلى كـــلِّ قَيْنـــيٍّ قَشِـــيبٍ وَمُفْـــأَمِ

فَأَقْسَـــمْتُ بالبَيْـــتِ الّـــذِي طـــافَ حوْلَـــهُ ... رِجـــالٌ بَنَـــوْهُ مِـــن قُـــرَيشٍ وَجُـــرْهُمِ

يَمينـــاً لَـــنِعْمَ السَّـــيِّدانِ وُجِـــدْتَمَا ... عـــلى كـــلِّ حـــالٍ مـــن سَـــحيلٍ وَمُـــبْرَمِ

تَدَارَكتُماعَبْســـاً وَذُبْيَـــانَ بَعْـــدمَا ... تَفَـــانَوْا وَدقُّـــوا بَيْـــنَهُمْ عِطْـــرَ مَنْشِـــمِ

وقَـــدْ قُلْـــتُما إِنْ نُـــدْرِكِ السِّـــلْمَ واسِـــعاً ... بـــمالٍ ومَعْـــروفٍ مـــن الْقَـــوْلِ نَسْـــلَمِ

فَأَصْبَحْتُما منها على خَيرِ مَوْطِنٍ ... بَعِيدَيْن فيها مِنْ عُقُوقٍ ومَأْثَمِ

عَظِيمَيْنِ فِي عُلْيَا مَعَدٍّ هُدِيتُما ... ومَنْ يَسْتَبِحْ كنزاً من المجدِ يَعْظُمِ

تُعَفَّى الكُلُومُ بالمِئِينَ فأصْبَحَتْ ... يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمِ

يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرامَةً ... وَلم يُهَرِيقُوا بَيْنَهُمْ مِلْءَ مِحْجَمِ

فأصْبَحَ يَجْرِي فيهمُ مِنْ تلادِكُمْ ... مَغَانمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنّمِ

أَلا أَبْلِغِ الأَحْلافَ عني رِسَالَةً ... وَذُبيَانَ هل أَقْسَمْتُم كلَّ مُقْسَمِ

فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما في نُفُوسِكمْ ... لِيَخْفَى ومَهْما يُكْتمِ اللهُ يَعْلَمِ

يُؤَخَّرْ فيُوضَعْ فِي كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيَوْمِ الحِسابِ أَوْ يُعَجَّلْ فيُنْقَمِ

وَمَا الحَرْبُ إِلا ما عَلِمْتُم وَذُقْتُمُ ... ومَا هُوَ عَنْهَا بالحَديثِ المُرَجَّمِ

مَتَى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَميمَةً ... وَتَضْرَ إِذا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ

فَتَعْرُكُكُم عَرْكَ الرّحى بِثِقالِها ... وَتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ

فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمانَ أَشْأَمَ كلهمْ ... كأَحْمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ

فتُغْلِلْ لكُمْ مَا لا تُغِلُّ لأَهْلِهَا ... قُرًى بالعرَاقِ من قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الحَيِّ جَرَّ عليهِمُ ... بما لا يُؤاتِيهِمْ حَصينُ بنُ ضَمضمِ

وكانَ طَوَى كَشْحاً على مُسْتَكِنّةٍ ... فَلا هُوَ أَبْداها ولَمْ يَتَقَدَّمِ

وقَالَ سأَقْضِي حاجتي ثُمَّ أَتَّقِي ... عَدُوِّي بأَلْفٍ مِنْ وَرَائِيَ مُلَجَمِ

فَشَدَّ فَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتاً كثيرةً ... لدى حَيْثُ أَلْقَتْ رَحْلَها أُمُّ قَشْعَمِ

لدى أَسَدٍ شاكي السِّلاحِ مُقَذَّفٍ ... لَهُ لِبَدٌ أَظْفَارُهُ لَمْ تُقَلَّمِ

جَرِيءٍ مَتى يُظْلَمْ يُعَاقِبْ بِظُلْمِهِ ... سَريعاً وَإِلا يُبْدَ بالظلمِ يَظْلِمِ

دعوا ظِمأَهُم حتَّى إِذا تَم أَوْرَدُوا ... غِماراً تَفَرَّى بالسِّلاحِ وبالدَّمِ

فَقَضَّوا مَنايا بَيْنَهُم ثُمَّ أَصْدَروا ... إِلى كِلإٍ مُسْتَوْبِلٍ مُتَوَخِّمِ

لَعَمرُكَ ما جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِماحُهمْ ... دَمَ ابْنِ نَهيكٍ أَوْ قَتِيلِ المُثَلِّمِ

وَلا شَاركَتْ في المَوْتِ فِي دَمِ نَوْفَلٍ ... وَلا وَهَبٍ مِنْها وَلا ابنِ المُخزِّمِ

فكُلاًّ أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُ ... صَحِيحاتِ مالٍ طالِعاتٍ بِمَخْرِمِ

لِحَيٍّ حِلالٍ يَعصِمُ النَّاسَ أَمْرُهُمْ ... إِذَا طَرَقَتْ إِحْدى اللَّيالي بِمُعْظَمِ

كِرامٍ فَلا ذُو الضِّغْنِ يُدْرِكُ تَبْلَهُ ... وَلا الجارِمُ الجَاني عَلَيْهِم بُمسْلَمِ

سَئِمْتُ تَكالِيفَ الحَيَاةِ وَمَنْ يَعِشْ ... ثَمانِينَ حَولاً لا أَبا لَكِ يَسأَمِ

وَأَعْلَمُ مَا فِي الْيَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلكِنَّني عن عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِ

رَأَيْتُ المنايَا خَبْطَ عَشْوَاءَ مَن تُصِبْ ... تُمِتْهُ وَمِنْ تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

وَمَنْ لم يُصانِعْ فِي أُمُورٍ كَثِيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَابٍ وَيُوطَأْ بِمَنْسِمِ

وَمَنْ يَجْعل المعْروفَ مِن دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَمَنْ يَكُ ذا فَضْلٍ فَيَبْخَلْ بفَضلِهِ ... على قَوْمِهِ يُسْتَغْنَ عنْهُ وَيُذْمَمِ

وَمَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ وَمن يُهدَ قلبُهُ ... إِلى مُطْمَئِنِّ الْبِرِّ لا يَتَجَمْجمِ

وَمَنْ هَابَ أَسْبَابَ المَنَايَا يَنَلْنَهُ ... وَإِنْ يَرْقَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسُلَّمِ

وَمَنْ يَجْعَلِ المعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ ... يَكُنْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وَمَن يَعْصِ أَطْرَافَ الزِّجاجِ فإِنَّهُ ... يُطِيعُ الْعَوالِي رُكِّبَتْ كلَّ لُهْذَمِ

وَمَنْ لَمْ يَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسِلاحِهِ ... يُهَدَّمْ وَمَنْ لا يَظلمِ النّاسَ يُظلَمِ

وَمَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عدُوّاً صَدِيقَهُ ... وَمَنْ لَمْ يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لم يكَرَّمِ

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خليقَةٍ ... وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى على النّاسِ تُعْلَمِ

وكائنْ تَرَى من صامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ ... زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلّمِ

لسانُ الفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فؤَادُهُ ... فلَمْ يَبْقَ إلا صورَةُ اللَّحْمِ والدَّمِ

وَإِنَّ سَفَاهَ الشَّيْخِ لا حِلْمَ بَعْدَهُ ... وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السَّفَاهَةِ يَحْلُمِ

سـألْنا فَـأَعْطَيْتُمْ وَعُـدْنَا فَعُـدْتُم وَمَـنْ أَكْثَـرَ التّسـآلَ يَومـاً سَـيُحْرَمِ

وقال زهير أيضاً يمدح حصن بن حذيفة بن بدر:

صحا القلبُ عـن سلمى وأقصَر باطله وعُـريَ أفـراسُ الصِّـبا ورواحلـه
وأقصر عـما تعلمـين وسـددت عـلي سـوى قصْـدِ السَّـبيلِ معادلـه
وقـال العـذارى: إنـما أنـتَ عمُّنـا وكـان الشـبابُ كـالخليط نُزايلـه
فأصـبحتُ مـا يَعْـرفنَ إلّا خَليَقتـي وإلا سـوادَ الـرأسِ والشـيبُ شـامله
لِمـن طلـلٌ كـالوَحي عـاف منازلـهْ عفـا الـرسُّ منـهُ فالرُّسَـيْسُ فعاقلـه
فكـفٌّ فصـارات فأكنـاف مـنعج فشَرْقـيُّ سـلمى حوضُـهُ فأجاولـه
فـوادي البـديّ فـالطويُّ فثـادِقٌ فـوادي القنـانِ جزْعُـهُ فأفاكلـه
وغيـثٍ مـن الوَسْـميِّ حُـوٍّ تلاعُـهُ أجابـتْ روابيـه النِّجـا وهواطلُـه
هَبَطـتُ بممْسـودِ النـواشرِ سـابحٍ مُمَـرٍّ أسـيلِ الـخدِّ نَهْـدٍ مَـراكلُه
تمـيمٍ فلوْنـاه فأكـْمِلَ صنْعُـهُ فـتَمَّ وعَـزّ تـهُ يـداهُ وكـاهلهْ
أمـينٍ شَـظاهُ لم يُخَـرَّقْ صِـفاقهُ بمنْقبـةٍ ولم تقطـعْ أباجلـه
إذا مـا غَـدَونا نبتغـي الصـيدَ مَـرة مـتى نـرَهُ فإنّنـا لا نـخاتـله
فبينـا نبَغّـي الصـيدَ جـاءَ غلامُنـا يـدبُّ ويـُخْفي شـَخْصَه ويضـائِله
فقـال شِـياهٌ راتعـاتٌ بقفـرَةٍ بمُستأسِـدِ القريـانِ حُـوٍّ مـسائِله
ثـلاثٌ كـأقواس السَّـراء ومِسْـحَلٌ قـدِ اخضرَّ مـن لسِّ الغَمـير جَحافِلـه
وقـد خَـرَّمَ الطـرّادُ عنـه جحاشَـه فـلم يبـق إلا نفسـه وحـلائـله
فقـال أمـيري: مـا تـرى رأي مـا نـرى أنَختِلـه عـن نفسِـه أم نصـاوله
فبتنـا عـراةً عنـد رأس جوادِنـا يُـزاوُلنا عـن نفسِـه ونُـزاولـه
ونضـربهُ حـتى اطمـأنّ قذالـهُ ولـم يَطمَـئِنَّ قلـبه وخصـائِله

ومُلجمنـــا مـــا إن ينـــالُ قذالـــهُ ... ولا قدمـــــاه الأرضَ إلا أناملـــــه

فلأيـــاً بـــلأيٍ مـــا حملنا ولـــيدَنا ... عـــلى ظهـــر محبـــوكٍ ظِـــماء مفاصـــله

وقلـــتُ لـــه ســـدِّدْ وأبصِرْ طريقـــه ... ومـــا هـــو فيـــه عـــن وَصـــاتيَ شـــاغله

وقلـــتُ تعَلـــمْ إنَّ للصّـــيدِ غِـــرَّةً ... وإلا تـُضَيِّعْـــها فإنـــك قـــاتلـــه

فتبَّـــع آثـــارَ الشِّـــياهِ وليـــدُنا ... كـــشؤْبوبِ غَيْـــثٍ يخْفِـــشُ الأكـــمَ وابلـــه

نَظـــرْت إليـــهِ نَظـــرة فرأيتـــهُ ... عـــلى كـــلّ حـــالٍ مَـــرَّة هـــو حـــامله

يثـــرْنَ الحصى في وجهـــه وهـــو لاحـــقٌ ... ســـراع تـــواليه صِيـــابٌ أوائـــله

فـــردّ علينـــا العَـــيْرَ مـــن دون إلفِـــه ... عـــلى رَغمِـــهِ يَـــدْمى نَســـاهُ وفائلـــه

ورُحْنـــا بـــهِ ينضـــو الجيـــاد عَشـــيّة ... مُخضَّـــبَةً أرســـاغهُ وعـــوامـــله

بـــذي مَيْعَـــةٍ لا موضـــعُ الـــرمحِ مُسْـــلِم ... لـــبُطء ولا مـــا خَلـــفَ ذلـــك خاذلـــه

وأبـــيضَ فيّـــاضٍ يـــداه غمامـــة ... عـــلى مُعْتفيـــهِ مـــا تغِـــبُّ فـــواضله

بكـــرتُ عليـــه غُـــدْوةً فرأيتـــهُ ... قعـــوداً لدَيْـــهِ بالصَّريـــم عَواذلـــه

يفدِّينَـــهُ طـــوراً وطـــوراً يلمْنـــه ... وأعْيـــا فمـــا يَـــدْرينَ أيـــنَ مَحاتلـــه

فاقصَرْنَ منـــه عـــن كـــريم مُـــرَزَّأٍ ... عـــزوم عـــلى الأمـــر الـــذي هـــو فاعلـــه

أخـــي ثقـــةٍ لا تتلِـــف الخمـــرُ مالـــهُ ... ولكـــنّه قـــد يـــهلكُ الـــمالَ نـــائله

تـــراهُ إذا مـــا جـــئته مُـــتهَلّلاً ... كأنّـــك تـــُعطيهِ الـــذي أنـــت سائـــله

وذي نســـبٍ نـــاءٍ بعيـــدٍ وصـــلتهُ ... بـــمالٍ ومـــا يـــدري بأنـــك واصـــله

وذي نعمـــةٍ تمَّمْتهـــا وشـــكرتهَا ... وخصـــمٍ يـــكادُ يغلـــبُ الحـــقَّ باطلـــه

ودَفعْـــتَ بمعـــروفٍ مـــن القـــول صـــائبٍ ... إذا مـــا أضـــلَّ النـــاطقينَ مَفاصـــله

وذي خَطـــل في القـــول يحسَـــبُ أنـــهُ ... مُصـــيبٌ فـــما يُلمِـــمْ بـــه فهْـــو قائلـــه

عبـــأتَ لـــه حلـــماً وأكرمـــتَ غـــيرَه ... وأعرضـــتَ عنـــه وهـــو بـــادٍ مقاتلـــه

حُذَيْفَةَ يَنْمِيهِ وبَدْرٌ كلاهما ... إلى باذخٍ يعلو على من يُطاوله
ومن مثل حصن في الحروب ومثله ... لإنكار ضيمٍ أو لأمرٍ يحاوله
أبى الضَيمَ والنعمانُ يحرقُ نابَه ... عليه فأفضى والسيوفُ معاقله
عزيزٌ إذا حلَّ الحليفانِ حولهُ ... بذي لَجَبٍ لجّاتهُ وصواهله
يُهَدَّى لهُ ما دونَ رَمْلةِ عالجٍ ... ومَنْ أهلهُ بالغَوْر زالت زلازله

قال زهير أيضاً يمدح هرم بن سنان والحارث بن عوف:

صحا القلبُ عن سلمى وقد كاد لا يسلو ... وأقفرَ من سلمى التعانيقُ فالثقلُ
وقد كنتُ من سلمى سنينَ ثمانياً ... على صِير أمر ما يَمرُّ وما يَحْلو
وكنتُ إذا ما جئتُ يوماً لحاجةٍ ... مضتْ وأجَمّتْ حاجة الغدِ ما تحلو
وكلُّ مُحِبٍّ أحدثَ النأيُ عندَه ... سُلوَّ فؤادٍ غيرَ حُبِّكَ ما يسلو
تأوَّبَني ذِكرُ الأحِبّةِ بعدَما ... هَجَعْتُ ودوني قلة الحزْنِ فالرَّمْلُ
فأقسمتُ جَهْداً بالمنازلِ من منى ... وما سُحِقتْ فيه المقادمُ والقمُل
لأرتحَلنْ بالفجرِ ثُمَّ لأدْأبَنْ ... إلى الليل إلا أن يُعَرِّجَني طفلُ
إلى مَعْشَرٍ لم يُورثِ اللؤمَ جَدُّهُمْ ... أصاغرَهم وكلُّ فحْلٍ له نجْلُ
تربَّصْ فإن تقو المَرَوْراةُ منهمُ ... وداراتها لا تُقوِ منهمْ إذنْ نَخْلُ
فإن تقويا منهمْ فإنَّ مُحَجِّراً ... وجَزْعَ الحسا منهمْ إذن قلما يخْل
بلادٌ بها نادمتهمْ وألِفتُهُمْ ... فإن تقويا منهمْ فإنهما بَسْلُ
إذا فزعوا طاروا إلى مُسْتغيثِهِمْ ... طوالَ الرماح لا ضعافٌ ولا عزْلُ
بِخَيْلٍ عليها جنَّةٌ عَبْقريّة ... جديرونَ يوماً أن ينالوا فيَسْتعْلوا
وإن يقتلوا فيشتفى بدمائهم ... وكانوا قديماً من مناياهم القتل
عليها أسود ضاريات لبوسهم ... سوابغ بيض لا تخرقها النبل

إذا لقحت حرب عوان مضرة ... ضروس تهر الناس أنيابها عصل

قضاعية أو أختها مضرية ... يحرق في حافاتها الحطب الجزل

تجدهم على ما خليت هم إزاءها ... وإن أفسد المال الجماعات والأزل

يحشونها بالمشرفية والقنا ... وفتيان صدق لا ضعاف ولا نكل

تهامون نجديون كيداً ونجعة ... لكل أناس من وقائعهم سجل

هم ضربوا عن فرجها بكتيبة ... كبيضاء حرس في طوائفها الرجل

متى يشتجر قوم تقل سرواتهم ... هم بيننا فهم رضى وهم عدل

هم جردوا أحكام كل مضلة ... من العقم لا يلفى لأمثالها فضل

بعزمة مأمور مطيع وآمر ... مطاع فلا يلغى لحزمهم مثل

ولست بلاق بالحجاز مجاورا ... ولا سفراً إلا له منهم حبل

بلاد بها عزوا معداً وغيرها ... مشاربها عذب وأعلامها ثمل

هم خير حي من معد علمتهم ... لهم نائل في قومهم ولهم فضل

فرحت بما خبرت عن سيديكم ... وكانا امرأين كل أمرهما يعلو

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... فأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

تداركتما الأحلاف قد ثل عرشها ... وذبيان قد زلت بأقدامها النعل

فأصبحتما منها على خير موطن ... سبيلكما فيه وإن أحزنوا سهل

إذا السنة الشهباء بالناس أجحفت ... ونال كرام المال في الجحرة الأكل

رأيت ذوي الحاجات حول بيوتهم ... قطيناً بها حتى إذا نبت البقل

هنالك إن يستخبلوا المال يخبلوا ... وإن يسألوا يعطوا وإن ييسروا يغلوا

وفيهم مقامات حسان وجوههم ... وأندية ينتابها القول والفعل

على مكثريهم رزق من يعتريهم ... وعند المقلين السماحة والبذل

وإن جئـــتهم ألفيـــت حـــول بيـــوتهم مجـالس قـد يشـفي بأحلامهـا الجهـل
وإن قـــام فـــيهم حامـــل قـــال قاعـــد رشـدت فـلا غـرم عليـك ولا خـذل
ســعى بعــدهم قــوم لكــي يــدركوهم فلـــم يفعلـــوا ولم يليمـــوا ولم يـــألوا
فـــما يـــك مـــن خـــير أتـــوه فـــإنما توارثـــه آبـــاء آبـــائهم قـــبل
وهـــل ينبـــت الخطـــي إلا وشـــيجه وتغـــرس إلا في منابتهـــا النخـــل

٩ ـ عنترة بن شداد

الشاعر الفارس

أ ـ حياته ونشأته:

ينتسب عنترة إلى قبيلة عبس التي تسكن في منطقة نجد، يكنى بأبي غلس، ولقب بالفلحاء لشق في شفته السفلى، كانت أمه أمة حبشية سوداء، وكان أبوه من سادات عبس، رعى عنترة الخيل ودرّب نفسه على الفروسية، فكان فارساً لا يشق له غبار، اضطر والده للاعتراف به وألحقه به بعد انتصاراته المذهلة، أحبّ ابنة عمه وتعلّق بها وأمضى حياته مسترضياً إياها، وتوفي بعد حياةٍ حافلةٍ بالفروسية من سهم أصيب به في إحدى غاراته، وقيل: إنه مات برداً، وقد عمّر على الأغلب ووصل الى سن التسعين.

ب ـ شخصيته:

تميزت شخصية عنترة بالقوة والشجاعة والفروسية، وأثر في تكوين هذه الشخصية عاملان رئيسيان:

الأول: شدة سواده وانعكاس ذلك على الجانب الاجتماعي.

الثاني: تعلقه بابنة عمه ومحاولاته إثبات تفرده وتميزه ليحظى بقبولها، يقول عنترة:

إن كنـــت في عـــدد العبيـــد فهمتـــي فـــوق الثريـــا والسّـــماك الأعـــزل

ج ـ آثاره:

ترك عنترة قصائد شعرية جمعت في ديوان تجاوز(١٥٠٠) بيت في الحبّ والفروسية والشجاعة، وأكثر أشعاره نضجاً معلقته التي تجاوزت السبعين بيتاً وشرحها الزوزني وغيره.

د ـ معلقته:

كتب عنترة معلقة كغيره من شعراء المعلقات، وأظهر فيها براعة في النسج، إضافة إلى أنه رسم فيها معالم شخصيته وطموحه، وقد قسمت المعلقة إلى الأقسام التالية:

١- الوقوف على الأطلال.

٢- مشاهد التحمل والارتحال.

٣- وصف المحاسن.

٤- وصف الناقة.

٥- البطولة والفروسية.

٦- خاتمـــة.

الوقوف على الأطلال: وقف عنترة العبسي كغيره من الشعراء على أطلال محبوبته؛ فبكى الديار مستفهماً ومتسائلاً ومعبراً عن مكنونات نفسه التي تعلقت بالأحبة تعلقاً شديداً:

يـــا دار عبلـــة بـــالجواء تكلمـــي وعمـــي صـــباحاً دارعبلـــة واســـلمي

حييـــت مـــن طلـــل تقـــادم عهـــده أقـــوى وأقفـــر بعـــد أمّ الهيثـــم

ويمثل هذا الوقوف على الأطلال عند عنترة ظاهرة الحب الحقيقي لا التقليد الأعمى، فهو محب صادق مخلص يتفانى في سبيل إثبات الوجود، وانتزاع التقدير من المحب

ولقـــد نزلـــت فـــلا تظنـــي غـــيره منّـــي بمنزلـــة المحـــب المكـــرم

مشاهد التحمل والارتحال: إذا كان عنترة العبسي من الشعراء المخلصين الصادقين بحبهـم، فإنه يتعلّق بمحبوبته تعلقاً شديداً يجعل عليه من الصعب أن يرى بأم عينيه رحيل أحبته دون أن يستوقفه ذلك المشهد الحزين، ولذا وجد لزاماً عليه أن ينقل لنا هذه المشاعر الفياضة التي تبرز لحظة الفراق ليلاً مظلماً:

إن كنـــت أزمعـــت الفـــراق فإنمـــا زمّـــت ركـــائبكم بليـــل مظلـــم

مـــا راعنـــي إلا حمولـــة أهلـــها وســـط الـــديار تســـف حَـــبّ الخمخـــم

إنه يشعر بالهلـع والخوف أمام هـذا المشهد الذي يجعله يعود إلـى الظلام النفسي المغترب والمقترن بالغربان السود.

وصف المحاسن: وصف عنترة محاسن عبلة وصفاً بارعاً وأبرزها بين نظيراتها شخصية متميزة بصفات الكمال التي تنظر إلى المرأة على أنها عنصر إنساني لا تستقيم الحياة إلا به، لا على أنها مفاتن جسدية تتعلق بالغرائز والشهوات، وهذه سمة من سمات الغزل الجاهلي الذي يعتمد الحشمة والوقار، فلا يصف من المرأة إلا مبسمها ورائحة المسك التي تتضوع من عارضيها:

إذ تستبك بذي غروب واضح عذب مقبله لذيذ المطعم

وكأن فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها إليك من الفم

وصف الناقة: أسقط عنترة على ناقته التي أسعفته بالوصول إلى دار عبلة صفات نموذجية، فهي ناقة قد ترعرعت بمنطقة الشدنية التي لا تنتج إلا الإبل المميزة، وهي تمشي مشية متميزة تهشم ما يقع تحت خفيها، وهي ناقته الأنوفة لا تقبل أن تشرب إلا من حياض العرب فإذا بركت على الأرض أحدثت صوتاً مجلجلاً وكنا ننتظر من هذا الفارس أن يصف فرسه أو حصانه الذي يشتكي أحياناً إليه من خوضه غمار الحرب دون أن يشتكي فارسه:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمي

وهي من قصيدة مطلعها:

يا دار عبلة بالجواء تكلمي وعمي صباحاً دار عبلة واسلمي

وصف البطولة الفروسية الخلقية والحربية: تميز عنترة العبسي واشتهر بالبطولة والتضحية؛ إذ إنه فارس يحمل أخلاق الفرسان العرب في السلم والحرب.

فهويته في السلم تتمثل في:

١- رفض الضيم.

٢- إنفاق المال.

٣- صون العرض.

٤- يحمي المرأة.

٥- لا يطلع على أسرار الجارات والجيران.

أما صفاته في الحرب فهي:

١- يمتطي صهوة جواده دائماً.

٢- لا ينازل إلا الأبطال الشجعان.

٣- يهزم الجيش العرمرم.

٤- لا يهرب حين البأس.

٥- لا يستسلم حين يحزن.

٦- يعاجل نزيله بطعنة قاتلة.

٧- يترك قتيله جزر السباع.

٨- يتعفف عند الغنائم.

هـ. الخصائص الفنية لشعر عنترة:

تميز شعر عنترة العبسي بالخصائص الفنية التالية:

١- الذاتية: (الغنائية، الوجدانية): وتتمثل في حديث الشاعر عن خصائصه النفسية والخلقية والاجتماعية، فهو فارس بطل مغامر مخلص في حبه مدافع عن قومه:

ناديت عبساً فاستجابوا بالقنا وبكل أبيض صارم لم يبخل

٢- الصدق والواقعية: لم يكن عنترة في وصفه لنفسه ولشدة حبّه لعبلة مبالغاً، فقد كان صادقاً واقعياً في رسمه لعواطفه ولنفسيته:

ولقد نزلت فلا تظني غيره منّي بمنزلة المحبّ المكرم

٣- استخدام روح الحكاية والسرد: إذ إنّ عنترة قد روى حوادث بطولاته ومواقفه البطولية على شكل حوار:

فتركته جزر السباع ينشنه ما بين قلة رأسه والمعصم

٤- الاهتمام باللوحات التصويرية: إذ إن عنترة عرض بطولاته على شكل لوحات تتألف من جزئيات فنية متكاملة من الألوان والأصوات والحركة:

والخيـــل تعلـــم والفـــوارس أننـــي فرّقـــت جمعهـــم بطعنـــة فيصـــل
والخيـــل ســـاهمة الوجـــوه كـــأنما تســـقى فوارســـها نقيـــع الحنظـــل

و ـ الموضوعات الشعرية عند عنترة:

كتب عنترة العبسي معظم أشعاره في موضعين رئيسين هما: (الفخر ـ الحب).

أولاً- الفخر عند عنترة: استدعت حالة عنترة العبسي المتمثلة فـي سواده وكونـه ابن أمة، أن ينهض بنفسه، وأن يحاول أن يجعل مـن شخصيته شخصيـة متفـردة ومتميزة، والأهم مـن الشجاعة فـي ذلك العصر، أن القوة وخـوض المعارك عـوامل مهمة فـي تكوين الشخصية، ونظراً لكون عنترة قـد أحبّ ابنة عمه فقـد أظهر مـن الشجاعة ليثبت أمامها تميزه، ومـن هنا نجده يفتخر بشخصيته ويكثر من ذلك حينما يريد أن يعبر لعبلة عن مكنونات نفسه وحبّه، يقول عنترة مفتخراً بنفسه:

أثنـــي عـــليّ بـــما علمـــت فإننـــي ســـمح مخـــالقتي إذا لم أظلـــم
فـــإذا ظلمـــت فـــإن ظلمـــي باســـل مـــرّ مذاقتـــه كطعـــم العلقـــم

ويقول أيضاً في وصف شجاعته:

هـــلا ســـألت الخيـــل يابنـــة مالـــك إن كنـــت جاهلـــة بـــما لم تعلمـــي
يخـــبرك مـــن شـــهد الوقيعـــة أننـــي أغشـــى الـــوغى وأعـــفّ عنـــد المغـــنم

وإذا كان الفخر الذاتي قد طغى على شعره فإن فخره بقبيلته كان نزراً قليلاً، كما في معركة عراعر:

فـــإن يـــك عـــز في قضـــاعة ثابـــت فـــإن لنـــا بـــرحرحان وأســـقف
كتائـــب شـــهباً فـــوق كـــلّ كتيبـــة لـــواء كظـــلّ الطـــائر المتصـــرف

ويقول مفتخراً بقبيلته:

وفـــوارس لـــي قـــد علمتهـــم صـــبر علـــى التكـــرار والكلـــم
كـــم مـــن فتـــىً فـــيهم أخـــي ثقـــة حـــرّ أغـــرّ كغـــرّة الريـــم

ثانياً- الحب عند عنترة: لم يكن الحب عند عنترة تقليداً من التقاليد بقدر ما كان تعبيراً عن عاطفة صادقة تجاه عبلة، فقد أحب الشاعر ابنة عمه وخاض غمار الموت؛ ليثبت لها حبه وأعلن في معلقته أن منزلتها في قلبه منزلة عظيمة:

ولقد نزلت فلا تظني غيره مني بمنزلة المحب المكرم

وكثيراً ما اشتكى عنترة من البعد عن محبوبته فقال:

ياعبل كم يشجى فؤادي بالنوى ويروعني صوت الغراب الأسود

ولم يكن عنترة ينسى ذكر محبوبته حتى في ساحات الموت:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل السيوف لأنها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

معلقة عنترة بن شدّاد

هَــلْ غَــادَرَ الشُّــعَرَاءُ مِــنْ مُــتَرَدَّمِ ... أَمْ هَــل عَرَفْــتَ الــدَّارَ بَعْــدَ تَــوَهُّمِ

يَــا دارَ عَبْلَــةَ بِــالجِوَاءِ تَكَلَّمِــي ... وَعِمِــي صَــبَاحاً دارَ عَبْلَــةَ وَاسْــلَمِي

فَوَقَفْــتُ فِيهــا نَــاقَتي وَكَأَنَّهَــا ... فَــدَنٌ لأَقْضِي حَاجَــةَ المُتَلــوِّمِ

وَتَحُــلُّ عَبْلَــةُ بِــالجوَاءِ وَأَهْلُنَــا ... بِــالحزْنِ فَالصَّــمَّانِ فَــالمتَثَلَّمِ

حُيِّيــتَ مِــنْ طَلَــلٍ تَقَــادَمَ عَهْــدُهُ ... أَقْــوَى وَأَقْفَــرَ بَعْــد أُمِّ الهَيَــثْمِ

حَلَّــتْ بِــأَرْضِ الزَّائِــرِينَ فَأَصْــبَحَتْ ... عَسِــراً عَــلَيَّ طِلابُــكِ ابْنَــةَ مَخْــرَمِ

عُلِّقْتُهــا عَرَضَــاً وَأَقْتُــلُ قَوْمَهــا ... زَعْــماً لَعَمْــرُ أَبيــكَ لَــيْسَ بِمَــزْعَمِ

وَلَقَــدْ نَزَلْــتِ فــلا تَظُنِّــي غَــيْرَهُ ... مِنِّــي بِمَنْزِلَــةِ المُحَــبِّ المكْــرَمِ

كَيْــفَ المــزَارُ وَقَــدْ تَرَبَّــعَ أَهْلُهــا ... بعُنَيْــزَتَيْنِ وَأَهْلُنَــا بِــالغَيْلَمِ

إِنْ كُنْــتِ أَزْمَعْــتِ الْفِــراقَ فــإِنَّما ... زمّــتْ رِكــابُكُم بلَيْــلٍ مُظْلِــمِ

مَــا راعَنــيْ إِلا حَمُولَــةُ أَهْلِهــا ... وَسْــطَ الــدِّيَارِ تَسَــفُّ حَــبَّ الخِمْخِــمِ

فيهــا اثْنَتَــانِ وَأَرْبَعُــونَ حَلُوبَــةً ... سُــوداً كخَافِيَــةِ الْغُــرابِ الأَسْــحَمِ

إِذَ تَسْــتَبِيكَ بِــذِي غُــروبٍ وَاضِــحٍ ... عَــذْبٌ مُقَبَّلُــهُ لَذِيــذِ المطْعَــمِ

وكَــأَنَّ فَــارَةَ تَــاجِرٍ بِقَسِــيمَةٍ ... سَــبَقَتْ عَوَارِضَــهَا إِلَيْــكَ مــن الْفَــمِ

أَوْ رَوْضَــةٍ أُنُفــاً تَضــمَّنَ نَبْتَهَــا ... غَيْــثٌ قَلِيــلُ الــدِّمْنِ لَــيْسَ بِمَعْلَــمِ

جــادَتْ عَلَيْــهِ كُــلُّ بِكْــرِ حُــرَّةٍ ... فَــتَرَكْنَ كُــلَّ قَــرارَةٍ كالــدِّرْهَمِ

سَــحّاً وتَسْــكاباً فَكُــلّ عَشِــيَّةٍ ... يَجْــرِي عَلَيْهَــا المــاءُ لَمْ يَتَصَرَّــمِ

وَخَــلا الــذبابُ بهــا فَلَــيْسَ بِبــارِحٍ ... غَــرِداً كفِعْــلِ الشَّــارِبِ المُــتَرَنِّمِ

هَزِجــاً يَحُــكُّ ذِرَاعَــهُ بِذِرَاعِــهِ ... قَــدْحَ المُكِــبِّ عــلى الزِّنَــادِ الأَجْــذَمِ

تُمسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ ... وَأَبِيتُ فَوْقَ سَراةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ

وَحَشِيتي سَرْج عَلى عَبْلِ الشَّوَى ... نَهْدٍ مَراكِلُهُ نَبِيلِ المحْزِمِ

هَلْ تُبْلِغَنِّي دَارَهَا شَدَنِيَّةٌ ... لُعِنَتْ بِمَحْرُومِ الشَّرَابِ مُصَرَّمِ

خَطَّارَةٌ غِبَّ السُّرَى زَيَّافَةٌ ... تَطِسُ الإِكَامَ بوَخْدِ خُفٍّ ميثمِ

وكَأَنَّما تَطِسُ الإِكَامَ عَشِيَّةً ... بقَرِيبِ بَيْنَ المنْسِمَيْنِ مُصَلَّمِ

تَأْوِي لَهُ قُلُصُ النّعامِ كما أَوَتْ ... حِزَقٌ يَمانِيَةٌ لأَعْجَمَ طِمْطِمِ

يَتْبَعْنَ قُلَّةَ رَأْسِهِ وكَأَنَّةُ ... حِدْجٌ عَلى نَعْشٍ لهنَّ مُخَيَّمِ

صَعْلٍ يَعُوذ بذي الْعُشَيْرَةِ بَيْضَهُ ... كالعبْدِ ذي الفَرْوِ الطويل الأصْلَمِ

شَرِبتْ بماءِ الدُّحْرُضَيْنِ فأَصْبَحتْ ... زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ

وكَأَنَّما تَنْأَى بجانِبِ دَفَّهَا الْـ ... وَحْشِيِّ منْهَزِجِ الْعشِيِّ مُؤَوَّمِ

هِرٍّ جَنِيبٍ كُلَّمَا عَطَفَتْ لَهُ ... غَضْبَى اتَّقَاهَا باليَدَيْنِ وَبالفَمِ

بَرَكَتْ على جَنْبِ الرّداع كأَنَّما ... بَرَكَتْ على قَصَبٍ أَجَشَّ مُهَضَّمِ

وكأَنَّ رُبَّاً أو كُحَيْلاً مُعْقَداً ... حَشَّ الْوَقُودُ بهِ جَوانِبَ قُمقُمِ

يَنْبَاع مِنْ ذِفْرَى غضوبٍ جَسْرَةٍ ... زَيَّافَةٍ مِثْلَ الْفَنِيقِ المكْدَمِ

إِنْ تُغْدِفي دُوني الْقِناعَ فإِنَّنِي ... طَبٌ بأَخْذِ الْفَارِسِ المستَلْئِمِ

أَثْنِي عَلَيَّ بما عَلِمْتِ فَإِنَّني ... سَمْحٌ مُخَالَقَتي إِذا لَمْ أُظْلَمِ

وَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِي بَاسِلٌ ... مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ

ولَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ المدَامةِ بِعدمَا ... رَكَدَ الهواجِرُ بالمشُوفِ الْمُعَلَّمِ

بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ ... قُرِنَت بأَزْهَرَ في الشَّمالِ مُفَدَّمِ

فَإِذا شَرِبْتُ فإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ ... مَالي وعِرْضِي وافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ

وإِذا صَحوْتُ فَما أُقَصِّر عن نَدًى ... وكما عَلِمْتِ شَمَائِلِي وتَكَرُّمِي

وحَلِيـــلِ غانِيَـــةٍ تَرَكْـــتُ مُجَـــدَّلاً ... تَمكُـــو فَرِيصَـــتُهُ كَشِـــدْقِ الأَعْلَـــمِ

سَـــبَقَتْ يَـــدَايَ لَـــهُ بِعاجِـــلِ طَعنَـــةٍ ... وَرَشَـــاشِ نَافِـــذَةٍ كَلَـــوْنِ الْعَنْـــدَمِ

هَـــلاَ سَـــأَلْتِ الخَيْـــلَ يـــا ابْنَـــةَ مَالِـــكٍ ... إِنْ كُنْـــتِ جَاهِلَـــةً بِـــمَا لَمْ تَعْلَمِـــي

إِذْ لا أَزَالُ عَـــلى رِحَالَـــةِ سَـــابِحٍ ... نَهْـــدٍ تَعَـــاوَرُهُ الْكُـــمَاةُ مُكَلَّـــمِ

طَـــوْراً يُجَـــرِّدُ للطِّعَـــانِ وَتَـــارَةً ... يَـــأْوِي إِلى حَصْـــدِ الْقِسِيِّ عَرَمَـــرَمِ

يُخْـــبِرْكِ مَـــنْ شَـــهِدَ الْوَقِيعَـــةَ أَنَّنـــي ... أَغْشَـــى الْـــوَغَى وَأَعِـــفُّ عِنْـــدَ المَغْـــنَمِ

وَمُـــدَجَّجٍ كَـــرِهَ الْكُـــمَاةُ نِزَالَـــهُ ... لا مُمْعِـــنٍ هَرَبَـــاً وَلا مُسْتَسْـــلِمِ

جَـــادَتْ لَـــهُ كَفِّـــي بِعاجِـــلِ طَعْنَـــةٍ ... بِمُثَقَّـــفٍ صَـــدْقِ الْكُعُـــوبِ مُقَـــوَّمِ

فَشَـــكَكْتُ بِـــالرُّمْحِ الأَصَـــمِّ ثِيابَـــهُ ... لَـــيْسَ الْكَـــرِيمُ عَـــلى القَنَـــا بِمُحَـــرَّمِ

فَتَرَكْتُـــهُ جَـــزَرَ السِّـــبَاعِ يَنُشْـــنَهُ ... يَقْضُـــمْنَ حُسْـــنَ بَنانِـــهِ وَالمِعْصَـــمِ

وَمِشَـــكِّ ســـابِغَةٍ هَتَكْـــتُ فُرُوجَهَـــا ... بِالسَّـــيْفِ عَـــنْ حَـــامِي الحَقِيقَـــةِ مُعْلِـــمِ

رَبِـــذٍ يَـــدَاهُ بِالقِـــدَاحِ إِذَا شَـــتَا ... هَتَّـــاكِ غَايَـــاتِ التِّجَـــارِ مُلَـــوَّمِ

لَمَّـــا رَآنِي قَـــدْ نَزَلْـــتُ أُرِيـــدُهُ ... أَبْـــدَى نَوَاجِـــذَهُ لِغَـــيْرِ تَبَسُّـــمِ

عَهْـــدِي بِـــهِ مَـــدَّ النَّهَـــارِ كَـــأَنَّما ... خُضِـــبَ الْبَنَـــانُ وَرَأْسُـــهُ بِـــالعِظْلِمِ

فَطَعَنْتُـــهُ بِـــالرُّمْحِ ثُـــمَّ عَلَوْتُـــهُ ... بِمُهَنَّـــدٍ صَـــافِي الحَدِيـــدَةِ مُخْـــذَمِ

بَطَـــلٍ كَـــأَنَّ ثِيابَـــهُ فِي سَرْحَـــةٍ ... يُحْـــذَى نِعَـــالَ السَّـــبْتِ لَـــيْسَ بِتَـــوْأَمِ

يـــا شَـــاةَ مَـــا قَـــنَصٍ لِمَـــنْ حَلَّـــتْ لَـــهُ ... حَرُمَـــتْ عَـــلَيَّ وَلَيْتَهَـــا لم تَحْـــرُمِ

فَبَعَثْـــتُ جَـــارِيَتِي فقُلْـــتُ لهـــا اذْهَبِـــي ... فَتَجَسَّسِـــي أَخْبَارَهَـــا لِيَ وَاعْلَمِـــي

قَالَـــتْ رَأَيْـــتُ مِـــنَ الأَعَـــادِي غِـــرَّةً ... وَالشَّـــاةُ مُمْكِنَـــةٌ لِمَـــنْ هُـــوَ مُـــرْتَمِ

وكَـــأَنَّما الْتَفَتَـــتْ بِجِيـــدِ جَدَايَـــةٍ ... رَشَـــا مِـــنَ الْغِـــزْلانِ حُـــرٍّ أَرْثَـــمِ

نُبِّئْـــتُ عَمْـــراً غَـــيْرَ شَـــاكِرِ نِعْمَتِـــي ... وَالْكُفْـــرُ مَخْبَثَـــةٌ لِـــنَفْسِ الْمُـــنعِمِ

وَلَقَدْ حَفِظْتُ وَصَاةَ عمـيَ بالضُّحى ... إِذ تقلِصُ الشفَتَانِ عن وَضَحِ الْفَمِ

فِي حَوْمَةِ الجَرْبِ الّتي لا تشْتَكي ... غَمراتِهَا الأَبْطالُ غَيْرَ تَغَمْغُمِ

إِذْ يَتَّقُونَ بِي الأَسِنَّةَ لم أَخِمْ ... عنها وَلكِنِّي تَضَايَقَ مُقْدَمي

لّمَا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهمْ ... يَتَذامَرُونَ كَرَرْتُ غيرَ مُذَّممِ

يَدْعُونَ عَنْتَرَ وَالرِّماحُ كأنّها ... أَشْطانُ بئْرٍ في لَبَانِ الأَدْهَمِ

ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بثُغْرَةِ نَحْرِهِ ... وَلَبَانِهِ حتى تَسَرْبَل بالدَّمِ

فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقنَا بلَبَانِهِ ... وشَكا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ

لَوْ كانَ يَدْرِي مَا المحاوَرَةُ اشْتَكَى ... وَلَكَانَ لَوْ عَلِمَ الْكَلامَ مُكَلِّمِي

ولَقَدْ شَفَى نَفْسي وَأَذْهَبَ سُقْمَهَا ... قِيلُ الْفَوارِسِ وَيكَ عَنتَرَ أَقْدِمِ

وَالخَيْلُ تَقْتَحِمُ الخبَارَ عَوَابِساً ... من بينِ شَيْظَمَةٍ وَآخرَ شَيْظَمِ

ذُلُلٌ رِكابي حَيْثُ شِئْتُ مُشايعِي ... لُبِّي وَأَحْفِزُهُ بأَمْرٍ مُبْرَمِ

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَدُرْ ... لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ عَلى ابْنَي ضَمْضَمِ

الشَّاتِمِيْ عِرضِي وَلَمْ أَشْتِمْهُما ... وَالنَّاذِرَيْنِ إِذا لَمَ الْقَهُما دَمي

إِنْ يَفْعَلا فَلَقَدْ تَرَكْتُ أَبَاهُمَا ... جَزَرَ السِّبَاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

١٠ ـ الحارث بن حلّزة اليشكُري

أ ـ حياته ونشأته:

أحد فحول الشعراء المقلين، وصاحب المعلقة المعروفة التي مطلعها:

آذنتنـــــا ببينهـــــا أســـــماءُ ربّ ثـــاوٍ يمـــلُّ منـــهُ الثـــواءُ

وقد ارتجلها بين يدي عمرو بن هند بمناسبة الصلح بين بكرٍ وتغلب، وحلزة تعني الضّيق، والحلّزة: البخيل.

ب ـ شخصيته: كان الحارث من سادات قومه بكر بن وائل وشجعانهم وفصحانهم، وقد عمر طويلاً.

ج ـ شعره: له ديوان شعر طبع في بيروت سنة ١٩٢٢. الأبيات المختارة من قصيدة يمدح فيها قيس بن شراحبيل الشيباني، ويستهل مديحه بالوقوف على ديار الأحبة ثم يصف الناقة، ويصّور الصحراء في طريقه إلى الممدوح، ثم يمدح قيساً مبرزاً جوده وهباته.

وقفة على الأطلال:

في أغلب قصائد المديح في الجاهلية تطالعنا وقفة الشعراء على ديار الأحبّة، ومع أن هذه الوقفة أصبحت تقليداً غير

أنها تحمل كثيراً من ذاتية الشاعر.

لمـــن الـــدّيارُ عفـــونَ بـــالحبسِ آياتُهـــا كمهـــارقِ الفـــرسِ

لا شيء فيهـــا غـــيرُ أصـــورةٍ سُـــفعِ الخُـــدودِ يلُحـــنَ كالشّـــمسِ

أو غـــيرُ آثـــارِ الجيـــادِ بأعـــ ـــراضِ الجِـــمادِ وآيـــةِ الـــدَّعْسِ

فحبســـتُ فيهـــا الرَّكـــبُ أحـــ ـــدسُ في كـلّ الأمـورِ وكنـتُ ذا حـدس

حتـــى إذا التفـــع الظِّبـــاءُ بأطـــ ـــرافِ الظّـــلال وقلـــنَ في الكُـــنسِ

ويئســـتُ ممّـــا قـــد شُـــغفتُ بـــهِ منهـــا ولا يُســـليكَ كاليـــأسِ

أنمـــــي إلى حـــــرفٍ مـــــذكّرةٍ تهـــضُ الحصى بمواقـــعٍ خُـــنْسِ

شرح المفردات:

عفون: درسن – الحُبس: اسم موضع – آياتها: أعلامها – المهارق: مفرده: مهرق: الصّحف – الأصورة: مفردهُ: صوار وصيار: القطيع من البقر- السّفع: السود – يلحن كالشمس: يظهرن بوضوح، وفي رواية: يلحن في الشمس- الأعراض: النّواحي- الجماد: اسم موضع أو الغليظ من الرّمل- آية: علامة- الدّعسِ: أثر القدم والحافرِ في الأرض- الحدس: الظنّ والتأمل- حسبتُ فيها الرّكب: أوقفتُ صحبي – التفعتِ الظّباء بالظّلال: لجأت إلى الظلّ تستترُ به– الكنس: أصله الكُنُس ومفرده: كُناس: بيت الظبي- أنمي: أعتلي – الحرف: الناقة السريعة – مُذكرة: تشبه الذّكر من الإبل – تهضّ: تدقّ – المواقع: مفرده: ميقعة: المطارق – خُنس: قصارُ، شبه مناسم الناقة بالمطارق.

قراءة فنية في الأبيات السابقة

المتصفح لأبيات الحارث بن حلزة السالفة الذك يكتشف أثر الصنعة الفنية الرائعة في الشعر الجاهلي الذي يبهرك فيه قدرة الشاعر على تناول المعاني والأفكار من خلال أسلوب أخاذ، ففي هذه الأبيات من الصناعة اللفظية العامّة ما لا يتهيأ للأفذاذ القلائل من الشعراء، والحارث سيد شعراء الجاهلية جميعاً في القدرة الخارقة على استغلال موسيقا الألفاظ، تسمع قصيدته فتخالها غناء منطوقاً، تتالى نغماته رهوةً في غير عنف أو قسر.

وإن صناعته البارعة لتختفي في تضاعيف ذلك الإحساس الغامر بحلاوة موسيقاه، حتى لتخالها سرّاً لا يتصل أيّ اتصال بالصّنعة. فإذا أنت نظرتَ فيها وأطلت الوقفة عندها تجد من آثار الصناعة ألواناً. فمن ذلك تردّد حرف السين في القصيدة، تجده في القافية، كما تجده أو تجد الثاء أو الصاد القريبة منه في الأبيات، وهو موزّع توزيعاً يجعل لمنطوقه المتفرّق بين أجزاء البيت قيمةُ نغمية رائعة، فكأنه الصفير المهموس. فإذا انتقلت إلى ثالث أبيات الافتتاحية وجدت نفسك تجاه نوع آخر من التوزيع اللفظي الذي يقوم فيه الصوت دالاً على الصورة، مستحضراً للخيال، ففيه تكثر حروف المدّ معتمدة كلّها على الألف يطلق تطلُقها، وتتوزّع في

خلال البيت توزّعاً عادلاً، وكأنّها جميعاً تصوّرِ في انطلاقها وانقباضها قفزات الجواد في خيبه فوق ملتويات الرمل الغليظ الذي يتحدّث الشاعر في البيت عن آثاره الباقية.

وفي البيت ذاته التجانس بين الجياد والجماد وكلاهما بكسر الجيم، وفي الخامس جناس بين الظّباء والظّلال ولكن أروع ما فيه صورة التجاء الظباء إلى الظلال في الكُنس وقت الظهيرة، يتقين تحتها حرّ الهاجرة. وفي البيت الثاني وصف لقطعان البقر المسودّة الخدود، المبيضّة باقي الجلود، يأبي الشاعر أن يقف عند حدود المقابلة بين سوادها وبياضها، فيعدو ذلك إلى تبيّن أثر الاقتران بين الضدّين في العين، ثم في النفس فهنَّ سودُ الخدود يلحن كالشمس. كل هذه الوجوه من الصنعة في شعر الحارث لا يكاد الناظر إليها ينتبه لها أول الأمر؛ لأن لصاحبها من القدرة ما تختفي معه أثر الصنعة، ولأن طبعه القويّ وشاعريته الجارفة تطغى على هذه الصنعة.

معلقة الحارث بن حلّزة اليشكري

آذَنَتْنَا ببَيْنِهَا أَسْمَاءُ ... رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمّا ... ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا الْخَلْصَاءُ

فَالمَحَيَّاةُ فالصِّفاحُ فَأَعْنا ... قُ فِتَاقٍ فَعَادِبٌ فَالْوَفَاءُ

فَرِيَاضُ الْقَطَا فأوْدِيَةُ الشُّرْ ... بُبِ فالشُّعْبَتَانِ فالأَبْلاءُ

لا أرى مَنْ عَهِدْتُ فيهَا فأبكي الْـ ... ـيَوْمَ دَهْلاً وَمَا يُجِيرُ الْبُكَاء

وَبِعَيْنَيْكَ أَوْقَدَتْ هِنْدٌ النَّا ... رَ أَخِيراً تُلْوِي بِهَا الْعَلْيَاءُ

فَتَنَوَّرْتُ نَارَهَا مِنْ بَعيدٍ ... بِخَزَازَى هَيْهَاتَ منْكَ الصَّلاءُ

أَوْقَدَتْها بَينَ الْعَقِيقِ فَشَخْصَيْـ ... ـنِ بِعُودٍ كما يَلُوحُ الضِّيَاءُ

غَيْرَ أَنِّي قَدْ أَسْتَعِينُ على الهمّ ... إذا خَفَّ بالثَّوِيِّ النِّجاءُ

بِزَفُوفٍ كَأنها هقْلَةٌ أُمُّ ... رئَالٍ دوِّيَّةٌ سَقْفاءُ

آنَسَتْ نَبْأَةً وَأفزَعَها الْقُـ ... ـنّاصُ عَصْراً وقَدْ دَنَا الإِمْساءُ

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَ ... قْعِ مَنِيناً كأَنَّهُ إِهْبَاءُ

وَطِراقاً مِنْ خَلْفِهِنَّ طِراقٌ ... سَاقِطَاتٌ أَلْوَتْ بها الصَّحْراءُ

أَتَلَهَّى بها الهَوَاجِرَ إِذْ كُلُّ ابْـ ... ـنِ هَمٍّ بَلِيَّةٌ عَمْياءُ

وَأَتَانَا مِنَ الْحَوَادِثِ وَالأَنْبَا ... ءِ خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ وَنَسَاءُ

إِنَّ إِخْوَانَنَا الأَرَاقِمَ يَغْلُو ... نَ عَلَيْنَا، فِي قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ

يَخْلِطُونَ الْبَرِيءَ مِنَّا بِذِي الذَّنْـ ... ـبِ وَلا يَنْفَعُ الْخَلِيَّ الْخَلاءُ

زَعَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ ضَرَبَ الْعَيْـ ... ـرَ مُوَالٍ لَنَا وَأَنَّا الْوَلاءُ

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فلَمَّا ... أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لهمْ ضَوْضَاءُ

مِنْ مُنادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَصْـ ... ـهالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاكَ رُغَاءُ

أَيُّهَا النَّاطِقُ المُرَقِّشُ عَنَّا ... عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ بَقَاءُ

لا تَخَلْنَا عَلى غَرَاتِكَ إِنَّا ... قَبْلُ مَا قَدْ وَشَى بِنَا الأَعْدَاءُ

فَبَقِينَا عَلى الشَّنَاءَةِ تَنْمِيـ ... ـنا حُصُونٌ وَعِزَّةٌ قَعْسَاءُ

قَبَلَ مَا الْيَوْمِ بَيَّضَتْ بعُيُونِ النـ ... ـاسِ فيهَا تَغَيُّظٌ وَإِبَاءُ

وَكَأَنَّ المُنُونَ تَرْدِي بنَا أَرْ ... عَنَ جوْناً يَنْجَابُ عَنْهُ الْعَمَاءُ

مُكْفَهِرّاً عَلى الحَوَادِثِ لا تَرْ ... تُوهُ للدَّهْرِ مُؤَيَّدٌ صَمَّاءُ

أَيُّمَا خُطَّةٍ أَرَدْتُمْ فَأَدُّوهَـ ... ـا إِلَيْنَا تُشْفَى بها الأَمْلاءُ

إِنْ نَبَشْتُمْ مَا بَيْنَ مِلْحَةَ فَالصَّا ... قِبِ فِيهِ الأَمْوَاتُ وَالأَحْيَاءُ

أَوْ نَقَشْتُمْ فَالنَّقْشُ يَحْشَمُهُ النَّا ... سُ وَفِيهِ الإِسْقَامُ وَالإِبْرَاءُ

أَوْ سَكَتُّمْ عَنَّا فكُنَّا كَمَنْ أَغْـ ... ـمَضَ عَيْناً فِي جَفْنِهَا الأَقْذَاءُ

أَوْ مَنَعْتُمْ مَا تُسْأَلُونَ فَمَنْ حُدِّ ... ثتُمُوهُ لَه عَلَيْنَا الْعَلاءُ

هَلْ عَلِمْتُمْ أَيّامَ يُنتَهَبُ النا ... سُ غِوَاراً لِكُلِّ حَيٍّ عُوَاءُ

إِذْ رَفَعْنَا الجِمالَ مِنْ سَعَفِ البَحْـ ... ـرَينِ سَيْراً حتَّى نَهاهَا الحِساءُ

ثم مِلْنا عَلى تَمِيمٍ فأَحرَمْـ ... ـنا وَفِينا بَنَاتُ قَوْمٍ إِمَاءُ

لا يُقِيمُ الْعزِيزُ بالبَلَدِ السَّهْـ ... ـلِ وَلا يَنْفَعُ الذَّلِيلَ النَّجَاءُ

لَيْسَ يُنْجِي الّذِي يُوَائِلُ مِنا ... رَأْسُ طَوْدٍ وَحَرَّةٌ رَجْلاءُ

فَملَكْنا بذلكَ النّاس حتّى ... مَلَكَ المُنْذِرُ بنُ ماءِ السَّماءُ

مَلِكٌ أَضْرَعَ الْبَرِيَّةَ لا يُو ... جَدُ فِيها لِما لَدَيْهِ كِفَاءُ

فَاْترُكوا الطَّيْخَ والتعاشِي وَإِمَّا ... تَتَعَاشَوْا فَفِي التَّعاشِي الدَّاءُ

وَاذكُرُوا حِلْفَ ذي المجازِ وما قدِّ ... مَ فيهِ الْعُهُودُ وَالْكُفَلاءُ

حَذَرَ الجَوْرِ وَالتَّعَدِّي وَهَلْ يَنْـ ... ـقُضُ ما في المَهارِقِ الأَهْوَاءُ

وَاعْلَمُوا أَنَّنا وَإِيَّاكُمْ فِيـ ... ـمَا اشْتَرَطْنا يَوْمَ اخْتَلَفْنا سَوَاءُ

عَنَنـــاً بـــاطِلاً وَظُلْـــماً كـــما تُعْـــ ـــتَرُ عَـــنْ حُجْـــرَةِ الـــرَّبيضِ الظِّبـــاءُ
أَعَلَيْنـــا جُنـــاحُ كِنْـــدَةَ أَنْ يَغْـــ ـــنَمَ غـــازِيهِمُ وَمِنَّـــا الجَـــزَاءُ
أَمْ عَلَيْنـــا جَـــرَّى إِيَـــادٍ كـــما نِيـــ ـــطَ بِجَـــوْزِ المحَمَّـــلِ الأَعبَـــاءُ
أَمْ عَلَيْنـــا جَـــرَّى قُضـــاعَةَ أَمْ لَيْـــ ـــسَ عَلَيْنـــا فـــيما جَنَـــوْا أَنْـــدَاءُ
أَمْ جَنَايَـــا بَنـــي عَتيـــقٍ فَإِنَّـــا مِـــ ـــنْكُمُ إِنْ غَـــدَرْتُمْ بُـــرَآءُ
وَثَمانـــون مِـــنْ تَمِـــيمٍ بِأَيْدِيـــ ـــهِمْ رِمَـــاحٌ صُـــدُورُهُنَّ الْقَضـــاءُ
ثـــمَّ جَـــاؤوا يَسْـــتَرْجِعُونَ فَلَـــمْ تَـــرْ جِـــعْ لَهُـــمْ شَـــامَةٌ وَلا زَهْـــرَاءُ
لَـــيْسَ مِنَّـــا المَضَّـــرِبُونَ وضـــلا قَيْـــ ـــسٌ وَلاجَنْـــدَلٌ وَلا الحَـــذَّاءُ
تَرَكُـــوهُمْ مُلَحَّبِـــينَ وأَبُـــوا بِنهَـــابٍ يَصُـــمُّ مِنْهـــا الْحُـــدَاءُ
أَمْ عَلَيْنـــا جَـــرَّى حَنيفَـــةَ أَمْ مَـــا جَمَّعَـــتْ مِـــنْ مُحَـــارِبٍ غَـــبْرَاءُ
لَمْ يُحِلـــوا بَنـــي رِزَاحٍ بِبَرْقَـــا ءِ نِطـــاعٍ لَهُـــمْ عَلَـــيْهِمْ دُعَـــاءُ
ثُـــمَّ فَـــاؤوا مِـــنْهُمْ بِقَاصَـــمَةِ الظَّهْـــ ـــرِ وَلا يَـــبْرُدُ الْغَلِيـــلَ المـــاءُ
مَـــا أَصَـــابُوا مِـــنْ تَغْلِبِـــيٍّ فَمطْلُـــو لٌ عَلَيْـــهِ إِذا أُصِـــيب الْعَفَـــاءُ
كَتَكـــاليفِ قَوْمِنـــا إِذْ غَـــزَا الْمنـــ ـــذِرُ هَـــلْ نَحْـــنُ لابْـــنِ هِنـــدٍ رِعَـــاءُ
إِذْ أَحَـــلَّ الْعَلْيَـــاءَ قُبَّـــةَ مَيْسُـــو نَ فَـــأَدْنَى دِيَارِهـــا الْعوصَـــاءُ
فَتَـــأَوَّتْ لَـــهُ قَرَاضِـــبَةٌ مِـــنْ كُـــلِّ حَـــيٍّ كَـــأَنهُمْ أَلْقَـــاءُ
فَهـــدَاهُمْ بالأَسْـــوَدَيْن وَأَمْـــرُ اللّـــ ـــهِ بِلْـــغٌ تَشْـــقَى بِـــهِ الأَشْـــقيَاءُ
إِذْ تَمَنَّـــوْنَهُمْ غُـــرُوراً فَسَاقَتْـــ ـــهُمْ إِلَـــيْكُمْ أُمْنِيَّـــةٌ أَشْراءُ
لَمْ يَغُـــرُّوكُمُ غُـــرُوراً وَلكِـــنْ رَفَـــعَ الآلُ شَخْصَـــهُم وَالضَّـــحَاءُ
أَيُّهـــا النـــاطِقُ المُبلِّـــغُ عَنـــا عنـــدَ عَمْـــرٍو وَهَـــلْ لـــذَاكَ انْتِهَـــاءُ
إِنّ عَمـــراً لَنـــا لَدَيْـــهِ خِـــلالٌ غَـــيْرُ شَـــكٍّ في كُلِّهِـــنَّ الـــبَلاء
مَلِـــكٌ مُقْسِـــطٌ وَأَفْضَـــلُ مَـــنْ يَمـــ ـــشي وَمِـــنْ دُونِ مَـــا لَدَيْـــهِ الثَّنَـــاءُ
إِرَمِـــيٌّ بِمثْلِـــهِ جَالَـــتِ الْخَيْـــ ـــلُ وَتَـــأْبَى لَخَصْـــمِهَا الإِجْـــلاءُ

مَـــنْ لَنـــا عِنـــدهُ مِـــنَ الخَـــيْرِ آيـــا ... تٌ ثـــلاثٌ في كلهِـــنَّ الْقَضَـــاءُ
آيَـــةٌ شَـــارِقُ الشَّـــقِيقَةِ إِذْ جَـــا ... ءَتْ مَعَـــدٌّ لِكُـــلِّ حَـــيٍّ لِـــوَاءُ
حَـــوْلَ قَـــيْسٍ مُسْـــتَلْئِمِين بَكَـــبْشٍ ... قَرَظِـــي كَأَنَّـــهُ عَـــبْلاءُ
وصَـــيتٍ مِـــن الْعواتِـــكِ لا تَنـــ ... ـــــهَاهُ إِلا مُبْيَضَّـــةٌ رَعْـــلاءُ
فَرَدَدْنَـــاهُمُ بطعْـــنٍ كـــما يَخْـــ ... ـــــرُجُ مِـــنْ خُرْبَـــةِ المـــزادِ المـــاءُ
وحَمَلْنَـــاهُمُ عـــلى حَـــزْمِ ثَهْـــلا ... نَ شِـــلالاً وَدُمِّـــيَ الأَنْسَـــاءُ
وجَبَهْنـــاهُمُ بطعْـــنٍ كـــما تُنْـــ ... ـــــهَزُ في جَمَّـــةِ الطّـــوِيِّ الـــدِّلاءُ
وفَعلْنـــا بِهِـــمْ كـــما عَلَـــمِ اللهُ ... ومَـــا إِنْ للحَـــائِنِينَ دِمَـــاءُ
ثُـــمَّ حُجْـــراً أَعْنـــي ابـــنَ أُمِّ قَطـــامٍ ... ولَـــهُ فَارِسِـــيَّةٌ خَضْرَاءُ
أَسَـــدٌ في اللِّقـــاءِ وَرْدٌ هَمُـــوسٌ ... ورِبيـــعٌ إِنْ شَـــمَّرَتْ غَـــبْرَاءُ
وفَكَكْنـــا غُـــلَّ امـــرِئ القـــيسِ عنْـــ ... ـــــهُ بَعْـــدَما طَـــالَ حَبْسُـــهُ والْعنـــاءُ
وأَقَـــدْنَاهُ رَبَّ غَسَّـــانَ بالمنْـــ ... ـــــذِرِ كَرْهـــاً إذ لا تُكـــالُ الـــدِّماءُ
وأَتَيْنـــاهُمُ بِتِسْـــعَةِ أَمْـــلا ... كٍ كِـــرَامٍ أَسْـــلابُهُم أَغْـــلاءُ
ومَـــعَ الجَـــوْنِ جَـــوْنِ آلِ بَنـــي الأَوْ ... سِ عَنُـــودٌ كأَنّهـــا دَفُـــوَاءُ
مَـــا جَزِعْنـــا تَحْـــتَ الْعُجاجَـــةِ إِذا ولَّـــ ... ـــــوا شِـــلالاً وَإِذْ تَلظَّـــى الصَّـــلاءُ
وَولَـــدْنا عَمْـــرو بـــنَ أُمِّ أَنَـــاسٍ ... مِـــنْ قَريـــبٍ لَمـــا أَتَانـــا الحِبـــاءُ
مثْلُهـــا تُخْـــرِجُ النصـــيحةُ للقَـــوْ ... مِ فَـــلاةٌ مِنْـــدُونِها أَفْـــلاءُ
ثُـــمَّ خَيْـــلٌ مِـــنْ بَعـــدِ ذاكَ الْغَـــلاّ ... قِ لا رأْفَـــةٌ وَلا إِبْقـــاءُ
وَهـــو الـــرَّبُّ والشَّـــهِيدُ عـــلى يَـــوْ ... مِ الحِيَـــارَينِ وَالْـــبلاء بَـــلاءُ

١١ ـ المثقّب العبديُّ

مواقف الرحيل والوداع

هو عائذُ بن محصن، جاهليٌّ من فحول الشّعراء، لُقِّب بالمثقّب لبيتٍ من شعرٍ قال فيه يصف الظّعائن:

ظهـــرن بكلّـــةٍ وســـدلنَ أخـــرى وثقّـــبن الوصـــاوصَ للعيـــونِ

اتصل بالنعمان بن المنذر ومدحه في قصيدة مطلعها:

ألا إنَّ هنـــداً أمـــسِ رث جديـــدُها وضـــنَّت ومـــا كـــانَ المتـــاعُ يؤودهـــا

وقدر وردت في المفضليات.

أما الأبيات المختارة له فهي من مفضّلية أخرى بلغت قرابة أربعين بيتاً، يستهلُّها بعتابٍ رقيق يوجّههُ إلى محبوبته، ثم يصف رحيل الظعائن، ويتسلّى عنها بوصف ناقته، وما يُحمِّلها من عناء في سفره الدائب، إلى أن ينهي رحلته بالغاً رحاب عمرو بن هند ملك الحيرة فيمدحه. وقد كان عمرو بنُ العلاء معجباً بهذه القصيدة حتى قال: "لو كان الشعر مثلها لوجب على الناس أن يتعلّموه".

والأبيات المختارة تتناول موقف الوداع، ووصف موكب رحيل الأحبة، وارتحال الشاعر على ناقته بعد أن شيّع أحبابه.

رحيل الأحبة:

أفـــاطمُ قبـــلَ بينـــكِ متّعينـــي ومنعـــك مـــا ســـألت كـــأن تبينـــي

فـــلا تعـــدي مواعـــدَ كاذبـــاتٍ تمـــرُّ بهـــا ريـــاحُ الضّـــيفِ دُوني

فـــإني لـــو تخـــالفني شـــمالي خلافـــك مـــا وصـــلتَ بهـــا يمينـــي

لمـــن ظُعُـــنٌ تطلّـــع مـــن ضـــبيبٍ فـــما خرجـــتْ مـــن الـــوادي لحـــينِ

وهـــنَّ عـــلى الرّجـــائز واكنـــاتٌ قواتـــلٌ كـــلّ أشـــجعَ مُســـتكينِ

كغـــزلانِ خـــذلنَ بـــذاتِ ضـــالٍ تنـــوشُ الـــدّانياتِ مـــن الغُصـــونِ
ظهـــران بكلَّـــةٍ وســـدلنَ أُخـــرى وثقَّـــبنَ الوصـــاوصَ للعُيـــونِ
أريـــنَ محاســـناً وكـــننَّ أُخـــرى مـــن الـــدّيباجِ والبشرِ المصـــونِ
فسرِّ لهـــمَ عنـــكَ بـــذاتِ لـــوثٍ عُـــذافرةٍ كمطرقـــةِ القُيـــونِ
بصـــادقةِ الوجيـــفِ كـــأنّ هـــرّاً يباريهـــا ويأخـــذُ بالوضـــينِ
إذا مـــا قُمـــتُ أرحلُهـــا بليـــلٍ تـــأوه آهـــةَ الرَّجـــلِ الحـــزينِ
تقـــولُ إذا درأتُ لهـــا وضـــيني أهـــذا دينُـــهُ أبـــداً ودينـــي
أكـــلَّ الـــدّهرِ حـــلٌّ وارتحـــالُ أمـــا يُبقـــي عـــليَّ ولا يقينـــي

شرح المفردات:

البَين: الفِراق – ومنعك ما سألتك أن تبيني: أي أنّ صدودك عنّي يعدل فراقك – تمرُّ بها رياح الصيف: تذهب مع رياح الصيف، وهي رياح لا خير فيها – خلافك: أي مثل خلافك – ما وصلتُ بها يميني: قطعتها – الظّعن: جمع ظعينة: المرأة في الهودج – تطلع: ظهر– الرّجائز: جمع رجازة، مركب للنساء على الجمل وهو دون الهودج – واكنات: جالسات – الأشجع: الشجاع أو الأسد – مُستكين: خاضع – خذلن: تخلّفن عن القطيع – ذات ضال: اسم مكان – تنوشُ: تتناول – الغصونُ الدانيات: القريبةُ من الأرض – الكلّة: حدقة حمراء في الهودج– الوصاوص: مفرده وصواص ووصوص الثقوب في السّتر أو البرقع– البشر: جمع مفرده بشرة: ظاهرُ الجلد– ذات لوث: ناقة قوية– عذافرة: شديدة – القيون: مفرده قين: الحدادون – الوجيف: السير السريع– الهر: السنّور – الوضين: الحزام– أرحل الناقةَ: وضع على سنامها الرّحل– تأوه: تتأوه، حذفت تاؤه تخفيفاً – دراً: دفع – الدّين: العادةُ والدّأب.

١٢ ـ وسنى الأسدية

(هديّة السّماء)

في الصحراء المحرقة، حيث تحبس السّماء قطرات مطر، لا تخلو حياة العربيّ من شظف ومعاناة، حتى إذا هطل الغيث وضحكت الأرض وأمرعت، ارتسمت البسمة على الشفاه اليابسة.

ألم ترنـــــا غبنـــــا ماؤنـــــا ... زمانـــاً، فظلنـــا نكـــدُّ البئـــارا
فلـــمّا عـــدا المـــاءُ أوطانـــهُ ... وجـــفَّ الـــثِّمادُ فصـــارَتْ حِـــرارا
وضـــجَّتْ إلى ربِّهـــا في السّـــماء ... رؤوسُ العضـــاةِ تُنـــاجي السِّـــرارا
وفتّحـــــتِ الأرضُ أفواهَهـــــا ... عَجـــيجَ الجـــمال وردْن الجفـــارا
لبســـنا لـــدى عطـــنٍ ليلـــةً ... عـــلى اليـــأس، آتابنـــا والخـــمارا
وقُلنـــا أعـــيروا النّـــدى حقَّـــهُ ... وصـــبرَ الحفـــاظِ وموتـــوا حِـــرارا
فبينـــا نُـــوطّنُ أحشـــاءَنا ... أضـــاءَ لنـــا عـــارضٌ فاســـتطارا
وأقبـــلَ يزحـــفُ زحـــفَ الكســـ ... ـــيرِ ســـياقَ الرِّعـــاءِ البطـــاءِ العِشـــارا
تُغنّـــي وتضـــحكُ حافاتُـــهُ ... خـــلالَ الغـــمامِ وتبكـــي مـــرارا
كأنّـــا تضيـــءُ لنـــا حُـــرّةٌ ... تشـــــدُّ إزاراً وتُرْخـــــي إزارا

شرح المفردات:

غبّ الماءُ: قلّ وغارَ – نكدّ البئار: تنتزعُ منها الماء القليل بالجهد – عدا الماءُ أوطانهُ: تجاوزها – الثّماد: بقايا الماء في الحوض أو البئر – الحِرار: واحدُهُ: حرّة: الحجارة السود – العضاة: مفرده عضاهة الشجر العظيم أو الشائك – السّرار: الأرض الطيبة – العجيج: صوت الابل حين تُضرَب أو يحمل عليها – العطن: مبرك الإبل – الآتاب: مفرده إتب ثوب يُشقّ وسطه من غير جيب ولا كُمّين – الجفار: مفرده جفرة البئر الواسعة – نوطّن أحشاءنا: نعلّلها لاحتمال العطش – العارض: السحاب المُعترض – استطار: سطع وانتشر – الرّعاء: مفرده راع – البطاء: مفرده بطيئة – العشار: النوق قبل أن تنتج، مفرده عشراء – حُرّة: امرأة كريمة.

١٣ ـ حاتمُ الطَّائيّ
الشاعر الكريمُ

١ ـ حياته ونشأته:

هو حاتم بن عبد الله بن الحشرج الطائيّ القحطاني، فارس، شاعر، جواد، يُضربُ المثل بجوده وكرمه، له أخبار كثيرة في الجود والكرم متفرّقة في كتب الأدب والتاريخ.

ولد في نجد، ووفد على الملوك، وتزوّج ماويّةَ بنت حُجرٍ الغسّانيّة، ومات في السنة الثامنة بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم، وقبره في جبل عوارض ببلاد نجد.

ب ـ شخصيته:

روى أنّه لما أُتي بسفانة إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) في أسرى قومها قالت: "يا محمد، هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيتَ أن تُخلّيَ عنّي، فلا تُشمت بي أحياء العرب، فإنّي بنت سيّد قومي، كان أبي يفكّ العاني، ويَحمي الذِّمار، ويقري الضيف، ويُشبع الجائع، ويُفرّج عن المكروب، ويُطعم الطعام، ويُفشي السلام، ولم يرُد طالبَ حاجةٍ قطّ، أنا بنت حاتم طيّئ".

ج ـ شعره: شعر حاتم فصيح الألفاظ سهل التراكيب.

د ـ أغراضه الشعرية: كتب حاتم شعره في أغراض عدة:

١ ـ الفخر بكرمه وعفَّته.

٢ ـ الحماسة.

٣ ـ وينتشر في قصائده شيء من الحكمة.

وشعره كثير ضاع معظمه، وبقي منه ديوان صغير مطبوع.

المالُ غادٍ ورائحٌ

كان كرم حاتم الطائي ينبع من أعماق نفس فطرت على العطاء، واتخذت من مساعدة المحتاجين مذهباً لها في الحياة، فانتزع صاحبها الخلود.

أَمـــاوِيَّ! إنَّ المـــالَ غـــادٍ ورائـــحُ ... ويبقـى مـن المـالِ الأحاديـثُ والـذّكرُ

أَمـــاويَّ! إنّي لا أقُـــولُ لســـائلٍ ... إذا جـاء يومـاً حـلَّ في مَالنـا نـزْرُ

أَمـــاويَّ! إمـــا مـــانعٌ فمبـــيّنٌ ... وإمّـــا عطـــاءٌ لا يُنهنهُـــهُ الزّجـــرُ

أمـاويَّ! مـا يُغنـي الثّـراءُ عـنِ الفتـى ... إذا حشرجتْ نفسٌ وضـاقَ بهـا الصَّـدرُ

أمـــاويَّ! إنْ يُصـــبح صـــداي بقفـــرةٍ ... مـــن الأرضِ لا مـــاءٌ هُنـــاكَ ولا خمـــرُ

تـــري أنَّ مـــا أهلكـــت لم يـــكُ ضرَّني ... وأنَّ يـــدي ممـــا بخلـــت بـــه صـــفرُ

أمـــاويَّ! إنِّي ربَّ واحـــدِ أمّـــهِ ... أجـــرتُ، فـــلا قتـــلٌ عليـــه ولا أسرُ

وقـد علـم الأقـوامُ، لـو أنَّ حاتمـاً ... أرادَ ثـراءَ المـالِ، كـان لـه وفـرُ

عُنينـــا زمانـــاً بالتَّصـــعلُكِ والغنـــى ... كـما الـدّهرُ، في أيّامـه العسرُ واليُسرُ

كُسـينا صروفَ الـدَّهرِ لينـاً وغلظـةً ... وكـــلاً ســـقاناهُ بكأســـيهما الـــدَّهرُ

فـما زادنـا بـأواً عـلى ذي قرابـةٍ ... غنانـا، ولا أزرى بأحسـابنا الفقـرُ

ومـا ضرَّ جـاراً، يـا بنـةَ القـوم، فـاعلمي ... يُجـاورني، ألاَّ يكـونَ لـهُ سـترُ

بعينـيّ عـن جـارات قـومي غفلـةٌ ... وفي السّـمعِ منّـي عـن حـديثهُمُ وقـرُ

ديوان حاتم الطائي

شرح المفردات: ماويّ: ترخيم ماويّة، وهي زوجة الشاعر – غادٍ: من الغُدو، وهو الذّهاب باكراً- ورائح: من الرّواح، وهو المسير بالعشي، وأراد أن المال يذهب ويأتي – النّزر: القلّة – يُنهنهُ: يكفّه – الزجر: المنع والنّهي والطّرد – الحشرجة: الغر غرة عند الموت، وتردُّد النّفس – الصّدى: الجثّة – صفر: فارغة، لا شيء فيها – الوفر: الكثير – عُنينا: شُغلنا- التصعلّك: الافتقار، والصعلوك: الفقير – صرُوف الدّهر: نوائبه وحدثانه، مفردها صرف- البأو: الافتخار والتكبّر – غاب: ألحق به العيب، الوقر: ذهاب السمع، الصّمم.

قراءة في النص السابق

لا شك أن الكرم كما عرفه العرب الجاهليون من أعظم مكارم الأخلاق التي عايشها هؤلاء العرب، والتي أكد الإسلام عليها وجعلها من أهم ميزات الشخصية العربية المسلمة، وإذا رجعنا للشعر الجاهلي نجد أن الكثير من أبياته دعت إلى هذه المكرمة.

وحاتم الذي ضرب المثل بجوده، يحكي لنا في نصه عن دوافع كرمه، فهو لا يروي في الأبيات خبراً من أخبار كرمه الذائعة الكثيرة، وإنما يعرض فلسفته في الحياة ومذهبه في الكرم، فيقول لزوجته التي تلومه على إتلاف ماله: إن المال يذهب ويأتي، ولا يبقى منه للإنسان إلا الذكر الحسن والصيت الذائع، إذا هو أنفقه في وجوه الكرم. فهو لا يرد سائلاً، بل يعطيه عطاء لا تكدره منه أو أذى، فإن كان ذا عُذر فبين عذره للسائل المحتاج.

والمال لا يدفع عن الإنسان الموت إذا حان الأجل. وإذا ما ثوى الإنسان في القبر، فإن المال الذي جمعه وثمّره وضنّ به على الآخرين لم ينفعه في شيء، وإنما يورثه المذمّة بين الناس الذين عرفوه بخيلاً لئيماً، أما الذي أتلف ماله في وجوه الكرم والخير فما ضرّه ذلك، بل ترك له تقلّب حاتم في نعمة العيش ويسر الحياة، وعاش في شدة الفقر وقساوته، فشرب من يد الدهر حلو الكأس ومره، فما تكبّر ولا تجبر على الأهل والعشيرة في الغنى، ولا تصاغر وذُلت نفسه في الفقر، بل زاده الفقر كرماً ونجدة؛ لأنه عرف ما يعانيه الفقراء من قسوة الحياة وذلّ الحاجة.

وحاتم خير الناس لجيرانه، يغضّ طرفه عن جارته عفّة منه وصوناً لها، فلا يضرّ جارته ألاّ يكون لبيتها ستر، ويصمُّ أذنيه عن سماع حديثها، ولا يصلها منه إلا خيره ومعروفه.

لقد تحدث حاتم عن الكرم، والكرم قيمة خلقية واجتماعية رفيعة تحلّى بها العربي وتغنّى بها الشعراء. ولعلّ لطبيعة الحياة العربية في الجاهليّة التي تقوم على الرعي في بيئة فقيرة شحيحة أثراً في تعزيز قيمة الكرم في نفوسهم، فالسعي وراء مساقط الغيث ومنابت الكلأ يضطرهم إلى الحل والترحال وقطع الصحارى المهلكات، فإذا وجد المسافر ضوء نار أوى إلى أهله وأصبح لزاماً عليهم إقراؤه وإيواؤه، وإلاّ هلك في تلك البوادي. وتتوالى سنوات القحط والجدب فتهلك الإبل ويجوع الناس، ويصبح لزاماً على سادة القبيلة وذوي اليسار فيهم أن يقضوا لذوي الحاجات حاجاتهم، وأن تغلي قدورهم لإطعام فقراء القبيلة وضعفائها وأراملها حتى يأتي الربيع وينتعش الناس.

في هذه البيئة كان لابد من بروز الكرم قيمة اجتماعية وخلقية رفيعة، ولأن الكرم عماده الإيثار والتضحية فهو رأس القيم النبيلة الأخرى، فالكريم يتصف بالمروءة والنجدة والوفاء والصدق وصون الجار، ولأن البخيل ينبع من الأنانية والحرص فهو رأس الصفات المذمومة، فالبخل يقترن باللؤم والخسة والدناءة والغدر، ولقد رأينا حاتماً يصف نفسه بالعفة وصون الجار.

أما من حيث الصياغة الأدبية فالنص يمتاز بجزالة الألفاظ ومتانة التعبير، وألفاظ حاتم مألوفة سلسة، ويعود ذلك إلى مخالطته البيئة الحضرية على الرغم من كونه نجديّاً، فقد كان وفاداً على الملوك في الحيرة وبصرى، وتزوّج من بنات الغساسنة.

وتقل الصور البيانية في النص، فلا نجد سوى تشبيه لصروف الدهر بكأس تدور ويشرب منها الناس. ويلجأ الشاعر إلى البراهين المستقاة من تجارب الحياة بأسلوب واضح وبيّن، ويعتمد على المقابلات في الأسلوب والمفردات (فالمال غاد ورائح ويبقى منه الأحاديث والذكر، ومازادنا بأواً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر، والتصعلك والغنى، والعسر واليسر، واللين والغلظة).

١٤ ـ أبو أُذينة اللَّخْمي
(الثأر المُتَجَدد)

انتصر الأسود بن النُّعمان ملك المناذرة على غسّان وأسر عدة من ملوكهم، ثم أراد أن يعفو عنهم ويقبل منهم الفدية، لكن ابن عمه الشاعر أبو أذينة أغراه بالانتقام من غسّان؛ لأن أخاه قُتِل في تلك الوقائع فاستجاب الأسود لدعوة الثأر، وتراجع عن العفو والفدية.

ما كلَّ يومٍ ينالُ المرءُ ما طَلَبا ... ولا يُسوِّغُهُ المقدارُ ما وَهَبا
وأحزمُ النّاسِ من إن فُرصةٌ عرضتْ ... لم يجعلِ السَّبَبَ الموصولَ مُقتضبا
وأنصفُ النّاسِ في كلِّ المواطنِ منْ ... سقى المُعادينَ بالكأسِ التي شَربا
وليس يظلمُهمْ من راحَ يضربُهُمْ ... بحدّ سيفٍ به من قبلهم ضُربا
والعفو إلا عن الأكفاءِ مَكْرُمَةٌ ... من قالَ غيرَ الذي قد قلتُه كذبا
لكلت عمراً وتستبقي يزيدَ لقد ... رأيتَ رأياً يجُرُّ الويلَ والحَرَبا
وتقطعنْ ذنبَ الأفعى وتُرسِلَها ... إنْ كنتَ شهماً فأتبعْ رأسها الذَّنبا
كم جرّدوا السّيفَ فاجعلهُمْ له جَزَراً ... وأوقدوا النّارَ فاجعلهُمْ لها حَطَبا
إن تعفُ عنهم تقولُ الناسُ كلُّهُمُ ... لم يعفُ حِلماً ولكن عفوُهُ رَهَبا
وترضوا بفداءٍ واصفينَ لنا ... خيلاً وإبلاً يروقُ العُجمَ والعربا
أتقبلون دماً منا ونحلُبهُمْ ... رِسلاً لقد شرفونا في الورى حلبا
علامَ نقبلُ مهم فديةً وهُمُ ... لا فِضّةً قبلوا منّا ولا ذَهَبا

شرح المفردات:

سوّغ الأمر: حوزه – المقدار: هنا القدر يريد: ما كلُّ يوم يسمح القدرُ بما يطلبه الإنسان – السّبب: الذريعة وما يُتوصّل به إلى غيره – المقتضب: المقطوع – الأكفاء: ج كُفءٌ: المثل والنّظير – الحرب: الهلاك والويل – الرَّسل: اللبن.

مفردات للشرح: الحَلَب – الرَّهَب.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم

قال الشاعر زهير بن أبي سلمى في وصف الحرب التي وقعت بين عبس وذبيان، وأوقعت الكثير من القتلى، فتحمل الحارث بن عوف وهرم بن سنان ديات القتلى فيها وأحلَّا السلم بدلاً منها:

يَمينـــاً لَـــنِعْمَ السَّـــيِّدانِ وُجِـــدْتَما ... عــلى كــلِّ حــالٍ مــن سَــحيلٍ وَمُــبْرَمِ

تَـــدَارَكْتُما عَبْســـاً وَذُبْيَـــانَ بَعْـــدمَا ... تَفَـــانَوْا وَدقـــوا بَيْـــنَهُمْ عِطْـــر مَنْشِـــمِ

وقَــدْ قُلْــتُما إِنْ نُــدْرِكِ السِّــلْمَ واسِــعاً ... بــمالٍ ومَعْــروفٍ مــن الْقَــوْلِ نَسْــلَمِ

فَأَصْــبَحْتُما منهــا عــلى خَــيرِ مَــوْطِنٍ ... بَعِيــدَيْن فيهــا مِــنْ عُقُــوقٍ ومَــأْثَمِ

عَظِيمَيْــنِ فِي عُلْيَــا مَعــدٍّ هُــديتُما ... ومَــنْ يَسْــتَبِحْ كنــزاً مــن المجــدِ يَعْظُــمِ

تُعَفَّــى الكُلُــومُ بــالمِئِينَ فأَصْــبَحَتْ ... يُنَجِّمُهَــا مَــنْ لَــيْسَ فِيهَــا بِمُجْــرِمِ

يُنَجِّمُهَــا قَــوْمٌ لِقَــوْمٍ غَرامَــةً ... وَلَم يُهَرِيقُــوا بَيْــنَهُمْ مِــلْءَ مِحْجَــمِ

فأَصْــبَحَ يَجْــرِي فــيهِمُ مــنِ تلادِكُــمْ ... مَغَــانمُ شَــتَّى مِــنْ إِفَــالٍ مُــزَنِّمِ

أَلا أَبْلِــغِ الأَحْــلافَ عنــي رِسَــالَةً ... وَذُبيَــانَ هــل أَقْسَــمْتُم كــلَّ مُقْسَــمِ

فَــلا تَكْــتُمُنَّ اللهَ مــا في نُفُوسِــكمْ ... لِيَخْفَــى ومَهْــما يُكْــتمِ اللهُ يَعْلَــمِ

يُــؤَخَّرْ فيُوضَــعْ فِي كِتَــابٍ فَيُــدَّخَرْ ... لِيَــوْمِ الحِســابِ أَوْ يُعَجَّــلْ فيُــنْقَمِ

وَمَــا الحَــرْبُ إِلا مــا عَلِمْــتُم وَذُقْــتُمُ ... ومَــا هُــوَ عَنْهَــا بالحَــديثِ المــرَجَّمِ

مَتَــى تبعَثُوهــا تَبْعَثُوهــا ذَميمَــةً ... وَتَضْرَــــ إِذا ضَرَّيْتُمُوهــا فَتَضْرَــــم

فَتَعْــرُكُكُم عــرْكَ الرّحــى بثِقالهــا ... وَتَلْقَــحْ كِشَــافاً ثــمَّ تُنْــتَجْ فَتُتْــئِمِ

فَتُنْــتِجْ لَكُــمْ غِلْــمانَ أَشــأَمَ كلهــمْ ... كــأَحْمَرِ عــادٍ ثــمَّ تُرْضِــعْ فَــتَفْطِمِ

فتُغْلِــلْ لكُــمْ مَــا لا تُغِــلُّ لأَهْلِهَــا ... قُــرًى بــالعرَاقِ مــن قَفِيــزٍ وَدِرْهَــمِ

قراءة
لرؤية لشاعرين في الحرب
زهير بن أبي سلمى وأبي أذينة اللخمي

تختلف نظرة الإنسان إلى قضيتي الحرب والسلم، وتتباين هذه النظرة من شاعر إلى آخر، والجاهليون من قد اختلفوا بين داع للسلم إلى محرض على الحرب.

وبين يدينا نصّان متقابلان في الحرب والسّلم لشاعرين جاهليين هما: زهير بن أبي سُلمى وأبو أُذينة. زهير تهزّه أريحية هرم وابن عوف الذين تداركا القتال بين عبس وذبيان بعد أن استفحل أمره فبذلا من مالهما حدّاً لهذه المأساة التي كادت أن تودي بالطرفين. وكان لهما شرف المبادرة، وفضل الوفاء للأهلِ والعشير، وعظم شأنهما بين القبائل بالبذلِ والتضحية.

وزهير يقف موقف الناصح العاقل، فلا بدّ للشرّ من نهاية، وللثأر من حدود، ولاسيما إذا وقع بين الأهل والأحبّة، وعواقب الحرب وخيمة، ونتائجها معروفة لا تحتمل الظنّ أو التخمين فهي تشتعل كالنار في الهشيم، تطحن المشاركين بها كما تطحن الثَّفال، وتلد من المآسي والمحن ما تلده الناقة حين تغيل، ثم تتئم، فيجيء أولادها مهزولين ضعفاء، بل إنّ مآسي الحرب تتجاوز عدّاً وحصراً ما تنتجه قرى العراق من أموالٍ وخيرات.

وأبو أذينة تكويه الحرب، يفقد أخاه، فيتأجّج الحقد في نفسه، ويرفض رغبةَ ابن عمه النعمان في الصلح، فالقدر ساق إليهما النصر على الأعداء، والحازم يهتبل الفرص ويستغلّها، ومن العدل أن يُسقى العدو بالكأس التي سقى بها، وأن يُنال بالسّيف الذي ضرب به، والعفو لا يكون إلّا عن الضعفاء، أما الأنداد فالعفو عنهم عجز وضعف، والعاقل من يستأصل شأفة عدوه فيرتاح؛ لأن قطع ذنب الأفعى وإرسالها لا يمنع من اللّدغ، ومن أخذ بالسيف فينبغي أن يؤخذ بالسيف، ومن أجّج نار الحرب لابّد أن يكون لها حطباً، والناس لا يرون العفو عن الأقوياء حلماً بل خوفاً ورهبة، ولا يجوز أن تكون إبل الفدية وخيلها بديلاً عن الدم، فالدم لا يعدله لبن النوق، والعدو لم يقبل فضة ولا ذهباً ثمناً لدماء قتلاه.

مع أن ظروف الصراع في هاتين الحربين متماثلة؛ إذ لم يكن صراعاً مع عدو دخيل أو أجنبي، وإنما هو صراع بين قبائل عربية شقيقة ذات مصالح مشتركة في الوحدة القومية والعيش المشترك، فإنّ موقف كلّ من الشاعرين يناقض موقف الآخر، فزهير رجل العقل والحكمة يدرك خطر هذه الصراعات القبلية والعشائرية على الناس، ويحكّم عقله في وضع حدٍّ لها، وأبو أذينة يصدر عن حميّة الجاهلية، ويجري وراء عاطفته الفردية دون أن يبصر عواقب الحرب وخطرها على المتحاربين أو على وحدة الصّف العربي في عصرٍ بدأ به العرب يستجمعون شتاتهم ويدركون الأخطار المحدقة بهم من الطامعين الأجانب الروم والفرس الذين كانوا ينشرون الفرقة في الصف العربي، ويتخذون لهم أعواناً عملاء من أبناء العرب أنفسهم لبسط نفوذهم.

فالصراع القبلي والولاءات العشائرية هما من أخطر الأدواء التي ابتليت بها أمتنا، والإسلام حاول توحيد العرب ولمّ شملهم الذي فرقته الولاءات القبلية غير أنّ الحكّام فيما بعد استغلوا العصبيّة القبيلة ومزّقوا وحدة الصف العربي وفرّقوا بين القبائل لتوطيد حكمهم وامتداد سيادتهم.

أما من حيث الصياغة الأدبية، فالنّصان يمتازان بجزالة اللفظ ومتانة التعبير وروعة التصوير، فزهير يصدر في عرضه لمسألة الحرب والسلم عن منطق محكم تعزّزه تجارب الحياة، وهو يحسن الإقناع بالبراهين العقلية والمواقف الحياتية، ويجيد التصوير، متكئاً على الواقع الحسي الملموس (الحرب كالنار، أو الناقة التي تغيل وتتشم...).

وهو يوسع دائرة صوره معتمداً على ثقافته (الحرب تغلّ من الويلات ما تغله سهول العراق من خيرات...) مما يثبت سعة اطلاعه، ووحدة الثقافة العربية واتساعها، فالجزيرة العربية في الجاهلية لم تكن معزولة عن العراق والشام ودائرة معرفة الشاعر أوسع من حدود قطره العربي الصغير، وهو ينقّح ألفاظه ويهذبها وتلمس أثر الصنعة في عمله الأدبي.

أمّا أبو أذينة، فيتخذ العاطفة مطيّة له فهو غاضب حاقد على العدو، وثورته وهاجة لا تقرُّ ولا تعرف إلى مهادنة العدو سبيلاً، ولو كان من الأقارب والأهلين، وألفاظه جزلة واضحة، وأسلوبه قوي مؤثّر يعتمد على المقابلات (سقى المعادين بالكأس التي شربا، يضربهم بحدّ

سيفٍ به من قبلهم ضرباً... أيحلبون دماً ونحلبهم رسلاً) وهي مقابلات تخدم غرضه في الإقناع والتأثير وتعزّز مبدأه الذي كرّره في الأبيات وهو: العين بالعين والسن بالسن، دون النظر إلى أن الحرب هي بين الأهل والأقارب. على أنّ أبرز ما يميز أبياته ما تشعر به من طبعٍ وعفوية تموّه ما فيها من صنعة تجلّت في الصور البيانية الكثيرة المستمدّة من الواقع أيضاً (العدو كالأفعى، الحرب كالنار– تشبه الحرب بالكأس التي تشرب. وهي صورة جاهلية مستمدة من حياة العرب في تلك الفترة).

فشعره أقرب إلى القلب وصولاً منه إلى العقل، وهو أشد تأثيراً في نفوسنا؛ لأنه يصدر عن العاطفة، والشعر ترجمان العواطف.

١٥ ـ عُروة بن الوَرْد

أمير الصّعاليك

أ ـ حياته ونشأته:

عروة بن الورد العبسي، شاعرعبسي لم تعرف سنة ولادته، وقد توفي ٦١٦م.

نشأ عروة عزيز النفس عالي الهمة، وكان أبوه البادئ بالرّهان المشؤوم الذي ثارت بسببه حرب داحس والغبراء، وكان يؤثر ابنه الأكبر على عروة، ويسيء فهمه، فتمرّد على الأسرة وأعراف القبيلة، ولم يهجر قبيلته بل اتخذ من صعلكته باباً من أبواب المروءة والتعاون الاجتماعي، يقتضي الأغنياء رزقه بحد السّيف، ويجمع إليه نفراً من الفقراء الصعاليك من أبناء قبيلته، يوزّع عليهم الغنائم في غاراته بالعدل، حتى عُرف بأبي الصَّعاليك.

ب ـ شخصيته: عرف عروة بسمو أخلاقه وجليل أعماله حتى ذُكر أن معاوية بن أبي سفيان ودَّ لو كان له صهراً، وتمنّى عبد الملك بن مروان لو كان له أباً.

تخلّت عنه زوجته، لا عن قلىً وإنما ضاقت بمغامراته وتشرُّده، وقد أثنت على كريم أخلاقه وجليل أعماله في كلمة مؤثرة أوردها في أخباره صاحب كتاب الأغاني أبو الفرج الأصفهاني.

مات مقتولاً في بعض غزواته قبيل الهجرة بسنوات.

ج ـ شعره: لعروة ديوان شعر محدود القصائد، طبع مراراً، تتجلّى فيه فلسفته الاجتماعية في موضوع العدالة، وسعيه لتحرير البائسين، وتصويره لحالهم، فالفقير محتقر في مجتمع يؤمن بالفوارق المادّية:

ذريني للغنى أسعى فإنّي ... رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الفقيرُ

يباعدُهُ القريبُ وتزدريه ... حليلته، ويقهرهُ الصّغير

د ـ قراءة في نص أقلي عليّ اللوم

يعطف قلبُ الزّوج الحنون على الشاعر، وتخاف عليه ركوبَ الأهوال، والمغامرة في طلب الرّزق، فتلومه على اندفاعه وتبذيره، غير أنه يتصامم عن سماع النصيحة، فقد آمن بمبدأ لا يحيد عنه: أحبّ أن يعيش وصحبه وأهله كراماً، أو يموت فتطوى صفحة نضاله العادل.

أقلّي عليّ اللومَ يا بنتَ مُنذرِ ... ونامي وإنْ لم تشتهي النّومَ فاسهري
ذريني ونفسي، أم حسان إنّني ... بها قبلَ ألاّ أملكَ البيعَ مُشتري
أحاديثَ تبقى، والفتى غيرُ خالدٍ ... إذا هو أمسى هامةً فوق صيِّرِ
دعيني أطوِّفْ في البلاد لعلّني ... أخلّيكِ أو أُغنيكِ عن سوءِ محضري
فإن فاز سهمٌ للمنيّة لم أكن ... جزوعاً، وهل عن ذاكَ من متأخَّرِ
وإن فاز سهمي كفَّكم عن مقاعدِ ... لكُم خلفَ أدبارِ البيوتِ ومنظرِ
لحى اللهُ صُعلوكاً إذا جنَّ ليلُه ... مصافي المُشاشِ آلفاً كلَّ مجزرِ
يعدُّ الغنى من نفسه كلَّ ليلةٍ ... أصابَ قِراها من صديقٍ مُيسِّرِ
ينامُ عِشاءً ثمّ يصبح طاوياً ... يحثُّ الحصى عن جَنبهِ المتعفِّرِ
قليلُ التماس الزاد إلا لنفسهِ ... إذا هو أمسى كالعريشِ المُجوَّرِ
يُعينُ نساءَ الحيّ ما يستعنَّهُ ... ويُمسي طليحاً كالبعيرِ المُحسَّرِ
ولكنَّ صُعلوكاً صفيحةُ وجهِهِ ... كضوءِ شهابِ القابسِ المتنوِّرِ
مُطلاً على أعدائه يزجرونَه ... بساحتهم زجرَ المنيحِ المُشهَّرِ
فذلك إن يلقَ المنيّةَ يلقها ... حميداً وإن يستغنِ يوماً فأَجدرِ

شرح المفردات:

بنت منذر: زوج الشاعر – ذريني: دعيني وماضيه وذرَ – أم حسان: كنية زوج الشاعر – مشترٍ: طالبٌ للمكرمات والأمجاد – أحاديث: مفعول به لاسم الفاعل – الهامة: طائر كانت تزعم العرب أنه يخرج من القبر ويتحدّث بحديث الميت – الصيِّر: القبر: أخلّيك: أقتل وأدعك حرّة بعدي – أغنيكِ عن سوء محضري: أُغنيكِ عن رؤيتي ذليلاً أستجدي رزقي –

فاز سهمي: كناية عن نجاح عمله – لحى الله: قبح الله- المشاش: العظم الهش الدَّسِم – المجزر: المكان الذي تجزر فيه الإبل – القرى: طعام الضيف – الميسر: ميسور الحال – العريش: ما يُستظلُ به كالخيمة – الطليح المحسّر: البعير المنهوك من السَّفر – المنيح: قدح كثير الفوز من قداح الميسر – أجدر به: خليقٌ به أن يغتني لأنه ينفق ماله في المكرمات.

مفردات للشرح:

جنّ ليله – المُجور – القابس.

١٦ ـ الشّنْفَرى

أ ـ حياته ونشأته:

ثابت بن أوس الأزديّ، من الشعراء الصعاليك، والشّنفرى لقبٌ غلب عليه لعِظَم شفتيه، وقيل هو اسم مصري قديم أصله: سنفرو، ونشأته غامضة، وكلّ ما عرف عنه أنه أحد أغربة العرب، مع أنه يصرح في شعره أن أمّه حرّة. وعاش في كنف بني سلامان سبيّاً على الأرجح، لكنه نقم عليهم لظلم أصابه، فانتقل إلى قبيلة فهم، واتصل بتأبط شرّاً وتصعلك، وجعل همّه الانتقام من بني سلامان.

ب ـ شخصيته:

جـ ـ شعره: وأكثر نتاجه مقطوعات شعرية قصيرة لها موضوع واحد يجمع بينها، شأن شعر الصعاليك، وهو التشرّد وحياة المغامرة والثورة على البؤس، ويتجلّى في شعره التمرّد والخشونة، في حين تميّز شعر عروة بن الورد بمذهب إنساني رائع يدعو إلى العدالة الاجتماعية ومساعدة الفقراء، وانتزاع الأموال من الموسرين بالقوة لمساعدة الضعفاء.

له ديوان شعر مطبوع. وأشهر قصائده اللاميّة المنسوبة إليه، وقد نسبت إلى سواه، ومنها الأبيات المختارة.

د ـ قراءة في نص (إباءٌ وتَرَفُّع) للشَّنْفَرَى:

فطر العربي على رفض الضيم، والثورة على الظلم، فالضيم أشد وقعاً على نفسه من الحسام المهنّد، والكريم يجد في الأرض الواسعة منأى له عن الذل والأذى، ولو كان في نزوحه المعاناة والشقاء.

أقيمـوا بنـي أُمـي صُـدورَ مطـيِّكُمْ ... فـإني إلى قـومٍ سِـواكم لأميـلُ

فقـد حمَّـت الحاجـاتُ والليـلُ مقمـرُ ... وشُـدَّتْ لطيّـاتي مطايـا وأرحُـلُ

وفي الأرضِ منـأىً للكـريم عـن الأذى ... وفيهـا لمـنْ خـاف القـلى مُتعـزَّلُ

لعمرك ما بالأرض ضيقٌ على امرئٍ سرى راغباً أو راهباً وهو يعقلُ
ولي دونكمْ أهلون: سيدٌ عملَّسُ وأرقطُ زهلولُ، وعرفاءُ جيألُ
وكلُّ أبيٍّ باسلٌ غيرَ أنني إذا عرضت أُولى الطرائدِ أبسلُ
وإن مدّتِ الأيدي إلى الزّادِ لم أكنْ بأعجلهم إذ أجشعُ القومِ أعجلُ
وربّي كفاني فقدُ من ليسَ جازياً بحُسنى ولا في قُربِه مُتعلَّلُ
أثلاثة أصحابٍ: فؤادٌ مُشيَّعٌ وأبيضُ إصليتٌ وصفراءُ عيطلُ
أديمُ مِطالَ الجوعِ حتى أميتهُ وأضربُ عنه الذِّكرَ صفحاً فأذهلُ
ولولا اجتناب الذّامِ لم يبقِ مشربٌ يُعاشُ به إلاّ لديَّ ومأكَلُ
لكنّ نفساً حُرّةً لا تُقيمُ بي على الضَّيمِ إلاّ ريثَ ما أتحوَّلُ

شرح المفردات:

أقيموا صدور مطيّكم: ارفعوا ظلمكم عنّي أو جدّوا في السير – حُمّ الأمر: قدر – الطيّات: ج طيّة: وجهه المرتحل – الأرحل: ج رحْل: ما يجعل على ظهر البعير كالسرّج أو ما تستصحبه للسّفر من متاع – القلى: البغض – متعزَّل: مُتنحّى – السِّيد: الذئب – العملّس: القوي الشديد السِّير – الأرقط: من صفات النَّمِر – الزّهلول:الأملس ـ العرفاء: صفة للضّبْعُ الطويلة العرف ـ جيأل: من أسماء الضبع ـ متعَلّل: مُتَلَّهى ـ أبيضُ إصليت: سيف صقيل ـ ضفراء عيطل: قوس طويلة حسنة – مشيَّع: جريء – المِطال: مصدر ماطل وهو التسويف والمدافعة – الذّام: الغيب.

مفردات للشرح:

الحُسنى – استفّ – متحوَّل – أذهلُ.

قال الشنفرى الأزدي:

أقيموا بني أي صدور مطيكم فإني إلى أهل سواكم لأميل
فقد حمت الحاجات والليل مقمر وشدت لطياتي مطايا وأرحل

وفي الأرض منـأى للكـريم عـن الأذى ... وفيهـا لمـن خـاف القـلى متعـزَّل
لعمـرك مـا بـالأرض ضـيق عـلى امـرئ ... سرى راغبـا أو راهبـا وهـو يعقـل
ولي دونكـم أهلـون: سـيد عملـس ... وأرقـط زهلـول وعرفـاء جيـأل
هـم الـرهط لا مسـتودع السرـ شـائع ... لـديهم ولا الجـاني بـما جـر يخـذل
وكـل أبيٍّ باسـلٌ غـير أنني ... إذا عرضـت أولى الطرائـد أبسـل
وإن مـدت الأيـدي إلي الـزاد لم أكـن ... بـأعجلهم إذ اجشـع القـوم أعجـل
ومـا ذاك إلا بسـطة عـن تفضـل ... علـيهم وكـان الأفضـل المتفضـل
وإني كفـاني فَقْـدُ مـن لـيس جازيـا ... بحسـنى ولا في قربـه متعلّـلُ
ثلاثـة أصـحاب: فـؤاد مشـيع ... وأبـيض أصـليت وصـفراءعيطل
هتـوف مـن الملـس الحسـان يزينهـا ... رصـائع قـد نيطـت عليهـا ومحمـل
إذا زلّ عنهـا السـهم حنَّـتْ كأنهـا ... مـرزاة ثكـلى تـرن وتعـول
ولسـت بمهيـاف يعشي سـوامه ... مجدعـة سـقبانها وهـي بهـل
ولا جبـا أكهـى مـرب بعرسـه ... يطالعهـا في شـانه كيـف يفعـل
ولا خـرق هيـق كـان فـؤاده ... يظـل بـه الـمكاء يعلـو ويسـفل
ولا خـالفٍ داريـة متغـزل ... يـروح ويغـدو داهنـاً يتكحـل
ولسـت بعـلّ شرُّهُ دون خـيرِهِ ... ألـف إذا مـا رعتـه اهتـاج أعـزل
ولسـت بمحيـار الظـلام إذا نحـت ... هـدى الهوجـل العسـيف يهـاء هوجـل
إذا الأمعـز الصـوان لاقـى مناسـمي ... تطـاير منـه قـادح ومـفلل
أديـم مطـال الجـوع حتـى أميتـه ... وأضرب عنـه الـذكر صـفحاً فأذهـل
وأسـقف تـرب الأرض كـي لا يـرى لـه ... عـلي مـن الطـول امـرؤ متطـول
و لـولا اجتنـاب الـذام لم يبـق مشرـب ... يعـاش بـه إلا لـديَّ ومأكـل
ولكـنَّ نفسـاً حـرة لا تقـيم بي ... عـلى الضـيم إلا ريـثما أتحـول
وأطوي على الخمص الحوايا كـما انطوت ... خيـوط مـاري تغـار وتفتـل

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا ... أزل تهاداه التنائف أطحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيا ... يخوت بأذناب الشعاب ويعسل
فلما لواه القوت من حيث أمة ... دعا فاجتابته نظائر نحل
مهلهلة شيب الوجوه كأنها ... قداح بكفي ياسر تتقلقل
أو الخشرم المبعوث حثحث دبره ... محابيض رداهن سام معسل
مهرتة فوه كأنّ شدوقها ... شقوق العصيّ كالحات وبسل
فضج وضجت بالبراح كأنها ... وإياه نوح فوق علياء ثكل
وأغضى وأغضت وائتسى وائتست به ... أرامل عزاها وعزن أرمل
شكا وشكت ثم ارعوى بعد وارعوت ... وللصبر إن لم ينفع الشكو أجمل
وفاء وفاءت بادرات وكلها ... على نكظ مما يكاتم مجمل
وتشرب أسآري القطا الكدر بعدما ... سرت قرباً أحشاؤها تتصلصل
هممت وهمت وابتدرنا وأسدلت ... وشمر مني فارط متمهل
فوليت عنها وهي تكبو لعقرة ... يباشره منها ذقون وحوصل
كأن وغاها حجرتيه وحوله ... أضاميم من سفلي القبائل نزل
توافين من شتى إليه فضمها ... كما ضم أذواد الأصاريم منهل
فعبت غشاشاً ثم مرت كأنها ... مع الصبح ركب من أحاظة مجفل
وآلف وجه الأرض عند افتراشها ... بأهدأ تنبيه سناسن قحل
واعدل منحوضاً كأن فصوصه ... كعاب دحاها لاعب فهي مثل
فإن تبتئس بالشنفرى أم قصطل ... لما اغتبطت بالشنفرى قبل أطول
تبيت إذا ما نام يقظى عيونها ... حثاثاً إلى مكروهه تتغلغل
وإلف هموم ما تزال تعوده ... عياداً كحمى الربع أو هي أثقل
إذا وردت أصدرتها ثم إنها ... تثوب فتاتي من تحيت ومن عل

فإمـــا تريـنـــي كابنـــة الرمـــل ضـــاحيا ... عـــلى رقـــبة أحفـــى ولا أتنعـــل

فـــاني لمولـــى الصـــبر اجتـــاب بـــزة ... عـلى مثـل قلـب السـمع والحـزم أفعـل

وأعـــدم أحيانـــاً وأغنـــى وإنـــما ... ينـــال الغنـــى ذو البعـــدة المتبـــذل

فـــلا جـــزع مـــن خـــلة متكشـــف ... ولا مـــرح تحـــت الغنـــى أتخيـــل

ولا تزدهـــي الأجهـــال حلمـــي ولا أرى ... ســـؤولاً بأعقـــاب الأحاديـــث أنمـــل

وليلـــة نحـــس يصـــطلي القـــوس ربهـــا ... وأقطعـــه اللائـــي بـــها يتنبـــل

دعسـت عـلى بغـش وغطـش وصـحبتي ... ســـعار وإرزيـــز ووجـــر وأفكـــل

فأيمـــت نســـواناً وأيتمـــت إلـــدة ... وعـــدت كـــما أبـــدأت والليـــل اليـــل

فأصـــبح عنـــي بالغميصـــاء جالـــسا ... فريقـــان: مســـؤول وآخـــر يـــسأل

فقـــالوا: لقـــد هـــرت بليـــل كلابنـــا ... فقلنـــا: أذئـــب عـــس أم عـــس فرعـــل

فلـــم يـــك إلا نبـــأة ثـــم هومـــت ... فقلنـــا: قطـــاة ريـــع أم ريـــع أجـــدل

فـــإن يـــك مـــن جـــن لأبـــرح طارقـــا ... وإن يـــك إنســـاً مـــا كهـــا الإنـــس تفعـــل

ويـــوم مـــن الشـــعرى يـــذوب لعابـــه ... أفاعيـــه مـــن رمضـــائه تتململـــ

نصـــبت لـــه وجهـــي ولا كـــن دونـــه ... ولا ســـتر إلا الأتحمـــي المرعبـــل

وضـــاف إذا هبـــت لـــه الـــريح طـــيرت ... لبائـــد عـــن أعطافـــه مـــا ترجـــل

بعيـــد بمـــس الـــدهن والفـــلي عهـــده ... لـــه عـــبس عـــاف مـــن الغســـل محـــول

وخـــرق كظهـــر الـــترس قفـــر قطعتـــه ... بعاملتـــين ظهـــره لـــيس يعمـــل

فألحقـــت أولاه بـــأخراه مـــوفيا ... عـــلى قنـــة أقعـــي مـــراراً وأمـــثل

تـــرود الأراوي الصـــحم دوني كأنهـــا ... عـــذارى علـــيهن المـــلاء المـــذيل

ويركـــدن بالآصـــال حـــولي كـــأنني ... مـن العـصم أدفى ينتحـي الكـيح أعقـل

١٧ ـ هُنيّ بن أحمر

هنيُّ بن أحمر: أحد بني الحارث، من كنانة، شاعر جاهليّ مقلٌّ.

(قِسمةٌ ظالمة)

قال هُنيّ بن أحمر، وقد ظلمه قومُه:

١- أأخـيَّ أخـبرني ولسْـتَ بصـادقي ... وأخـوكَ ينفعُـكَ الـذي لا يكـذبُ

٢- أمـن القضـيَّةِ أنْ إذا اسـتغنيتُمُ ... وأمنـتُمُ فأنـا الغريـبُ الأجنـبُ

٣- وإذا الشَّـدائِدُ بالشَّـدائِدِ مـرَّةً ... أشـجينكم فأنـا المُحـبُّ الأقـرَبُ

٤- وإذا تكـونُ كريهـةٌ أُدعـى لهـا ... وإذا يُحـاسُ الحـيسُ يُـدعى جُنـدَبُ

٥- ولِجُنـدبٍ سـهلُ الـبلادِ وعـذبُها ... وليَ المِـلاحُ وجنـبُهُنَّ المُجْـدِبُ

٦- عجبـاً لتلـكَ قضـيَّةً، وإقـامتي ... فـيكم عـلى تلـك القضـيَّةِ أعجـبُ

٧- تلـك الظُّلامَـةُ قـد عرفـتُ مكانهـا ... لا أمَّ لي إنْ كـان ذاك ولا أَبُ

شرح المفردات:

استغنيتم: اغتنيتم واكتفيتم. الأجنبُ: الغريب عن البلد – أشجينكم: أحزنَّكم وشغلْنَ بالكُم – الكريهة: الشِّدَّة في الحرب – الحيس: طعام يُتَّخذ من التمر والسّمن واللبن المجفَّف. يُحاس الحيس: يخلط ويُعمل – جُندب: اسم علم – عذْب البلاد: مياهها العذبة – الملاح: مفردها المِلْح، وهي الأرض الكثيرة الملوحة – جنب الشيء: ناحيته – الظُّلامة: الحق الذي تطلبه عند الظالم– لا أمّ لي: تعبير بمعنى ثكلتني أمّي.

١٨ ـ دريد بن الصِّمّة

(فخر بالذات)

قال دريد بن الصِّمّة:

أعـــاذلُ إنـــما أفنـــى شـــبابي ... ركـــوبي في الصّريـــخِ إلى المنـــادي
مـــع الفتيـــان حتـــى كـــلّ جســـمي ... وأقـــرحَ عـــاتقي حمـــلُ النّجـــادِ
أعـــاذلُ إنّـــه مـــالٌ طريـــفٌ ... أحـــبّ إليَّ مـــن مـــالٍ تـــلادِ
ويبقـــى بعـــد حِلْـــمِ القـــومِ حِلمـــي ... ويفنـــى قبـــلَ زادِ القـــوم زادي

النِّجاد: حمائل السيف– المالُ الطريفُ: المكتسب الجديد والتِّلاد المال الموروث.

وقال دريد بن الصمة يوعد بني الحارث بن كعب:

يـــا بنـــي الحـــارث أنـــتم معشرـــ ... زنـــدكمُ وارٍ وفي الحـــرب بهـــم
ولكـــم خيـــل عليـــها فتيـــة ... كأســـود الغيـــل يحمـــين الأجـــم
لـــيس في الأرض قبيـــل مـــثلكم ... حـــين يـــرفض العـــدا غـــير جشـــم
لســـت للصـــمة إن لم آتكـــم ... بالخناذيـــذ تبـــارى في اللجـــم
فتقـــر العـــين منـــكم مـــرة ... بانبعـــاث الـــحر نوحـــا تلتـــدم
وتـــرى نجـــران منـــكم بلقعـــا ... غـــير شـــمطاء وطفـــل قـــد يـــتم
فانظروهـــا كالسعـــالي شـــزّبا ... قبـــل رأس الحـــول إن لم أخـــترم

وقال دريد بن الصمة أيضاً:

أعـــاذل إنـــما أفنـــى شـــبابي ... ركـــوبي في الصريـــخ إلى المنـــادي
مـــع الفتيـــان حتـــى كَـــلَّ جســـمي ... وأقـــرح عـــاتقي حمـــل النجـــاد
أعـــاذل إنّـــهُ مـــالٌ طريـــفٌ ... أحـــبّ إليَّ مـــن مـــال تـــلاد

أعـــاذل عـــدتي بـــدني ورمحـــي وكـــل مقلـــص شـــكس القيـــاد
ويبقـــى بعـــد حِلْـــمِ القـــوم حِلْمـــي ويفنـــى قبـــل زاد القـــوم زادي

١٩ ـ جليلة بنت مُرّة

قالت جليلة بنت مُرّة في نص (قاتلةُ مقتولةُ) بعد أن قتل أخوها جسّاسُ زوجها كُليباً:

فِعْـــلُ جَسّـــاسٍ عـــلى وَجْـــدي بـــه ... قـــاطعٌ ظَهـــري ومُـــدْنٍ أجـــلي

يـــا قتـــيلاً قـــوَّضَ الـــدّهرُ بـــه ... ســـقْفَ بيتـــيَّ جميعـــاً مـــن عـــلِ

هَـــدّم البيـــتَ الـــذي اســـتحدثْتُهُ ... وانثنـــى في هـــدم بيتـــي الأوّل

إنّنـــي قاتلـــةٌ مقتولـــةٌ ... ولعـــلَّ اللهَ أن يرتـــاحَ لي

٢٠. بشر بن أبي خازم الأسدي

أ ـ حياته ونشأته:

هو بشر بن أبي خازم بن عوف بن حميري بن ناشرة بن أسامة والده ابن الحارث بن مدركة من نزار، شاعر جاهلي من قوم عبيد بن الأبرص الأسدي، يقال: إن (سوادة) أخا الشاعر أو ابن أخيه ممن كان ينبهه على إقوائه في الشعر، وله أخ آخر اسمه (سمير) أكبر منه رثاه بثلاث قصائد صادقة. وله ولد اسمه (نوفل) حضر مع أبيه حلف أسد وطيئ، وله ابنة اسمها (عميرة)، أما زوجته فليس هناك خبر عنها، وقد ورد أنّه عشق امرأة اسمها (هند) أو (هنيدة) ولكنه ذكر نساء كثيرات في شعره على عادة الشعراء السابقين، وقد عاش في عصر أبي قابوس النعمان بن المنذر من ملوك الحيرة أو آخر القرن السادس الميلادي، وقد كان حياً قبل ظهور الإسلام.

ب ـ شخصيته:

ج ـ شعره: يعد بشر بن أبي خازم أحد فحول الشعراء الجاهليين، فقد أورده ابن سلام الجمحي مع الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية في كتابه طبقات فحول الشعراء مع أوس بن حجر والحطيئة وكعب بن زهير، وقد توافق الفرزدق مع جرير في تفضيل بشر بن أبي خازم على غيره من الشعراء لقوله:

ثـــوى في ملحـــد لابـــد منـــه كفـــى بـــالموت نأيـــاً واغترابـــا

وقوله:

رهـــين بـــلى وكـــل فتـــى ســـيبلى فشُـــقّي الجيـــب وانتحبـــي انتحابـــا

وقد اعتبر عمرو بن العلاء أن بشر بن أبي حازم والنابغة فحلان من فحول الجاهلية على أن بشراً كان أكثر إقواء من النابغة وأثنى على قصيدته التي مطلعها:

أحـــق مـــا رأيـــت أم احـــتلام أم الأهـــوال إذ صـــحبي ينـــام

وقد كان لحادثة هجاء بشر لأوس بن حارثة بن لام سيد بني جديلة من طيئ بعد أن ألبسه النعمان بن المنذر ملك الحيرة حلته وأخذه لثلاثمئة من النوق أثر كبير في حياته، فقد عرضت هذه الحادثة الشاعر لغضب أوس الذي أغار على نوقه، ففر الشاعر ولجأ إلى قومه بني أسد الذين حموه.

ومما قال في هجاء أوس:

فيا عجبا أيوعدني ابن سعدى وقد أبدى مساوئه الهجاء

وحولي من بني أسد حلول كمثل الليل هنّاه الغضاء

وقد وقعت بين قوم أوس بني جديلة بن طيئ وبني أسد قوم بشر معركة قتل فيها الكثير، ولكن بشراً ولّى هارباً إلا أنه وقع في الأسر وأراد أوس قتله، فجاءت أمه إليه فقالت له: والله لا محا هجاءه لك. إلا مدحه إياك. فعفا عنه فأقسم الشاعر قائلاً: والله لا مدحت أحداً غيرك حتى أموت، وقد قتل الشاعر في أحدى الغارات، فقد أدركه سهم من وائلي أصاب ثدييه، مما جعل بشر يعتنق فرسه وهو جريح، ثم أنشد يرثي نفسه مخاطباً ابنته (عميرة):

فإنّ الوائليَّ أصاب قلبي بسهم لم يكن يكسى لنابا

ثوى في ملحد لابدّ منه كفى بالموت نأياً واغترابا

رهين بلى وكل فتى سيبلى فأذري الدمع وانتحبي انتحابا

وترجع المصادر وفاته سنة / ٢٢/ قبل الهجرة النبوية المشرفة ٥٩٧/ م، وقيل: / ٣٢/ قبل الهجرة/ ٦٠٨ / م.

٢١ ـ الخنساء

تماضر بنت عمرو بن الشريد

أ- حياتها ونشأتها:

ولدت الخنساء عام ٥٧٥ م ـ وتوفيت عام ٦٤٤م، على أفضل التقادير، وهي تماضر بنت عمرو بن الشريد من بني سليم تربت في بيت سيادة؛ إذ إن أباها وأخويها معاوية وصخراً من سادات القبيلة، وقد تزوجت من رواحة بن عبدالعزيز السلمي ابن عمها، ثم انفصلت عنه بعد أن أنجبت منه ولداً، ثم تزوجت مرداس بن أبي عامر، وأنجبت منه يزيد ومعاوية وعمرو وعمرة، فجعت الشاعرة بفقد أخويها معاوية وصخر وبكتهما بكاء مراً، أدركت الخنساء الإسلام ووفدت على الرسول صلى الله عليه وسلم مع قومها وأنشدته من شعرها، ودفعت أولادها الأربعة للمشاركة في معركة القادسية، فلم تجزع عليهم جزعها على أخويها؛ لأنها كانت تدرك أنّهم في الجنة، وقد توفيت الخنساء في أول خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. لقبت بالخنساء لتأخر أنفها عن الوجه مع ارتفاع قليل في الأرنبة. وهي صفة أكثر ما تكون في الظباء. وقد رفضت الخنساء بعد موت زوجها مرداس بن أبي عامر الزواج من الشاعر دريد بن الصمّة معللة ذلك بكبر عمره.

ب ـ شخصيتها: تميزت الخنساء بامتزاج صفتي لين الأنوثة وشدة الرجولة مع عاطفة جياشة؛ إذ إنها كانت في الجاهلية تفد إلى سوق عكاظ وتنشد أشعارها في خيمة النابغة تسابق حسان والأعشى، ولكن موت أخيها صخر الذي كان العون الكبير لها جعل عاطفتها تتفجر حزناًعليه؛ مما جعل بعض النقاد المعاصرين كيوسف سامي اليوسف يطلق عليها (الكسترا العرب).

تقول الخنساء:

يذكرني طلوع الشمس صخرا ... وأذكره لكل غروب شمس

حتى أنها لتكاد تقتل نفسها أسفاً عليه:

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

والسبب في تفجُّع الشاعرة على أخيها صخر وعدم نسيانها إياه أنه كان يمنحها شطر ماله كلما أتلف زوجها ماله:

فـــلا والله مـــا أنســـاك حتـــى أفـــارق مهجتـــي ويشـــق رمسي

فقـــد ودّعـــت يـــوم فـــراق صـــخر أبـــي حسّـــان لـــذّاتي وأُنسي

وقد أدى بها كثرة البكاء إلى أن تصاب بالعمى فتتحول إلى امرأة صبور، لا تملك إلا أن تقول عند سماع خبر مقتل أبنائها الأربعة: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر رحمته".

ج ـ شعرها: تشير الباحثة الدكتورة عائشة عبد الرحمن إلى أن الخنساء شاعرة جاهلية كانت تفد إلى خيمة النابغة وتنشد أشعارهم، بينما يشير مؤرخو الأدب إلى أن الخنساء شاعرة مخضرمة عاشت العصرين الجاهلي والإسلامي، وقالت شعراً في كلا العصرين، ولكن شعرها في رثاء أخيها صخر قد غلب على معظم شعرها تقول:

أعينـــيّ جـــودا ولا تجمـــدا ألا تبكيـــان لصخـــر النـــدى

ألا تبكيـــان الجـــريء الجميـــل ألا تبكيـــان الفتـــى السيـــدا

وتجمع الشاعرة في مراثيها بين الحزن والفخر:

قـــذىً بعينـــك أم بـــالعين عـــوّار أم ذرّفـــت إذ خلـــت مـــن أهلهـــا الـــدارُ

وإن صـــخراً لتـــأتم الهـــداة بـــه كأنـــه علـــمٌ فـــي رأســـه نـــارُ

ومـن أروع ما روي عـن الخنساء قصيـدة رائية صـورت مشهـد سباق بين أبيها وأخيها صخر سبق الأب فيها الابن:

جـــارى أبـــاه فـــأقبلا وهمـــا يتعـــاوران مـــلاءة الفخـــر

حتـــى إذا نـــزت القلـــوب وقـــد لـــزّت هنـــاك العـــذر بالعـــذر

بـــرزت صـــفيحة وجـــه والـــده ومضى عـــلى غلوائـــه يجـــري

وهمـــا كأنهمـــا وقـــد بـــرزا صـــقران قـــد حطّـــا عـــلى وكـــر

٢٢ ـ عَبْدُ قيس بن خُفَاف البُرْجُميّ
(الحكمةُ والتأمّل)

أ ـ حياته ونشأته: أبو جُبّيل عبد قيس بن خفاف البُرجمي، من شرفاء قومه بني تميم وشجعانهم في الجاهلية والإسلام. عاصر حاتماً الطائي والنابغة، والنعمان بن منذر، ويبدو أنه عُمّر طويلاً. في حِكمته يتجلّى الإيمان بالخالق، والنهي عن الحلف باسمه بالباطل، والسعي إلى الخير بين الناس، والترفّع عن مجالس السوء. لم يصلنا من شعره إلا القليل مما ورد في المفضَّليات والأصمعيات وغيرهما من المراجع، ومن أجود ما نظمه في رثاء حاتم الطائي قوله:

عيشُ النّدى ما عاش حاتمُ طيِّءٍ ... وإن ماتَ قامتْ للسَّخاء مآتِمُ
نادينَ: مات الجودُ معْك فلا نرى ... مُحجباً له ما حامَ في الجوّ حائِمُ

ب ـ شخصيته:

ج ـ شعره:

د ـ (مكارمُ الأخلاق) لعبْد قيس البُرْجُميّ

حين تشرف شمس الحياة على الأفول، يوّد الشيخ أن يقدّم لأبنائه عصارة عمره وتجربته الطويلة في الحياة، فيجنّبهم الزلّل والعثار، ويرقد مطمئناً؛ لأن راية الأخلاق الكريمة ستظلّ مرفوعة بين الناس.

أَجُبّيْلُ إنّ أباكَ كاربَ يومَهُ ... فإذا دُعيتَ إلى العظائم فافعلِ
أُوصيكَ إيصاءَ امرئٍ لكَ ناصحٍ ... طَبِنٍ برَيْبِ الدّهرِ غيرِ مُغفَّلِ
اللهَ فاتّقهِ وأوفِ بنذْره ... وإذا حلَفتَ مُمارياً فتحلَّلِ
واعلمْ بأنَّ الضَّيفَ مُخبِرُ أهله ... بَمبيتِ ليلتِهِ، وإن لم يُسْألِ

وَصِـــلِ المُواصِـــلَ مـــا صـــفا لـــكَ ودُّهُ واحـــــذرْ حِبـــــالَ الخـــــائنِ المتبـــــذَّلِ
واتـــرُكْ محـــلَّ الســـوء لا تحلُـــلْ بـــه وإذا نبـــــا بـــــكَ منـــــزلٌ فتَحَـــــوَّلِ
وإذا همّمـــــــت بـــــأمرِ شرٍّ فاتّئـــــدْ وإذا هممـــــت بـــــأمرِ خـــــيرٍ فافعـــــلِ
وإذا افتقـــرتَ فـــلا تكـــنْ مُتَخشِّـــعاً ترجـــو الفضـــالَ بـــأمرِ خـــيرٍ فافعّـــلِ
وإذا تشـــــاجرَ في فـــــؤادِكَ مـــــرّةً أمـــــران، فاعمـــــدْ للأعَـــــفِّ الأجْمَـــــلِ

شرح المفردات:

كاربَ: قاربَ – طبن: خبير – حلفت مماريا: أقسمت يميناً وأنت تعرف أنك لست على حقّ – تحلّلْ: تخلص من يمينك الكاذبة بالتوبة والتكفير – أتّئد: تمهّل – الخَصاصة: الفقر والحاجة – تجمّل: اصبر – تشاجَرَ: تَخالفَ وتباينَ.

٢٣ ـ المُتلمِّس الضُّبَعِيّ

أ ـ حياته ونشأته: هو جرير بن عبد المسيح من بني ضُبيعة بن مالك بعض بني بكر بن وائل، شاعر جاهليّ قديم، مجيد حكيم ثائر، وهو خال الشاعر طرفة بن العبد، وعنه أخذ طرفة الشعر. كانت منازل قومه في البحرين، وبها نشأ وعاش الشطر الأول من حياته. ونادم عمرو بن هند ملك المناذرة في الحيرة، ثم هجاه لظلمه وطغيانه، وأراد عمرو قتله فالتجأ إلى الشام ولحق بملوك الغساسنة. أقام خمسة عشر عاماً في بصرى ودمشق، وهو يرسل قصائده إلى قومه، يهجو عمرو بن هند ويحضُّهم على الثورة عليه، حتى وافته المنية ببصرى سنة خمسين قبل الهجرة النبوية، نحو ٥٦٩ للميلاد. كان له ولد شاعر اسمه عبد المنَّان أدرك الإسلام.

ب ـ شعره:

يعد الهجاء من أكثر أغراض شعره، وقد أكثر من هجاء عمرو بن هند، وكتب في الحكمة، وله فيها أبيات شوارد بارعة مبتكرة واضحة المعنى، كما وله عتاب كثير وفخر وافر.

له ديوان شعر مطبوع فيه ما بقي من شعره، وقد ترجمه أحد المستشرقين الألمان إلى اللغة الألمانية.

ـ صحيفة المتلمس: اشتُهرت في أخبار الأدب صحيفة المتلمّس، فقد روي أن عمرو بن هند لمّا غضب على المُتلمِّس وعلى ابن أخته طرفة بعد أن كانا ينادمانه كتب لكلّ واحد منهما رسالة إلى المُكَعبر، عامله على البحرين، وأوهمهما أنه أمر لهما في الرسالتين بجائزتين. فيقال: إنّ المتلمّس شكّ في ذلك فدفع رسالته إلى صبّي من صبيان الحيرة قرأها له فإذا فيها أمر بقتله، فشقَّها وألقاها في النهر. ثم إنَّه قال لطرفة: ما في رسالتك إلاّ كالذي في رسالتي، لم يقتنع طرفة بذلك، بل تابع طريقه إلى البحرين فقتله المُكعبر، أما المتلمِّس فإنه فرَّ من العراق إلى الشام لاجئاً إلى الغساسنة.

١ - ألـــكَ السَّـــديرُ وبَـــارقٌ ومُبـــايضٌ ولـــكَ الخورنـــقْ

٢ - والقصرُ ذُو الشُّرفاتِ مـــنْ سـنـدادَ والنَّخْـــلُ المُسَـــقْ

٣- والغمـــرُ ذو الأحْســـاء، والـــ ـــذاتُ مِـــنْ صـــاعٍ وديسَـــقْ لـ

٤- والثَّعْلبيَّـــــــةُ كُلُّهـــــــا والبـــدْو مِـــنْ عـــانٍ ومُطلَـــقْ

٥- وتَظَـــلُّ في دُوَّامـــةِ الـــ ـــولُـــودِ يُظلمُهـــا تحـــرَّقْ مولُـ

٦- فلـــئنْ تعـــشْ فليـــبلُغَنْ أرماحُنـــا مِنْـــكَ المُخَنَّـــقْ

٧- مـــا للّيـــوثِ، وأنـــتَ جَـــا مِعُهـــا برأيِـــكَ، لا تُفـــرَّقْ

٨- والظُّلـــمُ مربـــوطٌ بأفْـــ نيـــةِ البيـــوتِ أغـــرُّ أبلَـــقْ

شرح المفردات:

السَّدير: قصر – بارق: ماء بالعراق – مُبايض: جبل وراء الدَّهناءِ في جزيرة العرب – الخورنقُ: قصر كان يظاهر الحيرة – سنداد: نهر فيما بين الحيرة إلى الأبلَّة، وكان عليه قصر المُبسَّق الذي طال وتمّ ارتفاعه – الغمر: موضع – الأحساء: مفردها حسي، وهي حفيرة قريبة القعر. يستنقع فيها الماء تحت الرمل – الصّاع: مكيال – الدَّيسق: خوان من الفضة– الثَّعلبيّة: موضع – العاني: الأسير – المطلق: الطَّليق – الدُّوامة: تلعب بها الصبيان تُلفُّ بخيط، ثم ترمى على الأرض يقال لها في الشام "البلبل" – المولود، هنا: ولدُ الملك – تحرق: تلتهب غضباً– المخنق: موضع الخناق من العُنُق. الأغرُّ: الأبيض الواضح. البلق: السّواد والبياض في الخيل، وأراد هذا الملك أمام كل بيت مشهور ظاهر.

٢٤ ـ لقيط بن يَعْمُر الإياديّ

(التحرّر السياسيّ)

أ ـ حياته وشعره: شاعرٌ جاهليٌّ مُقلٌّ، كان مثقّفاً يتمتع بسداد الرأي والغيّرة على قومه. عملَ كاتباً عند كسرى، وحينما صمّم كسرى على غزو قبيلته إياد وأمر لقيطاً أن يكتب إليهم كتاباً يطمئنهم فيه إلى نيّاتِ كسرى ويستدعيهم إليه، كان لقيط يعرف حقيقة المؤامرة، فكتب إلى قومه يطالبهم أن يتنبّهوا ويحذروا المكيدة. وتذكُرُ كتب الأدب أنَّ إياداً اختلفت على نفسها، ولم تأخذ برأي لقيط فأوقع بهم كِسرى، واكتشف كتابَ لقيط فأمر بقطع لسانه.

ب ـ شعره:

أبلِغْ إياداً وخلّلْ في سراتهمُ ... إنّي أرى الرأيَ إنْ لم يُعصَ قد نصَعا

يا لهفَ نفسيَ إن كانت أُمورُكُمُ ... شَتى وأُحْكِم أمرُ النّاسِ فاجتمعا

مالي أراكمُ نياماً في بُلَهْنيةٍ ... وقد تروْن شهابَ الحربِ قد سطعا

فاشفوا غليلي برأيٍ منكُمُ حَصِدٍ ... يصبحْ فؤادي به ريّانَ قد نقعا

لا تُثمِروا المالَ للأعداءِ إنَّهُمُ ... إن يظهروا يحتووكم والتِّلادَ معا

يا قومُ إنّ لكُم منْ إرث أوَّلِكُم ... مجداً أحاذرُ أن يفنى وينقطعا

ماذا يردُّ عليكمُ عزَّ أوَّلكُمُ ... إن ضاعَ آخرُهُ أو ذلّ واتضعا

يا قومُ لا تأمنوا إن كنتُمُ غُيُراً ... على نسائكُمُ كسرى وما جَمعا

هو الفَنَاءُ الذي يجتثُّ أصلَكُمُ ... فمنْ رأى مثلَ ذا رأياً ومنْ سَمعا

قوموا قياماً على أمشاط أرجلِكم ... ثم افزعوا قد ينالُ الأمنَ مَنْ فزعا

وقلِّدوا أمركمْ لله دَرُّكمُ ... رحبَ الذِّراعِ بأمرِ الحربِ مُضطَلعا

هذا كتابي إليكُمْ والنّذيرُ معاً ... لمنْ رأى منكُمُ رأياً ومنْ سَمعا

وقـد بـذلتُ لكـم نُصـحي بـلا دَخَـلٍ فاسـتيقظوا إنّ خـير العلـمِ مـا نفعـا

شرح المفردات:

خلّل في سراتهم: أكثر التجّوال خلالهم. نصعَ: وضحَ وظهر. شتى: مُتفرقة – بلنيهة: نعمة وغفلة – حصدُ: ناضجُ- نقع: ارتوى ظمؤه – القسيّ: جمع قوس – الشّرعُ: جمع شرعة وهي الوتر – إن يظهروا: ينتصروا – التّلاد: المال القديم الموروث – اتَّضع: سقط – غير: جمع غيور وهو الذي يثور لكرامته – افزعوا: احذروا – رحب الذّراع: قويّ واسع الصدر – مضطلع: مقتدر قويّ التحمّل – دخلُ: غِشّ.

٢٥ ـ عبيد بن الأبرص

أ ـ حياته ونشأته: عاش عبيد بن الأبرص بين منتصف القرنين الخامس والسادس للميلاد، ورأى حجراً أبا امرئ القيس ولم يقل الشعر إلا كبيراً، وإن كانت بعض الروايات تتأخر بوفاته.

ب ـ شعره: وصف الإبل والخيل والصحراء ومناظرها مثل وصف امرئ القيس لها، لكنه عني بوصف البرق والمطر والسحاب والعواصف عناية تستحق وقفة، ومن اليسير أن نتبين فيها معاني امرئ القيس معروضة عرضاً سهلاً مطاوعاً تكسبه المميزات الشخصية طرافة، ومنها قوله:

سقى الرباب مجلجل آل ... أكتاف لماح بروقه

جون تكفكفه الصبا ... وهنا وتمريه خريقة

مرى العسيف عشاره ... حتى إذا درت عروقه

ودنا يضيء ربابة ... غابا يضرمه حريقه

حتى إذا ما ذرعه ... بالماء ضاق فما يطيقه

هبت له من خلفه ... ريح يمانية تسوقه

حلت عزاليه الجنوب ... فثج واهية خروقه

فهذا اللون من متابعة الرياح واستدرار المطر منها معروف عند امرئ القيس، لكن هذا الوصف يمتاز بوضوح التمثيل والإطناب فتبدو الرياح مشتبكة مع السحب تلاينها حيناً، وتشد عليها حيناً حتى يضيق ذرعها بالماء فتلقيه، ويبدو الشاعر أشد إعجاباً بهذه المعركة، والتأثر بالبيئة واضح حين يذكر العبد يمري ضروع العشار الغزيرة اللبن، وقد تكرر هذا الضرب من الوصف في مواضع أخرى من شعره بين الإطناب والإيجاز، وجملة المعاني ليست جديدة بعد الذي مر في شعر امرئ القيس.

ومعلقته أو القصيدة التي مطلعها:

أقفـــــر مـــــن أهلـــــه ملحـــــوب فالقطيبيـــــــــات فالـــــــــذنوب

تدور حول وصف الطبيعة، أما هذا الجزء الذي يعظ فيه الشاعر ويتحدث عن الله والتوحيد فواضح فيه الغرابة عن موضوعات القصيدة بوضعه بين حديث الأطلال وورود الماء ووصف الفرس، وبالنغمة الإسلامية الواضحة، وبخاصة إذا ذكرنا ديدن الشاعر الجاهلي في الخلاص من الأطلال إلى حديث الراحلة.

وقد بدأها بأحاديث عن الأطلال حديثاً عدد فيه منازل الحبيبة، وقال: إنها أصبحت قفراً تسكنها الوحوش وتتوارثها الجدوب من حل بها سلب، ثم يتحدث عن الدمع المسكوب.

معلقة عبيد بن الأبرص

٢٦ ـ حسان بن ثابت الأنصاري

أ ـ نشأته وحياته:

ولد حسان بن ثابت بن المنذر بن حزام النجاري، الخزرجي في المدينة المنورة عام سبعين قبل الهجرة، وتوفي في زمن معاوية عام ٥٤هـ ـ ٦٧٤م، وقد عاش مئة وعشرين سنة نصفها في الجاهلية ونصفها في الإسلام، وهو شاعر مخضرم وفد على الغساسنة في الشام، ووفد على المناذرة في الحيرة، ثم وقف شعره بعد قدوم الرسول إلى المدينة على المنافحة عن الدين الجديد.

ب ـ شخصيته: كان حسان بن ثابت قد بنى شخصيته الشعرية من القيم التي استقاها أيام جاهليته، وبعد إسلامه، ولكنه بقي متميزاً بسرعة الانفعال والاعتزاز الشديد بنفسه والمبالغة في التعصب لقومه، اتهمه بعض النقاد بالجبن لعدم مشاركته مع الرسول في غزواته مع أنه كان مصاباً بعلة إضافة إلى كبر سنّه منعاه من ذلك، وقد وصفه الرسول عليه السلام بالأسد قائلاً: "قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضاري بذنبه"، داعياً حسان لقتال المشركين.

ج ـ شعره: كتب حسان في معظم أغراض الشعر العربي مدحاً وهجاء وفخراً ورثاء وخمراً وغزلاً، ومن مديحه، يقول:

لله درّ عصابة نادمتهم ... يوماً بجلق في الزمان الأول

بيض الوجوه كريمة أنسابهم ... شم الأنوف من الطراز الأول

ومن شعره في الفخر والهجاء قوله في هجاء ابن الأسلت أحد سادة الأوس:

ألا أبلغ أبا قيس رسولا ... إذا ألقى لها سمعاً تبينُ

نسيت الجسر يوم أبي عقيل ... وعندك من وقائعنا يقينُ

تشيب الناهد العذراء فيها ... ويسقط من مخافتها الجنينُ

قتلتـــــم واحـــــداً منّـــا بألـــــف هـــــلا لله ذا الظفـــــر المبـــــينُ

ومن هجائه لأبي سفيان حين تعرض للرسول عليه السلام، يقول:

هجـــوت محمـــداً فأجبـــت عنـــه وعنـــــــد الله في ذاك الجـــــــزاءُ

أتهجـــــوه ولســـت لـــه بكـــفْءٍ فشرّ ـــــكما لخيـــــركما الفـــــداءُ

يغلب على أسلوب حسان الرقة وسلاسة التعبير، فهو حضري شعره مشوب بالعاطفة والانفعال الظاهر، جعله ابن سلام أشعر الشعراء الإسلاميين.

شهد حسان تخبط الحياة الجاهلية إبان أفولها فقد سبق ذلك بفترة من الزمن حدوث سيل العرم، وهاجرت القبائل فأقام المنادرة على تخوم العراق تابعين للقرى وأقام الغساسنة بجوار الشام تابعين للروم، وسكن الأوس والخزرج المدينة مع يهودها وتخزعت خزاعة جنوب مكة وبقية القبائل اليمنية مكانا وسطا مثل كندة وقضاعة وكانت المدينة ذات آطام ونخل وأهلها من غير عدنان نزلها العماليق، وكان قد نزلها يثرب بن عبيل من نسل سام بن نوح، ثم أهلكوا:

عـــين جـــودي عـــلى عبيـــل وهـــل يـــر جـــع مـــا فـــات فيضـــها بالسّـــجامِ

عمـــــروا يثـــــرب بهـــــا ســـــفر ولا صـــــــارخ ولا ذو ســـــــنامِ

ثم نزلها يهود قريضة والنضير بعد فرارهم من بختنصر وسكانهم في المدينة وخيبر، ونزح إليها إخوانهم بعد ظهور النصرانية وترغيب الرهبان والأحبار بمسكنها، وقد استجار الأوس والخزرج بالغساسنة للخلاص من استغلال اليهود فأصبحوا ذوي عزة ومال وسلطان والأصل في أن الأوس والخزرج هما أبناء قبيلة بنت جفنة أبوهما حارثة بن ثقيلة. زحمتهم الأحداث فتفرقوا، وقد قال حسان.

إمـــا ســـألْتَ فإنّـــا معشرٌ ـــنُجُـــبٌ الأزد نســـــبتُنا والمـــــاءُ غسّـــــانُ

ولقد عاصر حسان بن ثابت الجاهلية ستين عاماً فتأثر شعره بحياتها، فكان من أشهر شعراء اليهود كعب بن الأشرف والربيع بن الحقيق، وكان بنو قريضة وبنو النضير حلفاء للأوس وبنو قينقاع حلفاء للخزرج، فإذا ما اختلف الحيّان عاضد اليهود وحلفاءهم وناقض ابن الأشرف شاعر بني النضير حسان بن ثابت شاعر الخزرج، وقد عاصر حسان شعراء من

مكة من مثل(أبي طالب وأبي سفيان وضرار بن الخطاب، وابن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبي عرة عمر بن عبد الله الجمحمي، وهبيرة بن أبي وهيب وعبد الله بن خطل وقيس بن ضبابة، والزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن حذافة السهمي) ولكون قريش ذات مكانة دينية لوجود البيت الحرام في أرضها فقد بقيت قليلة الانغماس في الشهوات بعيدة عن الغارات نادرة الحروب مما جعل شعراؤها بعيدين عن بواعث الشعر، ومن هنا كان شعرهم أقل من شعر المدينة، ويشبه شعر الطائف شعر مكة للأسباب نفسها كالصلت بن أبي ربيعة وأمية بن أبي الصلت وأبو محجن ابن حبيب بن عمرو الثقفي وغيلان بن سلمة وكنانة بن عبد ياليل، وقد كان حسان في جاهليته يفد على ملوك غسان آل جفنة بالشام ويمدهم، وقد زار حسان جبلة بن الأيهم ومدحه وعن يمينه النابغة الذبياني وعن يساره علقمة عبده، فأنشد النابغة:

كليني لهم يا أميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وأنشد علقمة:

طحا بك قلبٌ في الحسانِ طروبُ ... بعيد الشباب عصر حانَ شيبُ

وأنشد حسان:

لله در عصابةٍ نادمتهم ... يوما بجلّقَ في الزمان الأوّلِ

فقال جبلة: ادنه ما أنت بدونهما، ثم أمر لي بثلاثمئة دينار وعشرة أقمصة لها جيب واحد، وقال: هذا لك عندنا كل عام، وكذلك وفد على اللخميين في الحيرة ومدح النعمان ابن المنذر فأجازه وأكرمه بعد أن قال فيه:

وأنا الصقر عند باب ابن سلمى ... يوم نعمان في الكبول مقيم

وأبي روافد أطلق لي ... ثم رحنا وقفلهم محطوم

أما في خلاف الأوس والخزرج فقد كان حسان يفاضل ويناصر الخزرج ويشيد بأيامهم وأمجادهم ويهجو الأوس وشاعرهم قيس بن الخطيم، ومن ذلك مخاطبته له:

فلا تَعْجَلَنْ يا قيس واربع فإنما ... قصاراك أن تكفي بكل مهند

حسام وأرماحٌ بأيدي أعزة ... متى ترهم يابن الخطيم تبلد

د ـ مذهب حسان الشعري في الجاهلية: دعا حسان رضي الله عنه إلى التغني بالشعر:

تغـــن بالشـــعر إمـــا أنـــت قائلـــه إن الغنـــاء لهـــذا الشـــعر مضـــمار

وأحسن الشعر في رأي حسان ما جادت به قريحته مطابقاً للواقع والصدق وسلامة المنطق:

وإنـــما الشـــعر لـــبّ والمـــرء يعرضـــه عـــلى المجـــالس إن كيهـــاً وإن حمقـــا

وإنّ أشـــعرَ بيـــتٍ أنـــت قائلـــه بيـــتٌ يقـــالُ إذا أنشـــدته صـــدقا

فشاعريته محلقة في السماء يعجز عن أمثالها الشعراء:

وقافيـــة عجـــت بليـــل رزينـــة تلقيـــت مـــن جـــو الســـماء نزولهـــا

يراهـــا الـــذي لا ينطـــق الشـــعر عنـــده ويعجـــز عـــن أمثالهـــا أن يقولهـــا

وهو لا يتكئ على أحد في شعره؛ لأنه ملك نفسه في الشعر:

لا أسرق الشـــعراء مـــا نطقـــوا بـــل لا يوافـــق شـــعرهم شـــعري

فهو لم يلتزم في شعره مذاهب شعراء عمره كزهير والنابغة والحطيئة والأعشى، وهو لم يتكلف بشعره ولم يحفل بنعيته، بل يتركه على رسله حسب ما جادت به القريحة، فمعانيه وأساليبه متنوعة وألفاظه ومبانيه متباينة، ويجتمع في شعره (المألوف والغريب واللين والفخم) ولم تسلم أساليبه في الجاهلية من الألفاظ الحوشية والخيال البدوي مع غلبة جزالة الألفاظ وفخامة التعبير وضخامة المعنى وكثرة ما يتصل في بيئته من صور، قليلاً ما يميل إلى اللين وعذوبة اللفظ وسهولة العرض وأقوى شعره الجاهلي ما عارض به شعراء الأوس وما مدح به بني غسان.

هـ ـ أهاجي حسان ونقائضه الجاهلية:

تميز حسان ببديهة حاضرة وقدرة على السخرية والإزراء بمن يهجوه، وخبرة في القضايا الاجتماعية بين القبائل ومعرفة بأنساب العرب، وحدة في اللسان، وأول ما ناقض من الجاهليين قيس بن الخطيم حين اختلفت الأوس والخزرج، وكان بينهم أيام ودماء ومناقضات وهجاء، وقد تناول حسان وابن الخطيم قبائل بعضهما بالذم، أنشد ابن الخطيم يوم السرارة:

تـــروح مـــن الحســـناء أم أنـــت مغتـــدي وكيـــف انطـــلاق عاشـــق لم يـــزود

فأجابه حسان بمذهبته:

لعمر أبيك الخير ياشعث ما بنا على لساني في الخطوب ولا يدي

وقال حسان يوم الربيع مشبباً بليلى أخت قبيس بن الخطيم:

لقد هاج نفسك أشجانها وعاودها اليوم أديانها

تذكرت ليلى وأنّى بها إذا قطعت منك أقرانها

ويثرب تعلمُ أنّا بها إذا التبس الأمر ميزانها

وقال قبيس بن الخطيم مشبباً بعمرة زوج حسان:

أجدّ بعَمْرةَ غنيانها فتهجر أم شأننا شأنها

و ـ مدائح حسان الجاهلية:

لم يخرج مدح حسان عن أسلوب مدح إخوته الشعراء في العصر الجاهلي، فهو قد سلك أسلوبهم من حيث وصف الممدوح بالكرم والشجاعة...إلخ. فقد اتصل (بآل جفنة) أقاربه من بني عسان في الشام؛ حيث كان يقعد بالمدينة عاماً ويفد إليهم عاماً، فيكرمون وفادته ويمدحهم بغرر شعره من ذلك مديحه لعمرو بن الحارث الغساني:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول

ومدح (جبلة بن الأيهم):

لمن الدار أقفرت بمعان بين أعلى اليرموك والخيّمان

ذاك مغنى من آل جفنة في الدْ دَهر وحق تعاقب الأزمان

قد أراني هناك حقٌّ مكين عند ذي التاج مجلسي ومكاني

ز ـ فخر حسان في الجاهلية:

يعد فخر حسان من أقوى شعره في جاهليته، ولاسيما فخره بقومه من الخزرج، وخاصة في تشابكاته في الجاهلية مع شعراء الأوس، وقد فخر بنفسه وفصاحة لسانه وسيرورة شعره ومن فخره بنفسه:

لســـــاني صـــــارم لا عيـــــب فيـــــه وبحـــــري لا تكـــــدره الـــــدلاء

وقوله:

لقـــد غـــدوت أمـــام القـــوم منتطقـــاً بصـــارم مثـــل لـــون الملـــح قطـــاعِ

تحفـــز عنـــي نجـــاد الســـيف ســـابغة فضفاضـــة مثـــل لـــون النهـــي بالقـــاعِ

ح- غزل حسان في الجاهلي: جارى حسان الشعراء الجاهليين في الغزل فشابههم في المعاني والتشبيب ومطالع القصائد بالنسيب وأكثر غزله يفتقر إلى صدق العاطفة؛ لصدوره عن حب غير صادق، وقد يكون صدق عاطفته قد ضاع في الصبا:

إن شرخ الشـــباب والشـــعر الأســـ ود مـــا لم يقـــاص كـــان جنونـــا

مـــا التصـــابي عـــلى المشـــيب وقـــد قلـــب مـــن ذلـــك أظهـــراً وبطونـــا

وأما خمرياته في الجاهلية فكانت بديعة غير أنا نعف عن ذكرها، وأما مراثيه وحكمه الجاهلية فهي لا تذكر.

ط- تأثير حسان وتأثره في الجاهلية:

تأثر حسان بن ثابت في جاهليته بمجموعة من الشعراء ممن عاصروه وتأثروا به، ولما له من مكانة مرموقة في الشعر ولما له من حسٍّ عميق، فمن ذلك:

١- قال امرؤ القيس:

مـن القـاصرات الطـرف لـو دب محـول مـن الأرقـوق الإثـب منهـا لأثـرا

وقال حسان:

لـــو يـــدب الحـــول مـــن ولـــد الـــذر عليهـــا لأنـــدبتها الكلـــوم

٢- قال النابغة معتذراً:

إن كنـت قلـت الـذي بلغـت معتمـدا إذاً فـلا رفعـت سـوطي إلي يـدي

قال حسان معتذراً:

فـإن كنـت قـد قلـت الـذي قـد زعمـتم فـلا رفعـت سـوطي إلي أنـاملي

٣- قال عمر بن الإطنابة:

والخـــــالطين غنـــــيهم بفقـــــيرهم والبـــــاذلين عطـــــاءهم للســـــائل

وقال حسان:

والخـــــالطين غنـــــيهم بفقـــــيرهم والمنعمـــــين عـــــلى الفقـــــير المعـــــدم

ي- مكانة حسان بين الشعراء

قيل في حسان:

١- أشعر شعراء المدينة.

٢- أشعر فحول الحضر.

٣- لم يكن في الصف الأول من شعراء العرب.

٤- يعد في الطبقة الثانية من الفحول.

٥- هو من أصحاب المذهبات.

٦- اتفقت العرب على أنه أشعر أهل المدر أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف.

٧- فضل حسان الشعراء بثلاث (كان شاعر الأنصار في الجاهلية) (شاعر النبي صلى الله عليه وسلم في النبوة)(شاعر اليمن كلها في الإسلام).

٨- قال الأصمعي:(إن قوماً يرون تقدمة امرئ القيس في الجاهلية وحسان في الإسلام).

٩- قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واستشفى".

١٠- دافع الأصمعي عن تهمة أبي حاتم لشعر حسان باللين، فقال: تنسب له أشياء ليست له والشعر نكد يقوى بالشر فإذا دخل الخير لان.

١١- اعتبره النابغة والأعشى شاعراً مع أن النابغة فضل عليه الخنساء.

١٢- اعتبره الحطيئة في أخريات حياته أشعر العرب.

١٣- أشعر بيت وأفخر بيت وأحكم بيت قالته العرب لحسان رضي الله عنه.

١- يغشـــون حتـــى مـــا تهـــر كلابهـــم لا يســـألون عـــن الســـواد المقبـــل
(أشعر بيت)

٢- أتهجـــوه ولســـت لـــه بكـــفء فشـــر كما لخـــير كما الفـــداء
(أنصف بيت)

٣- وإن امـــرأً أمســـى وأصـــبح ســـالماً مـــن النـــاس إلا مـــا جنـــى لســـعيد
(أحكم بيت)

٤- وبيـــوم بـــدر إذ يـــرد وجـــوهم جبريـــل تحـــت لوائنـــا ومحمـــد
(أفخر بيت)

من شعر حسان بن ثابت الجاهلي

١- من مناقضاته مع قيس بن الخطيم

قال قيس بن الخطيم بصدد يوم السرارة:

تـــروح مـــن الحســـناء أم أنـــت مغتـــدي وكيـــف انطـــلاق عاشـــق لم يـــزود
تـــراءت لنـــا يـــوم الرحيـــل بمقلتـــي غريـــر بملتـــف مـــن الســـدر مفـــرد
وجيـــد كجيـــد الـــرئم صـــاف يزينـــه توقـــد يـــاقوت وفصـــل زبـــر جـــد
كـــأنّ الثريـــا فـــوق ثغـــرة نحرهـــا توقـــدُ في الظلـــماء أيّ توقُّـــدِ
ألا إن بـــين الشرّ عبـــي وراتـــج ضربـــاً كتخـــذيم الســـيال المعضّـــدِ
لنـــا حائطـــان المـــوت أســـفل مـــنهما وجمـــع متـــى يصرـــخ بيثـــرب يصـــعد
تـــرى اللابـــة الســـوداء يحمـــر لونهـــا ويســـهل منهـــا كـــلّ ريـــع وفدفـــد
لعمـــري لقـــد حالفـــت ذبيـــان كلهـــا وعبســـاً عـــلى مـــا في الأديـــم الممـــدّدِ
وأقبلـــت مـــن أرض الحجـــاز بحلبـــة تعـــمّ الفضـــاء كالقطـــا المتبـــدد
تحملـــت مـــا كانـــت مزينـــة تشـــتكي مـــن الظلـــم في الأحـــلاف حمـــل التغمـــد

أرى كثـــرة المعـــروف يـــورث أهلـــه ... وســـوَّد عصرـــ الســـوء غـــير المســـود
إذا المـــرء لم يفضـــل ولم يلـــق نجـــدة ... مـــع القـــوم فليقعـــد بصـــغر ويبعـــد
وإني لأغنـــى النـــاس عـــن متكلـــف ... يـــرى النـــاس ضـــلالاً ولـــيس بمهتـــد
كثـــير المنـــى بـــالزاد لا خـــير عنـــده ... إذا جـــاع يومـــاً يشـــتكيه ضـــحى الغـــد
نشـــا غمـــراً بـــوراً شـــقياً معلنـــاً ... ألـــد كـــان رأســـه رأس أصـــيد
وذي شـــيمة عسرـــاء تســـخط شـــيمتي ... أقـــول لـــه: دعنـــي ونفســـك أرشـــد
لعمـــرك مـــا الأيـــام إلا معـــارة ... فـــما اســـطعت مـــن معروفهـــا فتـــزود
وذي شـــيمة عسرـــاء تســـخط شـــيمتي ... أقـــول لـــه: دعنـــي ونفســـك أرشـــد
لعمـــرك مـــا الأيـــام إلا معـــارة ... فـــما اســـطعت مـــن معروفهـــا فتـــزود
متـــى مـــا تقـــد بالباطـــل الحـــق يأبـــه ... وإن قـــدت بـــالحق الـــرواسي تنقـــد
متـــى مـــا أتيـــت الأمـــر مـــن غـــير بابـــه ... ضـــللت وإن تـــدخل مـــن البـــاب تهتـــد
فمـــن مبلـــغ عنـــي شريـــد بـــن جـــابر ... رســـولاً إذا مـــا جـــاءه وابـــن مرثـــد
فأقســـمت لا أعطـــي يزيـــد رهينـــة ... ســـوى الســـيف حتـــى لا تنـــوء لـــه يـــدي

فأجابه حسان:

لعمـــر أبيـــك الخـــير يـــا شـــعث مـــا نبـــا ... عـــلي لســـاني في الخطـــوب ولا يـــدي
لســـاني وســـيفي صـــارمان كلاهمـــا ... ويبلـــغ مـــا لا يبلـــغ الســـيف مـــذودي
وإن أك ذا مـــال قليـــل أجـــد بـــه ... وإن يهتصرـــ عـــودي عـــلى الجهـــد يحمـــد
فـــلا المـــال ينســـيني حيـــاتي وعفتـــي ... ولا واقعـــات الـــدهر يفللـــن مـــبردي
أكثِّـــر أهـــلي مـــن عيـــال ســـواهم ... وأطـــوي عـــلى المـــاء القـــراح المـــبرد
وإني لمعـــط مـــا وجـــدت وقائـــل ... لموقـــد نـــاري ليلـــة الـــريح أوقـــد
وإني لقـــوال لـــذي البـــث مرحبـــا ... وأهـــلاً إذا مـــا جـــاء مـــن غـــير مرصـــد

وإني ليـــدعوني النـــدى فأجيبـــه ... وأضرب بـــيض العـــارض المتوقـــد
وإني لحلـــو تعترينـــي مـــرارة ... وإني لـــتراك لمـــا لم أعـــود
وإني لِمَزْجـــاءُ المطـــيّ عـــلى الـــوجى ... وإني لـــتراك الفـــراش الممهـــد
وأعمـــل ذات اللـــوث حتـــى أردهـــا ... إذا حـــل عنهـــا رحلهـــا لم تقيـــد
أكلفهـــا أن تـــدلج الليـــل كلـــه ... تـــروح إلى دار ابـــن ســـلمى وتغتـــدي
وألفيتـــه بحـــراً كثـــيراً فضـــوله ... جـــواداً متـــى يـــذكر لـــه الخـــير يـــزدد
فـــلا تَعْجَلَـــنْ يـــا قـــيس واربـــع ... فـــإنما قصـــاراك أن تلقـــى بكـــل مهنـــد
حســـام وأرمـــاح بأيـــدي أعـــزة ... متـــى تـــرهم يـــابن الخطـــيم تبلـــد
ليـــوث لهـــا الأشـــبال تحمـــي عرينهـــا ... مـــداعيس بـــالخطيّ في كـــل مشـــهد
فقـــد ذاقـــت الأوس القتـــال وطـــردت ... وأنـــت لـــدى الكنـــات في كـــل مطـــرد
فنـــاغٍ لـــدى الأبيـــات حـــوراً نـــواعما ... وكحّـــل مآقيـــك الحســـان بإثمـــد
نفـــتكم عـــن العليـــاء أمٌّ لئيمـــةٌ ... وزنـــد متـــى تقـــدح بـــه النـــار يصـــلد

قال حسان يفتخر:

ألم تســـأل الربـــع الجديـــد الـــتكلما ... بمـــدفع أشـــداخ فبرقـــة أظلـــما
أبـــى رســـم دار الحـــي أن يـــتكلما ... وهـــل ينطـــق المعـــروف مـــن كـــان أبكـــما
بقـــاع نقيـــع الجـــزع مـــن بطـــن يلـــبن ... تحمـــل منـــه أهلـــه فتـــتهما
ديـــار لشـــعثاء الفـــؤاد وتربهـــا ... ليـــالي تحتـــل المـــراض فـــتغلما
وإذ هـــي حـــوراء المـــدامع ترتعـــي ... بمنـــدفع الـــوادي أراكـــاً مـــنظما
أقامـــت بـــه بالصـــيف حتـــى بـــدا لهـــا ... نشـــاص إذا هبـــت لـــه الـــريح أرزمـــا
وقـــد آل مـــن أعضـــاده ودنـــا لـــه ... مـــن الأرض دان جـــوزه فـــتحمحما
تحـــن مطافيـــل الربـــاع خلالـــه ... إذا اســـتن في حافاتـــه الـــبرق أثجـــما

وكـــاد بأكنـــاف العقيـــق وثيـــده ... يحـــط مـــن الجـــماء ركنـــاً ململـــما

فلـــما عـــلا تربـــان وانهـــل ودقـــه ... تـــداعى وألقـــى بركـــة وتهزمـــا

وأصـــبح منـــه كـــل مـــدفع تلعـــة ... يكـــب العضـــاه ســـيله مـــا تصرـــما

تنـــادوا بليـــل فاســـتقلت حمـــولهم ... وعـــالين أنـــماط الـــدر قـــل المـــرقما

عســـجن بأعنـــاق الظبـــاء وأبـــرزت ... حـــواشي بـــرود القطـــر وشـــيا منمـــنما

فـــأنى تلاقيهـــا إذا حـــل أهلهـــا ... بـــواد يـــمان مـــن غفـــار وأســـلما

تـــلاق بعيـــد واخـــتلاف مـــن النـــوى ... تلاقيكهـــا حتـــى تـــوافي موســـما

ســـأهدي لهـــا في كـــل عـــام قصـــيدة ... وأقعـــد مكفيـــاً بيثـــرب مكرمـــا

ألســـت بـــنعم الجـــار يولـــف بيتـــه ... لـــذي العـــرف ذا مـــال كثـــير ومعـــدما

ونـــدمان صـــدق تمطـــر الخـــير كفـــه ... إذا راح فيـــاض العشـــيات خضرـــما

وصـــلت بـــه ركنـــي ووافـــق شـــيمتي ... ولم أك عضـــاً في النـــدامى ملومـــا

وأبقـــى لنـــا مـــر الحـــروب ورزؤهـــا ... ســـيوفاً وأدراعـــاً وجمعـــاً عرمرمـــا

إذا اغـــبر آفـــاق الســـماء وأمحلـــت ... كـــان عليهـــا ثـــوب عصـــب مســـهما

حســـبت قـــدور الصـــاد حـــول بيوتنـــا ... قنابـــل دهمـــاً في المحلـــة صـــيما

يظـــل لـــديها الواغلـــون كـــأنما ... يوافـــون بحـــراً مـــن ســـميحة مفعـــما

لنـــا حـــاضر فعـــم وبـــاد كأنـــه ... شـــماريخ رضـــوى عـــزة وتكرمـــا

متـــى مـــا تزنـــا مـــن معـــد بعصـــبة ... وغســـان نمنـــع حوضـــنا أن يهـــدما

بكـــل فتـــى عـــاري الأشـــاجع لاحـــه ... قـــراع الكـــماة يرشـــح المســـك والـــدما

إذا اســـتدبرتنا الشـــمس درت متوننـــا ... كـــأن عـــروق الجـــوف ينضـــحن عنـــدما

ولـــدنا بنـــي العنقـــاء وابنـــي محـــرق ... فـــأكرم بنـــا خـــالاً وأكـــرم بنـــا ابـــنما

نســـود ذا المـــال القليـــل إذا بـــدت ... مروءتـــه فينـــا وان كـــان معـــدما

وإنـا لنقـري الضـيف إن جـاء طارقـا ... من الشـحم مـا أضـحى صـحيحاً مسـلما

ألسـنا نـرد الكـبش عـن طيـة الهـوى ... ونقلـب مـران الوشـيج محطـما

لنـا الجفنـات الغـر يلمعـن بالضـحى ... وأسـيافنا يقطـرن مـن نجـدة دمـا

أبـى فعلنـا المعـروف أن ننطـق الخنـا ... وقائلنـا بـالعرف إلا تكلـما

أبـى جاهنـا عنـد الملـوك ودفعنـا ... ومـلء جفـان الشـيز حتـى تهزمـا

فكـل معـد قـد جزينـا بفعلـه ... فبـؤس ببـؤس هـو بـالنعم أنعـما

من قصائد حسان في الغساسنة:

أسـألت رسـم الـدار أم لم تسـألِ ... بـين الجـوابي فالبضـيع فحومـل

فـالمرج مـرج الصـفرين فجاسـم ... فـديار سـلمى درّسـا لم تحلـل

دمـن تعاقبهـا الريـاح دوارس ... والمـد جنـات السـماك الأعـزل

لله در عصـابة نـادمتهم ... يومـاً بجلـق في الزمـان الأول

يمشـون في الحلـل المضـاعف نسـجها ... مشيـ الجـمال إلى الجـمال البـزل

الضـاربون الكـبش يـبرق بيضـه ... ضربـاً يطـيح لـه بنـان المفصـل

والخـالطون فقـيرهم بغنـيهم ... والمنعمـون عـلى الضـعيف المرمـل

أولاد جفنـة حـول قـبر أبهـم ... قـبر ابـن ماريـة الكـريم المفضـل

يغشـون حتـى مـا تهـر كلابهـم ... لا يسألـون عـن السـواد المـقبل

يسـقون مـن ورد الـبريص عليـهم ... بـردى يصـفق بالـرحيق السلسـل

يـسقون درياق الرحيـق ولم تكـن ... تـدعي ولائـدهم لنقـف الحنظـل

بـيض الوجـوه كريمـة أحسـابهم ... شـم الأنـوف مـن الطـراز الأول

فلبثـت أزمانـاً طـوالاً فـيهم ... ثـم انثنيـت كـأنني لم أفـعل

٢٧ ـ الحطيئة

(جاهلي – إسلامي – راشدي)

١ ـ حياته ونشأته:

هو جرول بن أوس الملقب بالحطيئة من بني عبس ولد من أمة اسمها الضراء، فكان مضطرب النسب غير صريح القرابة طلب الالتحاق بإخوته من أبيه، فلم يفلح فهجاهم والتحق بأهل امرأة أبيه من ذهل، فلم يلق عندهم خيراً فهجاهم وانصرف عنهم.

بقيت حياة الحطيئة منذ ذاك حياة تنقل دائم من قبيلة إلى قبيلة وتقلب من نسب إلى نسب.

ب ـ شخصيته: كان لرفض المجتمع الجاهلي له آثار بعيدة في تكوينه النفسي والخلقي فقد حقد على هذا المجتمع وكرهه ورفض قيمه التي يؤمن بها، ومن هنا كان هجاؤه المر واستهانته بكل ما هو جليل عند الآخرين.

تزوج الحطيئة أم مليكة وقد أظهر لها ولأولاده منها حباً شديداً يدل على سعة قلب هذا الإنسان، كما يدل على أن حقده على الناس لم يكن من خبث أصيل في طبعه، بل كان مظهراً من مظاهر الانتقام من مجتمع رفض قبوله والاعتراف به في صفوفه.

أسلم الحطيئة في أواخر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أن إسلامه كان رقيقاً فلم يصل إلى قلبه، وقد ارتد مع المرتدين بعد وفاة الرسول، ثم عاد معهم إلى الإسلام يوم عادوا.

توفي الحطيئة سنة (٥٩)ه.

اتخذ الحطيئة من شعره وسيلة إلى الرزق فكان يمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه، ولذلك امتلأ ديوانه بهذين الغرضين المديح والهجاء.

ج- شعره:

القصة الشعرية

قصة كرم

حفل أدبنا العربي بشواهد كثيرة تدل على الجود، وهو أعلى صفات الكرم ولا عجب في ذلك فالجود شرط لازم من شروط السيادة والشرف.

والحطيئة في هذه الأقصوصة الشعرية الجميلة يرسم صورة مشرقة رائعة للجود المتأصل في نفس الإنسان العربي.

القيم الموروثة:

وطاوي ثلاثٍ عاصب البطن مرمل ... ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

أخي جفوةٍ فيه الأوانس وحشة ... يرى البؤس فيها من شراسته نعمى

وأفرد في شعبٍ عجوزاً إزاءها ... ثلاثة أشباح تخالهم بهما

حفاةً عراةً ما اغتذوا خبز ملةٍ ... ولا عرفوا للبر مذ خلقوا طعما

رأى شبحاً وسط الظلام فراعه ... فلما بدا ضيفاً تشمر واهتما

وقال هيا رباه ضيف ولا قرىً ... بحقك لا تحرمه تا الليلة اللحما

فقال ابنه لما رآه بحيرةٍ ... أيا أبت اذبحني ويسر له طعما

ولا تعتذر بالعدم علَّ الذي طرا ... يظن لنا مالاً فيوسعنا ذما

فروى قليلاً ثم أحجم برهةً ... وإن هو لم يذبح فتاه فقد هما

فبيناهما عنت على البعد عانة ... قد انتظمت من خلف مسحلها نظما

عطاشاً تريد الماء فانساب نحوها ... على أنه منها إلى دمها أظما

فأمهلها حتى تروّت عطاشها ... فأرسل فيها من كنانته سهما

فخرت نحوص ذات جحشٍ سمينةٌ ... قد اكتنزت لحماً وقد طبقت شحما

فيا بشره إذ جرها نحو أهله ... ويا بشرهم لما رأوا كلمها يدمى

وباتوا كراماً قد قضوا حق ضيفهم ... وما غرموا غرماً وقد غنموا غنما

وبات أبوهم من بشاشته أباً ... لضيفهم والأم من بشرها أما

شرح المفردات:

الطعم: الطعام، العدم: الفقر، عل: لعل، طرا: طرأ- أي جاء، يوسعنا ذماً: أي يكثر من ذمنا، روى: تمهل، أحجم: امتنع، هم: عزم، عنت: ظهرت ولاحت، العانة: القطيع من حمر الوحش، المسحل: الكبير من الحمر الذي يتقدمها، انساب: انسل، أظلما: أظمأ أي أشد ظمأ، الكنانة: الجعبة، النحوص: الأتان الوحشية، الجحش: صغير الحمار، اكتنزت وطبقت: امتلأت، كلمها: جرحها، يدمى: يسيل منه الدم، غرم: خسر، غنم: ربح.

٢٨ ـ أبو ذؤيب الهذلي

(جاهلي – إسلامي)

أ ـ حياته ونشأته:

هو خويلد بن خالد الهذلي أحد المخضرمين ممن أدرك الجاهلية والإسلام وأسلم فحسن إسلامه ويلف حياته في الجاهلية ستار كثيف لا نعرف منه إلا أنه كان راوية لأحد شعراء قبيلته.

ب ـ شخصيته: كان صادق العقيدة مؤمناً بها إيماناً لا يتزعزع يشارك في الفتوح في إفريقيا في عهد عثمان بن عفان غزا الروم مع المسلمين.

ج ـ شعره: كانت منزلة أبي ذؤيب الشعرية كبيرة وفي شعره رصانة وهدوء من غير تكلف وتصنع، وقد سئل حسان: من أشعر الناس قال: حياً، أو رجلاً؟ قيل: حياً. قال: أشعر الناس حياً هذيل غير مدافع أبو ذؤيب.

فجع بأبنائه الخمسة في عام واحد بسبب مرض الطاعون، وقد عرف هؤلاء الأبناء بالبأس والنجدة فرثاهم في قصيدة تعد من عيون المراثي.

ـ فجيعة والد:

لئن غالبَ الشاعر دمعه فقد غلبه أمام هذه المصيبة الفادحة التي لم يستطع ردها عن أبنائه، وهذه القصيدة نفثة كبد حرَّى ولوعة أب مفجوع وتجلد رجل عرك الحياة وعركته، فما لان لها ولا ذل.

الرثاء

أمـــن المنـــون وريبهـــا تتوجـــع ... والـــدهر لـــيس بمعتـــب مـــن يجـــزع

قالـــت أميمـــة مـــا لجســـمك شـــاحبا ... منـــذ ابتـــذلت ومثـــل مالـــك ينفـــع

فأجبتهـــا أن مـــا بجســـمي إنـــه ... أودى بنـــي مـــن الـــبلاد وودعـــوا

أودى بنـــي وأعقبـــوني حسرـــةً ... بعـــد الرقـــاد وعـــبرةً لا تقلـــع
ولقـــد أرى أن البكـــاء ســـفاهة ... ولســـوف يولـــع بالبكـــا مـــن يفجـــع
فغـــبرت بعـــدهم بعـــيشٍ ناصـــبٍ ... وإخـــال أني لاحـــق مســـتتبع
ولقـــد حرصـــت بـــأن أدافـــع عـــنهم ... وإذا المنيـــة أقبلـــت لا تـــدفع
وإذا المنيـــة أنشـــبت أظفارهـــا ... ألفيـــت كـــل تميمـــةٍ لا تنفـــع
حتـــى كـــأني للحـــوادث مـــروة ... بصـــفا المشرـــق كـــل يـــومٍ تقـــرع
وتجلـــدي للشـــامتين أريهـــم ... أني لريـــب الـــدهر لا أتضعضـــع
والـــنفس راغبـــةٌ إذا رغبتهـــا ... وإذا تـــرد إلى قليـــلٍ تقنـــع

- شرح المفردات:

المعتب: من يزول عتبه ويرضى، الشاحب: المتغير- المهزول، منذ ابتذلت: يريد منذ ابتذلت نفسك وأهنتها مرة، أودى: هلك، أعقبوني: خلفوا لي، تقلع: تذهب وتنقطع، غبرت: بقيت، والغابر: الباقي، ناصب: متعب، مستتبع: مطالب باللحاق، أنشبت: أعلقت، التميمة: التعويذة، والمنية ليس لها أظفار، وإنما هو من باب الاستعارة، المروة: الحجارة البيض، الصفا: الصخرة العريضة، المشرق: المصلى، الشامتون: الفرحون بما يصيبنا، أتضعضع: أضعف وأجزع، النفس راغبة: تطلب المزيد إذا أعطيتها وقانعة إذا أقنعتها بما يكفيها.

٢٩ ـ عبدة بن الطبيب

(جاهلي- إسلامي)

أ ـ حياته ونشأته: يزيد بن عمرو شاعر مجيد أسود اللون عاش في بني سعد من قبيلة تميم وأدرك الإسلام فأسلم، شارك في معارك الفتح الإسلامي في القادسية والمدائن.

ب ـ شعره: لم يصل إلينا من شعره إلا القليل ومنه قصيدة في رثاء قيس بن عاصم المنقري التميمي يقول فيها:

وما كان قيس هلكه هلك واحدٍ ولكنه بنيان قومٍ تهدما

قال أبو عمرو بن العلاء: هذا البيت أرثى بيتٍ قيل، وقال ابن الأعرابي: ماله نظير في الجاهلية ولا الإسلام.

كان عبدة يترفع عن الهجاء مروءةً وشرفاً ويجيد الوصف والحكمة، وكان عمر بن الخطاب معجباً بقوله:

والمرء ساعٍ لأمر ليس يدركه والعيش شحٌّ وإشفاق وتأميل

وأعجب عبد الملك بن مروان بقوله يصف الخيل:

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

فقد قال يوماً لجلسائه: أي المناديل أشرف؟ فقال قائل منهم: مناديل مصر كأنها غرقئ البيض، وقال آخرون: مناديل اليمن كأنهم نور الربيع، فقال عبد الملك: "بل مناديل أخي بني سعد بن الطيب وذكرى البيت".

الحكمة والتأمل

وصية أب

وتجنح شمس الحياة إلى غروب فيشعر الشاعر الشيخ بدنو أجله، ويطيب له أن يقدم عصارة تجاربه في الحياة لأولاده لتكون حياتهم من العثرات، فيتلوها شعراً يكتنفه الأسى أمام رهبة الموت.

أبنـــي إني قـــد كـــبرت ورابنـــي ... بصرـــي وفي لمصـــلحٍ مســـتمتع
فلـئن هلكـت لقـد بنيـت مسـاعياً ... تبقـى لكـم منهـا مـآثر أربـع
ذكـــر إذا الكـــرام يـــزينكم ... ووراثـــة الحســـب المقـــدم تنفـــع
ومقـــام أيـــام لهـــن فضـــيلة ... عنـــد الحفيظـــة والمجـــامع تجمـــع
ولهـن مـن الكسـب الـذي يغنـيكم ... يومـاً إذا احتضرـ النفـوس المطمـع
ونصـيحة في الصـدر صـادرة لكـم ... مـا دمـت أبصرـ في الرجـال وأسـمع
أوصـيكم بتقـى الإلـه فإنـه ... يعطـي الرغائـب مـن يشـاء ويمنـع
وبـبر والـدكم وطاعـة أمـره ... إن الأبـر مـن البنـين الأطـوع
ودعـوا الضـغينة لا تكـن مـن شـأنكم ... إن الضـغينة للقرابـة توضـع
واعصـوا الـذي يزجـي الـنمائم بيـنكم ... متنصـحاً ذاك السـام المنقـع
ولقـد علمـت بـأن قصرـي حفـرة ... غـبراء يحملنـي إليهـا شرجـع
فبكـى بنـاتي شـجوهن وزوجتـي ... والأقربـون إلي ثـم تصـدعوا
إن الحـوادث يخـترمن وإنـما ... عمـر الفتـى في أهلـه مسـتودع

الباب السادس

نصوص من الشعر الجاهلي

١ ـ طفيل الغنوي

قال طفيل الغنوي:

صحا قلبه وأقصر اليوم باطلهْ ... وأنكره مما استفاد حلائله

يربن ويعرفن القوام وسيمتي ... وأنكرن زيغ الرأس والشيب شامله

وكنت كما يعلمن والدهر صالح ... كصدر اليماني أخلصته صياقله

وأصبت قد عنفت بالجهل أهله ... وعري أفراس الصبا ورواحله

قليل عناني من أتى متعمدا ... سواء بنا أو خالفتني شمائله

خلا أنني قد لا أقول لمدبر ... إذا اختار صرم الحبل هل أنت واصله

تبصر خليلي هل ترى من ظعائن ... تحملن أمثال النعاج عقائله

ظعائن أبرقن الخريف وشمنه ... وخفن الهمام أن تقاد قنابله

على أثر حي لا يرى النجم طالعا ... من الليل إلا وهو باد منازله

شربن بعكاش الهبابيد شربة ... وكان لها الأحفى خليطا تزايله

فلما بدا دمخ وأعرض دونه ... غوارب من رمل تلوح شواكله

وقلن ألا البردي أول مشرب ... نعم جير إن كانت رواء أسافله

تحاثثن واستعجلن كل مواشك ... بلؤمته لم يعد أن شق بازله

فباكرن جوناً للعلاجيم فوقه ... مجالس غرقي لا يحلا ناهله

إذا ما أتته الريح من شطر جانب ... إلى جانب حاز التراب مجاوله

وقال طفيل أيضاً:

تـــأوبني هـــم مـــع الليـــل منصـــب ... وجـــاء مـــن الأخبـــار مـــالا أكـــذب

تظـــاهرن حتـــى لم تكـــن لي ريبـــة ... ولم يـــك عـــما أخـــبروا متعقـــب

وكـــان هـــريم مـــن ســـنان خليفـــة ... وحصـــن ومـــن أســـماء لمـــا تغيبـــوا

ومـــن قـــيس الثـــاوي برمـــان بيتـــه ... ويـــوم حقيـــل فـــاد آخـــر معجـــب

وبالســـهب ميمـــون الخليفـــة قولـــه ... لملـــتمس المـــعروف أهـــل ومرحـــب

كواكـــب دجـــن كلـــما غـــاب كوكـــب ... بـــدا وانجلـــت عنـــه الدجنـــة كوكـــب

لعمـــري لقـــد خـــلى ابـــن جنـــدع ثلمـــة ... فمـــن أيـــن، إن لم يـــرأب الله، تـــرأب

وبـــالخير إن كـــان ابـــن جنـــدع قـــد ثـــوى ... يبنـــى عليـــه بيتـــه ويـــحجب

نـــداماي أضـــحوا قـــد تخلـــت مـــنهم ... فكيـــف ألـــذ الخمـــر أم كيـــف أشرب

ونعـــم النـــدامى هـــم غـــداة لقيـــتهم ... عـــلى الـــدام تجـــرى خـــيلهم وتـــؤدب

مضـــوا ســـلفاً قصـــد الســـبيل علـــيهم ... وصرف المنايـــا بالرجـــال تقلـــب

ألا هـــل أتـــى أهـــل الحجـــاز مغارنـــا ... ومـــن دونهـــم أهـــل الجنـــاب فأيهـــب

شـــــآمية إن الـــــشآمي داره ... تشـــق عـــلى دار الـــيماني وتشـــعب

فتـــأتيهم الأنبـــاء عـــنا وحـــملها ... خفيـــف مـــع الركـــب المخفـــين يلحـــب

وفرنـــا لأقـــوام بينـــهم ومـــالهم ... ولـــولا القيـــاد المســـتتب لأعـــزبوا

بحـــي إذا قيـــل اركبـــوا لم يقـــل لهـــم ... عـــواوير يخشـــون الـــردى أيـــن نركـــب

ولكـــن يجـــاب المســـتغيث وخـــيلهم ... عليهـــا حمـــاة بالـــمنية تضرـــب

فبـــاتوا يســـنون الزجـــاج كـــأنهم ... إذا مـــا تنـــادوا خـــشرم متـــحدب

وخيـــل كأمثـــال السرـــاح مصـــونة ... ذخـــائر مـــا أبقـــى الغـــراب ومـــذهب

طـــوال الهـــوادي والمتـــون صـــليبة ... مغـــاوير فيهـــا للأريـــب مـــعقب

تـــأوبن قصرـــاً مـــن أريـــك ووابـــل ... ومـــاوان مـــن كـــل تثـــوب وتحلـــب

ومن بطن ذي عاج رعال كأنها ... جراد يباري وجهة الريح مطنب

أبوهن مكتوم واعوج تفتلى ... وراداً وحواً ليس فيهن مغرب

إذا خرجت يوما أعيدت كأنها ... عواكف طير في السماء تقلب

وألقت من الإفزاع كل رحالة ... وكل حزام فضله يتذبذب

إذا استعجلت بالركض سد فروجها ... غبار تهاداه السنابك أصهب

فرحنا بأسراهم مع النهب بعدما ... صبحناهم ملمومة لا تكذب

أنبت فما تنفك حول متالع ... لها مثل آثار المبقر ملعب

وراحلة وصيت عضروط ربها ... بها والذي تحتي ليدفع انكب

له طرب في إثرهن وربه ... إلى ما يرى من غارة الخيل أطرب

كان على أعرافه ولجامه ... سنا ضرم من عرفج يتلهب

كسيد الغضا الغادي أضل جراءه ... علا شرفاً مستقبل الريح يلحب

لهن بشباك الحديد تقاذف ... هوي رواح بالدجنة يعجب

فلم يبق إلا كل جرداء صلدم ... إذا استعجلت بعد الكلام تقرب

فنلنا بقتلانا من القوم مثلهم ... وبالموثق المكلوب منا مكلب

وبالنعم المأخوذ مثل زهائه ... وبالسبي سبي والمحارب محرب

وبالمردفات بعد أنعم عيشة ... على عدواء والعيون تصبب

عذاري يسحبن الذيول كأنها ... مع القوم ينصفن العضاريط ربرب

إلى كل فرع من ذؤابة طيئ ... إذا نسبت أو قيل من يتنسب

وبالبيضة الموقوع وسط عقارنا ... نهاب تداعى وسطه الخيل منهب

وحي أبي بكر تداركن بعدما ... أذاعت بسرب الحي عنقاء مغرب

رددن حصيناً من عدي ورهطه ... وتيم تلي بالعروج وتحلب

وحيـــاً مـــن الأعيـــار لـــو فـــرطتهم ... أشـــتوا فلـــم يجمعهـــم الـــدهر مشـــعب

وهـــن الألى أدركـــن تبـــل محجـــر ... وقـــد جعلـــت تلـــك التنابيـــل تنســـب

وقـــال أنـــاس يســـمعون كلامهـــم ... هـــم الضـــامنون مـــا تخـــافون فـــاذهبوا

فـــما برحـــوا حتـــى رأوهـــا تكـــبهم ... تـــصعد فـــيهم تـــارة وتـــصوب

يقولـــون لمـــا جمعـــوا الغـــدو شـــملهم ... لـــك الأم منـــا في المـــواطن والأب

وقـــد منـــت الخـــذواء منـــا علـــيهم ... وشـــيطان إذ يـــدعوهم ويثـــوب

جـــعلتهم كـــنزاً ببـــطن تبالـــة ... وخيبـــت مـــن أسراهـــم مـــن تخيـــب

فمـــن يـــك يشـــكو مـــنهم ســـوء طعمـــه ... فـــإنهم أكـــل لـــقومك مخصـــب

وكـــنا إذا مـــا اغتفـــت الخيـــل غفـــة ... تجـــرد طـــلاب الـــترات مطلـــب

مـــن القـــوم لم تقلـــع براكـــاء نجـــدة ... مـــن النـــاس إلا رمحـــه يتصـــبب

وأصـــفر مشـــهوم الفـــؤاد كأنـــه ... غـــداة النـــدى بـــالزعفران مطيـــب

تـــفلت عـــليه تـــفلة ومـــسحته ... بثـــوبي حتـــى جلـــده متقـــوب

يراقـــب إيحـــاء الرقيـــب كأنـــه ... لمـــا وتـــروني آخـــر اليـــوم مغضـــب

ففـــاز بنهـــب فيـــه مـــنهم عقيلـــة ... لهـــا بشرـــ صـــاف ورخـــص مخضـــب

فـــلا تـــذهب الأحســـاب مـــن عقـــر دارنـــا ... ولكـــن أشـــباحاً مـــن المـــال تـــذهب

٢ ـ أوس بن حجر

وقال أوس بن حجر:

صحا قلبه عن سكره فتأملا ... وكان بذكري أم عمرو موكلا

وكان له الحين المتاح حمولة ... وكل امرئ رهن بما قد تحملا

أعاتب ابن العم إن كان ظالما ... وأغفر عنه الجهل إن كان أجهلا

وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني ... يجدني ابن عم مخلط الأمر مزيلا

أقيم بدار الحزم مادام حزمها ... وأحر إذا حالت بأن أتحولا

وأستبدل الأمر القوي بغيره ... إذا عقدُ مأفون الرجال تحللا

وإني امرؤ أعددت للحرب بعدما ... رأيت لها ناباً من الشر أعصلا

أصم ردينياً كأن كعوبه ... نوى القسب عراصاً مزجاً منصلا

عليه كمصباح العزيز يشبه ... لفصح ويحشوه الذبال المفتلا

وأملس صولياً كنهي قرارة ... أحس بقاع نفخ ريح فأجفلا

كأن قرون الشمس عند ارتفاعها ... وقد صادفت طلقاً من النجم أعزلا

تردد فيه ضوءها وشعاعها ... فأحسن وازين بامرئ أن تسربلا

وأبيض هندياً كأن غراره ... تلألؤ برق في حَبِيٍّ تكللا

إذا سل من جفن تأكل أثره ... على مثل مصحاة اللجين تأكلا

كأن مدب النمل يتبع الربا ... ومدرج ذر خاف برداً فأسهلا

على صفحتيه من متون جلائه ... كفى بالذي أبلي وأنعت منصلا

ومبضوعة من رأس فرع شظية ... بطود تراه بالسحاب مجللا

على ظهر صفوان كأن متونه ... عللن بدهن يزلق الممتنزلا

يطيـــف بهـــا راع يجشـــم نفســـه ... ليكـــلئ فـــيها طـــرفة متـــأملا
فلاقـى امـرأً مـن ميـدعان وأسـمحت ... قرونتـــه باليـــأس منهـــا فعجـــلا
فقـــال لـــه هـــل تـــذكرن مخـــبرا ... يـــدل عـــلى غـــنم ويقصرـــ معمـــلا
عـلى خـير مـا أبصرـتها مـن بضـاعة ... لملـــتمس بـــيعا بـــها أو تبكـــلا
فويـق جبيـل شـامخ الـرأس لم تكـن ... لتبلغـــه حتـــى تكـــل وتعمـــلا
فأبصرـــ ألهابـــاً مـــن الطـــود دونهـــا ... تـــرى بـــين رأسي كـــل نيقـــين مهـــبلا
فـــأشرط فيهـــا نفســـه وهـــو معصـــم ... وألقـــى بأســـباب لـــه وتـــوكلا
وقـــد أكلـــت أظفـــاره الصـــخر كلـــما ... تعايـــا عليـــه طـــول مرقـــى توصـــلا
فـــما زال حتـــى نالهـــا وهـــو معصـــم ... عـــلى مـــوطن لـــو زل عنـــه تفضـــلا
فأقبـــل لا يرجـــو التـــي صـــعدت بـــه ... ولا نفســـــه إلا رجـــــاء مـــــؤملا
فلـــما نجـــا مـــن ذلـــك الكـــرب لم يـــزل ... يُمَظِّعُهـــا مـــاء اللحـــاء لتـــذبلا
فـــأنحى عليهـــا ذات حـــد دعـــا لهـــا ... رفيقـــاً بأخـــذ بالمَـــداوِسِ صـــيقلا
عـــلى فخذيـــه مـــن برايـــة عودهـــا ... شـــبيه ســـفى البُهمـــى إذا مـــا تفـــتلا
فجردهـــا صـــفراء لا الطـــول عابهـــا ... ولا قصرـــ أزرى بهـــا فـــتعطلا
كتـــوم طـــلاع الكـــف لا دون ملئهـــا ... ولا عجسها عـن موضـع الكـف أفضـلا
إذا مـــا تعاطوهـــا ســـمعت لصـــوتها ... إذا انبضـــوا عنهـــا نئـــيا وأزمـــلا
وإن شـــد فيهـــا النـــزع أدبـــر ســـهمها ... إلى منتهـــى مـــن عجســـها ثـــم أقـــبلا
فلـــما قضىـــ ممـــا يريـــد قضـــاءه ... وصـــلبها حرصـــا عليهـــا فـــأطولا
وحشـــو جفـــير مـــن فـــروع غرائـــب ... تنطـــع فيـــها صـــانع وتـــنبلا
تخـــيرن أنضـــاء وركـــبن أنصـــلا ... كجمـــر الغضـــا في يـــوم ريـــح تـــزيلا
فلـــما قضىـــ في الصـــنع مـــنهن فهمـــه ... فلـــم يبـــق إلا أن تســـن وتصـــقلا

كساهن من ريش يمان ظواهرا ... سخاماً لؤاماً لين المسِّ أطحلا

يخزن إذا أنفزن في ساقط الندى ... وإن كان يوماً ذا أهاضيب مخضلا

خوار المطافيل الملمعة الشوى ... وأطلائها صادفن عرنان مبقلا

فذاك عتادي في الحروب إذا التظت ... وأردف بأس من حروب وأعجلا

وذلك من جمعي وبالله نلته ... وإن تلقني الأعداء لا ألق أعزلا

وقومي خيار من أسيد شجعة ... كرام إذا ما الموت خب وهرولا

ترى الناشئ المجهول منا كسيد ... تبحبح في أعراضه وتأثلا

وقد علموا أن من يرد ذاك منهم ... من الأمر يركب من عناني مسحلا

فإني رأيت الناس إلا أقلهم ... خفاق العهود يكثرون التنقلا

بني أم ذي المال الكثير يرونه ... وإن كان عبداً سيد الأمر جحفلا

وهم لمقل المال أولاد علة ... وإن كان محضاً في العمومة مخولا

وليس أخوك الدائم العهد بالذي ... يذمك إن ولى ويرضيك مقبلا

ولكن أخوك الناء ما دمت آمنا ... وصاحبك الأدنى إذا الأمر أعضلا

٣ ـ بشامة بن الغدير

قال بشامة بن الغدير:

هجـــرت أمامـــة هجـــراً طـــويلا ... وحمّلَـــكَ النـــأيُ عبئـــاً ثقـــيلا

وحملـــت منهـــا عـــلى نأيهـــا ... خيـــالاً يـــوافي ونـــيلاً قـــليلا

ونظـــرة ذي شـــجن وامـــق ... إذا مـــا الركائـــب جـــاوزن مـــيلا

أتتنـــا تســـائل مـــا بـــثنا ... فقلنـــا لهـــا قـــد عزمنـــا الـــرحيلا

وقلـــت لهـــا كنـــت قـــد تعلميـــ ... ـن منـــذ ثـــوى الركـــب عنـــا غفـــولا

فبادرتاهـــا بمســـتعجل ... مـــن الـــدمع يـــنضح خـــداً أســـيلا

ومـــا كـــان أكثـــر مـــا تولـــت ... مـــن الـــقول إلا صفاحـــاً وقـــيلا

وعـــذرتها أن كـــل امـــرئ ... مـــعدٌّ لـــه كـــل يـــوم شـــكولا

كـــأن النـــوى لم تـــكن أصـــقبت ... ولـــم تـــأت قـــوم أديـــم حـــلولا

فقربـــت للرحـــل عـــيرانه ... عـــذافرةً عـــنتريساً ذمـــولا

مداخلـــه الخلـــق مضـــبورة ... إذا أخـــذ الـــحاقفات المـــقيلا

لهـــا قـــرد تـــام نـــيه ... تـــزل الولـــية عنـــه زلـــيلا

تطـــرد أطـــراف عـــام خصـــيب ... ولـــم يـــشل عـــبد إليهـــا فصيـــلا

تـــوقـــر شـــازرة طـــرفها ... إذا مـــا ثنيـــت إليهـــا الـــجديلا

بعـــين كعـــين مفـــيض القـــداح ... إذا مـــا أراغ يريـــد الحـــويلا

وحـــادرة كنفيهـــا المسيـــ ... ـــح تنـــضح أوبـــر شـــثاً غلـــيلا

وصـــدور لهـــا مهيـــع كالخليـــ ... ف تخـــال بـــأن عـــليه شليـــلا

فمـــرت عـــلى كـــشب غـــدوة ... وحـــاذت بجنـــب أريـــك أصـــيلا

توطـــــأ أغلـــــظ حـزانـــــه كـــوطء القـــوي العزيـــز الـــذليلا
إذا أقبلـــــت قلـــــت مـــــذعورة مـــن الرمـــد تـــلحق هـــيفاً ذمـــولا
وإن أدبـــــرت قلـــــت مشـــــحونة أطـــاع لهـــا الـــريح قلعـــاً جفـــولا
وإن أعرضـــــت رأى فيهـــا البصيـــــ ـــــر مـــــا لا يكلفـــــه أن يفـــيلا
يـــــداً سرحـــــاً مـــائراً ضـــبعها تســـوم وتقـــدم رجـــلاً زجـــولا
وعوجـــا تنـــاطحن تحـــت المـــطا وتـــهدي بهـــن مشاشـــاً كـــهولا
تعـــز المطـــي جمـــاع الطريـــق إذا أدلـــج القـــوم ليـــلاً طـــويلا
كـــأن نهـــديها إذا أرقـــلت وقـــد جـــرن ثـــم اهتـــدين الســـبيلا
يـــداً عـــائم خـــرَّ في غمـــرة قـــد أدركـــه المـــوت إلا قلـــيلا
وخـــبرت قـــومي ولم ألقهـــم أجـــدوا عـــلى ذي شـــويس حلـــولا
فإمـــا هلكـــت ولم أتهـــم فأبلـــغ أماثـــل ســـهم رســـولا
بـــأن قـــومكم خـــيروا خصـــلتين كـــلتاهمـــا جعلـوهـــا عـــدولا
خـــزي الحـــياة وحـــرب الصـــديق وكـــلاً أراه طعـامـــاً وبيـــلا
فـــإن لم يكـــن غـــير إحـــداهما فســـيروا إلى المـــوت ســـيراً جمـــيلا
ولا تقعـــدوا وبكـــم منـــة كفـــى بـــالحوادث للمـــرء غـــولا
وحشـــوا الحـــروب إذا أوقـــدت رماحـــاً طـــوالاً وخيـــلاً فحـــولا
ومـــن نســـج داود موضـــونة تـــرى للقواضـــب فيـــها صـــليلا
فـــإنكم وعـــطاء الـــرهان إذا جـــرت الحـــرب جـــلاً جلـــيلا
كثـــوب ابـــن بـــيض وقـــاهم بـــه فســـد عـــلى السالكـــين الســـبيلا

٤ ـ الأسود بن يعفر
(أعشى نهشل)

من شعر المقلين وأصحاب الواحدة، قال الأسود بن يعفر الملقب بـ (أعشى نهشل):

نام الخلي وما أحس رقادي ... والهم محتضر لدي وسادي
من غير ما سقم ولكن شفني ... هم أراه قد أصاب فؤادي
ومن الحوادث لا أبا لك إنني ... ضربَتْ عليَّ الأرض بالأسداد
لا أهتدي فيها لموضع تلعة ... بين العراق وبين أرض مراد
ولقد علمت سوى الذي نبأتني ... أن السبيل سبيل ذي الأعواد
إن المنية والحتوف كلاهما ... يوفي المخارم يرقبان سوادي
لن يرضيا مني وفاء رهينة ... من دون نفسي طار في وتلادي
ماذا أؤمل بعد آل محرق ... تركوا منازلهم وبعد إياد
أهل الخورنق والسدير وبارق ... والقصر ذي الشرفات من سنداد
أرضاً تخيرها لدار أبيهم ... كعب بن مامة وابن أم دؤاد
جرت الرياح على مكان ديارهم ... فكأنما كانوا على ميعاد
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة ... في ظل ملك ثابت الأوتاد
نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ... ماء الفرات يجيء من أطراد
أين الذين بنوا فطال بناؤهم ... وتمتعوا بالأهل والأولاد
فإذا النعيم وكل ما يلهى به ... يوماً يصير إلى بلى ونفاد
في آل غرف لو بغيت لي الأسى ... لو جدت فيهم أسوة العداد
ما بعد زيد في فتاة فرقوا ... قتلاً ونفياً بعد حسن تآدي

فتخـــيروا الأرض الفضـــاء لعـــزهم ... ويزيـــد رافـــدهم عـــلى الـــرفاد
إمـــا تريـنـــي قـــد بليـــت وغاضـــني ... مـــا نيـــل مـــن بصـرـــي ومـــن أجـــلادي
وعصـــيت أصـــحاب الصـــبابة والصـــبا ... وأطعـــت عـــاذلتي ولان قيـــادي
فلقـــد أروح عـــلى التجـــار مـــرجلا ... مـــذلاً بـــمالي ليـــناً أجيـــادي
ولقـــد لهـــوت وللشـــباب لـــذاذة ... بســـلافة مزجـــت بمـــاء غـــوادي
مـــن خمـــر ذي نطـــف أعـــن منطـــق ... وافـــى بـــها لـــدارهم الإسجـــاد
يســـعى بهـــا ذو تـــومتين مشـــمر ... قنـــأت أناملـــه مـــن الفرصـــاد
والبـــيض تمشي كالبـــدور وكالـــدمى ... ونـــواعم يمشـــين بالأرفـــاد
والبـــيض يـــرمين القلـــوب كأنهـــا ... أدحـــي بـــين صريمـــة وجمـــاد
يـــنطقن معروفـــاً وهـــن نـــواعم ... بـــيض الوجـــوه رقيقـــة الأكبـــاد
يـــنطقن مخفـــوض الحـــديث تهامســـاً ... فـــبلغن مـــا حاولـــن غـــير تنـــادي
ولقـــد غـــدوت لعـــازب متنـــاذر ... أحـــوى المـــذانب مؤنـــق الـــرواد
جـــادت ســـواريه وآزر نبتـــه ... نفـــأً مـــن الصـــفراء والزبـــاد
بـــالجو فـــالآمرات حـــول مغـــامر ... فبضـــارج فقصـــيمة الطـــراد
بمشـــمر عتـــد جهيـــز شـــدة ... قـــيد الأوابـــد والـــرهان جـــواد
يشـوي لـــنا الوحـــد المـــدل بحضرـــه ... بشرـــيج بـــين الشـــد والإيـــراد
ولقـــد تلـــوت الظـــاعنين بجسرـــه ... أجـــد مهـــاجرة الســـقاب جـــماد
عيرانـــة ســـد الربيـــع خصـــامها ... مـــا يـــستبين بهـــا مـــقيل قـــراد
فـــإذاً وذلـــك لا مهـــاة لـــذكره ... والـــدهر يـــعقب صالـــحاً بفســـاد

٥ ـ قطبة بن أوس الذبياني
(الحادرة)

قال قطبة بن أوس الذبياني المعروف بـ ((الحادرة)):

بكـــرت ســـمية بكـــرة فتمتـــع ... وغـــدت غـــدو مفـــارق لـــم يربـــع
وتـــزودت عينـــي غـــداة بقيتهـــا ... بلـــوى البنينـــة نـــظرة لـــم تقلـــع
وتصـــدفت حتـــى اســـتبتك بواضـــح ... صـــلت كمنتصـــب الغـــزال الأتلـــع
وبمقلتـــي حـــوراء تحســـب طرفهـــا ... وســـنان حـــرة مـــستهل الأدمـــع
وإذا تنازعـــك الحـــديث رأيتهـــا ... حســـناً تبســـمها لذيـــذ المكـــرع
بغـــرض ســـارية أدرتـــه الصـــبا ... مـــن مـــاء أســـجر طيـــب المســـتنقع
ظلـــم البطـــاح لـــه انهـــلال حريصـــة ... فصـــفا النطـــاف لـــه بعيـــد المقلـــع
لعـــب الســـيول بـــه فأصـــبح مـــاؤه ... غلـــلاً تقطـــع في أصـــول الخـــروع
أســـميّ ويحـــك هـــل ســـمعت بغـــدرة ... رفـــح اللـــواء لنـــا بهـــا في مجمـــع
إنـــا نعـــف فـــلا نريـــب حليفنـــا ... ونكـــف شـــح نفوســـنا في المطمـــع
ونفـــي بـــآمن مـــا لنـــا أحســـابنا ... ونجـــر في الهيجـــا الرمـــاح ونـــدعى
ونخـــوض غمـــرة كـــل يـــوم كريهـــة ... تـــردي النفـــوس وغنمهـــا للأشـــجع
ونقـــيم في دار الحفـــاظ بيوتنـــا ... زمنـــاً ويـــظعن غـــيرنا للأمـــرع
ومحـــل مجـــد لا يسرـــح أهلـــه ... يـــوم الإقامـــة والحلـــول لمرتـــع
بســـبيل ثغـــر لا يسرـــح أهلـــه ... ســـقم يشـــار لقـــاؤه بالإصـــبع
فســـمي مـــا يـــدريك أن رب فتيـــة ... بـــاكرت لـــذتهم بـــأدكن مـــترع
محمـــرة عقـــب الصـــبوح عيـــونهم ... بمـــرى هنـــاك مـــن الحيـــاة ومســـمع

متبطحين على الكنيف كأنهم ... يبكون حول جنازة لم ترفع

بكروا علي بسحرة فمصبح ... من عاتق كدم الغزال مشعشع

ومعرض تغلي المراجل تحته ... عجلت طبختـه لرهط جوع

ولدي أشعث باسط ليمينه ... قسماً لقد أنضجت لم يتورع

ومسهدين من الكلال بعثتهم ... بعد الكلال إلى سواهم ظلع

أودى السفار برمها فتخالها ... هيماً مقطعة حبال الأذرع

تخد الفيافي بالرحال وكلها ... يعدو بمنخرق القميص سميدع

وميطة حملت رحل مطية ... حرج تنم من العثار بدعدع

وتقي إذا مست مناسمها الحصى ... وجعاً وإن تزجر به تترفع

ومناخ غير تئية عرسته ... قمن من الحدثان نابي المضجع

عرسته ووساد رأسي ساعد ... خاظي البضيع عروقه لم تدسع

فرفعت عنه وهو أحمر فاتر ... قد بان مني غير أن لم يقطع

فترى بحيث توكأت ثفناتها ... أثراً كمفتحص القطا للمهجع

ومتاع ذي علة تخب براكب ... ماض بشيعته وغير مشيع

٦ ـ عمرو بن سعد البكري
المعروف بـ(المرقش الأكبر)

و قال عمرو بن سعد البكري المعروف بالمرقش الأكبر:

قال بالديار أن تجيب صمم ... لو كان رسم ناطقاً كلم

الدار قفر والرسوم كما ... رقش في ظهر الأديم قلم

ديار أسماء التي تبلت ... قلبي فعيني ماؤها يسجم

أضحت خلاء نبتها ثئد ... نور فيها زهوة فاعتم

بل هل شجتك الظعن باكرة ... كأنهن النخل من ملهم

النشر مسك والوجوه دنا ... نير وأطراف البنان عنم

ثعلب ضراب القوانس بالسـ ... ـيف وهاوي القوم إذ اظلم

فاذهب فدى لك ابن عمك ... لا يخلد إلا شابه وأدم

لو كان حي ناجياً لنجا ... من يومه المزلم الأعصم

في باذخات من عماية أو ... يرفعه دون السماء خيم

من دونه بيض الأنوق وفو ... قه طويل المنكبين أشم

يرقاه حيث شاء منه وإما ... تا تنسه منية يهرم

فغاله ريب الحوادث حتـ ... ـى زل عن أرياده فحطم

ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء ما يعلم

يهلك والد ويخلف مو ... لود وكل ذي أب ييتم

والوالدات يستفدن غنى ... ثم على المقدار من يعقم

ما ذنبنا في أن غزا ملك ... من آل جفنة حازم مرغم

مقابـــل بيـــن العواتـــك والـــ ـــغلف لا نـكـــس ولا تـــوأم
حـــارب واســـتعوى قراضـــبة لـــيس لهـــم ممـــا يحـــاز نـــعم
بـــيض مصـــاليت وجـــوههم ليســـت ميـــاه بحـــارهم بعمـــم
فـــانقض مثـــل الصـــقر يقدمـــه جـــيش كغـــلان الشـــريف لـــهم
إن يغضـــبوا يغضـــب لـــذاك كـــما ينســـل مـــن خرشـــائه الأرقـــم
فـــنحن أخوالـــك عمـــرك والـــ ـــخال لـــه معاظـــم وحـــرم
لسنـــا كـــأقوام مطـــاعمهم كســـب الخنـــا ونهكـــة المحـــرم
إن يخصـــبوا يعيـــوا بخصـــبهم أو يجـــدبوا فـــهم بـــه الأم
عـــام تـــرى الطـــير دواخـــل في بيـــوت قـــوم مـــعهم تـــرتم
ويخـــرج الـــدخان مـــن خلـــل الســـ تـــر كلـــون الكـــودن الأصـــحم
حتـــى إذا مـــا الأرض زينهـــا النـــ ـــبت وجـــن روضـــها وأكـــم
ذاقـــوا ندامـــة فلـــو أكلـــوا الـــ خطبـــان لم يوجـــد لـــه علقـــم
لكـــننا قـــوم أهـــاب بيننـــا في قومـــنا عفافـــة وكـــرم
أموالنـــا نقـــي النفـــوس بـــها مـــن كـــل مـــا يـــدني إليـــه الـــذم
لا يبعـــد الله التلبـــب والـــ ـــغارات إذ قـــال الخمـــيس نعـــم
والعـــدو بـــين المجلســـين إذا ولـــى الـــعشي وتـــنادى الـــعم
يـــأتي الشبـــاب الأقـــورين ولا تغـــبط أخـــاك أن يقـــال حـــكم

٧- المسيب بن علس

قال المسيب بن علس يمدح القعقاع بن معبد بن زرارة:

أرحلت من سلمى بغير متاع ... قبل العطاس ورعتها بوداع

من غير مقلية وإن حبالها ... ليست بأرمام ولا أقطاع

إذ تستبيك بأصلتي ناعم ... قامت لتفتنه بغير قناع

ومها يرف كان هذا ذقته ... عانية شجت بماء يراع

أو صوب غادية أدرته الصبا ... ببزيل أزهر مدمج بسياع

فرأيت أن الحكم مجتنب الصبا ... وصحوت بعد تشوق ورواع

فتسل حاجتها إذا هي أعرضت ... بخميصة سرح اليدين وساع

صكاء ذعلبة إذا استدبرتها ... حرج إذا استقبلتها هلواع

وكان قنطرة بموضع كورها ... ملساء بين غوامض الأنساع

وإذا تعاورت الحصى أخفافها ... دوي نواديه بظهر القاع

وكأن غاربها رباوة مخرم ... وتمد ثني جديلها بشراع

واذا أطفت بها أطفت بكلكل ... نبض الفرائض مجفر الأضلاع

مرحت يداها للنجاء كأنما ... تكرو بكفي لاعب في ضاع

فعل السريعة بادرت جدادها ... قبل المساء تهم بالإسراع

فلأهدين مع الرياح قصيدة ... مني مغلغلة إلى القعقاع

ترد المياه فما تزال غريبة ... في القوم بين تمثل وسماع

وإذا الملوك تدافعت أركانها ... أفضلت فوق أكفهم بذراع

وإذا تهيج الريح من صر ... ثلجاً ينيخ النيب بالجعجاع

أحللت بيتك بالجميع وبعضهم ... مستفرق ليحل بالأوزاع
ولأنت أجود من خليج مفعم ... متراكم الآذي ذي دفاع
وكأن بلق الخيل حافاته ... يرمي بهن دوالي الزراع
ولأنت أشجع في الأعادي كلها ... من مخدر ليث معيد وقاع
يأتي على القوم الكثير سلاحهم ... فيبيت منه القوم في وعواع
أنت الوفي فما تذم وبعضهم ... تودي بذمته عقاب ملاع
وإذا رماه الكاشحون رماهم ... بمعابل مذروبة وقطاع
ولذاكم زعمت تميم أنه ... أهل السماحة والندى والباع
ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر ... للحرب دائرة على ابنيْ ضمضم
الشاتمي عرضي ولم أشتمهمُ ... والناذرين إذا ألاقيهمْ دمي
إن يفعلا فلقد تركت أباهما ... جزراً لخامعة ونسر قشعم

٨ ـ عمرو بن الأهتم بن سمي السعدي المنقري

قال عمرو بن الأهتم بن سمي السعدي المنقري:

ألا طرقت أسماء وهي طروق ... وبانت على أن الخيال يشوق

بحاجة محزون كأنّ فؤاده ... جناح وهي عظماه فهو خفوق

وهان على أسماء أن شطت النوى ... يحن إليها واله ويتوق

ذريني فإن البخل يا أم هيثم ... لصالح أخلاق الرجال سروق

ذريني وحطي في هواي فإنني ... على الحسب الزاكي الرفيع شفيق

وإني كريم ذو عيال تهمني ... نوائب يغشى رزؤها وحقوق

ومستنبح بعد الهدوء دعوته ... وقد حان من نجم الشتاء خفوق

يعالج عرنيناً من الليل باردا ... تلف رياح ثوبه وبروق

تألق في عين من المزن وادق ... له هيدب داني السحاب دفوق

أضفت فلم أفحش عليه ولم أقل ... لأحرمه إن المكان مضيق

فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحبا ... فهذا صبوح راهن وغبوق

وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت ... مقاحيد كوم كالمجادل روق

بأدماء مرباع النتاج كأنها ... إذا عرضت دون العشار فنيق

بضربه ساق أو بنجلاء ثرة ... لها من أمام المنكبين فتيق

وقام إليها الجازران فأوفدا ... يطيران عنها الجلد وهي تفوق

فجر إلينا ضرعها وسنامها ... وأزهر يحبو للقيام عتيق

بقير جلا بالسيف عنه غشاءه ... أخ بإخاء الصالحين رفيق

فبـــات لنـــا منهـــا وللضـــيف موهنـــا شـــــواء ســـــمين زاهـــــق وغبـــــوق
وبـــات لـــه دون الصـــبا وهـــي قـــرة لحـــاف ومصـــقول الكســـاء رقيـــق
وكـــل كـــريم يتقـــي الـــذم بـــالقرى وللخـــير بـــين الصـــالحين طريـــق
لعمـــرك مـــا ضـــاقت بـــلاد بأهلهـــا ولكـــن أخـــلاق الرجـــال تضـــيق
نمتنـــي عـــروق مـــن زرارة للعـــلى ومـــن فـــدكي والأشـــد عـــروق
مكـــارم يجعلـــن الفتـــى في أرومـــة يفـــاع وبعـــض الوالـــدين دقيـــق

٩- خفاف بن ندبة السلمي

وقال خفاف بن ندبة السلمي:

طرقت أسيماء الرحال ودوننا ... من فيد غيقة ساعد فكثيب

فالطود فالملكات أصبح دونها ... ففراع قدس عمقها فحسوب

فلئن صرمت الحبل يابنة مالك ... والرأي فيه مخطئ ومصيب

فتعلّمي أني امرؤ ذو مرة ... فيما ألمّ من الخطوب صليب

أدع الدناءة لا ألابس أهلها ... ولدي من كيس الزمان نصيب

ومعبد بيض القطا بجنوبه ... ومن النواعج رمة وصليب

نفرت آمن طيره وسباعه ... ببغام مجذام الرواح خبوب

أُجد كأن الرحل فوق مقلص ... عاري النواهق لاحه التقريب

عدل النهاق لسانه فكأنه ... لما تخمط للشحاج نقيب

ولقد هبطت الغيث يدفع منكبي ... طرف كسافلة القناة ذنوب

نمل إذا ضفر اللجام كأنه ... رجل ينوه باليدين سليب

حام على دبر الشياه كأنه ... إذ جد سجل نزه مصبوب

برد تقحمه الدبور مراتبا ... ملقي ضواحي بينهن لهوب

متطلع بالكف ينهض مقدما ... متتابع في جريه يعبوب

ربذ الخلاف إذا تلألأ رجله ... في وقعها ولحاقها تحنيب

١٠ ـ عمرو بن معد يكرب الزبيدي

ومـــرد عـــلى جـــرد شـــهدت طرادهـــا قبيـــل طلـــوع الشـــمس أو حـــين ذرت
صـــبحتهم بيضـــاء يـــبرق بيضـــها إذا نظـــرت فيهـــا العيـــون ازمهـــرت
ولمـــا رأيـــت الخيـــل رهـــواً كأنهـــا وردت عـــلى مكروههـــا فاســـتقرت
عـــلام تقـــول الـــرمح يثقـــل عـــاتقي إذا أنـــا لم أطعـــن إذا الخيـــل كـــرت
عقـــرت جـــواد ابنـــي دريـــد كلـــيهما ومـــا أخـــذتني في الختونـــة عـــزتي
لحـــا الله جرمـــاً كلـــما ذر شـــارق وجـــوه كـــلاب هارشـــت فازبـــأرت
ظللـــت كـــأني للرمـــاح دريئـــة أقاتـــل عـــن أبنـــاء جـــرم وفـــرت
فلـــم تغـــن جـــرم نهـــدها إذ تلاقتـــا ولكـــن جرمـــاً في اللقـــاء ابـــذعرّت
فلـــو أن قـــومي أنطقتنـــي رمـــاحهم نـــطقت ولكـــن الرمـــاح أجـــرت

١١ ـ عامر بن الطفيل

وقال عامر بن الطفيل:

لقد علمت عليا هوازن أنني ... أنا الفارس الحامي حقيقة جعفر
وقد علم المزنوق أني أكرُّه ... على جمعهم كرَّ المنيح المشهر
إذا ازور من وقع الرماح زجرته ... وقلت له ارجع مقبلاً غير مدبر
وأنبأته أن الفرار خزاية ... على المرء ما لم يبل جهداً ويعذر
وألست ترى أرماحهم في شرعا ... وأنت حصان ماجد العرق فاصبر
أردت لكيلا يعلم الله أنني ... صبرت وأخشى مثل يوم المشقر
لعمري وما عمري عليَّ بهين ... لقد شان حر الوجه طعنة مسهر
فبئس الفتى إن كنت أعور عاقرا ... جباناً فما عذري لدى كل محضر
وقد علموا أني أكر على ... عشية فَيْفِ الريح كر المدور
وما رمت حتى بل نحري وصدره ... نجيع كهداب الدمقس المسير
أقول لنفس لا يجاد بمثلها ... أقلي المراح إنني غير مقصر
فلو كان جمع مثلنا لم نبالهم ... ولكن أتتنا أسرة ذات مفخر
فجاؤوا بفرسان العريضة كلها ... وأكلب طراً في لباس السنور

١٢ ـ الحصين بن الحمام المري

وقال الحصين بن الحمام المري:

جـــزى الله أفنـــاء العشـــيرة كلهـــا ... بجـــارة موضـــوع عقوقـــا ومـــأثما
بنـــي عمنـــا الأدنـــين مـــنهم ورهطنـــا ... فـــزارة إذ رامـــت بنـــا الحـــرب معظـــما
مـــوالي موالينـــا الـــولاة مـــنهم ... ومـــولى اليمـــين حابســـا متقســـما
ولمـــا رأيـــت الـــود لـــيس بنـــافعي ... وإن كـــان يومـــاً ذا كواكـــب مظلـــما
صـــبرنا وكـــان الصـــبر فينـــا ســـجية ... بأســـيافنا يقطعـــن كفـــاً ومعصـــما
يفلقـــن هامـــاً مـــن رجـــال أعـــزة ... علينـــا وهـــم كـــانوا أعـــق وأظلـــما
وجـــوه عـــدو والصـــدور حديثـــة ... بـــود فـــأوى كـــل ود فـــأنعما
فليـــت أبـــا شـــبل رأى كـــر خيلنـــا ... وخيلـــهم بـــين الستـــار فـــأظلما
نطـــاردهم نســـتنقذ الجـــرد كالقنـــا ... ويســـتنقذون الســـمهري المقومـــا
عشـــية لا تغنـــي الرمـــاح مكانهـــا ... ولا النبـــل إلا المشرـــفي المصـــمما
لـــدن غـــدوة حتـــى أتـــى الليـــل مـــا تـــرى ... مـــن الخيـــل إلا خارجيـــاً مســـوما
وأجـــرد كالسرـــحان يضرـــبه النـــدى ... ومحبوكـــة كالســـيد شـــقاء صـــلدما
يطـــأن مـــن القـــتلى ومـــن قصـــد القنـــا ... خبـــاراً فـــما يجـــرين إلا تجشـــما
علـــيهن فتيـــان كســـاهم محـــرق ... وكـــان إذا يكســـو أجـــاد وأكرمـــا
صـــفائح بصرـــى أخلصـــتها قيونهـــا ... ومطـــرداً مـــن نســـج داود مـــبهما
يهـــزون ســـمراً مـــن رمـــاح ردينـــة ... إذا حركـــت بضـــت عواملهـــا دمـــا
أثعلـــب لـــو كنـــتم مـــوالي مثلهـــا ... إذن لمنعنـــا حوضـــكم أن يهـــدما
ولـــولا رجـــال مـــن رزام بـــن مالـــك ... وآل ســـبيع أو أســـوءك علقـــما
لأقســـمت لا تنفـــك منـــي محـــارب ... عـــلى آلـــة حـــدباء حتـــى تنـــدما

وحتى يروا قوماً تضب لثاتهم ... يهزون أرماحاً وجيشاً عرمرما
ولا غرو إلا الخضر خضر محارب ... يمشون حولي حاسراً وملأما
وجاءت جحاش قضها بقضيضها ... وجمع عوال ما أدق وألأما
وهاربة البقعاء أصبح جمعها ... أمام جموع الناس جمعاً مقدما
بمعترك ضنك به قصد القنا ... صبرنا له قد بل أفراسنا دما
وقلت لهم يا آل ذبيان ما لكم ... تفاقدتم لا تقدمون مقدما
أما تعلمون اليوم حلف عرينة ... وحلفاً بصحراء الشطون ومقسما
وأبلغ أنيساً سيد الحي أنه ... يسوس أموراً غيرها كان أحزما
فإنك لو فارقتنا قبل هذه ... إذاً لبعثنا فوق قبرك مأتما
وأبلغ تليداً إن عرضت ابن مالك ... وهل ينفعنَّ العلم إلا المعلما
فإن كنت عن أخلاق قومك راغبا ... فعذ بضبيع أو بعوف بن أصرما
أقيمي إليك عبد عمرو وشايعي ... على كل ماء وسط ذبيان خيما
وعوذي بأفناء العشيرة إنما ... يعوذ الذليل بالعزيز ليعصما
جزى الله عنا عبد عمرو ملامة ... وعدوان سهم ما أدق وألأما
وحي مناف قد رأينا مكانهم ... وقرَّان إذ أجرى إلينا وألجما
وآل لقيط إنني لن أسوءهم ... إذن لكسوت العم برداً مسهما
وقالوا تبين هل ترى بين ضارج ... ونهي أكف صارخاً غير أعجما
فالحقن أقواماً لئاماً بأصلهم ... وشيدن أحساباً وفاجأن مغنما
وأنجين من أبقين منا بخطة ... من العذر لم يدنس وإن كان مؤلما
أبى لابن سلمى أنه غير خالد ... ملاقي المنايا أي صرف تيمما
فلست بمبتاع الحياة بسبة ... ولا مبتغ من رهبة الموت سلما
ولكن خذوني أي يوم قدرتم ... علي فحزوا الرأس إن أتكلما
بأية أني قد فجعت بفارس ... إذا عرد الأقوام أقدم معلما

١٣ ـ دريد بن الصمة وعبد الله بن عبد المدان

وقال دريد بن الصمة يوعد بني الحارث بن كعب:

يـــا بنـــي الحـــارث أنـــتم معشرـــ زنـــدكم وارٍ وفي الحـــرب بهـــم
ولكـــم خيـــل عليـــها فتيـــة كأســـود الغيـــل يحمـــين الأجـــم
لـــيس في الأرض قبيـــل مـــثلكم حـــين يـــرفضُّ العـــدا غـــير جشـــم
لســـت للصـــمة إن لم آتكـــم بالخناذيـــذ تبـــارى في اللجـــم
فتقـــر العـــين منـــكم مـــرة بانبعـــاث الـــحر نوحـــاً تلتـــدم
وتـــرى نجـــران منـــكم بلقعـــا غـــير شـــمطاء وطفـــل قـــد يـــتم
فانظروهـــا كالسعـــالي شـــزبا قبـــل رأس الحـــول إن لم أخـــترم

ولما نميت أبيات دريد السالفة إلى عبد الله بن عبد المدان قال يجيبه:

١٤ ـ قال عبد الله بن عبد المدان:

نبئـــت أن دريـــداً ظـــل معترضـــا ... يهـدي الوعيـد إلى نجـران مـن حضـن
كالكلـــب يعـــوي إلى بيـــداء مقفـــرة ... مـــن ذا يواعـــدنا بـــالحرب لم يحـــن
إن تلـــق حـــي بنـــي الـــديان تلقهـــم ... شـــم الأنـــوف إلـــيهم عـــزة الـــيمن
مـا كـان في النـاس للـديان مـن شـبه إلا ... رعـــــــين وإلا آل ذي يـــــــزن
أغمـــض جفونـــك عـــما لســـت نائلـــه ... نحـــن الـــذين ســـبقنا النـــاس بالـــدمن
نحـــن الـــذين تركنـــا خالـــداً عطبـــا ... وســـط العجـــاج كـــأن المـــرء لم يكـــن
إن تهجنـــا تهـــج أنجـــاداً شرامحـــة ... بـــيض الوجـــوه مرافيـــداً عـــلى الـــزمن
أورى زيـــاد لنـــا زنـــداً ووالـــدنا ... عبـــد المـــدان وأورى زنـــده قطـــن

١٥ ـ تـأبط شـراً

وقال تأبط شراً:

يـا عيـد مالـك مـن شـوق وإيـراق ... ومـر طيـف عـلى الأهـوال طـراق
يسرـي عـلى الأيـن والحيـات محتفيـا ... نفسيـ فـداؤك مـن سـار عـلى سـاق
إني إذا خلـة ضـنت بنـائلها ... وأمسـكت بضـعيف الوصـل أحـذاق
نجـوت منهـا نجـائي مـن بجيلـة ... إذ ألقيـت ليلـة خبـت الـرهط أرواقـي
ليلـة صـاحوا وأغـروا بـيس راعهـم ... بـالعيكتين لـدى معـدي ابـن بـراق
كـأنما حثحثـوا حصـاً قوادمـه ... أو أم خشـف بـذي شـث وطبـاق
لا شيء أسرع منـي لـيس ذا عـذر ... وذا جنـاح بجنـب الريـد خفـاق
حتـى نجـوت ولمـا ينزعـوا سـلبي ... بوالـه مـن قبـيض الشـد غيـداق
ولا أقـول إذا مـا خلـة صرمـت ... يـاويح نفسيـ مـن شـوق وإشـفاق
لكـنما عـولي إن كنـت ذا عـول ... عـلى بصـير بكـسب الحمـد سـباق
سـباق غايـات مجـد في عشـيرته ... مرجـع الصـوت هـداً بـين أرفـاق
عـاري الظنابيـب ممتـد نـواشره ... مـدلاج أدهـم واهـي المـاء غسـاق
حمالـه ألويـة شـهاد أنديـة ... قـوال محـكمة جـواب آفـاق
فـذاك همـي وغـزوي أسـتغيث بـه ... إذا اسـتغثت بضـافي الـرأس نغـاق
كـالحقف حـداه النـامون قلـت لـه ... ذو ثلتـين وذو بـهم وأربـاق
وقلـة كـسنان الـرمح بـارزة ... ضـحيانة في شـهور الصـيف محـراق
بـادرت قنتهـا صـحي ومـا كسـلوا ... حتـى نميـت إليهـا بعـد إشراق
لا شيء في ريـدها إلا نعامتهـا ... منهـا هـزيم ومنهـا قـائم بـاق

بشرثة خلق يوقي البنان بها ... شددت فيها سريحاً بعد إطراق

بل من لعذالة خذالة أشب ... حرق باللوم جلدي أي تحراق

يقول أهلكت مالاً لو قنعت به ... من ثوب صدق ومن بز وأعلاق

عاذلتي إن بعض اللوم معنفة ... وهل متاع وإن أبقيته باق

إني زعيم لئن لم تتركوا عذلي ... أن يسأل الحي عني أهل آفاق

أن يسأل القوم عني أهل معرفة ... فلا يخبرهم عن ثابت لاق

سدد خلالك من مال تجمعه ... حتى تلاقي الذي كل امرئ لاق

لتقرعن علي السن من ندم ... إذا تذكرت يوماً بغض أخلاقي

١٦ ـ عروة بن الورد العبسي

وقال عروة بن الورد العبسي:

أقـــلي عـــليّ اللـــوم يابنـــة منـــذر ... ونـامي وإن لم تشـتهي النـوم فاسـهري
ذرينـــي ونفسيـــ أم حســـان إننـــي ... بهـا قبـل ألا أملـك البيـع مشـتري
أحاديـث تبقـي والفتـى غـير خالـد ... إذا هـو أمسـى هامـة فـوق صـيّر
تجـاوب أحجـار الكنـاس وتشـتكي ... إلى كـل معـروف رأتـه ومنكـر
ذرينـــي أطـــوف في الـــبلاد لعلنـــي ... أخليـك أو أغنيـك عـن سـوء محضرـي
فـإن فـاز سـهم للمنيـة لم أكـن ... جزوعـاً وهـل عـن ذاك مـن متـأخر
وإن فـاز سـهمي كفكـم عـن مقاعـد ... لكـم خلـف أدبـار البيـوت ومنظـر
تقـول لـك الـويلات هـل أنـت تـارك ... ضـبوءاً برجـل تـارة وبمنـسر
ومســتثبت في مالــك العــام إننــي ... أراك عـلى أقتـاد صرمـاء مـذكر
فجـوع لأهـل الصـالحين مزلـة ... مخـوف رداهـا أن تصـيبك فاحـذر
أبـى الخفـض مـن يغشـاك مـن ذي قرابـة ... ومـن كـل سـوداء المعاصـم تعـتري
ومســتهنئ زيــد أبــوه ولا أرى ... لـه مـدفعاً فـاقني حيـاءك واصـبري
لحـا الله صـعلوكاً إذا جـن ليلـة ... مضىـ في المشـاش آلفـاً كـل مجـزر
يعـد الغنـى مـن نفسـه كـل ليلـة ... أصـاب قراهـا مـن صـديق ميسرـ
ينـام عشـاء ثـم يصـبح طاويـا ... يحـث الحصىـ عـن جنبـه المتعفـر
قليـل الـتماس الـزاد إلا لنفسـه ... إذا هـو أمسـى كـالعريش المجـور
يعـين نسـاء الحـي مـا يسـتعنّه ... ويمسيـ طليحـاً كـالبعير المحسرـ
ولكـنّ صـعلوكاً صـفيحة وجهـه ... كضـوء شـهاب القـابس المتنـور

مطـــلاً عـــلى أعدائـــه يزجرونـــه بســـاحتهم زجـــر المنيـــح المـــشهر
إذا بعـــــدوا لا يـــــأمنون اقترابـــــه تشـــوف أهـــل الغائـــب المتنظـــر
فـــذلك إن يلـــق المنيـــة يلقهـــا حميـــداً وإن يســـتغن يومـــاً فأجـــدر
أيهلـــك معـــتم وزيـــد ولم أقـــم عـــلى نـــدب يومـــاً ولي نفـــس مخطـــر
ســـتفزع بعـــد اليـــأس مـــن لا يخافنـــا كواســـع في أخـــرى الســـوام المنفـــر
يطـــاعن عنهـــا أول القـــوم بالقنـــا وبـــيض خفـــاف ذات لـــون مشـــهر
فيومـــاً عـــلى نجـــد وغـــارات أهلهـــا ويومـــاً بـــأرض ذات شـــث وعرعـــر
ينـــاقلن بالمشـــط الكـــرام أولي القـــوى نقـــاب الحجـــاز في السرـــيح المســـير
يـــريح عـــليَّ الليـــل أضـــياف ماجـــد كـــريم ومـــالي ســـارحاً مـــال مقـــتر

الباب السابع

النثر الفني في العصر الجاهلي

الباب السابع

الفصل الأول

تعريف النثر وميزاته

أ ـ تعريف النثر:

يقصد بكلمة النثر كل ما قيل من كلام غير موزون وغير مقفى، وهو ضربان: نثر عادي ونثر فني.

فالنثر العادي: ما عبر عن قضايا بلغة لا تحمل قيماً بلاغية.

والنثر الفني: ما عبر عن مواقف بلغة فنية بلاغية مقصودة.

والنثر في العصر الجاهلي إذا ما قيس بالشعر كان نزراً قليلاً لأسباب متعددة إضافة إلى أن حظ العرب في العصر الجاهلي كان قليلاً في الكتابة والتأريخ.

والأدب في حقيقته تأريخ بلغة فنية.

ولا نعرف من الكتابة عند العرب إلا ما كان (يصفه لنا أمية بن أبي الصلت وهو من الشعراء الحنفاء الذين كانوا يكتبون الكتاب العبراني يترجمون الكتاب المقدس من العبرية إلى العربية، وما ورد عن ورقة بن نوفل الذي كان أيضاً يكتب الكتاب العبراني).

ب ـ ميزات النثر الجاهلي:

يتميز النثر الجاهلي بالميزات التالية:

١ - أنه وليد الطبع غالباً.

٢ - بعيد عن الصنعة والزخرفة والغلو في معظمه.

٣- يعتمد على السجع الذي يأتي على السجية.

٤ - يعتمد على قوة الألفاظ ومتانة التراكيب.

٥- سطحي الفكرة.

٦- لا توجد فيه روابط بين الأفكار.

٧- ينزع إلى الإيجاز والموسيقا في الجملة والأسلوب.

الباب السابع

الفصل الثاني

فنون النثر في العصر الجاهلي

أنواع النثر الفني في الجاهلية

تعددت الأنواع النثرية الفنية الأدبية في العصر الجاهلي بتعدد الأهداف التي كتبت من أجلها هذه الأنواع ومنها:

الخطابة: وهي نوع أدبي موغل في القدم، وله مكانة بارزة ومستمرة حتى يومنا هذا، وذلك لقيمته الكبيرة في ميادين الحياة السياسية والاجتماعية، وهي تمثل العصر الجاهلي بكل أبعاده.

سجع الكهان: وقد عرفه العصر الجاهلي معرفة عميقة، وإن انقطع بعد ظهور الإسلام لارتباطه بالطقوس الوثنية الدينية، وقد كان النثر الجاهلي يقوم على اسقراء الغيب واستكناه خفايا المستقبل وتأويل الرؤيا وبيان ما يشغل عقول الناس من حقائق، وذلك لتوجيه الناس وقيادتهم وفق مصلحة الكهان من خلال عبارات تتميز (بالسجع) الغامض الذي يلف معاني النثر، وهي نصوص مفتعلة مصنوعة موجزة ومركزة.

الوصايا: وهو نثر فني يتضمن خلاصة تجارب الإنسان والحياة يكون مباشر أو في صحيفة لتنظيم حياة الفرد أو الجماعة الموصاة تصاغ بعبارات فنية مؤثرة لترسخ في ذهن السامع أو القارئ بلغة الإيجاز.

المفاخرات: وهي معارضة الخصم بالتمدح بالخصال وعد القيم والمآثر، فإذا أسكت المفاخر خصمه فقد فخره وعُليه، وهي نوع يتميز بالإيجاز عرفه الجاهليون بسبب ارتباطه بطبقة النظام القبلي وعصبياته يتفجر من حين لآخر على ألسنة بعض المتحمسين لعصبيتهم.

المنافرات: وهي افتخار رجلين كل واحد منهما على الآخر بماله من مآثر واقعية يقربها الخصم نفسه، ثم يحكما بينهما رجلاً شريفاً أو كاهناً يقضي بالحكم بينهما، فإذا قضى الحكم بالغلبة لأحدهما فقد نضّر صاحبه أي غلبه في هذه المنافرة.

الحكم: وهو خلاصة التجارب الإنسانية تصب في قوالب نثرية لتكون قانوناً اجتماعياً أو فردياً يحتذى به ويسلك منهجه، فهو فلسفة خاصة بالمرء الذي ينهجها، وحدة فهي تمثل تجربة من التجارب مختصرة للزمان موجزة مركزة سهلة الحفظ والتداول خالدة عبر الأجيال تختلف عن المثل.

الأمثال: هي نثر فني مركز وخلاصة تجربة إنسانية مرتبطة بقصة على عكس الحكمة التي لا ترتبط بقصة أدت إلى وجودها.

الحكايات والقصص: مجموعة حوادث تقع لأشخاص أو شخص تروى بشكل فني بطريقة شفوية والسرد، غايتها الحكمة والاعتبار مضمونها متلون ومتنوع يصطبغ أسلوبها بأسلوب الحكواتي، أو القاص تتحدث عن قصص الحيوان وقصص العشق والحكايات والرحلات والمشاهدات وأيام العرب وأخبار القبائل والملوك.

أولاً ـ الحكم والأمثال:

- الأمثال في العصر الجاهلي:

ذاعت الأمثال في العصر الجاهلي وانتشرت بشكل واسع فهي تتفق وعقلية العربي ونظرته فيما يدور حوله، والمثل جزء من قول، أو قولٌ بذاته نُقل متواتراً من جيل إلى جيل دون تغيير، ولا يخلو من الغموض أحياناً، وقد أقبل كثير من العلماء على جمع الأمثال وشرحها وتبويبها، وأشهرهم الميداني المتوفي سنة/ ٥١٨/ ه، فقد جمع كتابه ((مجمع الأمثال)) من نحو خمسين كتاباً ورتبه على حروف المعجم، ومن خلال دراستنا لهذه الأمثال نرى أنها تعبر عن كثير من مظاهر الحياة في ذلك العهد وتصدر من طبقات الناس المختلفة كان أكثرها قوي العبارة صائب المعنى دقيق التشبيه يعتمد على البلاغة والإيجاز.

من هذه الأمثال أقوال قيلت في مناسبة من مناسبات الحياة فأصبحت مثلاً، ومنها ما يرتبط بحادثة واقعية وإنما ارتبط بقصة خيالية أو حكاية رمزية على ألسنة الحيوان والطير صدرت في أكثر حالاتها عن ذكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة.

وذهب الباحثون إلى أن الأمثال تعكس عقلية الشعب، وتعبر عن القيم التي يؤمن بها عبر التاريخ على ما فيها من تناقض في هذه القيم والمثل مرده إلى اختلاف البيئات وتفاوت المواقف والتجارب في الحياة.

ويستمر شيوع الأمثال في حياتنا العربية، وقد جمع الأبشيهي في كتابه ((المستطرف في كل فن مستظرف)) بعض الأمثال العربية في عصره مثلما جمع بعض الدارسين المعاصرين الأمثال العربية الحديثة باللغة العامية لأغراض ثقافية.

١ـ المثل: قول موجز سائر على الألسنة وارد في حادثة أو مستمد من ملاحظة.

نشأة المثل: كانت الحادثة تقع، ويدور فيها القول، وتأتي من بين الكلمات عبارة قوية مركزة في تلخيص الموقف، أو استخلاص العبرة منه، فيكون وقعها قوياً على السامع وتتلقفها الألسنة، فتذيع وتنتشر وتصبح مثلاً يلقى في كل موقف يشبه الموقف الذي سيقت فيه العبارة، وهذا يسمى (مورد المثل).

يضرب المثل في موقف يشبه الحالة التي ورد فيها مع المحافظة على لفظ المثل وضبطه، وهذا يسمى: (مضرب المثل) وهو استعارة تمثيلية، ولذلك فكل مثل له مورد ومضرب.

٢- الحكمة: جمل قصيرة بليغة، خالية من الحشو، أوحت بها تجارب الحكماء والمعمرين في الحياة والعلاقات بين الناس، وهي ثمار ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل، والرأي المحكم تتفق الحكمة مع المثل في: الإيجاز، والصدق، وقوة التعبير، وسلامة الفكرة.

وتختلف الحكمة عن المثل في أمرين:

١- لا ترتبط في أساسها بحادثة أو قصة.

٢- أنها تصدر غالباً عن طائفة خاصة من الناس لها خبرتها وتجاربها وثقافتها.

وقد يكون المثل في الأصل حكمة درجت على ألسنة الناس كثيراً قد شاعت الحكمة على ألسنة العرب لاعتمادها على التجارب واستخلاص العظة من الحوادث ونفاذ البصيرة والتمكن من ناحية البلاغة. وقد اشتهر عند العرب في العصر الجاهلي طائفة من أولئك الحكماء، مثل: لقمان عاد وهو غير لقمان الحكيم، المذكور في القرآن الكريم، وأكثم بن صيفي،

وعامر بن الظرب، وأكثم بن عامر، وهرم بن قطبة، ولبيد بن ربيعة. وبعض هؤلاء يُعدون في الخطباء، وحكام المنافرات أيضاً. ولا يكاد يوجد في العصر الجاهلي سيد، أو شريف، أو خطيب مشهور إلا أضيفت إليه جملة من الحكم والأمثال. وربما كانت وحدها التي وصلت إلينا كلها كما نطق بها أصحابها، بلا تغيير أو تحريف، ولا زيادة أو نقص، لما تمتاز به من تركيز بالغ، وإيجاز شديد، وقبول للحفظ والشيوع على الألسنة في كل مناسبة، وبذلك تكون أصح ما بقي من النصوص الجاهلية، وأقربها إلى أصولها الأولى، وإن كانت لا تقدم صورة كاملة عن النثر الجاهلي.

والفرق بين الحكمة والمثل، أن الحكمة قول موجز جميل، يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به؛ لأنه نابع من الواقع ومعاناة التجارب في الحياة، مثل: «آخر الدواء الكي، وأول الشجرة النواة، وإنك لا تجني من الشوك العنب... ».

وأما المثل فهو- في أصله- قول يقترن بقصة أدت إليه، ثم يدخل في نطاق الأمثال حين يستشهد به في مقامات مماثلة، وفي حالات مشابهة للحالة الأولى التي ورد ذلك القول فيها. ولذلك تحكى الأمثال بألفاظها الأصلية، بلا تغيير ولا تصرف، مهما كان وضع المخاطب أو نسق الكلام. وقد دوّن العرب حكمهم وأمثالهم منذ أوائل العصر الأموي، وهذا مما ساعد على حفظها وتواترها على الألسنة. وأكثر تلك الحكم والأمثال لا يعرف أصحابها أو قائلوها، وقد سيقت بأسلوب سهل، لا أثر للصنعة الإنشائية فيه، وبعضها، بل أكثرها يعد من الإنشاء الرفيع، والسبك الجيد. وكثير منها أشطار موزونة، ربما كانت مقتطعة من أبيات كاملة، مثل: «رضيت من الغنيمة بالإياب» وهو عجز بيت لامرئ القيس، و«خلا لك الجو فبيضي واصفري» وهو أيضاً عجز بيت لطرفة. «والبس لكل حالة لبوسها» وهو رجز قديم، لا تعرف تتمته ولا صاحبه.

ولا تخلو صياغة بعض الحكم والأمثال أحياناً، من خروج على النظام اللغوي. كقولهم: «مكره أخاك، لا بطل» و«أعط القوس باريها» و«أجناؤها أبناؤها» والقياس: «جناتها بناتها» لأن «فاعلاً» لا يجمع على «أفعال». وهذه الحكم أو الأمثال هي- على كل حال- صورة لحياة العرب في الجاهلية، ولأساليبهم ولهجاتهم، وجانب من نثرهم، فيها البساطة والسهولة التي لا

تخلو أحياناً من السجع والاحتفال بتوازن الكلمات وجمال الصنعة والتصوير. وقد اهتم المفضل الضبي وأبو عبيدة وأبو هلال العسكري فـي كتابه جمهرة الأمثال. والزمخشري في كتابه الأمثال، بجمع أمثال العرب الجاهليين ورتبت على حروف الهجاء (المعجم) مع ذكر القصص المتعلقة بالمثل.

٤- أنواع المثل:

أ- (الأمثال الواقعية) وهي الامثال التي ترتبط بحادثة واقعية.

ب- (الأمثال الخيالية) وهي الأمثال التي ترتبط بقصة خيالية.

جـ- (الأمثال المنهجية) وهي التي تمثل منهجاً معيناً في الحياة كقولهم:

إن الحديد بالحديد يفلح.

د- (الأمثال ذات التوجيه الخاص) وهي التي تحمل توجيهاً خاصاً كقولهم: قبل الرماء تملأ الكنائن.

هـ- (أمثال الملاحظة الظاهرية) وهي التي تبنى على ملاحظة مظاهر الطبيعة أو ترتبط بأشخاص اشتهروا بصفات خاصة. ويرجع سر انتشار المثل وذيوعه في الجاهلية إلى أن البيئة الجاهلية بيئة فطرية تغلب فيها الأمية وتشتد الحاجة إلى التجارب المستخلصة في أقوال لها معنى صادق.

كذلك يرتبط المثل بحادثة أو حكاية تساعد على انتشاره.

و تصاغ الأمثال غالباً في عبارة حسنة، يظهر فيها دقة التشبيه بين المورد والمضرب، وذلك ما يرضي ذوق العربي، فالمثل صوت الناس، ومرآة تنعكس عليها صورة الحياة الاجتماعية والسياسية والطبيعية، وهي تعبير عن عامة الناس لصدوره دون تكلف، ولذلك يتجه الباحثون عن طبائع الشعوب إلى دراسة أمثالها، وإذا رجعنا إلى الأمثال وجدناها صوتاً للناس لما يأتي:

١- لأنها مرتبطة بالبيئة وما فيها من حرب وصلح ومفاوضات.

٢- تعبر عن صفات العرب وأخلاقهم وعاداتهم.

٣- ترتبط بحياتهم وأحداثها وتعبر عن طرق تفكيرهم، ولذلك تتنوع الأمثال من أمة إلى أخرى تبعاً لاختلاف البيئة والثقافة واختلاف العصور.

٥ – الخصائص الفنية للأمثال:

١- إيجاز اللفظ.

٢- قوة العبارة.

٣- دقة التشبيه.

٤- سلامة الفكرة.

٦- نماذج لأمثال العرب في الجاهلية:

أ- نفس عصامٍ سودت عصاماً: يضرب لمن نال شرفاً بنفسه غير موروث عن آبائه، وأصل ذلك: أن عصام بن بشير كان حاجباً عند ملك الحيرة النعمان بن المنذر، ثم صار ملكاً فأصبح مضرب المثل في الاعتماد على الذات لبلوغ الهدف الرفيع.

ب- تسمع بالمعيدي خير من أن تراه: يضرب لمن خبره خير من مرآه، وأصل ذلك أن المنذر بن ماء السماء- ملك الحيرة – كان يسمع بمشقة بن ضمرة المعيدي ويعجبه ما بلغه عنه، فلما رآه، وكان قبيح المنظر، قال: ((تسمع بالمعيدي خير من أن تراه)) فذهب مثلاً.

ج- كرهاً تركب الإبل للسفر: يضرب للإنسان يفعل من الأمر ما يكره.

د- احفظ ما في الوعاء بشد الوكاء: يضرب في الحث على أخذ الأمر بالحزم.

هـ- حلب الدهر أشطره: يضرب في من جرب الدهر، وعرف خيره من شره.

والأشطر: جمع شطر وهو خلف الناقة، أي حامة ضرعها

و- رجع بخفي حنين: يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة، وأصله أن حنيناً كان إسكافاً من أهل الحيرة فساومه أعرابي بخفين فاختلفا حتى أغضبه، فأراد حنين غيظ الأعرابي فلما ارتحل الأعرابي أخذ حنين أحد خفيه وطرحه في الطريق، ثم ألقى الآخر في موضع آخر فلما مر الأعرابي بأحدهما قال: ما أشبه هذا الخف بخف حنين! ولو كان معه الآخر لأخذته ومضى فلما انتهى إلى الآخر ندم على تركه الأول، وقد كمن له حنين فلما مضى

الأعرابي في طلب الأول عمد حنين إلى راحلته وما عليها فذهب بها، وأقبل الأعرابي وليس معه إلا الخفان فقال له قومه: ماذا جئت به من سفرك؟ فقال: جئتكم بخفي حنين فذهبت مثلاً.

ز- جزاؤه جزاء سنمار: يضرب لمن يحسن في عمله فيكافأ بالإساءة إليه.

ح- إنك لا تجني من الشوك العنب: يضرب لمن يرجو المعروف في غير أهله، أو لمن يعمل الشر وينتظر من ورائه الخير.

ط- تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها.

ي- مفصل الرجل بين فكيه.

ك- أسمع جعجعة ولا أرى طحناً.

ل- من أجدب أنتج.

ومن أقوال أكثم في الحكمة:

أ- ويل للشجي من الخلي.

ب- لم يذهب مالك ما وعظك.

ج- ادّرعوا الليل فإنه أخفى للويل.

د- إذا فزع الفؤاد ذهب الرقاد.

هـ- ليس من العدل سرعة العذل.

٧- نماذج من حكم العرب في الجاهلية:

أ- مصارع الرجال تحت بروق الطمع: فيها دعوة إلى القناعة فإن الطمع يقتل صاحبه.

ب- رب ملوم لا ذنب له: دعوة إلى التحقق من الأمر قبل توجيه اللوم للبريء.

ج- أدب المرء خير من ذهبه: معناها أن قيمة الإنسان بأدبه لا بماله.

د- سوء الظن منجاة وحسن الظن ورطة.

هـ- من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء: معناها من استعان بقوم غير صالحين لم يفلح في عمله، ويكون مثله كمثل من يقف الماء في حلقه، فلا يجد سبيلاً إلى إزالة غصته. فهي تدعو إلى حسن اختيار الأعوان.

و- من شدد نفر، ومن تراخى تآلف: فالناس تنفر من الشديد القاسي وتميل إلى اللين الرخي.

ح- ظلم اللسان أنكى من السنان.

ط- الخطأ زاد العجول.

ي- من ضاق صدره اتسع لسانه.

٨ ـ الخصائص الفنية لأسلوب الحكمة

أ- روعة التعبير.

ب- قوة اللفظ.

جـ- دقة التشبيه.

ح- سلامة الفكرة مع الإيجاز.

ثانياً ـ الخطابــة:

أ- تعريف الخطابة:

أقدم فنون النثر؛ لأنها تعتمد علي المشافهة، وهي فن مخاطبة الجمهور بأسلوب يعتمد علي الاستمالة وعلى إثارة عواطف السامعين، وجذب انتباههم وتحريك مشاعرهم، وذلك يقتضي من الخطيب تنويع الأسلوب، وجودة الإلقاء وتحسين الصوت ونطق الإشارة. أما الإقناع فيقوم علي مخاطبة العقل، وذلك يقتضي من الخطيب ضرب الأمثلة وتقديم الأدلة والبراهين التي تقنع السامعين.

للخطابة شأن عظيم عند الجاهليين يضاهي شأن الشعر؛ إذ إن هذه الخطابة كانت نظراً لعدم وجود قوانين مدونة، ونظم حكومية يلجأ إليها للدفاع عـن النفس والقوم والقبيلة ومفاخـرة القبائل الأخرى والدعوة إلى الصلح في المواسم والمحافل. وقد اختلف الدارسون

في منزلة الخطيب فاعتبرها البعض كعمرو بن العلاء فوق منزلة الشاعر؛ نظراً لتكسب الشعراء بشعرهم، وردها الجاحظ إلى كثرة الشعراء، وقد كان للعرب الجاهليين سنن خاصة في خطابتهم كأن يخطبون وهم يركبون رواحلهم في المواسم، أو أن يقفوا على نثر من الأرض، وأن يشيروا أثناء خطبهم بالعصي والقسي والقنا، وقد امتدح الدارسون في الخطيب جهارة الصوت وفخامته وظهور المحبة وثبات الجنان، وذمّوا البهر عند الخطيب والارتعاش والرعدة والحصر والعي.

ب- أنواع الخطابة في العصر الجاهلي:

تعددت أنواع الخطابة في هذا العصر:

١- خطب المنافرة المفاخرة.

٢- خطب النصح والإرشاد.

٣- خطب الحث على القتال.

٤- خطب الدعوة للسلم وحقن الدماء.

٥- خطب الزواج والمصاهرة.

٦- خطب الأسواق والمحافل العظام.

٧- الوفادة على الملوك والأمراء.

٨- الحديث عن مفاخر القبيلة ومحامدها.

ج- ميزات الخطابة الجاهلية:

١- قصر العبارة.

٢- وكثرة الحكم والأمثال.

٣- واللجوء إلى السجع القصير الفواصل.

٤- الإحاطة بالتجويد والصور ومخارج الكلمة.

وقد ازدهرت الخطابة عند العرب متأخرة في الزمن؛ لأن الشعر كان متفوقاً عليها، فلما أصبح الشعر مطية للتكسب صارت منزلة الخطيب هي المقدَّمة. واشتهر في العصر الجاهلي خطباء كثيرون، مثل: قس بن ساعدة الإيادي، وهانئ بن قبيصة الشيباني وعامر بن الظَّرب العدواني، وعمرو بن كلثوم التغلبي، وأكثم بن صيفي وعمرو بن الأهتم التميميان، وهاشم بن عبد مناف القرشي، وعمرو بن معد يكرب، وعمرو بن كلثوم، وعمرو بن الأهتم المنقري، وتعد قبيلة تميم من أشهر القبائل العربية خطابة.

د- أغراض الخطابة الجاهلية:

وقد تعددت أغراض الخطابة الجاهلية وأنواعها، إزاء هذا الازدهار، فكانت:

١- وسيلة للتحريض على القتال.

٢- أو للأخذ بالثأر.

٣- وربما كانت في الوقت نفسه سبيلاً إلى إصلاح ذات البين، أو إرساء قواعد السلم.

٤- وقد تكون في إشاعة المفاخر، والإشادة بالأنساب أمام الملوك وزعماء القبائل، والأمراء.

٥- وقد تلقى الخطب في مناسبات الزواج، والمصاهرات بين ذوي الأحساب والأنساب، فيتكلم خطيب من كل جانب. قال الجاحظ: «كانت خطبة قريش في الجاهلية، يعني خطبة النساء: باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف. باسمك اللهم، لك ما سألت، ولنا ما أعطيت».

هـ - سنن الخطباء الجاهليين في خطبهم:

وكانت للخطباء سنن وتقاليد يتبعونها عند إلقاء خطبهم:

١- كأن يقف الخطيب على مرتفع من الأرض، معتمداً على قوسه، أو ممسكاً بعصا يشير بها.

٢- وقد يخطب راكباً على ناقته، وبيده الرمح، وقد لاث العمامة على رأسه.

ومما يمدح به الخطيب عندهم:

١- حضور البديهة.

٢- قلة التلفت.

٣- قوة الجنان.

٤- ظهور الحجة.

٥- جهارة الصوت.

و- عيوب الخطيب:

وفي مقابل ذلك كانوا يعيبون على الخطيب:

١- التنحنح.

٢- الانقطاع.

٣- الاضطراب.

٤- التعثر في الكلام.

ز- خصائص الخطابة في العصر الجاهلي:

الخطابة مظهر من مظاهر السيادة عند العرب وعلامة من علامات كبريائهم واعتزازهم، وسبيل من سبل التأثير والإقناع تحتاج إلى حذاقة اللسان ونصاعة البيان وطلاقة البديهة، والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء وأولو غيرة ونجدة، فكان لهم فيها القدم السابقة والقدح المعلى يلجأ إليها المرء للدفاع عن نفسه وقومه في مواقف المفاخرة والذود عن الشرف والذمار، وإصلاح ذات البين بين حي وحي، أو بين قبيلة وقبيلة والدعوة إلى التفاهم والصلح، كما كان يدعو الخطيب إلى الحرب وسفك الدماء.

وكانوا كثيراً ما يخطبون في وفادتهم على الأمراء والملوك؛ إذ يقف رئيس الوفد بين يدي الأمير أو الملك فيحييه متحدثاً بلسان قومه، يقول الجاحظ في كتابه البيان والتبيين:" اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر والبدو والحضر على ضربين، منها الطوال ومنها القصار ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه، ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة

ومتشاكلاً في استواء الصنعة، ومنها ذوات الفقر الحسان والنتف الجياد، ووجدنا عدد القصار أكثر ورواة العلم إلى حفظها أسرع".

اتخذ العرب من مجالسهم ومن أسواقهم ومن وفاداتهم على الأمراء والملوك ميادين لإظهار براعتهم في فنون الكلام، وما فطروا عليه من فصاحة وحضور بديهة، وكادت منزلة الخطيب تعلو منزلة الشاعر لولا حاجتهم إلى الشعر الذي يعزز شأنهم ويرفع منزلتهم، ويهيب من فرسانهم عرف العرب لونين من الخطابة لوناً مسجوعاً ولوناً مرسلاً؛ إذ كانوا يبتغون التجويد في كلامهم تارة بما يصوغونه فيه من سجع، وتارة أخرى بما يخرجونه من استعارات وأخيلة فجاء أسلوب الخطابة عندهم رائع اللفظ خلاب العبارة واضح المنهج قصير السجع كثير الأمثال يعتمد على الخيال والبلاغة.

وأهم خصائص أسلوب الخطبة الجاهلية:

١- وضوح الفكرة.

٢- جودة العبارة وسلامة ألفاظها.

٣- الإكثار من السجع غير المتكلف.

٤- التنوع في الأسلوب بين الخبري والانشائي.

٥- قلة الصور البيانية.

٦- استخدام الأسلوب المرسل في خطب المحافل وإصلاح ذات البين، ولا يغفل صاحب الأسلوب المرسل- في الوقت نفسه- عن تجويد وتنقيح خطبته، والتروي فيها، سعياً إلى إثارة السامعين واستمالتهم.

٧- إيثار قصر العبارة، وتوشيحها ببعض الحكم والأمثال.

٨- قد تطول الخطبة، وقد تقصر، ولكل منهما مقام وموضع وقدر من العناية.

ح- أجزاء الخطبة الجاهلية:

و للخطبة أجزاء ثلاثة هي:

(المقدمة – والموضوع – والخاتمة)

أما أهداف الخطبة فهي: الإفهام، والإقناع، والإمتاع، والاستمالة.

ي- أسباب ازدهار الخطبة في العصر الجاهلي:

ازدهرت الخطبة في العصر الجاهلي للأسباب التالية:

١- حرية القول.

٢- وجود دواعي الخطابة كالحرب والصلح والمغامرات.

٣- الفصاحة فكل العرب كانوا فصحاء.

ولقد اجتمعت كل هذه الخصائص في خطبة (قس من ساعدة الإيادي).

ليس بين أيدينا نصوص وثيقة من الخطابة الجاهلية؛ لما قلناه من بعد المسافة بين العصر الذي قيلت فيه وعصور تدوينها.

نماذج لبعض الخطب

١-خطبة(النعمان بن المنذر) أمام كسرى حين وفد العرب على كسرى:

يعد النعمان بن المنذر العربي شديد الاعتزاز بوطنه وأمته، يأبى الضيم ويرفض الهوان يبذل دمه في سبيل كلمة الحق، وللعرب في الجاهلية مواقف بطولية نعتز بها نحن العرب ونفخر بها، وما موقف النعمان بن المنذر أمام كسرى إلا أحد هذه المواقف البطولية الرائعة، فقد قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب، ومما قاله:

((وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها، حتى إن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً فأباً، حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجلٌ في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعي إلى غير أبيه، وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه في حموله وشبعه وريه؛ فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له، ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر، وأما حكمة ألسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه

وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال، وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس، ثم خيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبلهم الجزع ومطاياهم التي لا تبلغ على مثلها سفر، ولا يقطع بمثلها بلد قفر، وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى لا يبلغ أحد من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً، وبلداً محرماً، وبيتاً محجوجاً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه، وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته فيه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى... وإن أحدهم ليرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه، فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب، فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره)).

شرح المفردات:

البكرة: الناقة الفتية، الناب: الناقة المسنة، البلاغ: الكفاية، الجزع: خرز يماني فيه سواد وبياض، السفر: المسافرون، المناسك: هي فروض الحج وتعبداته، الولث: العهد، غلق الرهن: استحقه المرتهن، والمراد هنا أنه يجعل العود بمنزلة رهن فلا بد أن يفتكه ولا يرضى بانتكاث عهده.

ثالثاً ـ الوصايا:

أ- الوصية الجاهلية:

قول حكيم صادر عن مجرِّب يوجه إلى من يحب لينتفع به، وهي من ألوان النثر التي عرفها العرب في الجاهلية، وهي قطعة نثرية تشبه الخطبة تحمل في طياتها تجربة من التجارب تقال على شكل حكم ونصائح، قد تكون من أب إلى أبنائه، أو من أم إلى ابنتها، أو من زعيم إلى أفراد قبيلته، كوصية أمامة بنت الحارث ابنتها أم إياس عند زواجها. وتلتقي الوصايا بالحكم والأمثال لتضمنها كثيراً من تلك الأقوال الموجزة النابعة من التجربة، حتى لكأن الوصايا أحياناً قائمة على جملة من الحكم والأقوال المأثورة. وتروي هذه الوصايا عادة على ألسنة طوائف من الحكماء والمعمرين، الذين عرفوا بكثرة تجاربهم وخبرتهم في الحياة، من أمثال: ذي

الإصبع العدواني، وزهير بن جناب الكلبي، وعامر بن الظرب العدواني، وحصن بن حذيفة الفزاري. ومن النساء: أمامة بنت الحارث. ويغلب على الظن أن هذه الوصايا جميعاً رويت بالمعنى، ولكنها لا تخلو من بعض العبارات الأصلية المحفوظة، ولاسيما في الوصايا القصيرة. وتقدم الوصايا صورة عن هذا الفن النثري؛ لأن من رووها أو حفظوها قد راعوا أصولها وتقاليدها.

وقد تعددت الوصايا في العصر الجاهلي وتنوعت أغراضها على وفق الحدث المرتبط بها. واختلفت عن غيرها من صنوف الأدب؛ لأنها كانت نابعة من تجارب الإنسان وخبرته في الحياة. فالموصي يضع في وصيته عصارة فكره وخلاصة تجاربه في الحياة. فنراه يأتي في وصيته بجمل قصيرة مركزة تحمل أبلغ المعاني، وأسمى القيم. وصل إلينا من تلك الوصايا بعضه موجه إلى الأبناء والبنات، وبعضه الآخر موجه إلى أفراد من القبيلة.

ب- أقسام الوصايا:

فيمكن تقسيم الوصايا إلى:

١- وصايا الملوك إلى أولياء العهد أو من يقوم مقامهم.

٢- وصايا الحكماء إلى أبنائهم وأبناء العشيرة وغيرهم.

٣- وصايا الآباء للأبناء وأبناء الأبناء.

٤- وصايا الهداء (الزواج).

٥- وصايا السفر والمسافرين.

٦- وصايا الحرب.

٧- وصايا دينية:

٨- وصايا اجتماعية: كالوصايا المتعلقة بالزواج، والمال، والصداقة، والعناية بالخيل وإكرامها، ومكارم الأخلاق كتهذيب اللسان، وتربية النفس، والحث على الصدق، والبذل والجود... ومن شواهدها وصية ذي الإصبع العدواني- لما احتضر- لابنه أسيد.

٩- وصايا سياسية: تكون بين الراعي والرعية، والدعوة إلى الحرب، والدعوة إلى السلم والتحذير من التنازع.

١٠- وصايا الزواج:

١١- وصايا السراق واللصوص.

١٢- وصايا الآباء للأبناء.

ج- أجزاء الوصية الجاهلية:

تتألف الوصية من:

أ- المقدمة: وفيها تمهيد وتهيئة لقبولها.

ب- الموضوع: وفيه عرض للأفكار في وضوح وإقناع هادئ للموصى له.

ج- الخاتمة: وفيها إجمال موجز لهدف الوصية.

ولقد رأينا ذلك في (وصية أمامة بنت الحارث لابنتها عند زواجها).

د- ميزات الوصية الجاهلية

تتميز الوصية الجاهلية عن غيرها من فنون النثر الجاهلي بما يلي:

أ- وضوح الألفاظ وضوحاً تاماً من غير إبهام.

ب- قصر الجمل وإيجازها بحيث تؤدي المعنى بشكل موجز.

ج- الإطناب بالتكرار والترادف والتعليل حين يحتاج الموقف للشرح.

د- تنوع الأسلوب بين الخبر والإنشاء.

هـ- الإقناع بترتيب الأفكار وتفصيلها وبيان أسبابها.

و- التنغيم الداخلي والإيقاع الموسيقي الجميل.

وقد تجلى كل ذلك في وصية أمامة لابنتها

هـ- الفرق بين الوصية والخطبة الجاهليتين:

والفرق بين الوصية والخطبة أن الخطبة هي فن مخاطبة الناس جميعاً لاستمالتهم وإقناعه، أما الوصية فهي قول حكيم لإنسان مجرب يوصي به، من يحب لينتفع به في حياته. وتمتاز الوصايا في العصر الجاهلي بجمالها، وتناسب جملها ورقتها.

و- نماذج من الوصايا الجاهلية:

١ ـ (وصية عمرو بن كلثوم)

جمع عمرو بن كلثوم بنيه حينما حضرته الوفاة، وكان قد عاش مئة وخمسين سنة على ما يروى فقال: "يا بَنيَّ، قَدْ بَلغْتُ من العُمُرِ ما لمْ يَبْلغْهُ أحدٌ منْ آبائي، ولا بدَّ أنْ يَنْزلَ بي ما نَزلَ بهم منَ الموْتِ. وإني والله ما عيّرتُ أحداً بشيءٍ إلا عُيِّرتُ بمثْلهِ، إنْ كانَ حقاً فَحقاً، وإن كانَ بَاطلاً فبَاطلاً، ومنْ سَبَّ سُبَّ. فكُفُّوا عنِ الشتمِ، فإنّهُ أسْلمُ لَكمْ، وأحسِنوا جِوارَكمْ، يحسنْ ثناؤُكم، وإذا حُدِّثْتم فَعوا، وإذا حَدثْتم فأوْجِزوا، فإن مع الإكثارِ يكونُ الإهْذار. أشجعُ القَومِ العَطوفُ عندَ الكرِّ، كَما أن أكرم المنايا القتلُ، ولا خيرَ فيمن لا رَويّة لهُ عندَ الغضَبِ، ولا منْ إذا عُوتبَ لم يُعْتِبْ، ولا تَتزوجوا في حيّكم، فإنّه يودي إلى قُبْحِ البُغْضِ".)

٢ ـ (وصية ذي الأصبع العدواني)

ذو الأصبع العدواني هو حرثان بن الحارث ناثر وشاعر من العصر الجاهلي، ينتمي لقبيلة عدوان المضرية، وسمي ذا الأصبع لوجود أصبع زائدة برجله، كان من حكماء العرب، حين حضرته الوفاة أوصى ابنه أسيداً ببعض الوصايا التي

تعينه في إحنه ومحنه، ومنها:

" يا بُني، إن أباكَ قد فَنِيَ وهوَ حيٌّ، وعاشَ حتَى سَئِمَ العَيشَ. وإنِّي مُوصيكَ بما إنْ حفظْته بَلغتَ في قَوْمكَ ما بَلغتُه: أَلِنْ جانبَك لقَومك يُحبُّوكَ، وتَواضعْ لهُمْ يرفَعوكَ، وابسُطْ وجْهَكَ يُطيعوكَ، ولا تستأثر علَيهمْ بشيءٍ يسوِّدوكَ، وأكْرِم صغارَهُمْ كَما تُكْرمْ كبارَهُمْ، يُكْرمكَ كبارهُم، ويَكبُرْ على مودَّتكَ صِغارُهُمْ، واسْمحْ بمالكَ، وأعززْ جارَكَ، وأعنْ من اسْتعانَ بِكَ، وأكرم ضَيفكَ، وصُنْ وجهكَ عنْ مسألِة أحدٍ شيئاً، فَبذلِكَ يَتمُّ سُؤْدُدُكَ".

والوصية وإن كانت تخرج لشخص واحد، فهي يمكن أن تفيد مجتمعاً كاملاً، ويمكن عدها مرجعاً يفيد كل من يحتاج إلى النصح والإرشاد.

والطابع العام للوصايا الجاهلية هو الأسلوب المرسل، الذي يترك فيه الموصى نفسه على سجيتها، دون تنميق أو زخرفة، مؤثراً وضوح العبارات، ورشاقة التراكيب، وقصر الجمل بما يحقق المناسبة بين المعنى واللفظ، وطبيعة المقام الذي تقال فيه الوصية.

رابعاً ـ سجع الكهان:

أ ـ تعريف السجع الجاهلي: هو فن من فنون النثر يعتمد مجموعة من الجمل المترادفة والمتوازنة والمتزاوجة يستخدمها الكاهن الذي يدعي معرفة الغيب في قضية من القضايا التي تعترض فرداً أو جماعة، ويزعم هذا الكاهن أنه ينطق باسم الآلهة، وأن الجن مسخرة له يحركها كيفما أراد.

وكانت في الجاهلية طائفة تزعم أنها تطلع على الغيب، وتعرف ما يأتي به الغد بما يلقي إليها توابعها من الجن، وكان واحدها يسمى كاهناً، كما يسمى تابعه الذي يوحي إليه باسم "الرَّئِيِّ" وأكثرهم كان يخدم بيوت أصنامهم وأوثانهم؛ فكانت لهم قداسة دينية، وكانوا يلجؤون إليهم في كل شؤونهم، وقد يتخذونهم حكاماً في خصوماتهم ومنافراتهم على نحو ما كان من منافرة هاشم بن عبد مناف، وأمية بن عبد شمس، واحتكامهما إلى الكاهن الخزاعي، وقد نفر هاشماً على أمية. وكانوا يستشيرونهم، ويصدرون عن آرائهم في كثير من شؤونهم كوفاء زوجة، أو قتل رجل، أو نحر ناقة، أو قعود عن نصرة أحلاف، أو نهوض لحرب؛ ففي أخبار بني أسد أن حجراً أبا امرئ القيس رَقَّ لهم؛ فبعث في إثرهم فأقبلوا حتى إذا كانوا على مسيرة يوم من تهامة تكهن كاهنهم، وهو عوف بن ربيعة، فقال لبني أسد: "يا عبادي، قالوا: لبيك ربنا، قال: من الملك الأصهب، الغلَّاب غير المغلَّب، في الإبل كأنها الرَّبْرب، لا يعلق رأسه الصَّخَب، هذا دمه ينثعب، وهذا غداً أولُ من يسلب، قالوا: من هو يا ربنا؟ قال: لولا أن تجيش نفس جاشية، لأخبرتكم أنه حجر ضاحية. فركبوا كل صعب وذَلول" فما أشرق لهم النهار حتى أتوا على عكر حجر فهجموا على قبته وقتلوه. وكثيراً ما كانوا ينذرون قبائلهم بوقوع غزو غير منتظر، كما كانوا كثيراً ما يفسرون رؤاهم وأحلامهم.

فمنزلة كهَّانهم في الجاهلية كانت كبيرة؛ إذ كانوا يعتقدون أنه يوحى إليهم، ولعل ذلك ما جعل نفوذ الكاهن يتجاوز قبيلته إلى كثير من القبائل التي تجاورها.

ومن ثم كان العرب يقصدون كثيرين منهم من مناطق بعيدة. ومما يلاحظ أنهم كانوا يتكثرون في اليمن وفي بيوت عبادتها الوثنية، وخاصة من يتعمقون في القدم، ولعل في ذلك ما يدل على الصلة القديمة بين وثنية عرب الجنوب، وعرب الشمال. وتلقانا في كتب التاريخ والأدب أسماء كثيرين منهم، وقد يبالغ القُصَّاص، فيرسمون لبعضهم صوراً خيالية؛ فمن ذلك أن شق بن الصعب كان شق إنسان أو شطره، فله عين واحدة ويد واحدة ورجل واحدة، وأن سطيح بن ربيعة الذئبي لم يكن فيه عظم سوى جمجمته، وأن وجهه كان في صدره ولم يكن له عنق، وربما كان أحدب. ومن كهانهم في أواخر العصر الجاهلي سواد بن قارب الدَّوْسيِّ، وقد أدرك الإسلام ودخل فيه، ومنهم المأمور الحارثي، كاهن بني الحارث بن كعب، وخُنافر الحميري، وكان يقول: إنه أسلم بمشورة تابعه "شصار". وأكهنهم عُزّى سَلِمة، ومن قوله: "والأرض والسماء، والعقاب والصقعاء، واقعة ببقعاء، لقد نفر المجد بني العشراء للمجد والسناء". ونجد بجانب هؤلاء الكهان جماعة من الكاهنات، وربما كن في الأصل من النساء اللائي يهبن أنفسهن للآلهة ومعابدها. ومن أشهرها الشعثاء وكاهنة ذي الخلصة والكاهنة السعدية والزرقاء بنت زهير والغيطلة القرشية وزبراء كاهنة بني رئام، ويروى أنها أنذرتهم غارة عليهم فقالت: "واللوح الخافق والليل الغاسق والصباح الشارق والنجم الطارق والمزن الوادق، إن شجر الوادي ليأدو خَتْلاً، ويحرق أنياباً عصلاً، وإن صخر الطود لينذر ثكلاً، لا تجدون عنه مَعْلاً".

ومعنى ذلك أنه وجد في العصر الجاهلي سجع كان يقوله الكهان، وقد اختلط الأمر على بعض قريش في أول نزول الذكر الحكيم؛ فقرنوه بسجع كهنتهم، ورد عليهم القرآن الكريم بمثل قوله جل وعز: (وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ) وقال سبحانه وتعالى:(فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ)، وقال: (إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ، وَلا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ).

ومما يدل على أن كهنتهم كانوا يسجعون؛ بل كانوا لا يتكلمون إلا بالسجع، الحديث المروي عن أبي هريرة؛ فقد حدث أنه: "اقتتلت امرأتان من هذيل؛ فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فقتلتها وما في بطنها، فاختصموا إلى رسول الله، صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم، فقضى رسول الله أن دية جنينها غرة: عبد أو وليدة، وقضى بدية المرأة على عاقلتها... فقال حمل بن النابغة الهُذلي: يا رسول الله كيف أغرم من لا شرب ولا أكل ولا نطق ولا استهل، فمثل ذلك يطل؛ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّم: "إنما هذا من إخوان الكهان" من أجل سجعه الذي سجع، ومن ثم كان من أهم ما يميز أسجاعهم عدم وضوح الدلالة، وأن يكثر فيها الاختلاف والتأويل.

وليس هذا كل ما يلاحظ على السجع الذي يضاف إليهم؛ فإنه يلاحظ عليه أيضاً كثرة الأقسام والأيمان بالكواكب والنجوم والرياح والسحب والليل الداجي والصبح المنير والأشجار والبحار وكثير من الطير، وفي ذلك ما يدل على اعتقادهم في هذه الأشياء وأن بها قوى وأرواحاً خفية، ومن أجل ذلك يحلفون بها، ليؤكدوا كلامهم، وليبلغوا ما يريدون من التأثير في نفوس هؤلاء الوثنيين.

وهذا السجع الديني كان يقابله، كما قدمنا، سجع آخر في خطابتهم بل في كلامهم وأمثالهم التي دارت بينهم.

ب ـ أشهر السجاع في الجاهلية: ومن أشهر المتكهنين في الجاهلية: سطيح الذئبي، والمأمور الحارثي، وخنافر الحميري، وعوف بن ربيعة الأسدي، ومسلمة الخزاعي، وشق الأنماري، وسلمة بن أبي حيّة، المشهور باسم عُزّى سلمة، وعوف الأسدي، بل كان فيهم نساء كاهنات أيضاً، من أمثال: فاطمة الخثعمية، وطريفة اليمنية، وزبراء.

ج ـ موقف العرب من الكهان: والكهّان عند العرب الجاهليين طائفة ذات قداسة دينية، وسلطان كبير لدى القبائل، شأنهم شأن الحكام في المنافرات. وكانوا يزعمون الاطلاع على الغيب، وأن لكل منهم رئيّاً- أي صاحباً من الجن- يعرف الكاهن عن طريقه ما سيكون من أمور. وكان الناس يتوافدون على هؤلاء الكُهّان من مختلف الجهات، فيحكمونهم في منازعاتهم، ويستشيرونهم في أمورهم الخاصة وما يزمعونه من أعمال، أو ما يرونه في منامهم

من أحلام. وكانوا يستخدمون في أحكامهم وأقوالهم ضرباً من النثر المسجوع عرفوا به، ويلاحظ في نصوص الكهان أنها تحمل طابع التكلف الشديد في سجعها، ولهذا لا يُطمأن إليها كلها، فربما شابَ بعضها الوضع والنحل، وربما كان بعضها محفوظاً صحيحاً، لقصره وإيجازه.

د ـ خصائص أسجاع الكهان:

ومن خصائص أسجاع الكهان أنها- في جملتها- كلام عام، لا يرشد السامع إلى حقائق جلية، وإنما يضعه في الغموض والإبهام، باصطناع السجع، والإيماء، وقصر الجمل لإلهاء السامع عن تتبع ما يلقى إليه من الأخبار العربية، وجعله في حالة نفسية مضطربة تساعد الكاهن على الوصول إلى ما يريد، بكل سهولة ويسر، ويكون المخاطب، بتلك الإشارات الغامضة، والألفاظ المبهمة، والأقسام المؤكدة، والأسجاع المنمقة، مستعداً لقبول كل ما يقال له، بلا جدال أو اعتراض، وتأويل ما يسمعه بحسب حالته ومدى فهمه.

هـ ـ موقف القرآن الكريم من الكهان: ذم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الذهاب إلى الكهان ونفى القرآن الكريم صفة الكهانة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

خامساً ـ القصص:

أ ـ القصة العربية الجاهلية: تعد القصص من فنون النثر الجاهلي وما يتصل منها بسبب، كالأسمار، والحكايات، والأساطير، التي تتناثر في كتب الأدب والتاريخ والأمثال، والتفسير، وكتب الشواهد النحوية والبلاغية، ومؤلفات الشرَّاح مما يؤلف ذخيرة قصصية غزيرة، تمثل في مضمونها جوانب من المجتمع العربي في العصر الجاهلي، أو ما هو قريب منه، إذا صحت نسبتها إلى ذلك العصر.

لم تكن قصص العرب الجاهليين تحمل في طياتها أكثر من أحاديث السنة، وأيام الحروب والوقائع كيوم داحس والغبراء ويوم ذي قار، تحمل هذه القصص الكثير من الخرافات والأساطير، وقد صور كتاب شرح النقائض لأبي عبيدة، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني أيام العرب في حروبهم وسلمهم، وقد حرّف الرواة الكثير من هذه القصص، وزادوا فيها وأدخلوا فيها خرافات الحيوانات وقصص الجن، والعفاريت

والشياطين. وبقي الناس يتداولون هذه القصص عن طريق الرواية الشفوية، حتى بدأ تدوين بعضها في العصر الأموي، وتكفي الإشارة إلى أن أيام العرب وملاحمهم الحربية تؤلف ينبوعاً قوياً لتلك القصص، وقد دوَّنها أبو عبيدة في شرحه لنقائض جرير والفرزدق. ومن هذا التراث القصصي أيضاً ما يتصل بملوك المناذرة والغساسنة والدولة الحميرية، وغيرهم ممن سبقوهم أو عاصروهم، كالزباء أو زنوبيا. ومنه أيضاً قصص المحبين وأخبارهم، وبعض الأساطير عن الحيوانات كقصة الحية والفأس في خبر المثل: «كيف أعاودك وهذا أثر فأسك؟». بالإضافة إلى قصص أخرى متناثرة في كتاب الأغاني وغيره عن عمرو بن كلثوم وربيعة بن مكدم، وعبدالله بن جدعان، وغيرهم. وكل ذلك من موروثنا النثري، ولكنه لا يمثل أسلوب الجاهليين ولا صياغتهم.

ب ـ أنواع القصص الجاهلي:

١ ـ القصة الخرافية الجاهلية:

عرف العرب في جاهليتهم القصص التي تتحدث عن مخلوقات غير مرئية كالشياطين والغول والعنقاء وغيرها مما صنعه الخيال الجاهلي إما خوفاً من الطبيعة وغضبها، أو إشباعاً لتطلع إلى عالم آخر تطمح إليه النفس البشرية تعويضاً لعقدة المكوث في الأرض، وعدم معرفة ما في السماء، وساعد في ذلك السحرة القادرين على القيام بتمثيل أعمال خارقة للعادة كالانمساخ، أو تحويل المناديل البيضاء إلى حمام بطريقة بهلوانية، وتتميز هذه الحكايات بترابط هذه الحوادث المشدودة فيها بطريقة واهية ضعيفة، وهي جافة مقصورة على حادثة أو اثنتين، وقد استمدت النساء العجائز والمرضعات من معين هذه القصص لإمتاع أطفالهن بنين وبنات.

وقد أولع العرب القدماء (بالعنقاء) (والهدرة) الحيوان الخرافي ذي الرؤوس التسعة (والتنين) حارس الكنوز المتموضعة في بلاد اليمن، وكذلك فكرة الصراع بين الإنسان والجن مع أنها قد ثبت وجودها من خلال نصوص القرآن الكريم والصراع مع الشياطين التي جعل منها العرب الجاهليون ذكوراً وإناثاً على أننا مقتنعون بوجود الشياطين دون أن نراها، كما ذكر لنا ذلك القرآن الكريم، وقد قال الشاعر الجاهلي:

إني وكـــل شـــاعر مـــن البشر ـــ شـــيطانه أنثـــى وشـــيطاني ذكـــر

حتى وصل بالعرب اليمنيين أن ذكروا أن الجن أقاموا لهم في منطقة وتار اليمنية مملكة يملؤها السحر، حيث مدينة البرنز في وحشة لا حدَّ لها، وكذلك قصص اختطاف الجن لأطفال الأشراف من الناس أمثال عمرو بن جذيمة ملك الحيرة، ولقيط بن زرارة سيد فزارة.

ـ القصة المثلية الجاهلية:

اختزل العرب الكثير من قصصهم الجاهلية في أمثال وحكم كانت من صميم التجربة، وهذه الأمثال والحكم لم تترك جانباً من جوانب الحياة والمجتمع إلا وطرقته، وتحدثت عنه من بين ثلاثة آلاف وخمسمئة صيغة مثلية جمعها وشرحها الميداني تجد المئات ذات قصص وحكايات متنوعة، كما في قصص لقمان الحكيم وأكثم بن صيفي وزرقاء اليمامة

٣ ـ القصة التعليلية الجاهلية:

وهي قصة تتحدث عن التراث الديني الذي ينتشر على مساحة واسعة من أرض العرب، حيث تعرض مظهر جبل أو انحدار واد أو نتوء صخرة أو تغور مغارة أو اكتشاف سبب تكوين مخلوق عجيب، ففي وادي منى في مكة المكرمة اكتشف المذبح الذي كان يود أن يضحي نبينا إبراهيم بابنه إسماعيل عليه كتلةً ذات شكل فريد، وبجانبه شق في الصخر يمثل الحزة التي أحدثتها السكين التي استعملها سيدنا إبراهيم لمحاولة التضحية بولده امتثالاً لأمر الله تعالى.

وكذلك قصة إيساف ونائلة اللذين زنيا في الكعبة المشرفة، ثم مسخا إلى ضبّين، وقصة نصب رجل لأصنام في وادي منى تمثل الشيطان الأكبر الذي يرجمه الحجاج في العصر الجاهلي، وقصة قبر أبي رغال بين مكة المكرمة والطائف الذي يرجمه المارة؛ لأنه قاد الأعداء إلى بلاده، وكذلك الصخرة التي كان يجلس عليها عنترة في منطقة ذات الجواء، وهي ما تزال موجودة إلى يومنا هذا، أو قصتي طوق الحمامة وطوق الهدهد المذكورتين في كتاب الحيوان للجاحظ، وقصة غار حراء وغار ثور، وهما حقيقيان، الأول كان يتعبد فيه رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، والثاني اختبأ فيه الرسول عندما هاجر مع أبي بكر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، بعد أن لاحقهم المشركون وقصة مسخ طائفة من اليهود إلى قردة بسبب عصيانهم لأوامر الله تعالى، وهناك قصة الصرح الذي بناه هامان بأمر من فرعون وقصور ثمود في وادي القرى،

وقصة خراب سد في اليمن وقلاع غمدان في اليمن، وقصة قصر الخورنق المنيف في الحيرة والقصر اللامح الأبلق في واحة تيماء.

٤ ـ القصة الغرامية الجاهلية:

لم يعهد العرب في جاهليتهم وجود قصص تتحدث عن الحب والغرام، سواء منه العفيف أو الصريح دون تكريس معنى نوعي الحب بشكل ظاهرة، فقد كانت حياة كثير من الشعراء قصصا كقصة دار جلجلة الخليعة لامرئ القيس، وقصة رحيل امرئ القيس إلى بلاد الروم لاستعادة ملكه، وقصة عنترة ملحمة الحب والصراع الذي خلفه لونه الأسود.

٥ ـ قصص اللصوص وقطاع الطرق (الشطار):

إن هذا النوع من القصص يسبب ميل الإنسان بشكل عام للغرائب المضحكة، والعرب كغيرهم مالوا إلى هذا النوع من القصص، وقد مال هذا النوع من القصص إلى الفكاهة المصبوغة بالجد وقصصه كثيرة ومدهشة.

٦ ـ القصة الجاهلية على لسان الحيوان:

يبدو أن العصر الجاهلي لم يخل من القصص على لسان الحيوان لإظهار عبرة أو حكمة أو للفكاهة والتندر، كما في قصة ابن آوى والثعلب رمز المهارة والتيس والضبع رمز السذاجة، وقصة الهدهد رمز الألمعية والعبقرية والذكاء وقصة الغراب رمز الحيلة، وقصة الديك والنعامة رمز الخدوعين، وقصة براقش تمثل إلى مرافقة الغبي.

٧ ـ الحكاية التقوية الجاهلية:

هذا النوع من القصص التي كان يذكرها البمشرون النصارى الجوالون في الجاهلية في أسواق العرب ومواسمهم أمثال قس بن ساعدة الذي لقيه الرسول محمد عليه الصلاة والسلام في شبابه في سوق عكاظ.

٨- حكايات البدو الجاهلية:

وهي قصص وحكايات تتحدث عما يفعله البدو بعضهم ببعض في غزواتهم وغاراتهم عن خطف النساء، وسرقة المواشي ومطاردة المغيرين يتسامرون بها في مجامعهم ونواديهم ليلاً

وسهراتهم، وقد يكون منها أعمال محاربين عنيفة اندفاعات قتالية، وغاية هذه الحوادث تمجيد أصحاب هذه الوقائع، ومنها حكايات حرب داحس والغبراء، ومنها أيام العرب الكثيرة كيوم جبلة ويوم الكلاب ويوم ذي قار وحرب البسوس، والحديث عن مآثر البداوة من خلال كرم حاتم الطائي وبطولات عنترة العبسي.

٩- قصص الحمقى والأذكياء الطريفة الجاهلية:

وهي نوع من القصص يتحدث عن الأشخاص الحمقى والأذكياء، والزوج المخدوع والمرأة الخائنة، حيث تظهر في هذه القصص الطرافة كقصة هبنقة الشخصية ذات الجانبين الطريفين؛ شخصية معقدة وشخصية ذات حسٍّ سليم، وشخصيات هذه القصص ساذجة مهرجة خبيثة.

١٠- بعض القصص الجاهلي:

أ- قصة المرقش الأكبر وصاحبته أسماء بنت عوف: وما كان من عشقه لها وهو غلام ومحاولته خطبتها من أبيها. واعتذار الأب له بحداثة سنه، وأنه لم يُعْرَف بعد بشجاعة. وما كان من انطلاق المرقش إلى بعض الملوك ومديحه له وبقائه عنده زمناً، وفي هذه الأثناء أصاب عوفاً زمان شديد، فأتاه رجل من مراد، فأرغبه في المال، فزوجه ابنته على مئة من الإبل، ورحل بها إلى أهله. وقال إخوة المرقش: لا تخبروه بخبرها حين يرجع؛ بل قولوا له: إنها ماتت، وذبحوا لذلك كبشاً، أكلوا لحمه ودفنوا عظامه. فلما قدم المرقش قالوا له: إنها ماتت. ولم يلبث أن عرف الحقيقة بعد أن ظل مدة يعود قبر الكبش ويزوره. وخرج المرقش يطلب أسماء، وبعد مغامرات يتعرف على راعي زوجها، ويتوسل إليه أن يحدثها عنه، فيقول له: إني لا أستطيع أن أدنو منها؛ ولكن تأتيني جاريتها كل ليلة، فأحلب لها عنزاً، فتأتيها بلبنها. فقال له مرقش: خذ خاتمي هذا؛ فإذا حلبتَ فألقه في اللبن، فإنها ستعرفه، وإنك مصيب بذلك خيراً لم يصبه راع قط إن أنت فعلت ذلك. فأخذ الراعي الخاتم. ولما راحت الجارية بالقدح وحلب لها العنز طرح الخاتم فيه؛ فانطلقت الجارية به وتركته بين يدي أسماء فلما سكنت الرغوة أخذته فشربته، وكذلك كانت تصنع. فقرع الخاتم ثنيتها، فأخذته واستضاءت بالنار، فعرفته، فقالت للجارية: ما هذا الخاتم؟ قالت: ما لي به علم فأرسلتها إلى مولاها وهو بنجران، فأقبل فزعاً،

فقال لها: لم دعوتني؟ قالت له: ادع عبدك راعي غنمك، فدعاه، فقالت: سله أين وجد هذا الخاتم، قال: وجدته مع رجل في كهف خُبَّان، فقال لي: اطرحه في اللبن الذي تشربه أسماء، فإنك مصيب به خيراً، وما أخبرني من هو، ولقد تركته بآخر رمق. فقال لها زوجها: وما هذا الخاتم؟ قالت: خاتم مرقش، فأعجل الساعة في طلبه؛ فركب فرسه وحملها على فرس آخر، وسارا حتى طرقاه من ليلتهما، فاحتملاه إلى أهلهما؛ فمات عند أسماء، وقال قبل أن يموت:

سَرى لَـــيْلاً خَيـــالٌ مِـــنْ سُـــلَيْمى ... فـــأَرَّقَني وأصْـــحابي هُجُـــودُ

فَبِـــتُّ أُدِيـــرُ أَمْـــرِي كـــلَّ حـــالٍ ... وأَرْقُـــبُ أَهْلَهـــا وهُـــمُ بعيـــدُ

سَـــكَنَّ ببلْـــدَةٍ وسَـــكَنْتُ أُخـــرى ... وقُطِّعَـــتِ المواثِـــقُ والعُهُـــودُ

فَـــما بـــالي أَفِي ويُخـــانُ عَهْـــدِي ... ومـــا بـــالي أُصـــادُ وَلا أَصِـــيدُ

ثم مات فدفن في أرض مراد.

ب- الحية والفأس: وقد رواها الضبي على هذه الشاكل: "زعموا أن أخوين كانا فيما مضى في إبل لهما؛ فأجدبت بلادهما، وكان قريباً منهما واد فيه حية، قد حمته من كل أحد؛ فقال أحدهما للآخر: يا فلان، لو أني أتيت هذا الوادي المُكْلى؛ فرعيت فيه إبلي وأصلحتها، فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحداً لم يهبط ذاك الوادي إلا أهلكته، قال: فوالله لأهبطن. فهبط ذلك الوادي، فرعى إبله به زماناً، ثم إن الحية لدغته، فقتلته: فقال أخوه: ما في الحياة بعد أخي خير، ولأطلبن الحية فأقتلها أو لأتبعن أخي؛ فهبط ذلك الوادي؛ فطلب الحية ليقتلها، فقالت: ألست ترى أني قتلت أخاك، فهل لك في الصلح، فأدعك بهذا الوادي، فتكون به، وأعطيك ما بقيت ديناراً في كل يوم. قال: أفاعلة أنت؟ قالت: نعم، قال: فإني أفعل؛ فحلف لها وأعطاها المواثيق، لا يضيرها. وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً؛ فكثر ماله ونمت إبله؛ حتى كان من أحسن الناس حالاً. ثم إنه ذكر أخاه، فقال: كيف ينفعني العيش، وأنا أنظر إلى قاتل أخي فلان؟ فعمد إلى فأس؛ فأحدها، ثم قعد لها، فمرت به، فتبعها، فضربها فأخطأها، ودخلت الجحر، فرمى الفأس بالجبل فوقع فوق جحرها، فأثر فيه؛ فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار الذي كانت تعطيه، ولما رأى ذلك تخوَّف شرَّها وندم فقال لها: هل لك

في أن نتواثق – نتعاهد- ونعود إلى ما كنا عليه؛ فقالت: كيف أعاهد؟ وهذا أثر فأسك وأنت فاجر، لا تبالي العهد".

فكان حديث الحية والفأس مثلاً مشهوراً من أمثال العرب، قال نابغة بني ذبيان، من قصيدة يعاتب بها بني مرة:

وَإِنّي لَأَلقــى مِــن ذَوي الضِــغنِ مِــنهُمُ بــلا عَثْــرَةٍ والــنفس لا بُــد عــاثرة

كَــما لَقِيَــت ذاتُ الصــفا مِــن حَليفِهــا وَمــا انفَكَّــتِ الأَمثــالُ في النــاسِ ســائِرَه

ج- ومن قصص هبنقة:

يروى أن هبنقة فقد بعيره فقال: من وجد بعيري فله مئة بعير. فقيل: وما ينفعك من هذا، قال: إنكم لا تدرون ما حلاوة الوجدان.

روى هبنقة قال: قال رجل: أردت النكاح فقلت: لأستشير أول من يطلع علي، ثم آخذ برأيه، فكان أول من طلع هبنقة القيسي وتحته قصبته فقلت له: أريد النكاح فما تشير علي؟ قال: البكر لك والثيب عليك، وذات الولد لا تقربها واحذر جوادي لا ينفحك.

يروى أن هبنقة كان يرعى غنم أهله فيرعى السمان في العشب، وينحي المهازيل فقيل له: ويحك ما تصنع؟ قال: لا أفسد ما أصلحه الله، ولا أصلح ما أفسده.

سادساً ـ الرسائل:

أ ـ ماهية الرسالة الجاهلية: الرسالة: كلام يراسل به عن بعد، سميت بالصحيفة أو الكتاب أو الألوكة تنقل مضمون كتاب وظيفتها الفائدة والمتعة الفنية والجمالية، وقد تعددت أشكالها بين الشكل الإشاري المعتمد على الصوت وتقليد الطيور والحيوانات والشكل الشفوي بنوعيه الواضح والغامض والشكل التدويني عن طريق الكتابة وللرسائل الفنية قيمة أدبية في فهم حياة الأدباء وغيرهم من الناس.

وتعد الرسائل أقل فنون النثر شيوعاً، ولكنها أكثرها حاجة إلى التدوين لاستخدام الجاهليين إياها في الأمور التجارية والسياسية والقبلية، وفي السفارة بينهم وبين الأكاسرة وملوك المناذرة والغساسنة.

ب ـ كتاب الرسالة الجاهلية:

ومما يثبت ذلك أن لقيط بن يعمر الإيادي مثلاً، كان يحسن الفارسية، وكان من مقدمي تراجمة كسرى سابور، وكذلك كان عدي بن زيد العبادي وإخوته من كتاب الأكاسرة والمترجمين عندهم.

لا شك أن موضوع التدوين في العصر الجاهلي كان مقتصراً على الحاجات الضرورية المهمة في حياتهم لعدم وجود استقرار اجتماعي عام، أو نظام دولة ثابت، وقد كانت أهم الموضوعات التي تخضع للتقييد:

العهود والمواثيق في التحالف والصلح.

الصكوك التجارية والعقود.

الكتابات الدينية.

الأشعار.

الرسائل.

وفي موضوع الرسائل فقد تبادل أفراد المجتمع الجاهلي الرسائل بشكل ميسور، رغم أنه لم يصلنا منها إلا القليل لضعف الكتابة وعدم الاهتمام بكتابة وحفظ الوثائق، ومن هذه الرسائل:

كتاب (قصي بن كلاب) بمكة إلى أخيه من أمه (رزاح بن ربيعة العذري) بالشام يطلب منه النصرة في زعامته لمكة.

كتاب من قيصر إلى امرئ القيس بعد أن سيره على رأس جيش لنصرته، ومع الكتاب حلّة مسمومة، ونص الرسالة: ((إني قد بعثت إليك بحلتي التي ألبسها يوم الزينة لتعرف فضل منزلتك عندي، فإذا وصلت إليك فالبسها على اليُمن والبركة، واكتب إليَّ من كل منزل بخبرك)).

رسالة من المنذر الأكبر بن ماء السماء إلى كسرى أنوشروان يصف له فيها سبيّة رومية فائقة الجمال أصابها في بعض حروبه مع الحارث بن أبي شمر الغساني، وقد بعث بها إليه هدية.

صحيفة الشاعر المتلمس التي كتب بها عمرو بن هند إلى عامله على البحرين ونصها: ((باسمك اللهم، من عمرو بن هند إلى المكعبر: إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه، ثم ادفنه حياً)).

صحيفة طرفة بن العبد: الرسالة نفسها التي كتبت للمتلمس.

رسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد وجوه العرب الذين بعث بهم إليه ليبينوا فضل العرب على جميع الأمم بعد أن كان النعمان قد حضر عنده مجلساً للمفاخرة بين الأمم طعن فيه كسرى بالعرب، وتنقَّصهم بأشياء كثيرة.

رسالة النعمان إلى كسرى يخبره بموت عدي بن زيد، وكان عدي يلي المكاتبة عند الملك إلى ملوك العرب في أمورها وفي خواص أمور الملك، ويلتمس منه فيها أن يعيّن ابنه زيد بن عدي لكفايته فيها وليعوضه من فقد أبيه الذي مات في سجنه.

رسالتان تنسبان إلى أكثم بن صيفي الحكيم التميمي.

رسالة حنظلة بن أبي سفيان من مكة المكرمة إلى أبيه في اليمن، وكان في تجارة له فيها ونصها: ((إني أخبرك أن محمداً قام بالأبطح غدوة فقال: أنا رسول الله أدعوكم إلى الله)).

وقد عرف الجاهليون أشكالاً متعددة من الرسائل شكل إِشاري كإيقاد النيران على رؤوس الجبال ونباح الكلاب وشكل لغوي يعتمد الرمز لنقل معانيه فظاهره ساذج ومضمونه عميق، ومنها رسالة (يوم الوقيط) وقد جاءت هذه الرسالة على نمطين شعري ونثري، ومنسوبة لناشبي الأعور الغبري، وشكل شعري كالرسالة التي جاءت على لسان (سنان بن أبي حارثة المري) والثانية رسالة الأسير العنبري السالفة الذكر، وشكل تدويني مكتوب على وسيلة للكتابة، ومن أبرز خصائص هذه الرسالة:

الإيجاز: لأن الجاهلي إذا كتب اقتضب، وكذلك يفعل إذا خطب، وإذا بعث برسالة شفوية توخى الاختصار في لفظه ومعانيه.

سهولة اللغة ولينها من حيث العبارات المأنوسة والكلمات المحسوسة.

اعتماد لغة التخاطب نفسها دون اهتمام بجناس أو طباق أو تورية، أو أي محسن لفظي سوى السجع.

ج- الرسائل الشعرية في العصر الجاهلي:

وصل إلينا من رسائل العصر الجاهلي بعض الرسائل الشعرية المدونة، ووصل إلينا رسائل شعرية شفوية كثيرة مما يدل على أن هذه الرسائل كانت أمراً شائعاً مألوفاً ميسوراً، وهذه الرسائل الجاهلية النموذجية تقوم على العناصر التالية:

العنوان: الذي يحدد اسم كل من المرسل والمرسل إليه.

١- ذكر مبلغ الرسالة أو حاملها (يا راكباً – ألا آيها الغادي).

٢- ذكر ظرف الإبلاغ (إما عرضت فبلغن) ومعنى عرضت (مررت).

٣- ذكر طلب الإبلاغ: وهو فعل يعبر عن طلب المرسل (بَلِّغنْ).

٤- ذكر المرسل إليه سواء أكان واحداً أو اثنين(يا راكباً إما عرضت فبلغن يزيد بن عبد الله ما أنا قائل).

٥- ذكر اسم الرسالة (المحمول).

ب- التحية: وهي عنصر أساسي وأصيل في الرسالة الشعرية عدا رسائل (الهجاء- التهديد- الوعيد) لعدم مناسبتها التحية.

أما رسائل المودة والعطف بين الأحبة والأصدقاء فتبرز التحية فيها بوضوح ورسالة لقيط إلى قومه إياد في الجزيرة ينذرهم فيها غزو كسرى فارس لهم دلالة على ذلك:

سلام في الصحيفة من لقيط ... إلى من بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكم سوق النقاد

ورسالة طرفة الشفوية إلى أخيه خالد يودعه فيها، ويوصيه بعد أن تحقق أنه مقتول:

ألا أيها الغادي تحمّل رسالة ... إلى خالد مني وإن كان نائيا

وصية من يهدي السلام تحيةً ... ويخبر أهل الود أن لا تلاقيا

ج- الحكمة: كان بعض الشعراء يمهدون بالدخول في غرضهم الرئيسي عبارة حكيمة للتأثير بالمتلقي الرسالة، كقول أوس بن غلفاء:

ألا مـــن مبلـــغ الجرمـــيّ عنّـــي (وخـــير القـــول صـــادقة الكـــلام)

د- الغرض من الرسالة (المضمون): وهي غاية الرسالة، ويدور حول قضايا الناس الأساسية من خلال مداخل تمهِّد لهذه الأغراض (مداخل استفهام – مداخل نداء – مداخل دعاء – مداخل تمنٍّ – مداخل ذم – مداخل تقرير).

وتتحدث الرسائل الجاهلية عن موضوعات متعددة تتمثل في (الغزو والأيام والوقائع) (الثأر) (الحكم والوصايا) (العتاب) (الاعتذار) (التهديد والوعيد) (الإنذار بوقوع الغزو) (المدح) (الهجاء) (الرثاء) (الفخر) (الدعوة إلى السلم ونبذ الحرب) (الدعوة إلى رأب الصدع في القبيلة) (الدعوة إلى الحرب والتحريض عليها) (الغزل) (التعيير) (اللوم والتعريض) (التأييد) (الشكوى) (الحنين إلى الديار والأهل).

د- من نماذج هذه الرسائل الشعرية:

١ – رسالة دريد بن الصمة في إدراك الثأر بأخيه عبدالله من بني فزارة مفاخراً:

يـــا راكبـــاً إمـــا عرضـــت فـــبلغن أبـــا غالـــب أن قـــد ثأرنـــا بغالـــب

قتلـــت بعبـــدالله خـــير لداتـــه ذوائـب بـن أسماء بـن زيـد بـن قـارب

٢- رسالة أوس بن حجر يوصي الخارجين عن إدارة القبيلة بسبب طيشهم بالعودة إلى أحضانها:

يـــا راكبـــاً إمّـــا عرضـــت فـــبلغن يزيـــد بـــن عبـــد الله مـــا أنـــا قائـــل

فقومـــك لا تجهـــلْ علـــيهمْ ولا تكـــن لهـــم هرشـــاً تغتـــابهم وتقاتـــل

ومـــا يـــنهض البـــازي بغـــير جناحـــه ولا يحمـــل الماشـــين إلا الحوامـــل

إذا أنـــت لم تعـــرض عـــن الجهـــل والخنـــا أصـــبت حلـــيماً أو أصـــابك جاهـــل

٣-رسالة زهير بن أبي سلمي في معلقته:

ألا أبلـــغ الأحـــلان عنـــي رســـالة وذبيـــان هـــل أقســـمتم كـــل مقســـم

وأبيات الحكمة فيها معروفة.

٤- رسالة النابغة الذبياني يعاتب فيها عامر بن الطفيل وزرعه بن عمرو على خرق ضمانهما له:

فـــأبلغ عـــامراً عنـــي رســـولاً وزرعـــة إن نأيـــت وإن دنـــوتُ

أعاتـــب ســـيدي قـــيسٍ جميعـــاً وأخـــبر صـــاحبي بمـــنِ اشـــتكيتُ

فـــما حـــاولتما بقيـــاد خيـــلٍ يصـــان الـــورد فيهـــا والكميـــتُ

إلى ذبيـــان حتـــى صـــبّحتهم ودونهـــمُ الربـــائعُ فالخبيـــتُ

٥- رسالة امرئ القيس يشكر بني ثعل حين مر بهم فأكرموه:

فـــأبلغ معـــداً والعبـــاد وطيئـــاً وكنـــدة أني شـــاكر لبنـــي ثعـــل

٦- رسالة حجل بن نضلة الباهلي يتهدد، ويتوعد معاوية بن شكل الذي كان قد اغتابه في مجلس:

أبلـــغ معاويـــة الممـــزق آيـــة عنـــي فلســـت كـــبعض مـــا يتقـــولُ

إن تلقنـــي لا تلـــق نهـــزة واحـــدٍ لا طـــائش رعـــش ولا أنـــا أغـــزلُ

تحتـــي الأعـــز وفـــوق جلـــدي نثـــرة زعـــف تـــرد الســـيف وهـــو مغلغـــلُ

ومقـــارب الكعبـــين أســـمر عـــاتر فيـــه ســـنانٌ كالقـــدامى منجـــلُ

ومهنـــدٌ في متنـــهِ مرجيّـــةٌ عضـــبٌ إذا الغريبـــة مفصـــل

٧- رسالة لقيط بن يعمر الإيادي إلى قومه إياد ينذر قومه من غزو كسرى:

ســـلام في الصـــحيفة مـــن لقـــيط إلى مـــن بـــالجزيرة مـــن إيـــاد

أتـــاكم مـــنهم ســـتون ألفـــاً يزجـــون الكتائـــب كـــالجراد

عـــلى حنـــق أتينـــاكم فهـــذا أوان هلاككـــم كهـــلاك عـــاد

٨-رسالة سلمة بن الحارث يذكر مقتل أخيه شرحيل على يد أبي حنش اليربوعي، وكان قد أرسل إليه برأسه:

ألا أبلغ أبا حنش رسولاً ... فمالك لا تجيء إلى الثواب

تعلم أن خير الناس ميتاً ... قتيل بين أحجار الكلاب

تداعت حوله جشم بن بكر ... وأسلى جعاسيس الرباب

٩- قال امرؤ القيس مخاطباً سلمى:

ألمّ بسلمى عنكما إن عرضتما ... وقولا لها عوجي على من تخلفوا

ألم تعلمي أني حروم مشيع ... وأني بحبّ الفانياتِ مُكَلّفُ

فإن تسألي عني اليماني تخبري ... وإنْ تسألي عني ربيعة يعرفوا

١٠- رسالة خراشة بن عمرو العبسي يعير فيها عامر بن الطفيل بن وهب ونجاته من بني عبس:

ألا أبلغا عني خليلي عامراً ... أتنسى سعاد اليوم أم أنت ذاكر

وصدتك أطراف الرماح عن الهوى ... ورمت أموراً ليس فيها مصادر

وغادرت هزان الرئيس ونهشلاً ... فلله عنيا عامرٍ من تغادر

وأسلمت عبد الله لما عرفتهم ... ونجاك وثاب الجرافير ضامر

قذفتهم في الموت ثم خذلتهم ... فلا وأنت نفس عليك تحاذر

١١- وكتب النابغة الذبياني يعتذر للنعمان يعتذر منه:

نبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

١٢- وكتب امرؤ القيس وهو بمرضه في أنقرة يحن إلى أهله وديارة:

ألا أبلغ بني حجر بن عمرو ... وأبلغ ذلك الحي الحريدا

بأني قد بقيت بقاء نفسٍ ... ولم أخلق سلاماً أو حديدا

فلو أني هلكت بدار قومي ... لقيت الموت حق لا خلودا

ولكنـــي هلكـــت بـــدار قـــومٍ بعيـــداً عـــن ديـــاركم بعيـــدا

بـــأرض الـــروم لا نســـب قريـــب ولا شـــافٍ فيســـند أو يعـــودا

اعتمد الجاهليون في حياتهم الثقافية على الشعر والنثر، واعتبروا أن النثر وسيلة للتفكه والتعليم والعمل الاجتماعي والسياسي، وأهم فنونه:

ج ـ أنواع الرسائل الجاهلية: وما وصل إلينا من نصوص الرسائل الجاهلية قليل جداً.

١ ـ منها ما هو ذو طابع سياسي: كرسالة النعمان بن المنذر إلى كسرى، حين جهز إليه وفداً ضم وجوه العرب من قبائل مختلفة، ليتكلم كل منهم أمام كسرى بما يحضره عن مآثر العرب ومفاخرهم إذا صح هذا الخبر.

٢ ـ ومن تلك الرسائل ما يكون في القبائل: من عهود ومحالفات تقتصر على أغراض ضيقة جداً، ويمكن أن تعد وثائق تاريخية. ومثالها كتاب التحالف بين عبد المطلب بن هاشم، وقبيلة خزاعة على التناصر والتعاون مدى الأيام في جمل مرسلة معبرة، تطول وتقصر، مع قوة وإحكام.

سابعاً ـ المنافرات:

أ ـ تعريف المنافرات الجاهلية: تعد المنافرات من الفنون الأدبية التي أسهمت في رسم صورة واقعية للعرب الجاهليين، حيث يذكر المتفاخرون مآثر أنفسهم إن كانوا أفراداً، ومآثر أقوامهم إن كانوا قبائلَ.

ب ـ أنواع النافرات الجاهلية:

والمنافرات نوعان:

١ـ منافرات كانت تحدث بين اثنين أو أكثر من سادة العرب وأشرافهم، وفيها يشيد كل من المتفاخرين بحسبه ونسبه ومجده وسجاياه، أمام حكم من أشراف العرب أو كهانهم، ليكون له القول الفصل في تفضيل أحد الطرفين على الآخر. ولكن الحكم يسعى في كثير من الأحيان إلى الصلح بين المتنافرين، تفادياً للشر، ويتحاشى الحكم لأحدهما على الآخر، ويلقي عليهم كلاماً بليغاً يدعوهما فيه إلى السلام والصفاء. ومن ذلك ما كان من هرم بن قطبة

الفزاري، حين تنافر إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة بعد أن اشتد النزاع بينهما، فجعل هرم يطاولهما، ويمهد للصلح بينهما، حتى قال لهما أخيراً: «أنتما كركبتي البعير، تقعان إلى الأرض معاً وتقومان معاً». فرضيا بقوله وانصرف كل منهما إلى قومه. واشتهر من هؤلاء الحكام أيضاً: ربيعة ابن حذار، والأقرع بن حابس، ونفيل بن عبد العزى، وهاشم بن عبد مناف.

٢ـ منافرات تحدث بين قبيلتين: كربيعة ومضر، أو قيس وتميم. وهذا ما يحيل المنافرة إلى صورة من صور الخطابة؛ إذ يقف كل سيد ليعدد مآثر قومه أمام الحكم، بحضور سادة القبائل وأشرافها، ويحاول التأثير في السامعين ليحوز الإعجاب والحكم له بالغلبة على خصمه، وإذا فصل الحكم بين المتنافرين، سجع في كلامه حيناً، وأرسله حيناً آخر.

ثامناً: المناظرات:

أ ـ تعريف المناظرة الجاهلية: المناظرة حوار ومحاججة بين شخصين خصمين، أو شيئين متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواص كل شخص أو شيء على حدة من خلال نصرته لنفسه، وتفنيد مزاعم نفيره بأدلة من شأنها أن ترفع من قدره وتحط من مكانة خصمه ومقامه، بحيث يميل السامع عنه إليه مصوغة ضمن معاني ومراجعات ترتب على سياق محكم؛ ليزيد ذلك نشاط السامع وينمي فيه الرغبة في حل المشكل.

ب ـ شروط المناظرة:

للمناظرة شروط متعددة منها.

١ - أن تكون بين خصمين متضادين ومتباينين في الصفة.

٢ - إظهار خواص كل خصم.

٣ - استخدام الحجج والبراهين من قبل كل خصم.

٤ - رفع قدر كل خصم أمام مناظره.

٥ - محاولة جذب ميل السامع للمناظرة.

٦ - صياغة المناظرة بمعاني حسنة.

٧- حل المشكلة التي دفع التدافع والتناظر عليها.

ج ـ من مناظرات الجاهليين:

١ ـ مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنو شروان في شأن العرب:

روى ابن القطامي عن الكلبي قال: قدم النعمان بن المنذر على كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثني فارساً ولا غيرها، فقال كسرى وأخذته عزة الملك: يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ونظرت في حالة من يقدم عليّ من وفود الأمم، فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها، وأن لها ديناً يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهها، ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وصبرها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعتها وطيب أشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها، وكذلك الصين في اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها في آلة الحرب وصناعة الحديد، وأن لها ملكاً يجمعها، والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمرهم، ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير في أمر دين ولا دنيا، ولا حزم ولا قوة، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التي هم بها مع الوحوش النافرة والطيور الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة، ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها، فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التي يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها، وأن قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة تنطق بذلك أشعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم ما خلا هذه التنوخية التي أسس جدي اجتماعاً وشد مملكتها ومنعها من عدوها، فجرى لها ذلك إلى يومنا، هذا وأن لها مع ذلك آثاراً ولبوساً وقرى وحصوناً وأموراً تشبه بعض أمور الناس (يعني اليمن).

ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من المذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا، وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس.

قال النعمان: أصلح الله الملك. حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له، فإن أمنني من غضبه نطقت به. قال كسرى: قل فأنت آمن. قال النعمان: أما أمتك أيها الملك: فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك. وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تقرنها بالعرب لأفضلتها. قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان: بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها. فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوَّخوا البلاد ووطدوا الملك، وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع، ولم ينهلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض، وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر؛ إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند والصين المنحفة والترك المشوهة والروم المقشرة.

أما أنسابها وأحسابها: فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها، وكثيراً من أولها حتى أن أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه فلا ينسبه ولا يعرفه، وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً فأباً حاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها: فإن أدناهم رجلاً الذي تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغة في حموله وشبعه وريه، فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر.

أما حكمة ألسنتهم: فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس – ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجزع، ومطاياهم التي لا يبلغ مثلها سفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر.

وأما دينها وشريعتها: فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً، وبلداً محرماً وبيتاً محجوجاً، ينسكون فيه مناسكنهم ويذبحون فيه ذبائحهم، فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك رغبته منه فيحجزه كرمه، ويمنعه دينه عن تناوله بأذى.

وأما وفاؤها: فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة لا يحلها إلا خروج نفسه، وإن أحدهم يرفع عوداً من الأرض فيكون رهناً بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره، وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله.

وأما قولك أيها الملك يئدون أولادهم فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج.

وأما قولك: إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها إلا احتقاراً له فعمدوا إلى أجلِّها وأفضلها، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوماً وأطيبها لحوماً وأرقها ألباناً وأقلها غائلة وأحلاها مضغة، وأنه لا شيء من اللحمان يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

أما تحاربهم وأكل بعضهم لبعض وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف، وأنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون أمورهم وينقادون لهم بأزمتهم.

وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطث، أي الضرب الشديد بالرجل على الأرض بالعسف.

وأما اليمن التي وصفها الملك فإنما أتى جد الملك إليها الذي أتاه عنده غلبة الجيش له على ملك متسق وآمر مجتمع فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً، ولولا ما وتر به من العرب لمال إلى مجال، ولوجد من يجيد الطعان، ويغضب للأحرار من غلبة العبيد الأشرار.

قال: فعجب كسرى لما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهل لموضعك الرياسة في أهل إقليمك، ثم كساه من كسوته وسرحه إلى موضعه من الحيرة، فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة التميميين وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكرين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل العامريين وإلى عمرو بن الشريد السلمي وعمرو بن معد يكرب الزبيدي والحارث بن ظالم المري، فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور أو يكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طماطمته في تأديتهم الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله، فاقتص عليهم مقالات، وما رد به عليه فقالوا: أيها الملك وفقك الله ما أحسن ماردت وأبلغ ما حججته فمرنا بأمرك وادعنا إلى ماشئت.

قال: إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم، وليس شيء أحب إليَّ مما سدد الله أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم، والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى، فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه، ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه، ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل، وليكن أمر بين ذلك تظهر به دماثه حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم، وليكن أول من يبدأ منكم بالكلام أكثم بن صيفي، ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها، فإنما دعاني إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه، فلا يكونن ذلك منكم فيجد في آدابكم مطعنا فإنه ملك مترف وقادر مسلط، ثم دعا لهم بما في خزانته من طرائف حلل الملوك وأعطى كل رجل منهم حلة وعممه عمامة وختمه بياقوته، وأمر لكل رجل منهم بنجيبة مهرية وفرس نجيبة، وكتب معهم كتاباً:

أما بعد: فإن الملك ألقى إليَّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبته بما قد فهم مما أحببت أن يكون منه على علم، ولا يتلجلج في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكتها،

وحمت ما يليها بفضل قوتها تبلغها من الأمور التي يتعزز بها ذوو الحزم والقوة والتدبير والمكيدة، وقد أوفدت أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك وليغمض لا عن جفاء إن ظهر من منطقهم وليكرمني بإكرامهم وتعجيل سراحهم. وقد نسبتهم في أسفل كتابي هذا إلى عشائرهم.

فخرج القوم في أهبتهم حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن فدفعوا إليه كتاب النعمان، فقرأه وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً منهم، فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على كراسٍ عن يمينه وشماله، ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام الترجمان ليؤدي إليه، ثم أذن لهم في الكلام.

فقام أكثم بن صيفي فقال: إن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكها وأفضل الملوك نفعاً وخيراً لأزمنة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها.

الصدق منجاة والكذب مهواة والشر لجاجة والحزم مركب صعب والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى والعجز مفتاح الفقر وخير الأمور الصبر وحسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة، وإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي ومن فسدت بطانته كان كالغاصّ بالماء.

شر البلاد بلاد لا أمير بها، وشر الملوك من خافه البريء. المرء يعجز لا محالة أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة أحق الجنود بالنصر من حسنت سيرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. حسبك من شر سماعه. الصمت حكم وقليل فاعله. البلاغة الإيجاز. من شدد نفر، ومن تراخى تألف فتعجب كسرى من أكثم، ثم قال: ويحك يا أكثم ما أحكمك وأوثق كلامك لولا وضعك كلامك في غير موضعه قال أكثم: الصدق ينبئ عنك لا الوعيد، قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكثم: رب قول أنفذ من صول، ثم قام حاجب بن زرارة التميمي، وقال: وري زندك، وعلت يدك وهيب سلطانك، إن العرب أمة قد غلظت أكبادها واستحصدت مرتها ومنعت درتها، وهي لك وامقة ما تألفتها، مسترسلة ما لاينتها، سامعة إن سامحتها، وهي العلقم مرارة وهي الصاب غضاضة، والعسل حلاوة والماء الزلال سلاسة.

نحن وفودها إليك وألسنتها لديك، ذمتنا محفوظة وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة إن نؤبْ لك حامدين خيراً فلك بذلك عموم محمدتنا، وإن نذم لم نخض بالذم دونها.

قال كسرى: يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها؟ قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها. قال كسرى: كفى ذلك، ثم قام الحارث البكري فقال: دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها، من طال رشاؤه كثر متحه، ومن ذهب ماله قل منحه، تناقل الأقاويل يعرف اللب، وهذا مقام سيوجف بها تنطق الركب وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب، ونحن جيرانك الأدنون وأعوانك المعينون، خيولنا جمة وجيوشنا فخمة، إن استنجدتنا فغير ربص، وإن استطرقتنا فغير جهض، وإن طلبتنا فغير غمص، ولا ننأ لذعر ولا نتنكر لدهر، رماحنا طوال وأعمارنا قصار. قال كسرى: أنفس عزيزة وأمة ضعيفة. قال الحارث: أيها الملك وأنى يكون لضعيف عزة أو لصغير مرة؟ قال كسرى: لو قصر عمرك لم تستولِ على لسانك نفسك. قال الحارث: أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مغرراً بنفسه على الموت فهي منية استقبلها وجنان استدبرها، والعرب تعلم أن أبعث الحرب قدماً وأحسبها وهي تصرف بها حتى إذا جاشت نارها وسعرت لظاها، وكشفت عن ساقها جعلت مقادها رمحي وبرقها سيفي ورعدها زئيري، ولم أقصر عن خوض خضخاضها حتى أنغمس في غمرات لججها وأمون فلكاً لفرساني إلى بحبوحة كيشها فأستمطرها هادماً، وأترك حماتها جزر السباع وكل نسر قشعم، ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: كذلك هو؟ قالوا: فعاله أنطق من لسانه. قال كسرى: ما رأيت كاليوم وفداً أحشد ولا شهوداً أوفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي فقال: نعم بالك ودام في السرور حالك إن عاقبة الكلام متدبرة وأشكال الأمور معتبرة وكثير ثقله، وفي قليل بلغة وفي الملوك سورة العز، وهذا منطق له ما بعده، شرف فيه من شرف وخمل فيه خمل، لم نأت لضيمك ولم نفد لسخطك ولم نتعرض لرفدك، إن في أموالنا منتقداً وعلى عزنا معتمداً إن أورينا ناراً أثقبنا، وإن أودى دهر بنا اعتدلنا، إلا أنا مع هذا لجوارك حافظون ولمن رامك كافحون، حتى يحمد الصدر ويستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قصد منطقك بإفراط ولا مدحك بذمك. قال عمرو: كفى قصدي هادياً وبأيسر إفراطي مخبراً، ولم يلم من غربت نفسه عما يعلم ورضي من القصد بما يبلغ. قال كسرى: ما كل ما يعرف المرء ينطق به، اجلس.

ثم قام خالد بن جعفر الكلابي فقال: أحضر الله الملك إسعاداً وأرشده إرشاداً إن لكل منطق فرصة، ولكل حاجة غصة، وعيٌّ المنطق أشد من عيِّ السكوت، وعثار القول أنكأ عن عثار الوعث، وما فرصة المنطق عندنا إلا بما نهوى، وغصة المنطق بما لا نهوى غير مستساغة، وتركي ما أعلم من نفسي ويعلم من سمعي أنني له مطيق أحب إلي من تكلفي ما أتخوف وأتخوف مني، وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف والإحسان، أنفسنا بالطاعة لك باخمة ورقابنا بالنصيحة خاضعة وأيدينا لك بالوفاء رهينة. قال كسرى: نطقت بعقل وسمرت بفضل وعلوت بنبل.

ثم قام علقمة بن علاثة العامري فقال: نهجت لك سبل الرشاد وخضعت لك رقاب العباد، إن للأقاويل مناهج وللآراء موالج وللعويص مخارج، وخير القول أصدقه، وأفضل الطلب أنجحه، إنا وإن كانت المحبة أحضرتنا والوفادة قربتنا فليس من حضرتك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قست كل رجل منهم وعلمت منهم ما علمنا لوجدت له في آبائه دنيا أنداداً وأكفاء، كلهم إلى الفضل منسوب وبالشرف والسؤدد موصوف، وبالرأي الفاضل والأدب الناقد معروف يحمي حماه ويروي نداماه ويذود أعداه، ولا تخمد ناره ولا يتحرز منه جاره، أيها الملك من يبل العرب يعرف فضلهم فاصنع العرب فإنها الجبال الرواسي عزاً والبحور الزواخر طمياً والنجوم الزواهر شرفاً والحصى عدداً، فإن تعرف لهم فضلهم يعزوك وإن تستصرخهم لا يخذلوك. قال كسرى وخشى أن يأتي منه كلام يحمله على السخط عليه: حسبك أبلغت وأحسنت.

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال: أطاب الله بك المر، وجنبك المصائب ووقاك مكروه الشدائد، ما أحقنا إذ أتيناك بأسماعك ما لا يحنق صدرك، ولا يزرع لنا حقداً في قلبك لم نقدم أيها الملك لمساماة، ولم ننتسب لمعاداة، ولكن لتعلم أنت ورعيتك ومن حضرك من وفود الأمم أنا في المنطق غير محجمين، وفي الناس غير مقصرين إن جوزينا فغير مسبوقين وإن سومينا فغير مغلوبين. قال كسرى: غير أنكم إذ عاهدتم غير وافين، وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانة السواد قال قيس: ما كنت في ذلك إلا كواف غدر به أو كخافر أخفر بذمته. قال كسرى: ما يكون لضعيف ضمان ولا لذليل خفارة قال قيس: أيها الملك ما أنا فيما أخفر من ذمتي أحق

بإلزامي العار منك فيما قتل من رعيتك وانتهك من حرمتك. قال كسرى: ذلك لأن من ائتمن الخونة واستنجد الأئمة ناله من الخطأ ما نالني، وليس كل الناس سواء، كيف رأيت حاجب بن زرارة لم يحكم قواه فيبرم ويعهد فيوفي ويعد فينجز. قال: وما أحقه بذلك وما رأيته إلا لي قال كسرى: القوم بزل فأفضلها أشدها، ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال: كثر فنون المنطق ولبس القول أعمى من حندس الظلماء، وإنما الفخر في الفعال والعجز في النجدة والسؤدد مطاوعة القدرة وما أعلمك بقدرنا وأبصرك بفضلنا والحري إن أدالت الأيام وثابت الأحلام أن تحدث لنا أموراً لها أعلام. قال كسرى: وما تلك الأعلام؟ قال: مجتمع الأحياء من ربيعة ومضر على أمر يذكر. قال كسرى: وما الأمر الذي يذكر؟ قال عامر: ما لي علم بأكثر مما خبرني به مخبر قال كسرى: متى تكاهنت يابن الطفيل؟ قال: لست بكاهن ولكني بالرمح طاعن؟ قال كسرى: فإن أتاك آت من جهة عينك العوراء ما أنت صانع؟ قال: ما هيبتي في قفاي بدون هيبتي في وجهي، وما أذهب عني عبث ولكن مطاوعة العبث، ثم قام عمرو بن معد يكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب وملاك النجدة الارتياد، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة وتوفيق الخبرة خير من اعتساف الحيرة فاجتذب طاعتنا بلفظك واكظم بادرتنا بحلمك، وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا، فإنا أناس لم يوقس صفاتنا قراع مناقير من أردنا قضماً، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضماً.

ثم قام الحارث بن ظالم المري فقال: إن من آفة المنطق الكذب ومن لؤم الأخلاق الملق، ومن خطل الرأي خفة الملك المسلط فإن أعلمناك أن مواجهتنا لك عن ائتلاف وانقيادنا لك عن تصاف، فما أنت لقبول ذلك منا بخليق ولا للاعتماد عليه بحقيق، ولكن الوفاء بالعهود وأحكام ولت العقود والأمر بيننا وبينك معتدل ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل.

قال كسرى: من أنت؟ قال: الحارث بن ظالم. قال: إن في أسماء آبائك لدليلاً على قلة وفائك، وأن تكون أولى بالغدر وأقرب من الوزر. قال الحارث: إن في الحق مغضبة والسر في التغافل، ولن يستوجب أحد الحلم إلا مع القدرة فلتشبه أفعالك مجلسك قال كسرى: هذا فتى القوم، ثم قال: قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم وتفنن فيه متكلموكم، وأولاً إني أعلم أن الأدب لم يثقف أودكم ولم يحكم أمركم، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم فتنطقون عنده منطق

الرعية الخاضعة الباخعة فنطقتم بما استولى على ألسنتكم، وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيراً مما تكلمتم به، وإني لأكره أن أجبيه وفودي أو أحنق صدورهم، والذي أحب من إصلاح مدبركم وتآلف شواذكم والإعذار إلى الله فيما بيني من خلل، فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا سفهاءكم أودهم وأحسنوا أدبهم، فإن في ذلك صلاح العامة؟

روي عن الكلبي أنه قال: كان كسرى يحفل بالعرب ويستأنس بمشاهدتهم، ويرغب في سماع محادثاتهم ومفاخراتهم ومنافراتهم ولم يدخر وسعاً إلا بذله للحصول على ذلك، ومما اتفق له أن النعمان بن المنذر كان بمجلسه يوماً فقال له: هل في العرب من قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: فبأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، واتصل ذلك بمزية رابعة فبيته أشرف بيت، وإليه تنسب القبيلة وبه تعلو على غيرها. قال: أحضر من هذه صفتهم فطلبهم النعمان، فلم يصبهم إلا في آل حذيفة بني بدر وآل ذي الجحدين وآل الأشعث بن قيس بن كندة، فأحضرهم في جملة من عشائرهم فقعد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكام والعدول والأعيان، ثم قال: ليتكلم منكم بمآثر قومه وليصدق.

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكان ألسن القوم فقال: قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والفخر الأعظم، فقيل له: لم ذاك يا أخا فزارة؟ قال: ألسنا الدعائم التي لا ترام؟ والعز لا يضام؟ فقيل له: صدقت، ثم قام شاعرهم فقال:

فـــزارة بيـــت العـــز والعـــز فـــيهم ... فـــزارة بـــدر حســـب بـــدر نضـــالها

لهـــا العـــزة القعســـاء والحســـب الـــذي ... بنـــاه لبـــدر في القـــديم رجالهـــا

فهيهـات قـد أعيـا القـرون التـي مضـت ... مـــآثر بـــدر مجـــدها وفعالهـــا

وهـــل أحـــد إن مـــدّ يومـــاً بكفـــه ... إلى الشـــمس في مجـــرى النجـــوم ينالهـــا

فـــإن يصـــلحوا يصـــلح لـــذاك جميعنـــا ... وإن يفســـدوا يفســـد عـــلى النـــاس حالهـــا

ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ونقهر جمعها الأكبر، وأنا غياث اللزبات وبناة المكرمات، فقيل له: لم يا أخا كندة؟ قال: لأنا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه وتقلدنا منكبه الأعظم وتوسطنا يحبوحه الأكرم. ثم قام شاعرهم فقال:

فســـائل أبيـــت اللعـــن عنـــا فإننـــا دعـــائم هـــذا النـــاس عنـــد الجلائـــل

ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنّا أرفعهم في المكرمات وأثبتهم في النائبات، فقيل له: لم ذاك يا أخا بني سعد؟ فقال: لأنا أدركهم للثأر وأمنعهم للجار لا نتكلل إذا حملنا ولا نرام إذا حللنا، ثم قام شاعرهم فقال:

لقـــد علمـــت قـــيس وخنـــدف أننـــا وجـــل تمـــيم والجمـــوع التـــي تـــرى

بأنـــا ليـــوث البـــأس في كـــل مـــأزق إذا جـــز بـــالبيض الجماجـــم والطـــلى

وأنـــــا إذا داع دعانـــــا لنجـــــدة أجبنـــا سراعـــاً في العلائـــم مـــن دعـــا

فهيهـــات قـــد أعيـــا الجميـــع فعـــالهم وقـــاموا بيـــوم الفخـــر مســـعاة مـــن ســـعى

فقال كسرى حينئذ: ليس منها إلا سيد لموضعه، ثم أعظم صِلاتهم أجمعين، وردهم إلى أقوامهم معظمين.

٢- مناظرة عبيدة بن الأبرص امرأَ القيس

قيل: إن عبيدة بن الأبرص لقي امرأ القيس يوماً فقال له: كيف معرفتك بالأوابد؟ قال: ما أحببت. فقال

مـــا حبـــة ميتـــة قامـــت بميتتهـــا درداء مـــا أنبتـــت نابـــاً وأضراســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك الشـــعيرة تســـقى في ســـنابلها قد أخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيدة:

مـــا الســـود والبـــيض والأســـماء واحـــدة لا تســـتطيع لهـــن النـــاس تمساســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك الســـحاب إذا الـــرحمن أنشـــاها روَّى بهـــن محـــول الأرض إيباســـا

فقال عبيدة:

مـــا مرتجـــات عـــلى هـــول مراكبهـــا يقطـــن بعـــد المـــدى ســـيراً وأمراســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك النجـــوم إذا حانـــت مطالعهـــا شـــبهتها في ســـواد الليـــل أقباســـا

فقال عبيدة:

مـــا القاطعـــات لأرض لا أنـــيس بهـــا تـــأتي سراعـــاً ومـــا يـــرجعن أنكاســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك الريـــاح إذا هبـــت عواصـــفها كفـــى بأذيالهـــا للـــترب كناســـا

فقال عبيدة:

مـــا الفاجعـــات جهـــاراً في علانيـــة أشـــد مـــن فيلـــق ملحومـــة باســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك المنايـــا فـــما يبقـــين مـــن أحـــد يأخـــذن حمقـــى ومـــا يبقـــين أكياســـا

فقال عبيدة:

مـــا الســـابقات سراع الطـــير في مهـــل لا يشـــتكين ولـــو طـــال المـــدى باســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك الجيـــاد عليهـــا القـــوم مـــذ نتجـــت كـــانوا لهـــن غـــداة الـــروع أحلاســـا

فقال عبيدة:

مـــا القاطعـــات لأرض الجـــو في طلـــق قبـــل الصـــباح ومـــا يســـوين قرطاســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك الأمـــانيُّ يـــتركن الفتـــى ملكـــا دون الســـماء ولم ترفـــع لـــه رأســـا

فقال عبيدة:

مـــا الحـــاكمون بـــلا ســـمع ولا بصـــر ولا لســـان فصـــيح يعجـــب الناســـا

فقال امرؤ القيس:

تلـــك المـــوزين والـــرحمن أرســـلها رب البريـــة بـــين النـــاس مقياســـا

تاسعاً:

الموعظة التقوية الدينية الجاهلية

(أكثم بن صيفي)

عرفت الموعظة التقوية طريقها إلى الحياة في كل العصور، ولم يخل العصر الجاهلي على الرغم من كونه يتمحور حول عبادة الأصنام أو عبادة مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والكواكب من دعاة نصارى أو يهود، أو أحناف من أتباع سيدها إبراهيم عليه السلام ، فقد كان زهير بن أبي سلمى من الشعراء الأحناف، وكذلك الشاعر أمية بن أبي الصلت الذي كان يدعو للتوحيد في شعره، وكذلك كان ورقة بن نوفل الذي كان يكتب الكتاب العبراني (التوراة) في مكة المكرمة وكذلك كان الراهب بحيرا في بصرى الشام، الذي لقي الرسول عليه الصلاة والسلام عندما كان مع عمه أبي طالب في تجارة لخديجة رضي الله عنها، وقد حاول هؤلاء الدعاة أن يعيدوا الناس إلى قضية التوحيد، ونحن نعرف كم كان الحبر ورقة بن نوفل متحمساً للنبي محمد عليه الصلاة والسلام حين أكد له أن أهل مكة سيخرجون نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم من مكة، وأنه يتمنى أن يكون جنبه لينصره على كفار مكة (وثيقة ورقة بن نوفل وحواره مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم) ، وقد ذكر لنا رسول الله صلوات الله عليه أنه شاهد الخطيب المشهور (أكثم بن صيفي) في سوق عكاظ وهو يخطب خطبته المشهورة واعظاً الناس: ((أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت...)).

وتتميز المواعظ التقوية في العصر الجاهلي سواء كانت شعراً أم نثراً بفطريتها وإيجازها وبلاغتها وقدرتها على مخاطبة القلب والعاطفة وتمس العقل، وإن كان بشكل بسيط.

موعظة قس بن ساعدة الإيادي:

(أيها الناس اسمعوا وعوا وإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات ومن مات فات

وكل ما هو آت آت مطر ونبات وأرزاق وأقوات

وآباء وأمهات وأحياء وأموات جمع وأشتات وآيات

وأرض ذات رتاج ، وبحار ذات أمواج

ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون

أرضوا بالمقام فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا

أقسم قس قسماً لا حانثاً فيه ولا آثماً

إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه

ونبياً قد حان حينه وأظلكم أوانه فطوبى لمن آمن به فهداه ، وويل لمن خالفه وعصاه

ثم قال:

تباً لأرباب الغفلة من الأمم الخالية والقرون الماضية

يا معشر إياد أين الآباء والأجداد وأين ثمود وعاد

وأين الفراعنة الشداد أين من بنى وشيد وزخرف ونجد وغره المال والولد

أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال: أنا ربكم الأعلى

ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأطول منكم آجالاً وأبعد منكم آمالاً

طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية

عمرتها الذئاب العاوية، كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس والداً ولا مولوداً

ثم أنشأ يقول:

في الـــــــذاهبين الأولـــــــين ... مـــن القـــرون لنـــا بصـــائر

ورأيـــــت قـــــومي نحوهـــــا ... تمضي ـــــ الأصـــاغر والأكـــابر

لا يرجـــــــع المـــــاضي إليَّ ... ولا مـــــن البـــــاقين غـــــابر

أيقنـــــــت أني لا محالـــــــة ... حيـــث صـــار القـــوم صـــائر)

الباب السابع

الفصل الثالث

خصائص النثر الفني الجاهلي

تميَّز النثر الفني الجاهلي بخصائص عدّة، من أهمها:

١- كان ذلك النثر، بفنونه كلها متمماً للشعر الجاهلي في تصوير جوانب أخرى من الحياة العربية، تصويراً أقرب إلى الحقيقة والواقع، بما في تلك الحياة من مفارقات ومتناقضات.

٢- توجُّه النثر إلى نواح خلقية وتهذيبية، والميل إلى الخير والإصلاح في الوصايا، وبعض والخطب والحكم، والارتداد إلى الغضب والتهور، وإشادة بالأحساب والأنساب، وإشاعة للعصبيات والمفاخر القبلية، والمصالح الخاصة، في المنافرات وبعض الخطب والحكم الأخرى.

٣- تصوير النثر الجاهلي لذلك كله هو تصوير أقرب إلى الحقيقة والواقع؛ لأن واضعي بعض تلك النصوص، أو صائغيها، قد حاولوا، بقوة ملاحظتهم ومزيد عنايتهم أن يجعلوها محاكية لأصولها الأولى، مستهدين في ذلك بقرائن مختلفة. ولهذا فإن تلك النصوص النثرية- مع ما اعترى معظمها من تغيير أو زيادة أو نقص- هي في روحها وبنائها مقاربة لأصولها الجاهلية.

٤- تغلب على هذا النثر، بفنونه المختلفة العناية والتجويد، والبعد، ما أمكن، عن الهلهلة والضعف.

٥- يأتي النثر الجاهلي مرسلاً طبيعياً تارة، ومتكلفاً محلى بالسجع والتصوير البياني تارة أخرى، بحسب الفن النثري من جهة، وبحسب الحال والمقام من جهة ثانية.

٦- رغبة في تحقيق الإمتاع، أو التأثير والإقناع لدى السامع، والنفوذ إلى مكامن نفسه.

٧- تخير الجاهليون الكلام في نثرهم وحرصوا على القوة والجزالة، والتنغيم الموسيقي بين الجمل إذا احتاجوا إلى ذلك، كما في سجع الكهان والمنافرات.

٨- تترجح النصوص النثرية الجاهلية بين الطول والقصر، ولكل منها موضع يحسن فيه. فالخطبة نفسها قد تطول وقد تقصر، وكذلك الوصية، أما الحكم والأمثال وأسجاع الكهان فلا تخرج عن القصر والإيجاز.

٩- يغلب على ذلك النثر الجاهلي الوضوح والسهولة في ألفاظه وتراكيبه عدا سجع الكهان.

١٠- في سجع الكهان تعمّد كاتبوه الغرابة في الأداء، والغموض في التعبير، إمعاناً منهم في الإيهام والإبهام.

١١- وجود ألفاظ غريبة، في طائفة من وصاياهم ومنافراتهم وبعض خطبهم، تناسباً مع واقع البيئة والحياة الجاهلية.

الباب السابع

الفصل الرابع

النقد في العصر الجاهلي

أولاً- نشـأة النقـد:

النقد الأدبي قديم قدم الأدب نفسه؛ لأنه ملازم له لاحق به، وقد عرفه العرب كما عرفته الأمم الأخرى في أول مرحلة من مراحل نشأته فناً بسيطاً ولمحات قصيرة، وتعود نشأته عند العرب إلى العصر الجاهلي؛ لأن أقدم ما لدينا من الأدب يعود إلى ذلك العصر، ووجود النقد ضروري حين يوجد الأدب، ومنذ سمع الناس الأدب، حرص على أن يظهروا رأيه فيه، فصدرت أحكام على الشعر والنثر، وكان هذا.

وهو فن تمييز جيد الكلام من رديئه، وصحيحه من فاسده، وبالتالي الحكم عليه.

لقد كان النقد في العصر الجاهلي مقدمات أولى في صناعة الشعر الجاهلي، وخطرات سريعة ذاتية تعتمد على الذوق وتنظر إلى البيت مستقلاً أو البيتين لا إلى كل القصيدة كوحدة، وبذلك جاءت نظراتهم النقدية جزئية، ورغم ذلك فهي لا تخلو من بعض الصحة والسلامة تدل على بصر بالشعر وعلم به، ولكن تلك الأحكام لم تكن في الغالب ثابتة، فكثيراً ما نجد الناقد يفضل شاعراً لإعجابه ببيت من شعره، فيقول: إنه أشعر الشعراء، ثم يسمع شعراً لغيره يعجب به فيفضله على غيره، وما ذلك إلا لأن تلك الأحكام لم تكن وليدة لتحليل والتمحيص، بل هي الأحكام عامة وذاتية، وإذا عرفنا أن الشعر العربي مر بمراحل من التهذيب قبل أن يصل إلى الصورة التي وصل إلينا عليها، فلابد من وجود أحكام نقدية في تلك الفترة المفقودة هذبت ذلك الشعر الذي وصل إلينا ناضجاً، وإذا كانت طفولة هذا الشعر قد غابت عنا، فإن النقد الذي كان يواكبها لم يصلنا كذلك، وإنما وصلت أحكام بسيطة على الشعر الموجود المتمثل في المعقات وغيرها من أشعار الجاهليين.

وغير خاف ما للاحتكاك بين العرب في الأسواق التي كانوا يلتقون فيها لقضاء حاجاتهم المختلفة من أثر على تطور تلك النظريات النقدية، وبالتالي نضج شعرهم واكتماله تبعاً لتوجيه النقد له، وأشهر تلك الأسواق: سوق عكاظ، حيث كانت تضرب للنابغة الذبياني قبة من أدم ليحكم بين الشعراء، ويعطي رأيه في القصائد التي يستمع إليها.

وإذا تتبعنا الأمثلة على الأحكام النقدية في العصر الجاهلي استطعنا أن نعرف كيف كان الناقد يلقي أحكامه، ومن تلك الأمثلة القديمة: حكم زوجة امرئ القيس أم جندب بين زوجها والشاعر علقمة بن عبدة الفحل بعد أن اختلفا في أيهما أشعر، فقالت: لينظم كل منكما قصيدة يصف فيها فرسه، على أن تلتزما وزناً واحداً وقافية واحدة، فصنع كل منهم قصيدة على وزن الطويل وأنشدها القصيدتين، فقالت لزوجها: «علقمة أشعر منك، قال: كيف؟ قالت: لأنك قلت:

فللسـوط ألهـوب وللسـاق درة وللزجـر منـه وقـع أخـرج مهـذب

فجهدت فرسك بسوطك في زجرك، ومريته فأتبعته بساقك. وقال علقمة:

فأدركهـن ثانيـاً مـن عنـانه يمـر كمـر الرائـح المتحلـب

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه، لم يضربه بسوط ولم يتعبه».

وإذا صحَّت هذه الحكاية عن أم جندب التي كانت ولا شك شاعرة، فإن النقد عندها يدل على جزئية نظرتهم بحيث يحكمون على الشاعر ببيت واحد، ولكن رأي هذه المرأة هنا صريح فلم تتعصب لزوجها.

وقد كان الشاعر أيضاً ينزل عند رغبة النقاد دون شك، ويرضي الذوق العام، فيسير على نهج تقليدي معروف، وقد تنبه لذلك زهير بن أبي سلمي فقال:

مـا أرانـا نقـول إلا معـارا أو معـاداً مـن لفظنـا مكـرورا

وكثيراً ما كان الشاعر ينظر إلى شعره بنفسه، فينقحه ويهذبه ويدخل عليه بعض التحسينات، كما عرف عن زهير بن أبي سلمى وأستاذه أوس بن حجر ومدرستهما في التنقيح.

وفي أخبار الأعشى نجد أنه كان ينشد شعره على الصنج، وغير خاف ما لهذه الطريقة من أثر على الأذن من الناحية الموسيقية تجعل الشاعر يحرص على إرضائها. وإذا هو لم يرض الأذن العربية لم يسلم من المآخذ، كما حدث للنابغة الذبياني، الذي يقال: إنه كان يقوي في شعره حتى قدم إلى المدينة يوماً فطلب أهل المدينة إلى مغنية أن تغني قوله:

أمـــن آل ميـــة رائـــح أو مغتـــدي عجـــلان ذا زائـــد وغـــير مـــزود

زعـــم البـــوارح أن رحلتنـــا غـــدا وبـــذاك خبرنـــا الغـــراب الأســـود

فلما سمعها شعر بما في البيتين من نشاز، فغير حركة الروي المضموم فقال:

«وبذاك تنعاب الغراب الأسود».

ومن الأمثلة أيضاً على الأحكام النقدية ونماذجها في العصر الجاهلي ما يحكى عن طرفة وهو صغير أنه سمع الشاعر المسيب بن علي ينشد إحدى قصائده ويصف بعيره في هذا البيت منها:

وقـــد أتناســـى الهـــم عنـــد ادّكـــاره بنـــاج عليـــه الصـــيعرية مكـــدم

فقال طرفة هازئاً: « استنوق الجمل»؛ لأن الصيعرية سمة خاصة بالنوق لا بالجمال تكون في أعناقها.

ونأتي إلى النوع من النضج في النقد الذي يتمثل في سوق عكاظ أشهر أسواق العرب، فيروى أن النابغة كانت تضرب له قبة من أدم ويأتي الشعراء فينشدونه أشعارهم فيكون له الرأي الأول والأخير، فيشتهر الشاعر الذي استحسن شعره، ويذكر أن من بين الشعراء الذين نوَّه بهم: الأعشى والخنساء وحسان بن ثابت، ولما أنشده حسان قصيدة منها:

لنـــا الجفنـــات يلمعـــن بالضـــحى وأســـيافنا يقطـــرن مـــن نجـــدة دمـــا

ولـــدنا بنـــي العنقـــاء وابنـــي محـــرق فـــأكرم بنـــا خـــالاً وأكـــرم بنـــا ابـــنما

فقال له النابغة: « أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك».

وتلاحظ أن النابغة الناقد هنا ينقد حساناً نقداً سديداً من الناحية اللفظية التي تتجلى في عدم جمع الشاعر جفناته وأسيافه جمع كثرة، ومن الناحية المعنوية التي تظهر في فخره بأولاده،

مع أن العرب يفخرون بالآباء والأجداد. وإذا كان يظهر في هذا الحكم نوع من النضج، فإننا نلاحظ أن مثل هذه الأحكام التي تتناول القضية اللفظية والمعنوية نادرة في النقد الجاهلي الذي كان يهتم بالصياغة أكثر في صورة مبسطة تناسب العصر.

والنقد الجاهلي نقد بدائي له سمات أولية يهتم بالبيت أو البيتين، فالشعر الجاهلي إحساس وانفعال، وكذلك كان النقد، ومع ذلك فهو لا يخلو من قيمة، فقد كان له كثير من الفضل في توجيه الشعراء الذين كانوا يحرصون على الإبداع حتى ينال شعرهم رضا الناس ويسلموا من المآخذ.

ثانياً- مظاهر النقد الجاهلي

تتلخص مظاهر النقد الجاهلي في الآتي:

١- المفاضلة بين الشعراء وتقديم بعضهم على بعض:

وأسباب هذه الظاهرة كثيرة جدّاً لعلّ أهمّها العصبية والتنافس القبلي وكثرة الشعراء ووفرتهم في البيئة العربية الجاهلية إضافة إلى أنفة الإنسان الجاهلي وحبّه للتفاخر والتقدّم على غيره.

٢- التهذيب:

والمقصود بها ما يقوم به الشاعر من تهذيب لشعره وتثقيفه له بحثاً عن الجودة والكمال لإرضاء نفسه أوّلاً، فيرتاح لعمله ولإرضاء العامة والتماشي مع أذواقهم واختياراتهم.

وعناية الشاعر بشعره واهتمامه به بالتصحيح والتعديل والتثقيف هو منحىً واتجاه نقدي ومدرسة شعرية بدأت في العصر الجاهلي، ثمّ تتابعت خلال العصور الأدبية المتلاحقة.

ولعل أشهر من يمثّل هذا الاتجاه هو الشاعر الجاهلي الكبير زهير بن أبي سلمى الذي كان يستغرق تهذيبه للقصيدة حولاً كاملاً، فسميت لأجل ذلك بالحوليات ينظمها في أربعة أشهر، وينقحها في أربعة أخرى، ثم يعرضها على الخاصة في أربع ليكتمل بذلك الحول قبل أن يعرضها على عموم النّاس.

وقد سار على هذا النهج ابنه كعب، وراويته الحطيئة في تهذيب الشعر وتنقيحة، يقول الحطيئة في بيان صعوبة الشعر في حقّ من لا يحسن قرضه بالتثقيف والتهذيب:

الشـــعرُ صـــعبٌ وطويـــل ســـلّمه إذا ارتقـــى فيـــه الـــذي لا يعلمـــه

زلّـــت بـــه إلى الحضـــيض قدمـــه يريـــــد أن يعـــــربه فيعجمـــــه

٣- المدارس الشعرية:

المقصود بالمدرسة الشعرية في العصر الجاهلي مجموعة من الشعراء يشتركون معاً في بعض الميزات والخصائص الفنية، أو اللغوية، أو المنهجية التي تُميّز شعرهم وأدبهم.

ولعل من أبرز هذه المدارس ، مدرسة عبيد الشعر، وهم الذين يهتمون بتنقيح وتهذيب أشعارهم، وزعيم هذه المدرسة أوس بن حجر، وعنه أخذ زهير بن أبي سلمى، وعنه ابنه كعب وراويته الحطيئة، وغيرهم.

وتقابل هذه المدرسة بمرتجلي الشعر، ومن أشهرهم النابغة الذبياني، وحسان بن ثابت، وامرئ القيس.

٤- تسمية القصائد:

المقصود بالتسمية هاهنا المبنية على أساس نقدي كالمعلقات السبع والسموط أو المسمَّطات والمقلَّدات والبتّارات. وليس من الغرابة أن يقولوا بالبتّارة وبالمعلّقة وبالسمط، وهذه التسميات النقدية التي وصلتنا من مرحلة النقد المروي في العصر الجاهلي هي في الواقع أشبه بالمعالم البارزة التي تشير إلى مرحلة من النقد الأدبي.

٥- ظاهرة تصنيف الشعراء:

ذكر الأصمعي أنّ العرب كانت تصنّف الشعراء بحسب قوة قريحتهم وتمكّنهم من ناصية الشعر، فأوّلهم الفحل. قال: والفحولة هم الرواة، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلّق، ودون ذلك الشاعر فقط، والرابع الشعرور. فهذه المسميات تعتبر أحكاماً نقدية على الشعراء.

وأخيراً يمكننا القول: إن الأحكام النقدية في العصر الجاهلي كان معظمها يتجه نحو الصياغة والمعاني، ويعرض لهما من ناحية الصحة، ومن ناحية الصقل والانسجام، كما توحي به السليقة العربية.

كذلك نلحظ في هذا النقد أنه قائم على الإحساس بأثر الشعر في النفس، ومقدار وقع الكلام عند الناقد، فالحكم مرتبط بهذا الإحساس قوة وضعفاً، والعربي يحس أثر الشعر إحساساً فطرياً لا تعقيد فيه ، ويتذوقه جبلة وطبعاً ، فليست له أصول مقررة للكلام الجيد كما عند المحدثين مثلاً، وليست لدية مقاييس يُؤتنس بها في المفاضلة بين الشعراء، ليس لديه غير طبعه وذوقه.

ثالثاً: هل هناك نقد في العصر الجاهلي؟

لا يشك أحد ممن اطلع على جماليات الشعر الجاهلي وعرف مستواه الفني المتميز أن هذه الشعرية الجاهلية ما كانت لتوجد لولا وجود نقد أدبي جاهلي متميز، فلا شعر متميز دون وجود نقد متميز، وهذا يدل على أن العرب عرفوا النقد الجاهلي، وإن لم يكونوا قد دونوه، والمبدع بطبيعته سواء أكان شاعراً أم ناثراً يدرك بحكم المبدعة قوانين الأدب أولاً وأدواته ثانياً وجمالياته ثالثاً، والمتميز منه رابعاً، وأنه حيث يكون الأدب يكون النقد الأدبي، وحيث يكون الشعر يكون نقده والشعراء الجاهليون هم نقاد للشعر بمقياس من المقاييس مارسوا نقدهم على شعرهم أولاً، وإن لم يعلنوا أن هويتهم نقدية على عكس ما أعلن أن النابغة الذبياني كانت له هويتان هوية شعرية يزاحم بها شعراء عصره وهوية نقدية يحكم بها على شعر معاصريه في خيمته الشعرية في سوق عكاظ، وعند الملوك والأمراء، وبذلك نستطيع أن نقول: إن الشاعر نفسه هو أول ناقد لشعره يستطيع أن يحكم على مستواه الشعري ومستوى غيره من الشعراء، وإذا لم يصل إلينا إلا القليل من النقد الجاهلي، فلا يعني ذلك أنه لا يوجد نقد جاهلي، وإنما اعتماد العرب على المشافهة، وليس على الكتابة لظروف الحياة الصحراوية، وعدم وجود وثائق يكتب عليها الأدب والنقد، وقد أعطى الله تعالى العرب حسن الكلام والبلاغة والقدرة على تمييز الجيد من الرديء في الكلام والحسن والقبيح، ولولا ميزة البلاغة عند العرب في العصر الجاهلي؛ لما جاء القرآن متحدياً لهم بكل ما فيه، وعلى رأسها البلاغة، ومن هنا كان تذوق

الشعر الجاهلي (جمالياً) لأنه شعر يعتمد على الطبع الصادق في دوافعه وغايته وصوره الحسية، فهو شعر ذو سحر جذاب، وهل يمكن للقرآن الكريم أن يتحدى قوماً لا بلاغة لهم.

رابعاً ـ ممارسة العرب للنقد الأدبي:

لا شك أن الشعراء في ممارساتهم لكتابة قصائدهم كانوا يتعلمون الشعر من خلال النماذج الجميلة التي سبقتهم، إما بسماعهم لهذه القصائد من خلال رواتها، أو من خلال سماعها من الشعراء أنفسهم، أو من خلال غناء الجواري لهذه القصائد، ومن ذلك ما صنعه امرؤ القيس عندما أدرك غنائية شعر (مرة بن الرواع الأسدي) فذهب يعلّم جواريه المغنيات شعر مرة الأسدي، ثم يستمع لهذا الشعر على لسان هذه الجواري، ويستمتع به ومن ثم مجاراته أو قول ما هو أفضل منه، ومن شعر الشاعر مرة بن الرواع قوله:

أشـــاقك مـــن فكيهتـــك ادلاج وبـــت الحبـــل وانقطـــع الخـــلاج

كما وأن في ذهاب الشعر لبلاط الملوك حضور للنقد الأدبي، فقد اجتمع حسان بن ثابت بالنابغة الذبياني وعلقمة بن عبده عند الملك الغساني جبلة بن الأيهم في حوران بمنطقة الحمّان، وتعرف على علقمة مع كونه يعرف النابغة وطلب من الثلاثة إنشاد الشعر فأنشد النابغة:

كليني لهـم يـا أميمـة ناصـب وليـل أقاسـيه بطـيء الكواكـب

وأنشد علقمة بن عبده:

صحا بك قلب في الحسان طروب بعيد شباب عصر حان مشيب

وأنشد حسان بن ثابت:

لله در عصـابة نادمتهـا يومـاً بجلـق في الزمـان الأول

فأعجب الملك الغساني بقصيدة حسان بن ثابت وسماها البتارة، والدارس لهذا الخبر وما فيه من نقد يكتشف أن الملك الغساني كان لديه ذائقة نقدية بارعة تمثلت في إعجابه بشعر حسان بن ثابت، ووضعه في طبقة الشاعرين أو فوقهما، وكذلك تبدو صورة النقد كممارسة عملية عند الجاهليين في العراق ما روي من أن النابغة الذبياني قال للنعمان بن المنذر مادحاً له:

تـراك الأرضُ إمَّـا مـتَّ خفّـا وتحيـا إن حييـت بهـا ثقـيلا

فقال النعمان للنابغة: هذا بيت إن لم تتبعه ببيت يوضحه فإنها أقرب إلى الهجاء، فعسر ذلك على النابغة فطلب إمهاله ثلاثة أيام فاستنجد بزهير فخرجا إلى البرية فصحبهما كعب بن زهير وكان طفلاً، وعسر على زهير والنابغة ما يطلبان فقال كعب للنابغة: ما يمنعك أن تقول:

وذاك بأن حللت العز منها فتمنع جنبها ألا يزولا

فقال النابغة: جاء بها ورب الكعبة لسنا والله في شيحاء، وبصرف النظر عن أن إجازة البيت الثاني من النعمان للنابغة كانت مئة من الإبل العصافير النجائب، فقد اتضح لنا ما في قول النابغة لسنا في شيء عن نفسه، وعن زهير من حكم نقدي من أنهما كمبدعين فشلا أمام طفل صغير هو كعب بن زهير.

أما في المدينة المنورة يثرب- كما كان يطلق عليها الجاهليون- فقد كان النابغة يزورها ويجتمع بحسان بن ثابت، فقد أنشد أهل المدينة مرة قصيدته التي مطلعها:

أمن آل ميـة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

وهي دالية مكسورة فلما وصل إلى قوله:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك خبرنا الغراب الأسود

فجاء بيته هذا مقوياً، والإقواء معروف أنه تغير حركة الحرف الذي تبني عليه القصيدة من كسر إلى ضم أو فتح أو من ضم إلى كسر أو فتح أو من فتح إلى كسر أو ضم، وقيل: لما حضر النابغة المدينة غنتها إحدى الجواري ورتلت القافية أمامه عرف أنه أقوى بشعره فغير شطر البيت إلى:

زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود

وهذا ما جعله يقول (دخلت يثرب وفي شعري شيء وخرجت وأنا أشعر الناس) وهذا يدل على أن بعض المهتمين بالأدب يعرفون علم العروض ويتذوقون الشعر ويذمون عيوبه.

وكذلك يبدو حسان بن ثابت رضي الله عنه ناقداً في خبر ورد عنه حيث اجتمع بالنابغة وقيس بن الخطيم، وسمع منهما، ثم أنشد النابغة:

عرفت منازلاً بعريتنات فأعلى الجزع في الحي المُبنِّ

وقال حسان بن ثابت: هلك الشيخ يعني النابغة؛ لأنه تبع قافية منكرة، ثم أنشد قيس بن الخطيم:

أتعـــرف رســـماً كـــاطراد المـــذاهب لعمـــرة وحشـــاً غـــير موقـــف راكـــب

فقال النابغة: أنت أشعر الناس يابن أخي، ثم جلس حسان بين يديه وأنشده، فقال النابغة:

أنشد فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم، وكان يعرف حسان قبل ذلك، كما أن حسان يبدو ناقداً في قوله: "إنا إذا أردنا أن نخرج الحبرات من شعرنا أتينا بشعر قيس بن الخطيم"، على أن الحبرات قصائد مكتوبة بالحبر محفوظة على ألسنة الرواة، وهي قصائد مزينة ومجودة ومنها قيس المذهبية، وقد سُئل حسان بن ثابت رضي الله عنه عن أشعر الناس فقال: الذي يقول:

إني مـــن القـــوم الـــذين إذا انتـــدوا بـــدؤوا بحـــق الله ثـــم النائـــل

المـــانعين مـــن الخنـــا جـــيرانهم والحاشـــدين عـــلى طعـــام النـــازل

والخـــالطين فقـــيرهم بغنـــيهم والبـــاذلين عطـــاءهم للســـائل

وهو يعني بذلك عمرو بن الإطنابة لما تحمله من قيم إنسانية وقيم جمالية (المعنى والمبنى) وكذلك كانت العرب تعرض أشعارها على قريش لما تشمله من ثقافة في مواسم الحج، وقد قدم علقمة بن عبده عليهم وأنشدهم:

هـل مـا علمـت أو اسـتودعت مكتـوم أم حبلهـــا إذا تأتيـــك مصـــرـــوم

فقالوا: هذه (سمط الدهر) يعني قلادة الدهر، ثم جاءهم في العام المقبل فأنشدهم:

طحـا بـك قلـب في الحسـان طـروب يعيـد شـباب عصرـ حـان مشـيب

فقالوا: هاتان (سمط الدهر).

أما في الأسواق فقد عرف مكان النقد الأدبي في خيمة النابغة التي كانت تضرب له فينشده الشعراء، ثم يحكم بينهم وذلك في سوق عكاظ وقصته في المفاضلة بين الأعشى والخنساء وحسان معروفة، حيث أنشده الثلاثة ففضل الأعشى، ثم الخنساء، ثم حسان فقال له حسان: أنا أشعر منك ومنها ومن أبي بصير. فقال له النابغة: ولكنك لا تحسن أن تقول مثلي:

فإنـــك كالليـــل الـــذي هـــو مـــدركي وإن خلـــت أن المنتـــأى عنـــك واســـع

وقد كان حسان قد أنشده:

لنـــا الجفنـــات الغـــرُّ يلمعـــن بالضـــحى وأســـيافنا يقطـــرن مـــن نجـــدة دمـــا

ولـــدنا بنـــي العنقـــاء وابنـــي محـــرق فـــأكرم بنـــا خـــالاً وأكـــرم بنـــا ابـــنما

وكانت الخنساء قد أنشدته:

يـــا صـــخر وراد مـــاء قـــد تنـــاوزه أهـــل الميـــاه ومـــا في ورده عـــار

وأن صـــخراً لتـــأتم الهـــداة بـــه كأنـــه علـــم في رأســـه نـــار

وفي نقد طرفة بن العبد لخاله المسيب بن علس قال: استنوق الجمل؛ لقوله:

وقـــد أتناســـى الهـــم عنـــد احتضـــاره بنـــاج عليـــه الصـــيعرية مكـــدم

يدل على معرفة طرفة- وهو صبي- نظام الشعر وكذلك معرفة أم جندب بنظام الشعر حين حكمت بين زوجها امرئ القيس والشاعر علقمة بن عبده، وفضلت علقمة على امرئ القيس لإصابته في وصف الخيل، ففي قصيدة امرئ القيس:

خلـــيلي مـــرّا بي عـــلى أم جنـــدب نقضيـــ لبانـــات الفـــؤاد المعـــذب

حيث وصف فرسه بقوله:

فللســـبق ألهـــوب وللســـوط درة وللزجـــر منـــه وقـــع أهـــوج متعـــب

وفي قصيدة علقمة بن عبده:

ذهبـــت مـــن الهجـــران في غـــير مـــذهب ولم يـــك حقـــاً كـــل هـــذا التجنـــب

حيث وصف فرسه:

فأقبـــل يهـــوي ثانيـــاً مـــن عنانـــه يمـــر كمـــر الـــرائح المتحلـــب

وقد قالت: إن فرس ابن عبده أجود من فرسك؛ لأنه لم يزجر ولم يضرب ولم يحرك، بل أدرك فرسه ثانياً من عنانه، وكذلك كان امرؤ القيس ناقداً عندما وصف قوماً بقوله: "بنو النار" لجودة شعرهم.

خامساً ـ خصائص النقد في العصر الجاهلي:

يتميز النقد الجاهلي بمجموعة ميزات:

١- أنه نقد مروي وليس مدوناً.

٢- أنه موجز الأحكام النقدية.

٣- أنه نقد مجالس وحكايات كمجلس الأمير الغساني.

٤- أنه نقد غير معلل.

٥- تعدد الصيغ النقدية (أشعر الشعراء – سمط الدهر – البتارة – اليتيمة).

٦- أنه يتسم بالعفوية والصدق.

٧- أنه نقد نزر وقليل بالقياس إلى تطور الشعر.

٨- أنه نقد ممارساتي وليس نقداً نظرياً.

سادساً ـ منزلة الناقد في العصر الجاهلي:

إذا كانت منزلة الشاعر في العصر الجاهلي منزلة مرموقة- وإن تراجعت في أواخر هذا العصر- فإن منزلة الناقد ترتبط بشخصية الناقد، فالنابغة الذبياني كان بمنزلة عالية لسببين أنه أولاً شاعر من الطبقة الأولى، وثانياً لأنه كان المحكم الأول في سوق عكاظ، وحسان بن ثابت رضي الله عنه اشتهر بمنزلته الشعرية أكثر من النقدية؛ لأنه لم يخصص للنقد العملي حيزاً كبيراً من حياته الثقافية فقد بقيت نزعة الشعر هي الموجهة لموهبته، أما من الملوك فقد كان النعمان بن المنذر الذي يتذوق شعر النابغة ويحكم عليه بالجودة وإن لم يدون نقده، وكذلك كان الأمير الغساني جبلة بن الأيهم الذي سمى قصيدة حسان اللامية البتارة يتذوق الشعر ويحكم عليه، إضافة إلى أن النقاد يحتلون في الوسط الثقافي والأدبي–الشعر- المنزلة العالية؛ لأنهم من يقدم الشعراء للمجتمع الجاهلي على أنهم أعلام الثقافة المدافعون عن قبائلهم.

وحين كثر تلاقي الشعراء عند ملوك المناذرة في الحيرة وملوك غسان في أطراف الشام، جعل بعضهم ينقد بعضاً، وهذه الأحاديث والأحكام والمآخذ هي نواة النقد العربي الأول، وكانت عكاظ سوقاً تجارية يأتيها العرب في مواسم معينة من كل فجّ عميق، وكانت مجتمعاً

للقبائل العربية يفدون عليها للصلح بعد حروب أو للتعاهد أو التفاخر، وكانت منبراً للخطباء والدعاة، وبيئة من بيئات النقد الأدبي، يلتقي الشعراء فيها كل عام، وأن النابغة الذبياني كانت تضرب له فيها قبة حمراء من أدم فيأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، وذائع مستفيض أيضاً في كتب الأدب ذلك المشهد من مشاهد عكاظ ما كان بين النابغة والأعشى وحسان بن ثابت والخنساء، حيث أنشد الأعشى مرة، ثم أنشد حسان، ثم شعراء آخرون، ثم أنشدته الخنساء قصيدتها في رثاء أخيها صخر جاء فيها قولها:

وإن صـــخراً لتـــأتمّ الهـــداة بـــه كأنـــه علـــم في رأســـه نـــار

فأعجب بالقصيدة، وقال لها:

لولا أن أبا بصير "يعني الأعشى" أنشدني قبل قليل، لقلت: إنك أشعر الجن والإنس، فالأعشى إذاً أشعر الذين أنشدوا النابغة، ثم يليه الخنساء في جودة الشعر.

وتذكر الروايات أنَّ حسان بن ثابت قد غضب من تفضيل النابغة للخنساء عليه، فثار وقال للنابغة: أنا أشعر منك ومن أبيك فرد عليه النابغة: أنت لا تستطيع أن تقول كقولي:

فإنـــك كالليـــل الـــذي هـــو مـــدركي وإن خلـــت أنَّ المنتـــأى عنـــك واســـع

خطـــاطيفُ حجـــنٌ في حبـــال متينـــة تشـــدُّ بهـــا أيـــدٍ إليـــك نـــوازع

فخنس حسان ولم يحر جواباً.

وفي مناسبة أخرى يذكر الرواة أن النابغة الذبياني وفي بعض الروايات ينسب الخبر للخنساء أنه سمع قول حسان:

لنـــا الجفنـــات الغـــر يلمعـــن في الضـــحى وأســـيافنا يقطـــرن مـــن نجـــدة دمـــا

ولـــدنا بنـــي العنقـــاء وابنـــي محـــرق فـــأكرم بنـــا خـــالاً وأكـــرم بنـــا ابـــنما

فنقد النابغة هذين البيتين وبيَّن عيوباً كثيرة فيهما، وينسبون للنابغة أنه عاب عليه أنه قال: (الجفنات) وهي جمع جفنة جمع مؤنث سالم، وجمع المؤنث السالم من جموع القلة، فهو أراد أن يفتخر بكثرة جفان قومه، ولكن هذه الصيغة من الجمع أفادت التقليل وكان عليه أن يستعمل (الجفان) بدل الجفنات؛ لأن الجفان من صيغ جموع الكثرة ويقولون: إنهم عابوا عليه كلمة

(الغرّ) حيث نعت بها الجفان، والغرة بقعة بياض في سوار كثير، وكان عليه أن يستعمل (البيض) بدلاً منها، ثم يقولون: إنه ذكر (يلمعن) والأصح أن يقول: (يشرقن) وقال: (الضحى) والأصوب (الدجى) وذكر (أسياف) وهي جمع قلة والصواب أن يقول: (السيوف) جمع كثرة، وقال: (يقطرن) والقطرات تدل على قلة القتلى فإذا أراد أن يشعر سامعه بكثرة قتلاه في الحروب فليجعل السيوف (يجرين) بالدم، ثم قالوا في نقد البيت الثاني: إن الشاعر افتخر بأولاده وبأولاد إخوانه فخالف بذلك سنة العرب التي تفتخر بالأجداد لا بالأحفاد، إلى غير ذلك من النقد الذي نسب إليه أو إلى الخنساء، وقصته تطول في بعض الروايات وتقصر في بعضها الآخر، وكل ذلك تأباه طبيعة الأشياء وكل ذلك يمكن أنْ يرفض رفضاً علمياً لأسباب كثيرة، منها:

أ- إن الإنسان الجاهلي لم يكن على معرفة بجمع المؤنث السالم وجمع التكسير، وأيها من جموع القلة وأيها من جموع الكثرة، ولم يكن له ذهن علمي يفرق بين هذه الأشياء كما فرق بينها ذهن الخليل وسيبويه، ومثل هذا النقد لا يصدر إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم، وعرف الفروق الدقيقة بين دلالات الألفاظ، وألمّ بشيء من المنطق، والنابغة أو الخنساء من كل ذلك بريئان.

ب- ولو أن هذه الروح النقدية الجاهلية المنطقية موجودة عند الجاهليين لوجدنا أثرها في عصر الرسول يوم تحدّى القرآن الكريم العرب وأفحمهم إفحاماً، صحيح أن القرآن وصفهم بأنهم (قوم خصمون) ولكن كل ما عملوه أنهم لجؤوا إلى الطعن في القرآن طعناً عاماً لا دقة فيه، فقالوا: (سحر مفترى) وقالوا: (أساطير الأولين) ولو أن لديهم تلك الروح البيانية لكان من المنتظر أن ينقدوا هذا القرآن الكريم.

ويروى أن أم جندب قضت لعلقمة على امرئ القيس حين حكمت بينهما في قصيدتيهما المعروفتين قصيدة امرئ القيس التي يقول فيها:

خليلي مرّا بي على أمّ جندب ... لأقضي لبانات الفؤاد المعذب

فللسوط ألهوب، وللساق درة ... وللزجر منه وقع أهوج متعب

وقصيدة علقمة التي يقول فيها:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يلهها حقاً كل هذا التجنب

فأدركهنّ ثانياً من عنانه يمرّ كمرّ الرائح المتحلب

معللة ذلك بأن امرأ القيس وصف فرسه بالبلادة وأنه كليل لم يدرك الطريقة إلا بعد أن ضرب بالسوط وأثير بساق الراكب وهيج بالزجر والصياح، أما فرس علقمة فنشيط لا يحتاج إلى إثارة ليسرع في عدوه إسراعاً، ويتعب في السير انصباب الريح جرى خلف الطريدة ولجامه مشدود إلى الخلف مثني غير مرخي، فإن صحت هذه القصة كان لها دلالة كبيرة في النقد الأدبي تتمثل هذه الدلالة بأن أم جندب تريد مقياساً دقيقاً تعتمد عليه في الموازنة، فوجدت ذلك المقياس في وحدة الرويِّ، ووحدة القافية، ووحدة الغرض، وهذا يكفي لأن يكون أساساً من أسس النقد في العصر الجاهلي، وهذا يدل أيضاً على أن النقد لم يكن في بعض الأحيان سليقة وفطرة، بل كانت له أصول يعتمد عليها.

ولكن هناك من النقاد من يرفض هذه القصة جملة وتفصيلاً بدعوى أن القصيدتين متداخلتان في كتب الأدب، فبعض أبيات الأولى متداخلة في أبيات الثانية، وهناك ألفاظ بأعيانها في الثانية مذكورة في القصيدة الأولى، وبدعوى أن امرأ القيس عرف بوصف الخيل والصيد، وشهر بذلك دون الجاهليين، وهو في المعلقة وفي قصيدته اللاحقة الأخرى لا يجارى في هذا الغرض، وهذا هو الذي جعل عبد الله بن المعتز لا يعترف بنسبة هذه القصيدة لامرئ القيس. وحفظت لنا كتب الأدب خبراً آخر مفاده أن طرفة بن العبد سمع المتلمس ينشد بيته:

وقد أتناسى الهم عند احتضاره بناج عليه الصيعرية مكدم

فقال جملته المشهورة: "استنوق الجمل"؛ لأنه لمح بأن المتلمس وصف جمله بأنه على عنقه الصيعرية وهي علامة توضع على عنق الناقة لا على عنق الجمل، فدعاه ذلك إلى أن قال ما قال. ولو عدنا إلى النابغة الذبياني فارس ميدان النقد في عكاظ لألفينا مجموعة من كتب الأدب والأخبار تتناقل قصته مع أهل يثرب (المدينة المنورة) الذين نبهوه إلى ما وقع في شعره من الإقواء في قصيدته الدالية، حيث يقول:

أمن آل ميـة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود

رغـــم البـــوارح أن رحلتنـــا غـــدا وبـــذاك خبّرنـــا الغـــراب الأســـود

ويقال: إنه عندما غنى أهل المدينة بهذين البيتين ظهر فيهما الإقواء (الإقواء هو اختلاف حركة حرف الروي وهو الحرف الأخير(الدال هنا في الكلمة القافية) من دال مكسورة في كل أبيات القصيدة إلى دال مضمومة في البيت التالي، كما اقتضتها حركة الإعراب ويقولون: إنه قال بعد أن نبه إلى هذا العيب: دخلت إلى المدينة وفي شعري هنة فخرجت منها وأنا أشعر الناس، ويروي الرواة أبياتاً أخرى للنابغة في هذه القصيدة اضطر فيها إلى الإقواء، وذلك في قوله:

ســـقط النصـــيف ولم تـــرد إســـقاطه فتناولتـــــه واتقتنـــــا باليـــــد

بمخضـــب رخـــص كـــأن بنانـــه غـــنم عـــلى أطرافـــه لم يعقـــد

فمن روى الشطر الثاني من البيت الثاني- كما أثبتناه- لم يجد فيه عيباً ولا إقواء، ولكن بعض الناس يروونه: عنم يكاد من اللطافة يعقد، وينسبون إلى النابغة أنه أقوى من هذه الرواية.

ومن صور النقد في العصر الجاهلي الأحكام التي كانت تطلق على القصائد فهي على وجازتها ضرب من النقد المركز، فقد قيل: إنَّ العرب كانت تعرض على قريش أشعارها، فما قبلته قريش كان مقبولاً وما رفضته كان مرفوضاً، فقدم عليهم علقمة بن عبده ذات سنة، وأنشدهم قصيدته التي يقول في مطلعها:

(هل ما علمت وما استودعت مكتوم)

فقالوا: هذه سمط الدهر، ثم عاد إليهم في العام القادم فأنشدهم:

طحـــا بـــك قلـــب بالحســـان طـــروب بعيـــد الشـــباب عصـــر حـــان مشـــيب

فقالوا: هاتان سمطا الدهر؛ ويروى أنَّ أحد ملوك الغساسنة فضل حسان بن ثابت الأنصاري على النابغة وعلى علقمة بن عبده وكانا حاضرين معه في مجلس ذلك الملك وأثنى على لاميته التي يقول فيها:

لله در عصـــــــابة نـــــــادمتهم يومـــــاً بجلـــــق في الزمـــــان الأول

ودعاها البتارة التي بترت المدائح، وكذلك دعوا قصيدة سويد بن أبي كاهل التي يقول فيها:

بســـــطت رابعـــــة الحبـــــل لنـــــا فوصـــــلنا الحبـــل منهـــا مـــا اتســـع

دعوها اليتيمة؛ لأنه لم ينظم في فنها مثلها.

فهذه النعوت التي نعت بها بعض القصائد الجاهلية ضرب من النقد المركز، فإذا أضفنا إليها النعوت التي أطلقت على الشعراء أنفسهم كتسميتهم لـ(النمر من تولب) بالكيس، لحسن شعره وسموا (طفيل الغنوي) طفيل الخيل لشدة وصفه إياها وبراعته فيه، و(النابغة) لنبوغه في الشعر، و(المهلهل) لهلهلة نسج شعره فإذا أضفنا كل هذه النعوت للشعر وللشعراء أدركنا أنها ضرب من النقد أيضاً.

وبقيت عندنا صورة أخرى من صور النقد الجاهلي ذات دلالة على نوع من النقد، وهي ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني حين قال:

"اجتمع الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم قبل أن يسلموا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فنحروا جزوراً واشتروا ببعير، وجلسوا يشوون ويأكلون، فقال بعضهم: لو أن قوماً طاروا من جودة أشعارهم لطرنا فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم فطلع عليهم ربيعة بن حذار الأسدي، وقد نزلوا بواد وهم جلوس، فلما رأوه سرهم، وقالوا له: أخبرنا أينا أشعر؟ قال: أخاف أن تغضبوا فأمنوه من ذلك فقال: أما عمرو بن الأهتم فشعره برود يمانية تنشر وتطوى، وأما أنت يا زبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولا ترك نيئاً فينتفع به، وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من نار الله يلقيها على من يشاء، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم فرزها فليس يقطر منها شيء".

أرأيت إلى هذا النقد الذي أطلقه ربيعة بن حذار على الشعراء الذين استضافوه فهو نقد على الرغم من عموميته فيه ضرب من الدقة ونزوع إلى توضيح المفهوم بمعطيات البيئة؛ إذ لا يملك النقد من وسائل تعبيرية به تصلح للتشبيه سواها.

سابعاً ـ خصائص النقد الجاهلي:

١ – انطباعات سريعة عفوية ساذجة.

٢ – يجنح للتعميم في الحكم دون الدخول في التفاصيل؛ لذلك نجد أحكاماً عامة مثل: أشعر الشعراء، أو أشعر الجن والإنس.

٣- يلعب الهوى والإعجاب والعواطف الذاتية دوراً في هذه الأحكام.

٤- لا يعتمد على مقاييس علمية أو جمالية.

٥- في بعض هذه الصور والأحكام النقدية ما هو منحول كما في الأدب ما هو منحول.

٦- المبالغة، فإما مدح مفرط وأما ذم مفرط.

٧- ينصب تارة على المعاني وتارة على الألفاظ.

٨- نزعته للمقارنة بين شاعرين أو أكثر وتفضيل أحدهما على الآخرين.

ثامناً ـ نماذج من النقد الجاهلي:

شواهد النقد في العصر الجاهلي

قالت الخنساء في أخيها صخر من قصيدة ترثيه بها:

وإنَّ صـــخراً لتـــأتمَّ المهـــداة بـــه كأنّـــه علـــم في رأســـه نـــار

غريب الألفاظ:

(صخر) اسم أخي الشاعرة الخنساء مات فرثته بعدة قصائد (لتأتمَّ) لتقتدي بسلوكه، (الهداة): جمع مفردها (هاد) وهو حكيم القبيلة الذي تهتدي بفكره وحكمته، و(العلم): الجبل، وقد ورد في القرآن قوله تعالى يصف السفن في البحر تجري على سطحه: (وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) أي (كالجبال).

معنى البيت:

إن الخنساء تمدح أخاها صخراً الذي يقتدى به العقلاء والحكماء والهواة، ويقصدونه كما يقصد السائر في الظلام جبلاً شامخاً في رأسه نار مشتعلة تجذب إليها السائرين في الظلام.

قال النابغة الذبياني يعتذر من النعمان بن المنذر، والبيتان من قصيدة طويلة:

فإنـــك كالليـــل الـــذي هـــو مدركـــي وإن خلـــتُ أنَّ المنتـــأى عنـــك أوســـع

خطـــاطيف حجـــن في حبـــال متينـــة تشـــدُّ بهـــا أيـــد إليـــك نـــوازع

غريب الألفاظ:

(المدرك): اللاحق. (المتأى) المكان البعيد، وهو من فعل نأى: ابتعد (الخطاطيف) جمع مفردها (خطاف) وهو حديدة أو خشبة معقوفة و(حجن) معقوفة لتشب في الحبال.

معنى البيت الأول:

يخاطب النابغة النعمان فيقول له: إنك بقدرتك وعظمتك كالليل الذي يلف كل شيء ويستوعبه، وعلى الرغم من أنني أظن أنَّ شقة البعاد بيني وبينك واسعة إلا أن قدرتك تستطيع أن تصلني، وأن تنشب فيّ كما تنشب خشبات معقوفة تشدها حبال متينة بجسم معلق بها.

قال حسان بن ثابت يفتخر:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

ولدنا بني العنقاء وابني محرق فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

غريب الألفاظ:

(الجفنات) جمع مفردها جفنة وهي الوعاء الذي يقدم فيه الطعام.

(الغر) جمع مفرده غراء أي بيضاء، (الضحى الوقت الذي ترتفع فيه الشمس في الصباح، (يقطرن) يسيل منها الدم متتابعاً على شكل قطرات، (نجدة) معركة ينجد فيها قوم حلفاءهم، و(بني العنقاء) قبيلة صغيرة تنتسب إلى الأنصار قبيلة حسان بن ثابت ومثلها (ابني محرق) وأكرم، فعل ماض جاء على صيغة الأمر للتعجب، وكأنه أراد أن يقول: ما أكرمنا خالاً وابناً.

ومعنى البيت الأول:

يفتخر حسان في الشطر الأول من البيت الأول بكرم قومه، فينسب إليهم الجفنات التي يقدم فيها الطعام للضيوف، فإذا ألقيت نظرة على بيوتهم وجدت هذه الجفان تلمع مع إشراقة الضحى، هذا في السلم، وأما في الحرب فإنه يفتخر بشجاعة قومه في الشطر الثاني من البيت الأول بأن قومه رجال شجعان ينجدون من استنجد بهم فينتصرون على أعدائهم، فيعودون من المعركة وسيوفهم تقطر بالدم.

لامرئ القيس قصيدة مطلعها:

خلـــيلي مـــرّا بي عـــلى أمّ جنـــدب لأقضيـــ لبانـــات الفـــؤاد المعـــذب

يصف فرسه في هذه القصيدة بعد المطلع التقليدي في وصف الأطلال فيقول:

فللســـوط ألهـــوب، وللســـان درة وللزجـــر منـــه وقـــع أهـــوج متعـــب

غريب الألفاظ:

(الخليل) الصاحب والصديق وتعود العرب أن يخاطبوا صديقين في مطلع القصيدة (أم جندب) اسم زوج امرئ القيس. (البانات) جمع مفردها البانة أي حاجة في النفس.

وفي البيت الثاني (ألهوب) التهاب الفرس لسرعة تحركه وانطلاقة، (الساق) رجل الراكب على ظهر الفرس يحركها على جنبيه لاستحثاثه على الجري، و(الدّرة) سرعة المشي و(الزجر) أن يصيح الفارس بفرسه بصوت عال، فيحرضه على تجديد السرعة و(الأهوج) المتعب، ولد النعام الذي إذا سمع صوتاً يزجره انطلق بسرعة طالباً النجاة.

معنى البيت الأول:

يخاطب امرؤ القيس صديقي رحلته ويطلب منهما أن يمرَّا في طريقهما على بيت أم جندب، لعله في نظرة إليها يشفي شوقه إليها، ويريح قلبه المعذب إلى لقياها، وفي البيت الثاني يصف فرسه بأنه إذا ضربه بالسوط أهاجه فانطلق يلتهب في أقصى سرعته، وإذا فتر عن الجري حرَّك ساقيه على جنبي فرسه فأخذ الفرس يسرع في عدوه، وإذا تراخى زجره بصوت عال فكأنما زجر ولد النعامة الذي ينطلق بأقصى سرعته في الصحراء لخوفه من الإنسان.

وقال علقمة الفحل قصيدة بائية يرد بها على بائية امرئ القيس السابقة ويبدؤها بالغزل فيقول:

ذهبـــت مـــن الهجـــران في كـــل مـــذهب ولم يلهـــا حقـــاً كـــل هـــذا التجنـــب

وينتقل إلى وصف فرسه الذي انطلقت قبله الخيول باستطاع أن يحلق بها، قال:

فـــأدركهنّ ثانيـــاً مـــن عنانـــه يمـــرّ كمـــرّ الـــرائح المتحلـــب

غريب الألفاظ:

(الهجران): انقطاع الصلة بين الحبيبين ولو لمدة، (المذهب) الاتجاه (التجنب) الإعراض، (أدركهن) لحق بهن أي لحق الفرس ببقية الخيول (ثانياً) اسم فاعل من ثنى يثنى إذا ترك العنان وهو الزمام أو الرسن على عنق الفرس، و(الرائح) السحاب السريع (المتحلب) السحاب الذي تحلّب ماؤه أي سقط مطراً على الأرض فبقي السحاب خفيفاً، فلذلك جرى سريعاً.

معنى البيت الأول:

يخاطب علقمة حبيبته معاتباً إياها على سبب هجرانها، فيقول لها: لماذا تفننت في هجراني ومقاطعتي كل تفنن؟ وليس لكل هذا التجنب والهجران من مسوّغ، ثم يترك الغزل بعد أن يتناوله في عدة أبيات ويتسرع في وصف فرسه فيقول: إن هذا الفرس قد أدرك الخيول ولحق بها على الرغم من أنها انطلقت قبله وعلى الرغم من أن زميله كان مثنياً عنقه، وكأنه في سرعة جريه واتّزانه كالغيم الذي يمر سريعاً وهادئاً، يزيد في سرعة هذا السحاب أنه تخلف مما كان يثقله من ماء.

قال الشاعر المتلمس:

وقد أتناسى الهمّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصيعرية مكدم

غريب الألفاظ:

(أتناسى) أحاول النسيان، (احتضاره): حضوره (ناج) الجمل (الصيعرية) علامة كانت توضع على عنق إناث الجمال (المكدم) القوي.

المعنى:

يقول الشاعر: إذا حضرني الهمُّ فإنني أحاول نسيانه بأن أركب جملي القوي وانطلق طمعاً في تغيير جو الهموم الذي أعيشه.

قال النابغة الذبياني:

أمن آلِ ميّةَ رائحٌ أو مغتدي عجلان ذا زادٍ وغيرِ مزودِ

زعم البوارحُ أنّ رحلتنا غداً وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليد

بمخضب رخص كأنّ بنانهُ عنمٌ يكاد من اللطافة يعقد

غريب الألفاظ:

في البيت الأول: الهمزة للاستفهام وقعت قبل حرف الجر من (من)، (آل مية): محبوبته (رائح) اسم فاعل من (راح) أي رجع في المساء، و(مغتدي) اسم فاعل من (اغتدى) أي ذهب في الغداة أي في الصباح، (عجلان) مسيرة مستعجل (الزاد) الشيء الذي يتزود به المرء من طعام وغيره.

في البيت الثاني: (البوارح) جمع بارحة وهي الطير التي كان العرب إذا عزموا على السفر رموها بحجر صغير فإذا اتجهت إلى اليمين تفاءلوا بها، وإذا اتجهت إلى اليسار تشاءموا منها، والغراب طير أسود اللون.

وفي البيت الثالث: (النصيف) غطاء تضعها المرأة على وجهها فيغطي نصفه وفي البيت الرابع: (المخضب) الأصبع المحنى و(رخص) طري بض، (بنان) أصبع (عنم) نبات ثمره كحبات العنب إذا نضج ثمره صار لونه أحمر قبل أن يتحول إلى أسود تشبه به رؤوس الأنامل، (يعقد) يتحول لونه من الخضرة إلى الحمرة والسواد.

المعنى:

يخاطب الشاعر صديقه فيقول له: أنت ذاهب أم راجع من ديار أهل الحبيبة ميّة أراك تارة عجلان وتارة متزود.

لقد زعمت الطيور التي استشرناها بأن رحلتنا عن الحبيبة وديارها ستكون في يوم الغد، ولعمري هذا خبر شؤم لا يخبر به إلا الغراب الأسود الذي لا يوحي إلا بالأخبار الكريهة.

مضى الشاعر يصف لحظة من لحظات الوداع لحبيبته عندما اقتربت لتودعه فسقط غطاء وجهها، على الرغم من أنها لم ترد إسقاطه، لذلك انحنت على الغطاء فتناولته بيد بينما وضعت يدها الأخرى على وجهها لكي تغطي محاسنها عن عيون المتطفلين.

غطت وجهها بيدها فظهرت أصابعها المخضوبة بالحناء هذه الأصابع الطرية التي تشبه أناملها ثمر العناب باحمراره ولمعانه.

علقمة بن عبده:

هل ما علمت وما استودعت مكتوم

أي هل حبك الذي تعلمه أو الذي تخفيه مكتوم عن الناس؟ كلا إن الحب إذا وقع في قلب امرئ لابد أن تظهر علاماته.

وقال:

طحا بك قلب بالحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

أي لقد أتعبك هذا القلب المولع بالحسان ومتابعتهن في الوقت الذي ولّى فيه الشباب وحلت محله الشيخوخة.

قال حسان بن ثابت يمدح الغساسنة:

لله در عصابة نادمتهم يوماً بحلّق في الزّمانِ الأوّلِ

غريب الألفاظ:

(لله در) عبارة يراد بها التعجب والمدح، (عصابة) مجموعة أو قبيلة (نادمتهم) جالستهم على الشراب، (جلّق) دمشق.

قال سويد بن أبي كامل:

بسطت رابعة الحبلَ لنا فوصلنا الحبل منها ما اتسع

أي فتحت هذه الفتاة المسماة برابعة طريق الحبّ لنا، فما كان منا إلا أن ولجنا هذا الطريق وسرنا فيه إلى أبعد حد.

روى أبو الفرج الأصفهاني في كتاب الأغاني قال:

"اجتمع الزبرقان بن بدر والمخبل السعدي وعبدة بن الطبيب وعمرو بن الأهتم قبل أن يسلموا بعد مبعث النبي صلى الله عليه وسلم فنحروا جزوراً واشتروا حمراً ببعير، وجلسوا

يشوون ويأكلون، فقال بعضهم: لو أن قوماً طاروا من جودة أشعارهم لطرنا فتحاكموا إلى أول من يطلع عليهم فطلع عليهم ربيعة بن حذار الأسدي، وقد نزلوا بواد وهم جلوس، فلما رأوه سرهم، وقالوا له: أخبرنا أينا أشعر؟ قال: أخاف أن تغضبوا فأمنوه من ذلك فقال: أما عمرو بن الأهتم فشعره برود يمانية تنشر وتطوى، وأما أنت يا زبرقان فشعرك كلحم لم ينضج فيؤكل ولا ترك نيئاً فينتفع به، وأما أنت يا مخبل فشعرك شهب من نار الله يلقيها على من يشاء، وأما أنت يا عبدة فشعرك كمزادة أحكم فرزها فليس يقطر منها شيء".

غريب الألفاظ:

(الجزور) الناقة التي تذبح، (برود) يمنيه: ثياب مجلوبة من بلاد اليمن.

الباب الثامن

الحكمة العربية في الجاهلية

الباب الثامن

الفصل الأول

صوت الحكمة في الشعر الجاهلي

لا يخفى على ذي علم أن الشعر الجاهلي شعر الأصالة والفطرة، وأن الحكمة الجاهلية من أنقى ما لهجت به ألسنة العقلاء، وتلجلجت به صدور الحكماء عبر السنين، حيث الحياة صافية صفاء الصحراء النقية، والفطرة سليمة لا تشوبها شائبة من ثقافة وافدة، فالحكمة في الشعر الجاهلي كلام يشير إلى خيارات الشاعر الخلقية معتمداً على تجربته الحياتية.

والحكمة في الشعر هي: "القول الذي يدعو إلى تقرير قيمة متبناة من التأمل أو من تجارب الحياة، فتشيع بين الناس ويحفظونها، وهي ترد في الشعر وفي النثر".

إن بعض الأشعار أصبحت، لقوة انتشارها، أمثالاً شائعة، وفي معلقة يا دار مية التي يمدح النابغة فيها النعمان ويعتذر إليه، وفي غيرها نجد طائفة من الأمثال:

أنبئت أن أبا قابوس أوعدني ... ولا قرار على زأر من الأسد

وبيت آخر من قصيدة للنابغة:

فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا ... والدار لو كلمتنا ذات أخبار

ومن الحكم الرائعة ذات المدلول الأخلاقي:

لا تظهرن ذم امرئ قبل خبرة ... وبعد بلاء المرء فاذمم أو احمدِ

وفي الكرم:

ولا أشتري مالاً بغدر علمته ... ألا كل مال خالط الغدر أنكد

وهل تذكر الحكمة في الشعر الجاهلي ويغيب عن حديثها زهير بن أبي سلمى؟! وعلى الرغم من نزعة هذه الحرب بين عبس وذبيان فقد برزت في مواجهتها نزعة سلمية كان صوت العقل فيها يعلو على صوت العاطفة؛ ليسفه العنف وينبذه ويدعو إلى السلم وينفر من الحرب

وشرورها. وكان زهير بن أبي سلمى ممثلاً لهذا الاتجاه وصاحب صوت التعقل؛ ذلك الشاعر الذي أحاطت به ظروف متعددة جعلت منه داعية للسلام، فقد مات أبوه وهو طفل فتزوجت أمه الشاعر المعروف أوس بن حجر فعاش بين قبيلة أخواله بني غطفان بعيداً عن قبيلته: وقد آمن زهير بمبدأ القوة الذي كان سائداً في مجتمعه وعصره، حيث لم يكن للضعيف في ذلك المجتمع مكان؛ لأنه مسحوق مظلوم من الأقوياء الظالمين كما يقول:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ويبدو زهير حليماً تجاوز عصره، ورجل سلم، يحكم العقل في حل المنازعات، ويدعو إلى تجنب الحرب وهي غاية الغايات في الحكمة:

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم وما هو عنها بالحديث المرجم

ولم يعرف عن زهير شرب الخمرة، ولا حتى وصفها «كالأعشى» و«طرفة»، ولم يتبذل حين كان يتغزل غزلاً تقليدياً، وهو الذي جعل إنفاق المال في الخمر مفسدة لا مفخرة، كما ورد في مديحه حصن بن بدر سيد غطفان؛ إذ يقول:

أخي ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

ومن أشهر حكم زهير المتناسبة مع عدم شربه الخمرة إيمانه المطلق بالله:

فلا تكتمنّ الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما تكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخر ليوم الحساب أو يعجّل فينقم

ولشعر الحكمة الجاهلي إيمانه بالله والقسم به والاعتقاد بالآخرة والحساب والإيمان بالقضاء والقدر والتزوّد بالعمل الصالح.

الباب الثامن

الفصل الثاني

فلسفة الحكمة الجاهلية

لم يخل العرب في جاهليتهم من أفكار فلسفية عايشوها وناقشوا خلالها ما طرأ على أفكارهم من اندهاش أمام عظمة هذا الكون، فالإنسان بطبعه، ومنذ أن خلق وهو مندهش بفكره أمام عظمة هذا الكون وظواهره، ولقد عايش العرب الجاهليون منذ وجودهم موقف الاندهاش أمام هذه الأرض والسماء ونجومها وحيوانها وطيرها، وعبروا عن ذلك شعراً ونثراً كما وأنهم وقفوا عاجزين أمام قضية الموت وما تحمله من بعد مأساوي يتمثل بالفراق، وما يخلفه من حزن وألم وأسى، وقد عبر الشعراء عن ذلك فيما وصل إلينا من شعرهم، فهذا زهير بن أبي سلمى في معلقته يصور لنا الموت بالناقة التي تخبط خبط عشواء فتقتل من تطؤه بمنسمها:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

وهذا طرفة من العبد على صغر سنِّه يفلسف الموت بطريقة أخرى، ويرى أن الموت قدر لا يخطئ من يقصده:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى لكالطول المرخى وثنياه باليد

لقد تحدث زهير عن قضايا أخرى غير الموت تتمثل بعدم قدرته على كشف علم المستقبل وعن تجاربه في الحياة، وإن بدت هذه الأفكار الفلسفية سطحية أحياناً، فإنها تعبر عن معرفة وخبرة الجاهلي المتواصلة في الفلسفة. نعم كانت أفكار الشعراء الجاهلين بسيطة، ولكنها رسمت خطا التفكير الفلسفي عند العرب، وعبرت عن سياق حياتهم وتفكيرهم، أما النابغة الذبياني فقد كان بأفكاره يميل إلى دين الحنيفية الموحدة التي تؤمن بإله واحد، وهي من الأفكار التي تمثل هدف الحكمة والفلسفة، وقد كان في اعتذارياته للنابغة يحلف له بالله الواحد الأحد الذي لا مذهب للمرء الجاهلي وراءه:

حلفـــت فلـــم أتـــرك لنفســـك ريبـــة ولـــــيس وراء الله للمـــــرء مـــــذهب

وقد تحدث القرآن الكريم عن الجاهليين مجتمعاً ومعتقداً، وأوضح لنا أن أفكارهم في كثير من الأحيان تجنح عن التوحيد لتؤمن بالشرك وعبادة الأصنام، وقد دعا الإسلام وحثَّ على التفكر بآلاء الله، وذكر لهم الكثير من القضايا الفكرية التي يفترض بهم أن يقفوا مندهشين بها كالسماء والنجوم والإبل والليل والنهار.

الباب الثامن

الفصل الثالث

من أشعار الحكمة في الجاهلية

١- قال زهير بن أبي سلمى:

سَـئِمْتُ تَكـالِيفَ الحَيَـاةِ وَمَـنْ يَعِـشْ ... ثَمانِـينَ حَـولاً لا أَبـا لَـكِ يَسـأمِ

وَأَعْلَـمُ مَـا فِي الْيَـوْمِ وَالأَمْـسِ قَبْلَـهُ ... وَلكِنَّنِـي عـن عِلْـمِ مَـا فِي غَـدٍ عَـمِ

رَأَيْـتُ المنايَـا خَـبْطَ عَشْـوَاءَ مَـن تُصِـبْ ... تُمِتْـهُ وَمِـنْ تُخْطِـئْ يُعَمَّـرْ فَيَهْـرَمِ

وَمَـنْ لم يُصـانِعْ فِي أُمُـورٍ كَثِـيرَةٍ ... يُضَرَّسْ بِأَنْيَـابٍ وَيُوطَـأْ بِمَنْسِـمِ

وَمَـنْ يَجْعَـلِ المعْـروفَ مِـن دُونِ عِرْضِـهِ ... يَفِـرْهُ وَمَـنْ لا يَتَّـقِ الشَّـتْمَ يُشْـتَمِ

وَمَـنْ يَـكُ ذا فَضْـلٍ فَيَبْخَـلْ بفَضـلِهِ ... عـلى قَوْمِـهِ يُسْـتَغْنَ عنْـهُ وَيُـذْمَمِ

وَمَـنْ يُـوفِ لا يُـذْمَمْ وَمـن يُهـدَ قلبُـهُ ... إِلى مُطْمَـئِنِّ الْـبِرِّ لا يَـتَجَمْجمِ

وَمَـنْ هَـابَ أَسْـبَابَ المنَايَـا يَنَلْنَـهُ ... وَإِنْ يَـرْقَ أَسْـبَابَ السَّـمَاءِ بِسُـلَّمِ

وَمَـنْ يَجْعَـلِ المعْـرُوفَ فِي غَـيْرِ أَهْلِـهِ ... يَكُـنْ حَمْـدُهُ ذَمّـاً عَلَيْـهِ وَيَنْـدَمِ

وَمَـن يَعْـصِ أَطْـرَافَ الزِّجـاجِ فإِنَّـهُ ... يُطيـعُ الْعَـوالِي رُكِّبَـتْ كـلَّ لُهْـذَمِ

وَمَـنْ لَمْ يَـذُدْ عَـنْ حَوْضِـهِ بِسِـلاحِهِ ... يُهَـدَّمْ وَمَـنْ لا يَظلـمِ النّـاسَ يُظَلَـمِ

وَمَـنْ يَغْـتَرِبْ يَحْسِـبْ عـدُوّاً صَـدِيقَهُ ... وَمَـنْ لَمْ يُكَـرِّمْ نَفْسَـهُ لم يكَـرَّمِ

وَمَهْـمَا تَكُـنْ عِنْـدَ امْـرِئٍ مِـنْ خلِيقَـةٍ ... وَإِنْ خَالَهَـا تَخْفَـى عـلى النّـاسِ تُعْلَـمِ

وكـائنْ تَـرَى مـن صـامِتٍ لَـكَ مُعْجِـبٍ ... زِيَادَتُـهُ أَوْ نَقْصُـهُ فِي الـتَّكَلّمِ

لسـانُ الفَتَـى نِصْـفٌ وَنِصْـفٌ فـؤَادُهُ ... فلَـمْ يَبْـقَ إلا صـورَةُ اللَّحْـمِ والـدَّمِ

وَإِنَّ سَـفَاهَ الشَّـيْخِ لا حِلْـمَ بَعْـدَهُ ... وَإِنَّ الْفَتَـى بَعْـدَ السَّـفَاهَةِ يَحْلُـمِ

سَـــأَلْنا فَـــأَعْطَيْتُمْ وَعُـــدْنَا فَعُـــدْتُم وَمَـــنْ أَكْثَـــرَ التّســـآلَ يَومـــاً سَـــيُحْرَمِ

وقال طرفة بن العبد:

أَرَى قَـــبْرَ نَحّـــامٍ بَخيـــلٍ بِمَالـــه كقَـــبْرِ غـــوِيٍّ في البطالَـــةِ مُفْسِـــدِ
تَـــرَى جشـــوَتَيْنِ مـــن تُـــراب عَلَـــيْهِمَا صَـــفَائحُ صُـــمٍّ مـــن صَـــفيحٍ مُنَضَّـــدِ
أَرى المـــوت يَعْتـــامُ الكِـــرَامَ ويَصْـــطفي عَقِيلـــةَ مَـــالِ الْفَـــاحِشِ المتَشَـــدِّدِ
أَرَى الْعَـــيْشَ كنـــزاً ناقصـــاً كـــلّ ليْلَـــةٍ وَمَـــا تَـــنْقُصِ الأَيَّـــامُ وَالـــدّهرُ يَنْفَـــدِ
لَعَمْـــرُكَ إِنّ المـــوَتَ مَـــا أَخْطـــأَ الْفَتـــى لكَـــالطِّوَلِ المرْخَـــى وثِنْيَـــاهُ بِاليَـــدِ

الفهرس

مقدمة: أدب ما قبل الإسلام ١١

الباب الأول: وشائجية المكان والإنسان واللغـــة..... ١٥

الباب الأول: الفصل الأول: العمق التاريخي للعرب..... ١٧

الباب الأول: الفصل الثاني: القيم الإيجابية والسلبية للعرب الجاهليين..... ١٩

الباب الأول: الفصل الثالث: صورة العرب في المصادر الدينية والتاريخية..... ٢٢

الباب الأول: الفصل الرابع: جغرافية شبه الجزيرة العربية وثرواتها ٢٥

الباب الأول: الفصل الخامس: أقسام العرب بحسب سكناهم ٢٧

الباب الأول: الفصل السادس: أماكن سُكنى القبائل العربية..... ٣٢

الباب الأول: الفصل السابع: اللغة العَربيّة بين الشمال والجنوب ٤٤

الباب الأول: الفصل الثامن: الجاهلية ماهية وأبعاد ٤٧

الباب الثاني: الحياة العامة لدى الجاهليين..... ٥١

الباب الثاني: الفصل الأول: الحياة السياسية لدى الجاهليين (الممالك العربية) التـي
ظهرت قبل الإسلام ٥٣

الباب الثاني: الفصل الثاني: الحياة الاجتماعية لدى الجاهليين ٦٠

الباب الثاني: الفصل الثالث: الحياة الإدارية والسياسية..... ٦٣

الباب الثاني: الفصل الرابع: الحياة الدينية لدى الجاهليين..... ٦٥

الباب الثاني: الفصل الخامس: الحياة الفكرية لدى العرب الجاهليين ٦٦

الباب الثاني: الفصل السادس: الحياة الاجتماعية عند العرب الجاهليين ٦٨

الباب الثاني: الفصل السابع: الحياة الاقتصادية لدى الجاهليين..... ٦٩

الباب الثالث: الأنساب والعصبية القبلية لدى الجاهليين..... ٧٥

الباب الثالث: الفصل الأول: الأنساب والعصبية القبلية ٧٧
الباب الثالث: الفصل الثاني: الأنساب والعصبية القبلية ٧٩
الباب الثالث: الفصل الثالث: عصبية العرب (المعطى والشمول)..... ٨١
الباب الثالث: الفصل الرابع: النظام القبلي والبناء القبلي ٨٧
الباب الثالث: الفصل الخامس: الأشهر الحرم وتقديس الجاهليين لها..... ٩٠
الباب الثالث: الفصل السادس: الأسـواق والمواسم الجاهلية ٩٣
الباب الثالث: الفصل السابع: أثر العصبية القبلية في الشعر الجاهلي..... ٩٥
الباب الرابع: الأدب في العصر الجاهلي (الشعـر)..... ٩٧
الباب الرابع: الفصل الأول: كينونة الشعر الجاهلي ٩٩
الباب الرابع: الفصل الثاني: نشـأة الشعـر الجاهلي ١٠١
الباب الرابع: الفصل الثالث: مصادر الشعر الجاهلي ١٠٤
الباب الرابع: الفصل الرابع: الانتحال في الشعر الجاهلي ١٠٧
الباب الرابع: الفصل الخامس: أغراض الشعر الجاهلي..... ١١٠
الباب الرابع: الفصل السادس: الشعر الجاهلي نسيج وجـداني..... ١١٩
الباب الرابع: الفصل السابع: ظاهرة الوقوف على الأطلال ١٢٢
الباب الرابع: الفصل الثامن: بـدايـات الشعـر الجـاهلي ١٢٤
الباب الرابع: الفصل التاسع: مدرسة عبيد الشعر ١٢٦
الباب الرابع: الفصل العاشر: الرحلة الجاهلية أدباً متميزاً ١٣٠
الباب الرابع: الفصل الحادي عشر: التوق إلى الوحدة والتحرير في الشعر الجاهلي ... ١٣٥
الباب الرابع: الفصل الثاني عشر: الصعلكة مفهوم اقتصادي جاهلي ١٣٨
الباب الرابع: الفصل الثالث عشر: الصـعالـيـك ١٤١
الباب الرابع: الفصل الرابع عشر: علاقة الشاعر الجاهلي بالطبيعة ١٤٧

الباب الرابع: الفصل الخامس عشر: وصف الطبيعة في الشعر الجاهلي ١٤٩
الباب الرابع: الفصل السادس عشر: صورة المرأة في الشعر الجاهلي ١٥٣
الباب الرابع: الفصل السابع عشر: الشعـراء الأحناف في الشعر الجاهلي ١٥٩
الباب الرابع: الفصل الثامن عشر: قصيدة المدح في العصر الجاهلي..... ١٦٠
الباب الخامس: خصائص الشعر الجاهلي..... ١٦٥
الباب الخامس: الفصل الأول: تطور الشعر من الرجز إلى القصيد..... ١٦٧
الباب الخامس: الفصل الثاني: الشعر الجاهلي مطبوع ومصنوع ١٦٩
الباب الخامس: الفصل الثالث: بنية القصيدة الجاهلية ١٧٢
الباب الخامس: الفصل الرابع: نسيج الشعر الجاهلي ١٧٨
الباب الخامس: الفصل الخامس: فنية الشعر الجاهلي ١٨٠
الباب الخامس: الفصل السادس: الخصائص المعنوية للشعر الجاهلي ١٨٣
الباب الخامس: الفصل السابع: الخصائص اللفظية ١٨٥
الباب الخامس: الفصل الثامن: نشأة الشعر الجاهلي وتفاوته في القبائل..... ١٨٧
الباب السادس: رموز الشعر الجاهلي..... ١٩١
١ ـ امرؤ القيس..... ١٩٣
٢ ـ النابغة الذبياني..... ٢٠٣
٣ ـ الأعشى (صناجة العرب)..... ٢١٢
٤ ـ عمرو بن كلثوم..... ٢١٧
٥ ـ طرفة بن العبد..... ٢٢٤
٦ ـ لبيد بن ربيعة..... ٢٣٢
٧ ـ عروة بن الورد..... ٢٣٩
٨ ـ زهير بن أبي سلمى الشاعر الحكيم ٢٤١

٩ ـ عنترة بن شداد الشاعر الفارس ٢٥٩
١٠ ـ الحارث بن حلّزة اليشكُري..... ٢٦٩
١١ ـ المثقّب العبديُّ ٢٧٦
١٢ ـ وسنى الأسدية ٢٧٨
١٣ ـ حاتمُ الطَّائِيّ الشاعر الكريمُ..... ٢٧٩
١٤ ـ أبو أُذينة اللِّخْمِي ٢٨٣
١٥ ـ عُروة بن الوَرْد أمير الصّعاليك ٢٨٨
١٦ ـ الشّنْفَرى..... ٢٩١
١٧ ـ هُنيّ بن أحمر ٢٩٦
١٨ ـ دريد بن الصِّمّة..... ٢٩٧
١٩ ـ جليلة بنت مُرّة..... ٢٩٩
٢٠ـ بشر بن أبي خازم الأسدي ٣٠٠
٢١ ـ الخنساء تماضر بنت عمرو بن الشريد ٣٠٢
٢٢ ـ عَبْدُ قيس بن خُفَاف البُرْجُميّ..... ٣٠٤
٢٣ ـ المُتلمِّس الضُّبَعِيّ ٣٠٦
٢٤ ـ لقيط بن يَعْمُر الإياديّ ٣٠٨
٢٥ ـ عبيد بن الأبرص ٣١٠
٢٦ ـ حسان بن ثابت الأنصاري ٣١٢
٢٧ ـ الحطيئة ٣٢٤
٢٨ ـ أبو ذؤيب الهذلي ٣٢٧
٢٩ ـ عبدة بن الطبيب ٣٢٩
الباب السادس: نصوص من الشعر الجاهلي ٣٣١

١ ـ طفيل الغنوي ٣٣١
٢ ـ أوس بن حجر ٣٣٥
٣ ـ بشامة بن الغدير ٣٣٨
٤ ـ الأسود بن يعفر..... ٣٤٠
٥ ـ قطبة بن أوس الذبياني..... ٣٤٢
٦ ـ عمرو بن سعد البكـري ٣٤٤
٧- المسيب بن علس..... ٣٤٦
٨ ـ عمرو بن الأهتم بن سمي..... ٣٤٨
٩- خفاف بن ندبة السلمي..... ٣٥٠
١٠ ـ عمرو بن معد يكرب الزبيدي ٣٥١
١١ ـ عامر بن الطفيل ٣٥٢
١٢ ـ الحصين بن الحمام المري..... ٣٥٣
١٣ ـ دريد بن الصمة وعبد الله بن عبد المدان..... ٣٥٥
١٤ ـ قال عبد الله بن عبد المدان: ٣٥٦
١٥ ـ تـأبط شـراً ٣٥٧
١٦ ـ عروة بن الورد العبسي ٣٥٩
الباب السابع: النثر الفني في العصر الجاهلي..... ٣٦١
الباب السابع: الفصل الأول: تعريف النثر وميزاته ٣٦٣
الباب السابع: الفصل الثاني: فنون النثر في العصر الجاهلي ٣٦٥
الباب السابع: الفصل الثالث: خصائص النثر الفني الجاهلي ٤١٣
الباب السابع: الفصل الرابع: النقد في العصر الجاهلي ٤١٥
الباب الثامن: الحكمة العربية في الجاهلية..... ٤٣٩

الباب الثامن: الفصل الأول: صوت الحكمة في الشعر الجاهلي ٤٤١
الباب الثامن: الفصل الثاني: فلسفة الحكمة الجاهلية ٤٤٣
الباب الثامن: الفصل الثالث: من أشعار الحكمة في الجاهلية ٤٤٥